امرؤ القيس

حياته وشعره



دكتور الطاهر أحمد مكي

دار المعارف

امرؤ القيس

أمير شعراء الجاهلية
حياته وشعره

دكتور طاهر أحمد مكي
مدرس بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

دار المعارف بمصر

الطبعة الأولى :

فبراير ١٩٦٨

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج٠ع٠م

محتويات الكتاب

إهــداء

إلى صـــــديقى :

السنيور فيدريكو كورينتى دى قرطبة ، الأستاذ فى كلية الآداب بجامعة محمد الخامس ، برباط الفتح عاصمة المغرب العربى .

تذكرةً بأمسيات ممتعة ، أمضيناها سويّا ، فى مدريد الجميلة ، وتقديراً لجهد طيب ، يبذله مخلصاً ، فى نقـــل « المعلقات » إلى لغته الإسبانية .

الطاهر احمد مكى



امرؤ القيس كما تصوره الفنان أرتورو أورتس

[illegible] ص

القصيدة الأولى ص ٢٠٩ دراسة

" الثانية ص ٢١٠ دراسة

سبب المعلقة ص ٨١

المقدمة الطللية ص ٢٢٢ ، ص ٢٢٠

أبيات المعلقة ص ٢٧٠ / ١

تحليل نـ ١ ـ المقدمات الطللية ، ص ٢٥٨ : ص ٢٦٥

أبيات المعلقة ، ص ٢٢٠ : ضغط

تحليل نـ ٢ ـ المقدمة الطللية : ص ٢٥٨ : ص ٢٦٥

نقد المقدمة : ص ٢٧٨ : ص ٢٨٤

مقالة المرأة . ص ٢٦٨ : ص ٢٧١

الجانب الغزلي ص ٢٧٣ : ص ٢٧٥ ضغط

تحليل الغزل أمرئ القيس ص ٢٩٢ : ص ٢٩٨

~~نقد المستشرقين~~ :

ص ٢٧٩ : ص ٢٨٠ . ضغط .

ص ٢٨١ : ص ٢٨٢ . شرح .

ص ٢٨٤ : ص ٢٨٥ ضغط

ص ٣٠٠ ،

ص ٣٠١ : ص ٣٠٣ ضغط

مقدمة

فى العقد الثالث من هذا القرن تعرض الشعر الجاهلى فى مصر لمن يجحده كلاّ ، دون أن يقدم لإنكاره أدلة معقولة ينهض عليها ، وأثار هذا الاتجاه جدلا واسعاً لم يكن مصدره فى الحق إنكار الشعر نفسه ، لأن القول بنحل شيء منه — قلّ أو كثر — قديم معروف ، ولم يكن جديداً فى العصر الحديث فقد تناول المستشرق الألمانى نولدكى .NöLdEKe, Th المشكلة لأول مرة فى بحث له نشر عام ١٨٢٤ م ، عرض فيه للشكوك التى تثيرها الطريقة التى روى بها الشعر الجاهلى ، وبعد ثمانية أعوام تناول المستشرق أهلوارد W. AhlWardt, المشكلة مرة أخرى على نحو أكثر دقة ، ودون أن يأتى فيها بجديد انتهى إلى أن القصائد التى رواها العلماء العرب غير موثوق بها ؛ فيما يتصل بالشاعر أو ظروف التأليف أو ترتيب الأبيات . ومن الوجب إذن أن يخضع كل أثر أدبى من القرن السادس وأوائل السابع الميلادى لفحص دقيق قبل قبوله . وتابعه فى رأيه المتعقل هذا جلة المستشرقين .

وبقى الأمر على ما هو عليه إلى أن أثار المستشرق الانجليزى مرجوليوث D. S. Margoliouth القضية على نحو أكثر حدّة وعنفا ، فى بحث له نشره عام ١٩٢٥ فى مجلة « الجمعية الأسيوية الملكية » بعنوان : « أصول الشعر العربى The Origins of Arabic Poetry » ، رجح فيه « أن الشعر

الجاهلى الذى نقرؤه على أنه شعر جاهلى إنما نظم فى العصور الإسلامية ، ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء جاهليين »[1].

وكان يمكن أن تنتهى آراء الجاحد المصرى إلى ما انتهت إليه آراء الجاحد الأوربى قبله ، رأى من حق صاحبه أن يعرضه ، ومن حق الآخرين أن ينظروا فيه ، ثم يقرّوه عليه أو يهزوا رءوسهم آسفين على ما أضاع من جهد ، لكن الجاحد المصرى كان طالب شهرة ، وأسهل طريقة إليها فى بيئة دينية محافظة أن يعرّض بالكتب السماوية منكر أو مشكّكا . إن إنسانا يدرس الشعر الجاهلى يدعه ليقول فى افتئات جرىء : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكنّ ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها » .

كان بين كتابة التوراة والقصة التى تعرض لها زمن يقارب سبعمائة عام ، وكان بينها وبين نزول القرآن أعوام تجاوز الألفين ، وكان بين صاحبنا وبينها قرابة أربعة آلاف سنة ، ومع ذلك ينكر رواية القدامى ويطالبنا بالدليل على صحة ما قالوا ! . ومن الدين إلى السياسة ، وأصبح الأمر قضية العصر ، وحملت الشهرة صاحبنا وجعلت منه أديبا كبيراً ومفكرا حرا ، واختفى وراءه كثيرون يجنون من حملة التشكيك صرفا للأمة عن أهدافها القومية ، وشغلا لها عن جلائل الأمور فيها ، ومبشرون ألقوا بثقلهم كله على

(١) أوجز الدكتور ناصر الدين الأسد فى دقة مقال مرجوليوث ومن ردوا عليه من مستشرقين فى كتابه : « مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية » ، القاهرة ١٩٥٦ .

عقائدها الإسلامية يعملون فيها معاولهم هدما ، علانية أو من وراء ستار ، وحملت الموجة صاحبنا فوق ما كان يتصور ، وبلغ غايته ، ثم هدأت الضجة ، وعاد الكتاب إلى مكانه الحق ، رأى لإنسان فى قضية أدبية ، يقرؤه الناس فيوافقونه عليه ، أو ينكرون ما فيه بلا ضجيج .

أثار إنكار الشعر الجاهلى الناس زمنا ، وشغل به مؤرخو الأدب كثيرا. أية دراسة للشعر الجاهلى تعرض لهؤلاء الجاحدين ، تفند دعاواهم وترد عليهم ، وكلهما حاول أن ينسى سير الزمن ، لقد جاءت دعوى الإنكار فى وقت لم يكن فيه لعرب الجنوب فى العربية تاريخ مكتوب ، لا يعرف الناس على نحو علمى من أين جاءوا ولا متى عاشوا . ما أسس حضارتهم وخصائص اللغة التى كانوا يتكلمونها . والقليل مما نشر من كتب التراث العربى يعرض لتاريخ اليمن — لأسباب ليس هنا مكان بسطها — فى أسطورية زاهية مثيرة ، يأباها الحس التاريخى الرهيف ، وكان الباقى وهو الكثير مخطوطا لم ينشر ، أو ضائعا لا يعرف له مكان ، أو نشر فى أوربا ودون الحصول عليه أهوال . وقلة فى العالم العربى هى التى تستطيع أن تتخيل لجنوب الجزيرة تاريخا ، تاريخا كان إذ ذاك مبتسرا غير واضح الصورة ولا متكامل البناء .

فإذا حاول أحد أن يدرس امرأ القيس ، وهو كندى يمنى ، لم يجد لقومه تاريخاً محققاً مترابطاً ، فيبدو الشاعر مقطوع الصلة بمن قبله كأنه من صنع الرواة . والحق أن أى راو مهما أوتى من سعة الخيال ومن عبقرية الخلق لا يستطيع أن يصنع تاريخاً من عدم ، وإنما قصارى جهده أن يأتى إلى التاريخ ، فيجعل له أطارف ويكسوه أحداثاً ويضم إليه أشباهاً ، وهى عمليات لا تتم دفعة واحدة ،

ولا من شخص واحد ، وإنما تصنعها الشعوب ترضى بها رغائب نفسية شعورية على امتداد تاريخها كله .

إن « أيام العرب » مثلا والتى يراها الجاحدون أساطير مصنوعة ، ويدور حولها معظم الشعر الجاهلى أو يرتبط بها ، موغلة فى القدم ، بل لعلها أقدم مما تشير إليه كتب التاريخ ، هى أخبار لا يمكن أن تكون من عمل كاتب فى بغداد أو دمشق أو القاهرة فى العصر الإسلامى ، لأنها فى الواقع شكل سامى قديم ، لدينا ما يدعمه من مثل ونظائر فى أقدم نصوص التوراة ، ويمكن أن نستعين بما فى هذه من نماذج على توضيح أيام العرب ، وسيتضح لنا أن القصص الذى يصاحب الشعر الجاهلى ، والشعر الجاهلى الذى يتناثر بين القصص لم يكونا بمعزل أحدهما عن الآخر ، فلم يحدث أن وجدت القصة ثم صنع لها الشعر ، أو وجد الشعر ثم اخترعت له القصة ، وإنما وجدا سوياً وكل منهما يكمل الآخر ، وما من شك فى أن قصصاً كثيراً ضاع وبقى القليل من شعره ، وأن شعراً كثيراً محى من ذاكرة الزمن وتخلف بعد قصصه ، ولو أن الشعر دائماً أكثر إصالة وأطول عمراً ، وهو الطريق إلى الإكثار من رواية القصص والإبقاء عليه .

كذلك كانت الأنساب ذات أهمية قصوى ، وكان المهتمون بها يحفظون معلوماتهم عن ظهر قلب ، ومن الواضح أن العرب قبل الإسلام لم يساورهم أى شك فى أنسابهم ، لأن أى شك من هذا القبيل يقوض بنيانهم الاجتماعى والسياسى ويودى به كله ، ومن ثمّ فمن المستبعد أن يكون علم الإنساب قد تحول إلى صناعة أدبية لهـا من يعكف عليها ويصنعها من الخيال . فالعربى

يفخر فخراً لا حد له بنقاء دمه ، وفصاحة كلمه ، وروعة شعره ، وجودة سيفه ، وسرعة جواده ، وقبل هذا وفوقه بشرف نسبه ، ولم يحدث أبداً أن شعباً من الشعوب عدا العرب قد رفعوا مسائل أنسابهم إلى مرتبة العلم الصحيح وجلاله .

لقد بدا لى أن الطريقة المثلى ليست فى مناقشة فروض واحتمالات ودعاوى مل ّ الناس نقاشها ، وإنما فى العودة إلى الأصول نفسها ، وبناء تاريخ متكامل على إيجازه يسبق دراسة امرئ القيس ، أقدم شاعر وأول مجحود ، فنضع الشاعر فى مكانه من القبيلة ، ونعود بالقبيلة إلى موضعها من الشعب ، ويأخذ الشعب مكانه فى أمة سكنت قديماً ذلك المستطيل من الأرض تطوقه مياه المحيط والبحار من جهات ثلاثة ، وعُرف عبر التاريخ باسم شبه الجزيرة العربية .

وخلال البحث واجهت كثيراً من الروايات المتناقضة ، فلم أجزع لذلك ولا ضقت به ، لأن الاختلاف بين الناقلين أدعى إلى اليقين ، فحيث يقتضى الواقع أن تختلف الرواية ، وأن يتعذر الإجماع بين الرواة ، تكون هذه أقرب إلى العقل والصدق من أقوال يتفرق رواتها فى الأمصار ، ويبعد بهم العهد ، ويكون اعتمادهم على الذاكرة ، « ثم تأتى متفقة فى الجملة والتفصيل ولا تتعرض مع الزمن وعوامل الأهواء للاضطراب والحذف والاضافة عن قصد أو بفعل النسيان والإهمال . فاختلاف الرواة إذن سبب من أسباب التصديق ، واتفاقهم يدعو إلى الشك أو التكذيب » .

وقد نقرأ الروايتين المتناقضتين — أو الروايات المتناقضة — عن خبر واحد فنرفضها ولا نرفض معها لباب الخبر ومغزاه، كما هو الحال فى رحلة امرىء القيس إلى القسطنطينية وعودته منها ووفاته فى الطريق فقد جاء الخبر فى روايات كثيرة متناقضة، لكنها لا تختلف فى حدوث الرحلة نفسها ووقوع الوفاة، فأسقطناها جميعاً دون أن نسقط معها ثبوت الرحلة أو الشعر الذى قيل فيها وحولها.

« ليس يكفى فى معيار النقد التاريخى أن يكون اختراع القصة ممكنا ليقال إنها مخترعة، فإن اتهام كل خبر بالاختراع لأنه يجوز أن يخترع يسقط أخبار التاريخ كله فى الزمن القديم وفى الزمن الحديث، وإنما يظن الاختراع بالخبر المسوّغ يدعو إلى الشكّ فيه، ولمصلحة توجب اختراعه وتضطرنا اضطراراً إلى نفيه على ثقة أو على ترجيح ».

لقد بعد العهد بيننا وبين عصر امرىء القيس، لكنى لا أشك لحظة فى أن بعضاً من التقاليد والصور والمعانى الواردة فى شعره لا يتأتى لرجل لم يعش فى نفس الجو الذى عاش فيه، أو قريباً منه، أن يفهمها بدقة، وأن يتمثل التجربة كما عبر عنها صاحبها. ولقد تطورت البادية كما تطورت الحواضر فى شبه الجزيرة العربية، لكن سير التطور فى الأولى كان بطيئاً ومحدوداً حتى أيامنا هذه، ومن يدرى فلعل كثيراً من القصص الوارد فى الشعر ما زال يكوّن مادة السمر الأولى عند البدو، وأن شيوخهم وشبابهم يحفظون شيئاً من هذا الشعر، وأعتقد أن عوائدهم الاجتماعية فى الرحلة والنجعة، وفى الزواج والمعاشرة، وفى الصيد والحرب، سوف تساعد كثيراً على إيضاح الإشارات الهامة، التى نعتمد الآن فى تفسيرها على الحدس والتخمين، أو نقيسها على

حاضرنا ، وهو حاضر رغم أصوله العربية قد بعد كثيراً عن تقاليد العرب الأولى .

إن محاولة كهذه سوف تفتح الطريق واسعاً أمام منهج جديد لتفسير الشعر العربي ودرسه ، وتحررنا من دائرة المسلمات التى نتحرك داخلها ، يجتر كل لاحق ما قال سابقه ، يزيد عليه قليلا أو ينحرف به شيئاً ، لكن الجديد فيه محدود لنضوب المصادر وتوحدها عند الجميع .

إن تقاليد مصر القديمة لاتزال تعيش حية فى كثير من قرانا ، وبخاصة فى الصعيد ، وتبدو واضحة جلـيّة فى حياة الناس الاجتماعية ، رغم تأثير الحضارات المختلفة المتعاقبة ، وبعد مضى أربعة آلاف عام تقريباً ، وأتصور أن التقاليد ليست بأقل استمراراً فى بوادى نجـد ، ومدّ الحضارة فيها واهن وتأثيرها هيّن ، ويقص علينا رحالة أوربى زار منطقة شمر والحجاز الشمالية فى أواخر القرن التاسع عشر ، أن بعضاً من رجال القبائل هناك يعرفون « بالبواقين » يعيشون على طريقة صعاليك الشعراء الجاهليين ، يعيشون منعزلين عن قبائلهم ، جائلين فى البوادى والقفار ، يطلبون رزقهم من الصيد والغزو والغصب ، ويقتسمون ما يغنمون مع الفقراء والعاجزين .

وفى النصف الأول من القرن الماضى جاء إلى إسبانيا مستشرق أمريكى ، هو ارفنج وشنجتن Irvimg Washington ، وأعجب بالحضارة الأندلسية ، فسكن الحمراء ، واندس بين الطبقات الدنيا ، غير المتعصبة ، وغير الحاقدة ، وغير المتأثرة بتيار الحضارة الزاحف ، فالتقط من أفواهها حكايات شعبية أندلسية جميلة ، لا تعرض كتب التاريخ لمعظمها ، وبعضها يتصل بفترة ليس

لها فى العربية وثائق مكتوبة ، وكلها تسد فراغا فى حاجة إليه الدارسون لتاريخ الإسلام وحضارته هناك .

فلعل معهداً علمياً جاداً عندنا يتبنى هذه الفكرة ، أو لعل شاباً عربياً نابهاً من هاتيك البوادى فى شبه الجزيرة العربية يضطلع بالأمر ، فيسدى إلى البحث العلمى فى مجال الأدب والتاريخ يدا لاتنسى .

ورغبة منى فى دفع جانب من التواكل العقلى بين شباب الدارسين ، وعدد من الباحثين ، حين يقنعون بالدراسات الحديثة ينقلون عنها النصوص القديمة ، بالجزء والصفحة ، دون أن يستخدموا المصادر الأصيلة نفسها ، جعلتنى أوثر — كمبدأ عام — ألا أضمن الكتاب المظان التى اعتمدت عليها تفصيلا ، واكتفيت بثبت عام للمصادر والمراجع فى آخر الكتاب .

وبعـــــــد ؛

فإنها أول خطوة على طريق مختلط المسالك ، متشابه المراحل ، مُشْكِل مُعْضِل ، وعر الملتمس عزيز المطلب ، فلعلها أنارت شبهة ، وأنجحت طلبة ، وصححت حقاً ، وأبانت عن يقين .

والله يهدى إلى سواء السبيل ؟

القاهرة ٢٧ من رمضان ١٣٨٧
٢٨ من ديسمبر ١٩٦٧

دكتور الطاهر احمد مكى

عرب الجنوب

لم يكن تاريخ بلاد العرب الجنوبية فى فترة ما قبل الإسلام واضحا ، وما بين أيدينا عنه من مصادر قليل نسبياً ، ومضطرب ومتناقض ، ومصدره روايات شفوية لأحداث بعيدة الغور ، اختلطت بالأساطير والمبالغات ، وإن كانت تتوكأ دائما على أصل من التاريخ ، فالمسعودى — مثلاً — يجعل ملوك الدولة الحميرية خمسة ، ويجعلهم ابن خلدون ثمانية ، ويرتفع بهم أبو الفداء إلى أحد عشر ، أما نشوان بن سعيد صاحب القصيدة الحميرية فيجعلهم ستة عشر ملكا ، ويتفقون جميعاً على أن أول الملوك حمير وآخرهم الحارث ، ويختلفون فيما عدا ذلك من أسماء الملوك وفترات حكمهم .

وحتى منتصف القرن الثامن عشر لم يحاول أحد أن يستنطق الأرض هناك ، بما فى جوفها من شواهد ، وما بين خرائبها من نقوش وكتابات . إلى أن رأى العلماء الأوربيون المهتمون بالكتاب المقدس ودراساته ، والعاكفون على تحقيق نصه وتتبع إشاراته ، عظم الفائدة التى تعود عليهم من اكتشاف بلاد العرب السعيدة على نحو علمى ، فاقترح المستشرق الدانمركى كريستنس ف.هافن Chr . V. Haven على فريدريك الخامس ملك الدانمرك أن يوفد بعثة علمية إلى اليمن ، فاستجاب الملك لرغبته ، وأصدر أمرا بتأليف البعثة عام ١٧٦٠ م ، وكانت تتكون من هافن نفسه بوصفه مستشرقاً ودارسا للعربية أكثر من الآخرين ، ومن بتر فورسكال Peter Forskal طبيب وصيدلى ،

ومن كارستن نيبور Carsten Niebuhr ضابط وجغرافى ، ومن كرستنس كارل كرامر Chr. Carl Cramer جراح وعالم ، ومن جورج فلهلم بورنفيد Georg Wilhelm Baurenfetnd الرسام ، وخادم سويدى يدعى Berggren

وفى ٤ من يناير ١٧٦١ تركت البعثة كوبنهاجن على ظهر طراد حربى دانمركى إلى أزمير فاستنبول فمصر فبلاد اليمن ، وفى نيتها أن تبقى هنالك سنوات . أرادت البعثة شيئا وأراد القدر شيئا آخر ! ، لقد بلغت اليمن أواخر عام ١٧٦٢ ، ولم يأت شهر مايو ١٧٦٣ حتى سقط المستشرق هافن ضحية الحمى ثم توفى فى مخا ودفن فى المقابر الألمانية الموجودة بها ، ولم يكد زملاؤه ينفضون أيديهم من تراب القبر حتى شيعوا عالم الطبيعيات فى يولية ١٩٦٣ إلى مقره الأخير بمدينة يريم ، بعد أن صرعته متاعب الأسفار فيما بين مخا وصنعاء ، وفى أغسطس من العام نفسه توقفت البعثة وهى فى طريقها إلى بومباى بجزيرة سقطرة ، حيث شيعت جنازة الرسام والخادم ، وفى بومباى مرض الطبيب ودفن فى فبراير ١٧٦٤ .

لم يبق من أفراد البعثة غير نيبور ، فأخذ على عاتقه تنفيذ الخطة التى رسمت لها وحده ، وبر بوعده فلم يعد إلى وطنه إلا عام ١٧٦٧ أى بعد ٧ أعوام من رحيله ، قضاها بين البصرة و بغداد والموصل وحلب والقدس وقبرص واستنبول ، ورغم أن أربعة من الباحثين لقوا حتفهم كانت النتائج التى توصل إليها أعظم نتائج علمية جاءت بها بعثة أوربية من اليمن ، لقد بلغ أماكن يمنية لم تطأها قدم أوربى قبله أو بعده وكان أول عالم أوربى رأى نقشا عربيا جنوبيا كان باختصار الدقة والصدق والتواضع مجسما ! .

أوردنيبور كل معلوماته فى كتابه المسمى Desehreibung Von Arabien وقد صـــدر الجزء الأول منه عام ١٧٧٢ م ، وصدر الجزء الثانى بعد وفاته عام ١٧٧٦ ، وبذلك مهد للعالم أن يعرف ماتضمه أرض اليمن من نقوش ذات أهمية لبناء تاريخ بلاد العرب القديم ، وبدأ كثيرون من علماء ومبشرين وتجار وجواسيس ، يقتفون أثره ، حباً فى المغامرة ، أو طلباً للعلم ، ولأهداف دينية أو اقتصادية أو استعمارية أو شخصية ، وتطور الأمر فأصبح مجال تنافس بين الدول ، فـكان بينهم الألمـان والطليـان والفرنسيون والإنجليز والأمريكيون ، ونشرو أبحاثهم فى المجلات العلمية المتخصصة ، وفى كتب يؤلفونها فرادى أو جماعات .

وأسهمت مصر فى هذا الجهد العلمى ، فأرسلت جامعة القاهرة عام ١٩٣٦ بعثة أثرية إلى بلاد اليمن ، تتـكون من الدكتور سليمان حزين ليدرس حضائر ما قبل التاريخ ، والدكتور خليل يحيى نامى ليبحث فى النقوش والمخطوطات واللهجات الخاصة فى اليمن ، والأستاذ مصرى شكرى لأبحاث الجيولوجيا ، والأستاذ محمد توفيق العربي العالم فى الحشرات ، وبقيت البعثة هناك ستة شهور زارت خلالها حضرموت زيارة عابرة . واستقرت فى ناعط بالقرب من صنعاء ومشهد حيث أجرت بعض الحفائر ، وعنى الدكتور خليل نامى بنشر النقوش التى جاءت بها البعثة ، وفى عام ١٩٤٥ غزت أرجال من الجراد اليمن فاستغاثت حكومتها بمصر ورجتها العون فى دفع هذا البلاء ، فأرسلت إليها جامعة القاهرة الأستاذ محمد توفيق مرة ثانية فانتهز فرصة وجوده هناك فزار الجوف ، وشاهد كثيراً من خرائبه الأثرية وصورها إلى جانب آثار أخرى ، نشر جزءاً منها عام ١٩٥١ ، وفى عام ١٩٤٧ زار الدكتور أحمد فخرى اليمن ،

وتوالت زيارته لها ، وزار مناطقه الأثرية وأحضر معه عدداً من الرسومات والصور ومجموعة من مائة وثلاثين نقشاً لم تنشر من قبل .

أثبتت هذه الرحلات أن خلف صحارى بلاد العرب الجنوبية توجد أراض زراعية ، كانت فى القديم وطناً لحضارة رفيعة ، أكّدت ما ذكره المؤرخ اليونانى استرابون من أن جودة مناخ اليمن وخصوبة تربته وغناها أغرت الإسكندر الأكبر بفتحه ، إلا أنه أرجأ هذا الفتح إلى ما بعد عودته من حملة الهند ، ولكن المنيّة عاجلته فى بابل فلم يحقق عزمه ، ولو أن فريقاً آخر من العلماء المحدثين يرى أن ما نسب إلى اليمن من غنى وفير وخصب قوى مبالغ فيه ، وأن معظم الحاصلات التى كان يظن أن بلاد العرب مصدرها فى العصور القديمة ، إنما كان يجلبها العرب والمصريون — وكانوا يحتكرون التجارة فى البحر الأحمر — من الهند وسواحل أفريقية الشرقية ، وأنهم كانوا يخفون هذا عن جيرانهم حتى لا يزاحموهم فى الحصول عليها من هذه الأنحاء .

ويمضى الزمن ، وتخطو هذه الدراسات خطوات واسعة ، وتنقل إلى مراكز الأبحاث فى أوربا وغيرها آلاف النقوش ، يعكف على دراستها عشرات من العلماء ، ومن خلال البحث الوئيد المستأنى تبدو حقيقة واضحة هى أن الآثار التى عُثر عليها دوّنت فى لغة واحدة ، تحدّثنا عن دول عديدة قامت فى هـــذا الجانب من الأرض ، وكان لها من التقدم والازدهار حظ كبير .

اصطلح على تسمية سكان هذه المنطقة باسم القحطانيين أو اليمنيين أو السبئيين أو الحميريين — تغليبا — أو عرب الجنوب ، ويعنى بهم الذين

ينتمون أصلا إلى اليمن — أى الواقع يمين مكة — وهو الإقليم الذى وجدت فيه الآثار القديمة التى تشير إلى الدول الأربع وشعوبها ، والتى أشار إليها إراتستينيس Eratosthenes (1) وهم : المعينيون والقتبانيون والحضرميون والسبئيون . ولو أن الأماكن التى وجدت فيها الآثار العربية الجنوبية تمتد إلى ما وراء الحدود الجغرافية لبلاد اليمن ؛ فقد وجدت آثار جنوبية فى أقصى الجهة الشمالية الغربية لبلاد العرب ، أى فى بلاد مدين القديمة ، حيث عثر فى العلا على نقوش معينية كثيرة ، كما وجدت نقوش أخرى عبر مسافة تمتد حتى الكويت .

ولا يعرف فى أى وقت سكنت هذه الشعوب أرض اليمن ، لكن المستشرق الألمانى نولدكى يرى أنه فى الألف الثانى قبل الميلاد مهدت بلاد اليمن بسبب كثرة الأمطار ، وخصب الأرض ، وصلاحيتها للزراعة السبيل لظهور مدنية خلفت وراءها آثاراً ذات مبان ضخمة ونقوش عديدة ، وأن قربها من البحر وموقعها الفذ جعل منها محطاً هاما لتبادل سلع كثيرة ذات قيمة عالية ، تجد طريقها إلى العالم الغربى فيدفع فيها أسعاراً غالية ، فكان اليمن يصدر إليه اللؤلؤ المستخرج من الخليج العربى ، والتوابل والمنسوجات والسيوف المصنوعة فى الهند ، والحرير المستورد من الصين ، والرقيق والقردة والعاج والذهب وريش النعام من الحبشة ، وكان للتوابل وغيرها من المواد ذات الرائحة الطيبة أهمية كبرى لاستخدامها فى البلاط والمعابد .

وقد اتضح للعلماء بعد البحث المتأنى والإمعان الدقيق فى النقوش التى عثر

---

(١) فيلسوف شهير ينتمى إلى مدرسة الإسكندرية ولد فى Cirene عام ٢٧٦ ق . م . ثم ترك يموت جوعاً وله من العمر ٨٠ عاما .

عليها وفكت كتاباتها ، إنه يمكن تقسيم تاريخ اليمن المجهول إلى دول وأطوار .

وأول دولة نلمح معالمها وسط ضباب التاريخ القديم لبلاد العرب الجنوبية هى معين ، وازدهرت فيما بين ١٣٠٠ و ٦٥٠ ق م ، فى منطقة الجوف اليمنى بين نجران وحضرموت ، وشملت فى عصورها الزاهية معظم بلاد العرب الجنوبية ، بما فى ذلك قتبان وحضرموت ومقاطعة ملخ ، وكانت عاصمتها السياسية قرناو وموضعها الحديث مدينة معين ، والعاصمة الدينية يثيل وموضعها مدينة براقش الحديثة ، وكلتاهما فى الجوف الجنوبى إلى الشمال الشرقى من صنعاء عاصمة اليمن .

وفيما بعد انتشر المعينيون فى بلاد العرب وخارجها ، فنجدهم فى مصر وبعض الجزر اليونانية ، فقد عثر فى مصر على تابوت عليه كتابة معينية ، ويضم جثة تاجر عربى جنوبى اتخذ مصر سكناً ، وكان يتاجر فى المواد التى تستخدم فى المعابد والطقوس الدينية ، يستوردها من وطنه ويصدر إليه الأقمشة الحريرية ، وقد كتب النص فى العام الثانى والعشرين من حكم الملك بطليموس السادس ، أى قريباً من عام ١٥٩ ق.م ، ومنه نعرف أن جالية معينية كانت تعيش فى مصر وتتجر فى الطيب والبخور .

وقد مر الشعب المعينى بمراحل من التطور والرقى ، ولو أنه ليس بين أيدينا من الوثائق ما يساعد على كتابة تاريخ علمى لهذه المراحل ، ومكانة شعب معين بين الشعوب العربية الجنوبيـــة الأخرى ، فمن العلماء من يرجع تاريخهم إلى ١٣٠٠ ق . م ويرى أنهم أقدم من القتبانيين والحضارمة

والسبئيين ، وهناك من يرى العكس ، وثمة فريق ثالث يرى أنهم تعاصروا .

من النقوش التي وصلتنا استطاع العلماء أن يعرفوا كثيراً من أسماء ملوكهم ونسبهم ، وإن اختلفوا في عدد الملوك وأيام حكمهم ، وهو اختلاف يؤثر تأثيراً بالغاً في معرفتنا ببقية الدول العربية، لأن تاريخ قيام أية دولة جنوبية مرتبط بالدولة الأخرى ، والرأي الراجح أن الدولة السبئية قامت على أنقاض الدولة المعينية ، ولكننا نجهل الملك المعيني الذي استولى في عهده الملك السبئي بديع إيل بين على مدينة نشق الواقعة في الجوف ، كما نجهل اسم آخر ملك معيني قضى في عهده نهائياً على الدولة قبل عام ٦٨٠ ق م .

ويبدو أن الدولة المعينية كانت تضم في فترة من تاريخها عدداً من الأقطار العربية الجنوبية ، ولو لفترة محدودة من الزمن ، كحضرموت ودادان ، لأن بعض ملوكها كان يحملون لقب ملوك معين وحضرموت ، وسنجد هذه الدولة مضافة أحياناً إلى ملك السبئيين أو القتبانيين ، وقتبان دولة جنوبية لا شك في قيامها ، لكنها أكثر دول الجنوب غموضاً ، لا نعرف أحداً من ملوكها ولا متى قامت على التأكيد ، ومن المؤرخين من يعتقد أن تاريخها كان معاصراً لمعين أو سبأ أو لهما معاً .

أما السبئيون فكانوا أول عرب تخطوا عتبة الحضارة ، وطبقاً للآيات الواردة في سفر أيوب من التوراة كانت سبأ في بدء أمرها قبيلة متنقلة في شمال البلاد العربية — لا في جنوبها — وتؤيد النقوش المكتشفة حديثاً التوراة فيما ترويه ، فقد ورد لفظ سبأ في نقش معيني مراداً به قبيلة بدوية كانت تسطو على الطريق التجاري الممتد بين بلاد العرب الجنوبية ومعان الواقعة في

الشمال ، وعلى القوافل المعينية المتجهة إلى مصر . كما أنه لا يمكننا فهم قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان جيداً والواردة فى القرآن الكريم[1] إلا إذا قدرنا أن السبئيين كانوا يقطنون أولا شمال الجزيرة العربية .

ولا نعرف على التحقيق الزمن الذى انتقل فيه السبئيون إلى الجنوب ، ولكن حديث النقوش المكتشفة يشير إلى أنهم أصبحوا سادة الجنوب حوالى عام ٨٠٠ ق م . وحكموا تسعة قرون ونالوا شهرة واسعة ، حتى ليطلق اسم السبئية أحياناً — تجاوزا — على كل الدول التى قامت فى الجنوب . ويرى نفر من مؤرخى بلاد العرب الجنوبية أن أواخر القرن السابع قبل الميلاد كان فترة تحول وانتقال فى تاريخ تلك الدول بعامة ، وأن نجم دولة معين كان آخذاً فى الأفول ، بينما بدأ يتلألأ نجم دولة أخرى هى السبئية ، التى أخذت تصارع معين وتقهرها ، وأنه فى عام ٦٨٠ ق م ظهر البطل السبئى كرب أل وأخذ يتسلم من معين تدريجياً مقاليد التجارة والسياسة ، وأن بطلا آخر سبقه ، هو أول مكرب نعرفه ، أقبل عام ٨٠٠ ق م من شمال الجزيرة مجتاحا بلاد المعينيين وجيرانهم من الحضارمة والقتبانيين .

يمتد العصر السبئى من ٩٥٠ إلى ١١٥ ق م ، وقد ورث السبئيون ممالك أقربائهم الأقدمين ، وأقاموا أنفسهم سادة على بلاد العرب الجنوبية وحكاما لأزهر عصر من عصور تاريخها ، وقد تحكموا فى البحر ، طرقه وشعبه وموانيه ورياحه الموسمية الغدارة ، واحتكروا تجارته . ولصعوبة الملاحة فى البحر

---

(١) وردت هذه القصة كاملة فى سورة النمل ، وتبدأ بالآية رقم ١٥ ، وتنتهى بالآية رقم ٤٤ .

الأحمر وبخاصة أجزاؤه الشمالية اهتموا بالطرق البرية ، وعبدوها بين اليمن والشام على طول الساحل الغربي لشبه الجزيرة ، وتتفرع فى نهايتها إلى مصر والعراق ، وكان الفرع الشامى يطرق البحر عند غزة ، وحوله قامت عدة مستعمرات سبئية على طول الطريق من الجنوب إلى الشمال .

واعتمادا على النقوش فإن تاريخ سبأ ينقسم إلى مرحلتين ، واحدة كان الحاكم فيها يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية ويسمى (مكرب) ، والثانية اقتصر فيها على السلطة الزمنية وكان يحمل لقب ملك . ومن بين ملوك سبأ الذين تكشفت عنهم الوثائق فإن اثنين يستحقان مزيدا من الاهتمام ، وهما سموهو عليا ينب وابنه يطعى أمر بين ، فهما اللذان بنيا سد مأرب بين أعوام ٦٥٠ و ٦٣٠ ق . م ، ويرجح أن الأخير هو الذى قضى على دولة المعينيين وهزم آخر ملوكها . . والهمدانى ومن بعده المسعودى وأبو الفرج الأصفهانى وياقوت يعتبرون أن بانى السد هو لقمان بن عاد ، شخصية نصف أسطورية ضائعة فى ضباب التاريخ .

وقد تهدم السد فى ٤٤٩ ــ ٤٥٠ ق . م ، ويفهم من النقوش أنه أصيب بتلف مرتين — وربما أكثر ــ من جراء الفيضان ، وكان يعاد ترميمه فى كل مرة ، لكن الانهيار النهائى حدث عام ١٢٠ أو ١١٥ ق . م ، أى قبل الهجرة بسبعة قرون ونصف تقريبا ، وفيما يبدو كان التدمير كاملا ، لهذا صيغت حوله أساطير طريفة يمكن للقارئ أن يرجع إليها فى كتب التاريخ العربى .

وقد أشار الأعشى إلى سد مأرب فى قوله :

وفى ذاك للمــؤتسى أسوةٌ
ومأربُ عضَّ عليها الــعَرِمْ
رخامٌ بنته لهم حِمْــير
إذا جـــاء موّاره لم يَرِمْ
فأروى الزروعَ وأعنابهـــا
على سعة ماؤهــــا إذ قُسِمْ
فصاروا أيادى ما يقدرونْ
منه على شرب طفـــل فُطِمْ

ويعزو المؤرخون القدامى ويظاهرهم بعض المحدثين تدهور الدولة السبئية إلى انهيار السد ، والواقع أن انهياره كان نتيجة التدهور وقمته ولم يكن سببه ، أما السبب فيرجع إلى أن رجلا إغريقيا يدعى هيباليس استطاع فى أواخر العصر البطليموسى أن يحيط علما بخفايا الطرق البحرية ، وتغييرات الرياح الموسمية ، وأن ينجح فى الخروج إلى المحيط الهندى والعودة منه ، حاملا معه عدداً من السلع المرغوب فيها ، والتى كان يحتكرها العرب ومن بينها القرفة والفلفل ، وهى سلع كان الغربيون بتمويه من التجار العرب يعتقدون أنها من منتوجات بلاد العربَ الجنوبية ، وقد قفّى على إثره كثيرون فساهموا فى ضرب الاحتكار العربى وتدميره ، وقلت إيرادات سبأ فلم تعد قادرة على الاحتفاظ بمنشآتها القديمة كسدّ مأرب ، فانتهى به الأمر إلى التصدّع والانهيار .

على أنقاض سبأ قامت دولة الحميريين ، وعادت لها السيادة على الطرق التجارية ، لازدياد النفوذ الرومانى فى مصر وضعف دولة البطالسة ، وعمّرت نحواً من ٦٤٠ عاماً ، يقسّمها المؤرخون اعتماداً على ألقاب الملوك إلى قسمين : حمير الأولى ، وامتد حكمها من ١١٥ ق.م إلى ٣٠٠ م ، وحمير الثانية وحكمت من ٣٠٠ م إلى ٥٢٥ م . وكانت عاصمة كل من الدولتين مدينة ريدان ، وقد شُهرت فيما بعد باسم ظفار ، وتقع إلى الجنوب الغربى من صنعاء ، واحتلت مكانة مأرب عاصمة السبئيين وقرناو عاصمة معين ، وعُرفت دولة حمير الثانية عند العرب باسم دولة التبابعة .

وخلال الدولة الأولى تعرضت بلاد العرب ولأول مرة للغزو من جانب الرومان حين أرسلوا حملتهم الشهيرة عام ٢٤ ق.م بقيادة إيليوس جالوس Aelius Gallus للاستيلاء على طرق النقل التى كان يحتكرها عرب الجنوب فكان مصيرها الفشل الذريع . كذلك ينسب إلى أحد ملوك هذه الأسرة ، من القرن الأول المسيحى ، أنه أسس قصر غمدان فى صنعاء من عشرين طبقة ، فكان بذلك أول ناطحة سحاب يروى خبرها التاريخ ، وكان الغرض منه أن يحتمى به أمراء الحضر من غارات البدو .

فى نهاية العصر الحميرى الأول ابتدأت قوة عرب الجنوب تنزل من عليائها ، ولكنها لم تلبث أن استجمعت قواها قريباً من عام ٣٠٠م ، وضمّت إليها القبائل المجاورة من بدو وحضر ، فأخضعت حضرموت وكل بلاد اليمن ، وبها بدأ عهد الدوله الحميرية الثانية ، وأصبح لقب الملك الحميرى « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات وعربهم فى الجبال وفى تهامة » ، وتعرف

عند العرب باسم دولة التبابعة ويرسم المؤرخون العرب لملوكها صوراً أقرب إلى الخرافة منها إلى التاريخ الحقيقى ، ويمتاز هذا العصر الحميرى الثانى بدخول المسيحية واليهودية جنوب الجزيرة العربيـة ومحاولتهما زحزحة الديانة الوثنية فيها .

وفى منتصف القرن الرابع الميلادى غزا الأحباش بلاد اليمن ، بتشجيع من امبراطور الروم قسطنديوس الثانى ، لـكنهم لم يلبثوا فيهـا غير فترة قصيرة من ٣٤٠ — ٣٧٨ م ، ثم تمـكنت حمير من طردهم واستردت لقبها الطويل واحتفظت به حتى عام ٥٢٥ م ، حين عاد الأحباش إلى غزوها ثانية ، وكان قائد الانتصار فى هـذه المرة أبرهة[1] ، وكان فى الأصل ضابطاً تحت قيادة أرياط ولـكنه اختلف معه فى الأمر فقتله وتولى القيادة العليا واستبد بحكم اليمن ، ويذكر الطبرى أن ذا نواس الملك الحميرى المهزوم همز جواده ، واقتحم البحر بأمواجه ، ولم يُرَ ثانية ، وهكذا كانت خاتمة آخر ملك حميرى ذهب بذهابه عصر استقلال اليمن ، وكل ما بقى من الذكريات الرائعة لتلك الأسرة الحميرية القديمة فى يومنا هذا تخليد اسمها فى شخص قبيلة مغمورة تدعى حمير ، تسكن إلى الشرق من عدن .

وأخيراً جاء دور الفرس ، فغزوْا اليمن ، وطردُوا منها الحبش ، ووضعوا على عرشها عربياً له تاريخ هو سيف بن ذى يزل ، وقد قدمت عليه الوفود للتهنئة

---

(١) شكل سامى لـكلمة ابراهيم ، ويلقب بالأصحم أو الأشرم ، وفى أمره شىء من غموض . هل هو حبشى أو يمنى ، والظن أنه ولد باليمن ، وينسب إلى أسرة حبشية كانت تتخذ اليمن مقاماً ، ولـكنه كان نصرانياً ، ولعله كان يحترف التبشير بالمسيحية قبل أن يصبح مساعداً لقائد الجيش ارياط وأن يتخلص منه بالقتل .

من شتى أنحاء الجزيرة ، ومن بينها وفد برياسة عبد المطلب زعيم مكة ،وقد أكرم سيف وفادته ، وخصه بعشرة أمثال ما أعطى الآخرين من هدايا .

وأشرقت شمس الإسلام ، وكان باذان والى الفرس على اليمن ، فاعتنق الإسلام عام ٦٢٨ م ، العام السادس للهجرة ، وظل واليا عليه حتى ٦٣٢ م ، حين أصبحت اليمن جزءاً من الدولة الإسلامية ، وانتهى حكم فارس ، وانتهت فى نفس الوقت أهمية اليمن فى مجرى التاريخ العربى الوسيط ، إذ احتل الحجاز مكانه ، واستحوذ وحده ولأمد طويل على انتباه الرأى الدولى العام .

الصراع الدائم بين دويلات الجنوب ، وقد عرفنا بعضها وغاب بعضها الآخر فى ظلام التاريخ ، وعدم الاستقرار والرغبة فى حياة أفضل ، والطرق التجارية المتصلة ، والمنازعات السياسية الحادة التى قامت خلال عصر الدولة الحميرية بين فارس وبيزنطة ، وتنازعهما لبسط نفوذهما على الجنوب ، ثم تعرضه للغزو الحبشى والفارسى من بعد ، وجفاف الجوفين الحضرمى واليمانى ، كل ذلك كان عاملاً هاما فى تلاشى دويلات بأكملها وفى هجرة مستمرة إلى قلب الجزيرة وشمالها ، بل أن بعضا من القبائل اليمنية اتجهت إلى أفريقية فهاجرت إلى الحبشة وكثر العرب فى شمالها ، وأقاموا فى مدينة أكسوم ، ونجحوا فى بناء حضارة متقدمة ما كان فى وسع الأحباش وحدهم أن يصلوا إليها أو يبتدعوها .

وجريا على السنن الاجتماعى فإن المناطق ذات الخضرة تمثل على الدوام أملا

حلوا لسكان المناطق الصحراوية أو حتى نصف الصحراوية ، ومن ثم فإن مهابط الحضر تتلقى باستمرار مزيداً من البدو الوافدين ، مما يؤدى إلى تحركات سكانية واسعة بحثاً عن الكلأ والماء ، وكان البدوى يغتصب من جاره الذي يعيش في ظروف خيراً من ظروفه موارد الثروة التى يفتقدها ، بالمبادلة إن استطاع أو بالحرب إذا لم يكن إلى الأولى سبيل ، ومن هنا كانت الحروب المستمرة أو ما عرف فى تاريخ العرب باسم الغارات ، وهو نوع من الغزو رفعته ضرورات الصحراء إلى مستوى النظام القومى ، وقد حوّل التنافس الشديد على الماء والمرعى سكان الصحراء والمناطق غير المستقرة إلى مجموعة من القبائل أو الدويلات المتحاربة ، وكانت الحرب المستمرة تفرض على الضعيف المهزوم أن يرحل أو يذوب فى القوى المنتصر ، فالهجرات لا تنقطع ولا تتوقف ، هادئة تأخذ شكل تسلل بطىء متقطع أحيانا ، أو عنيفة فى دفعات قوية ، وأعداد وفيرة أحيانا أخرى ، وفى كلا الحالين يعاد تكوين القبائل تفككا وتجمعا واندماجا .

بانهيار سد مأرب عام ١١٥ ق.م وتدهور الحضارة اليمنية هاجرت قبائل عديدة من الجنوب إلى وسط الجزيرة وشمالها ، ويحفظ لنا التاريخ أسماء عديدة لهذه القبائل المهاجرة ، ولدينا الآن تفصيلات وافرة عنها ، فى مخطوطة نادرة عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، للعالم الثقة عبد الملك بن قريب الأصمعى ، تحتفظ بها مكتبة باريس الوطنية ، وترجع أهمية المخطوطة إلى أن ناسخها هو العالم اللغوى أبو يوسف يعقوب بن السكيت ، وأنه نسخها فى ١٠ من شوال عام ٢٤٣ هـ عام ٨٥٧ م أى بعد وفاة الأصمعى مؤلفها بستة وعشرين

عاماً.[1]، ومع أن بعض أخبارها وأشعارها أقرب إلى القصص منها إلى التاريخ، إلا أنه أعطى تفصيلات تؤكد ما لدينا عن تحرك القبائل الجنوبية نحو الشمال.

فقد سار بنو ثعلبة بن عمرو، ومنهم الأوس والخزرج، نحو يثرب ووجدوا بها جماعة من اليهود فاستوطنوها معهم، ثم غلبوهم عليها آخر الأمر.

واتجه بنو حارثة بن عمرو، وهم خزاعة، إلى مكة فجاوروا الحرم ثم أجلوا قبيلة جُرْهم عنه.

وانعطف عمران بن عمرو نحو عمان فنزلها، ثم استوطنها هو وبنوه من بعده، وعُرِفوا في التاريخ باسم أزد عمان.

وسار بنو جفنة إلى الشام وأقاموا هناك وأسسوا ملك الغساسنة، وغسّان ماء في تهامة كانوا قد نزلوا به فنسبوا إليه.

ونزلت طيء جبلي أجأ وسلمى، وهما في الشمال الشرقي من المدينة لما رأوه من الخصب هناك.

وأقامت قبيلة كلب بن وبرة من قضاعة في بادية السماوة إلى الشمال من نجد وتتصل بالعراق.

ونزلت جهينة في رضوى، وسكنت بجيلة وخثعم وثمالة منطقة السروات، واتجه فرع من كهلان إلى مدين.

---

(١) قام الشيخ محمد حسن آل ياسين بتحقيق المخطوطة، ونشرها لأول مرة في بغداد عام ١٣٧٩ = ١٩٥٩ م.

وسارت قبيلة لخم بن عدى إلى الحيرة ، وأسسوا هناك دولة المناذرة ، فكانت مركزا تلتقى فيه الثقافات العربية والفارسية والآرامية .

ثم هاجرت قبيلة كندة ، ولها حديث خاص سنعود إليه بالتفصيل .

ولم تكن الهجرة وقفا على عرب الجنوب وحدهم ، وإنما يحفظ لنا التاريخ — ولو على نحو أقل — هجرة عدد من الشماليين إلى الجنوب ، كانت تضيق بهم سبل العيش ، أو يضيق عليهم الخناق فى الحرب ، وعندما فقد عدىّ بن ربيعة المهلهل — خال امرىء القيس على رأى — معركة يوم قِضَة ، آخر يوم بين تغلب وبكر ، وأسره الحارث بن عباد ثم خلّى عنه ، لحق باليمن فنزل فى جنب ، حى وضيع من اليمن .

وهاجرت قبيلة علكّ إلى الجنوب بعد طردها من مكة واندمجت فى قبائل تهامة القحطانية . وخاف أبو دواد الإيادى الشاعر من بعض الملوك فى الشمال فلجأ إلى ملوك اليمن فأجاروه وأحسنوا إليه ، واتخذ طرفة الشاعر إجارته مثلا ؛ يقول :

إنى كفانى مِن همّ هممتُ به ... جارٌ كجار الحذاقىّ الذى انتصفا

والحذاقى هو أبو دواد ، وحذاق قبيلة من إياد ينسب إليها .

إن هجرة القبائل الجنوبية إلى الشمال من جرّاء جفاف الجوفين اليمانى والحضرمى لا مجال للشك فيها ، وتدهور هذه البلاد بعد بلوغها فى الحضارة شأوا ليس حادثا شاذا ، فقد كان عماد المنطقة الزراعة ، وعماد الزراعة الرى

والصرف ، فلما انهارت هذه تلاشت حضارتهم ، وكان لابد لهم من البحث عن مساكن جديدة . ولا ينبغي أن نقف بالانهيار الحضاري عند المنطقة التي كانت تعتمد في إروائها على سد مأرب ، لأن منطقة حضرموت .. شاركتها نفس المصير فيما يبدو ، حيث تشاهد الآن بقايا منشئات الري القديمة ، تحمل طابع الاهمال ، ويبدو أنها تعرضت لما تعرض له سد مأرب ، وبالتالي كان نصيب المنطقة الجفاف وهجرة السكان .

أضف إلى هذا وجود نقوش عربية جنوبية في الشمال ، وأسماء لشماليين هي من أسماء أهل الجنوب ، مثل : شرحبيل ومعد يكرب وامرئ القيس . ووجود قبائل في المناطق الشمالية والجنوبية لها أسماء موحدة ، كقبيلة كندة التي نزل قسم منها نجدا والقسم الآخر حضرموت ، وقبيلة الأزد التي نزل قسم كبير منها في السروات في الحافة الشمالية من اليمن ، في حين استقر القسم الآخر في عمان ، واليها أيضاً ينتسب الأوس والخزرج وقد اتخذوا يثرب مسكنا ، وكذلك قبيلة إياد التي يضرب بعض أفرادها في وادي بيشا الواقع على مسير عدة أيام شمال نجران ، بينما ضربت أكثريتها في االسهول الغربية من الفرات السفلى .

والواقع « أن من ينكر انتقال قوم من اليمن إلى ماوراءها لينكر أمراً غير قابل للإنكار في الجزيرة العربية التي لم يثبت فيها تاريخ أثبت من تواريخ الرحلات ، على تباعد الأزمنة وتبدل العوارض الجوية وطوارىء الخصب والجدب والغلبة والهزيمة . وما من باحث ذي روية يعتسف البت بذلك

الإنـكار ثم يجزم بحصر اليمانية فى حدودهم منذ أحاطت بهم تلك الحدود . فمن العسف أن يقال إن اليمانية لم تبرح اليمن قط فى العصور التى سبقت البعثة المحمدية، وليس من العسف فى شىء أن يقال إنها برحتها على حسب الطوارىء وعوامل الجو والتاريخ »[1]

---

(١) عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة ، مزايا الفن والتعبير فى اللغة العربية ، القاهرة ١٩٦٠ .

اللغة العربية في الشمال والجنوب

بقى أن نشير فى عجالة شافية إلى اللغة التى كان يتكلمها هؤلاء العرب فى الشمال أو الجنوب .

فى أزمان سحيقة كانت تنتشر فى منطقة واسعة الأطراف لغة سامية ، نجمت عنها لهجات مختلفة، لم تكن فى البدء تخالف الأصل على نحو ظاهر إلى أن تباعدت قبائل الأسرة السامية فى بلاد شتى ، وهاجر بعضها من مهده الأصلى نهائيا ، وأخذت تأثيرات البيئة تبدو فى ألسنة المهاجرين ، وتأكدت المخالفة مع الزمن ووضح التباين ، وأصبحت اللهجات تغاير أصلها كأنها لغة مستقلة ، فكانت الأكادية والكنعانية والآرامية واليمنية القديمة والعربية الشمالية والحبشية السامية ، ولغات أخرى ضاعت فى مجاهل التاريخ . ومن العسير الآن أن نتخيل ما كانت عليه اللغة السامية الأصلية ومقدار كلماتها ، بل من العبث إطالة البحث فى أمر غامض مجهول نشأ ونما فى أزمنة سبقت العصور التاريخية .

وعلى المدى البعيد تطورت السامية لتصبح فى الجنوب لغة تنطوى على لهجات عدة ، ولتصبح فى الشمال أخرى تتفرع منها لهجات عديدة ، دون أن ينفصم ما بين اللغتين فى الجنوب والشمال . ولو تصورنا الجزيرة العربية قبل الإسلام — وحتى الآن — لوجدناها تموج بوحدات مستقلة تتمثل فى قبائلها العديدة ، وكانت النظم والعادات والتقاليد فى فترة من الفترات تباعد ما بين هذه

القبائل فسلكت كل واحدة طريقها الفرد الذى تمليه عليه ظروفها الخاصة ، جغرافية أو اجتماعية ، سياسية أو اقتصادية ، فكان فى العربية ما اصطلح على تسميته باللهجات .

غير أنه من جانب آخر ، كانت هناك عوامل لقاء واحتكاك مصدرها التجارة والجوار وتبادل المنافع والحج والأسواق والحروب والجدب ، إلى جانب نوع من اليقظة السياسية كان يعتمل لاشعوريا فى نفوس سكان شبه الجزيرة ، فهيأ ذلك كله لواحدة من اللهجات تجمعت لها أسباب الغلبة أن تتطور فتصبح لغة الحضارة لهؤلاء القوم ، وأن تذوب فيها اللهجات الأخرى تاركة فيها بعض الملامح والسمات . إن الحضارة وحدها هى القادرة على فرض لهجة ما على كتل عظيمة من البشر .

وعندما تصبح هذه اللهجة لغة الحضارة فإن بقية اللهجات لا تختفى ، وإنما يضيق محيط استخدامها فحسب ، وينحصر فى أغراض الحياة اليومية العاجلة ، وفى نفس الوقت فإن اللهجة التى ارتفعت إلى مستوى لغة الحضارة تصبح اكتسابية ، وأداة لأقلية تعتمد عليها فى التعبير عن الأفكار والمشاعر والمدركات البعيدة عن مستوى العامة ، وعلى قدر انتشار تلك اللغة بين طبقات المجتمع تستطيع أن تحافظ على مطابقتها للواقع وطواعيتها للتطور ، وقدرتها على التعبير عن كافة الانفعالات الإنسانية ، وكل من الفرنسية والإيطالية والإسبانية مثلا لهجة إقليمية تفرعت عن اللاتينية واستطاعت أن تصبح لغة حضارة وأن تحتفظ بحيويتها دواماً .

من الصعوبة بمكان أن نرسم حدوداً بين العربية الجنوبية والعربية

الشمالية ، لأننا لسنا أمام لغتين من أصلين مختلفين جمعت بينهما مكانياً مصادفات التاريخ ، بل إزاء لغات منبعثة من أصل واحد فرقت بينها ظروف اجتماعية معينة ، فالانتقال بين إحداهما والأخرى انتقـال غير محسوس ، وتزداد الصعوبة إذا أردنا أن نضع حدوداً بين اللهجـات التى هى فى داخل المجال اللغوي لكل واحدة منهما .

إذا حاولنا أن نتبين العربية الجنوبية من واقع النقوش السبئية ، وهى أحدث من النقوش المعينية والقتبانية والحضرمية نجد أنها قريبة جداً إلى اللغة الأدبية (لغة الحضارة) العربية الشمالية ، وظلت السبئية بدون تغيير يذكر منذ عام ٨٠٠ ق.م. تقريباً حتى ظهور الإسلام ، وكان المعينيون يتـكلمون نفس اللغة التى يتكلمها السبئيون مع اختلاف اللهجة . وهو أمر ليس بغريب فقد أشرنا قبل إلى أن السبئيين كانوا يقطنون فى الأصل شمال الجزيرة ، فى بلاد الجوف الشمالى أو قريباً منها .

ولدينا نقش بالغ الأهمية يرجع تاريخه إلى ما بين عامى ٥٤٢ و ٥٤٣ م ، سجل فيه أبرهة الحاكم الحبشى على اليمن إصلاحه لسد مأرب وأحداثاً أخرى، وقد كتب فى لغة يمنية لا تفترق كثيراً عن العربية الشمالية ، فقد جاء فيه : «بقوة وعظمة ورحمة الرحمان ومسيحه والروح القدس ، أنا أبرهة حاكم الملك الجعزى المسمى (رمحيش ذو بيمن) ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وعربها من الجبل وتهامة » .

وآخر من جزم بذلك الأستاذ فلبى Philby, J. B. فى كتابه « العرب قبل الاسلام Background of Islam » ، وقد صدر فى الإسكندرية عام ١٩٤٧ ، وهو

يعرف بلاد العرب الحديثة جيداً ، ويحذق من تاريخها القديم وجغرافيتها وتقاليدها ولغتها الدارجة مالا يحذقه إلا قلة من المستشرقين ، ويصرح فيه بأنه « يستطيع أن يدعى أنه قرأ بقدر الاستطاعة وهضم بالفعل كل النقوش العربية الجنوبية ، وعدتها ستة آلاف نقش ، وأن يقرر فى ضوئها أن اللغة العربية الجنوبية لا تختلف كثيراً عن العربية الشمالية ، ولا تعدو أن تكون شكلا قديماً للشمالية التى اختفت منها كلمات لم تعد مستلزمات الحياة تتطلبها ، مما يتعلق بالآلهة الوثنية وأعمال الرى والزراعة وتجارة البخور » .

ومن الواضح أن جلّ هذه النصوص عسير الفهم ، لا بسبب اللغة نفسها وإنما لأسباب ترجع إلى طريقة الرسم ، فهى مجردة من الحركات قصيرة أو طويلة ، وقد وصلتنا غير كاملة ، وتتحدث غالباً عن عبادات ليس لدينا معلومات عنها ، وكثير من عباراتها غير واضح الدلالة تماماً لما تشتمل عليه من صيغ دينية مبهمة ، تتصل بتقديم القرابين إلى المعبودات ، واصطلاحات غامضة تتعلق بفن المعمار ، ومن هنا تصبح ترجمتها عسيرة تحتاج إلى جهد غير عادى ، وقد نفهم كلمات أو أجزاء فحسب ، وقد يكون هذا الفهم ناقصاً ، وكثيراً مايقنع الباحثون منها بمعناها العام فى صورته التقريبية .

وقد عثر فى الشمال على ثقافتين : سامية جنوبية وأخرى سامية شمالية ، فهناك جنوبيون هاجروا إلى الشمال كما قلنا ، واستقروا فيه تدريجياً ، وتمثلوا ثقافته حتى غلبت عليهم أخيراً ، ويظهر ذلك واضحاً فيما خلفوه لنا من نقوش وآثار ، ويعتقد شبرنجر A. Sprenger (١٨١٣ - ١٨٩٣) أن الساميين الشماليين هم ساميون جنوبيون انتقلوا إلى الشمال .

والصفويون وهم الذين نعرف عنهم شيئا قبل أن يمتزجوا فى الشعوب السامية الشمالية يبدون فى النقوش التى وصلت عنهم محتفظين بالخط السامى الجنوبى واللغة السامية الجنوبية والعقائد السامية الجنوبية ، لأنهم كما يبدو من آثارهم لم يتركوا حياة البداوة نهائيا ، بل كانوا يجمعون بين الحضارة والبداوة ، فمنهم الرعاة ومنهم الزراع ، ومن ثم لم يكن تأثرهم بالحضارة السامية الشمالية سريعا بل تدريجيا ، ومع مرور الزمن نراهم كغيرهم يمتزجون مع القبائل الشمالية المستقرة ويذوبون فيها .

أما النبطيون والتدمريون والموآبيون والعبريون وغيرهم من الشعوب السامية الشمالية ، فقد كانوا فيما يظن عربا من الجنوب إلا أنهم فى الوقت الذى عرفناهم فيه كانوا قد تمثلوا لغة وعقائد الساميين الشماليين .

وقد أدى هذا إلى اعتراض بعض العلماء على تعبير « عربية جنوبية » و « عربية شمالية ». لأنه ليس تقسيما جغرافيا صحيحا ولا تاريخيا دقيقا، فليست هناك حدود واضحة — كما رأينا — تفصل شمال الجزيرة عن جنوبه ، وتبين لنا من أين وإلى أين كانت منطقة انتشار القسم الجنوبى من اللغة العربية ، ومن أين وإلى أين سادت العربية الشمالية، وربما كان الأقرب إلى الصواب أن تقسم العربية إلى لهجات بائدة وأخرى باقية .

ليس بين أيدينا من اللهجات البائدة غير ما أوردته النقوش التى عرضنا لها ، ودلالاتها ظنية ، والمستفاد منها قليل .

أما الباقية فهى العربية الشمالية ؛ وطفولتها وأطوارها الأولى مجهولة ،

وما وصلنا منها مزيج من لهجات كثيرة ، تتكلمها قبائل مختلفة ، أغلبها من الشمال وأقلها من الجنوب ، امتزج بعضها ببعض امتزاجاً شديداً يصعب معه التمييز بينها ، وصارت لغة واحدة يعسر علينا اليوم أن نردها إلى أصولها الأولى. يقول السيوطى فى المزهر : « الذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم أُقْتُدِيَ وعنهم أُخِذَ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ، وعليهم اتُّكِلَ فى الغريب وفى الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين » والطائيون قحطانيون جنوبيون وليسوا بعد نانيين .

وواضح أن امتزاج هذه اللهجات وذوبانها فى بعضها لم يتمّ دفعة واحدة ، أو فى زمن واحد ، بل حدث شيئاً فشيئاً ، جريا على سنن الصراع اللغوى ، فكانت اللهجة تبتلع الأخرى أولا ، ومن الإثنين تتكون لهجة جديدة ، وتمتزج الجديدة بأخرى ، وأن ذلك حدث أولا بين اللهجات المتماثلة التى تختلف فيما بينها فى الصوت من جهر وهمس وشدة ورخاوة وتباين فى النبر وغيرها من الفروق الطارئة التى لا تمسّ العناصر الرئيسيةللغة من اشتقاق وإعراب ونظم ، ثم تهيأت الأسباب لواحدة من بينها لتكون لغة الحضارة ، وكانت هذه وهى تتغذى باللهجات المختلفة تفقد الكثير من صفاتها الموغلة فى المحلية ، وتأخذ من اللهجات المختلفة الأخرى ما يعن لها من مفردات وما يألفه متحدثوها من صيغ وتراكيب ، وتتهيأ لتكون اللغة العليا لحاجات الإنسان الراقية ، فتصبح لغة الشعر والأدب والحديث بين الطبقات العليا فى المجتمع ، وتتطلب تهيئة وترويضاً وتثقيفاً ، ويصبح الشعراء صنّاعها فى الصقل ، وأداتها فى النشر ، إنهم يصنعون بالكلمات ما كان يصنعه الملوك القدامى بالنقود ،

يفرضون القيمة التي يريدونها ، ويحددون السعر الذى على كل فرد أن يقبله ، وكل منا حين يكتب إنما يغترف على غير شعور منه ، من فيض الكلمات الرقيقة والطافحة بالمشاعر التى صقلها أولئك الشعراء .

يمكن القول أن نفوذ الشعراء الأدبى والسياسى وكان كبيراً وغير محدود هو الذى أعطى اللغة الأدبية — أو الفصحى فى تعبيرنا الحديث — طابعها النهائى وجعل منها المثال المحتذى ، والقصائد التى لدينا من الشعر الجاهلى ذات لغة واحدة رغم أن أصحابها يمثلون قبائل مختلفة ونواحى متعددة من شبه الجزيرة ، والملامح القبلية فى شعرهم نادرة مما يؤكد قولنا إن الشعراء كانوا يتحدثون لهجة مكتسبة تخالف لغة المحادثة العادية[1] .

وكانت هذه اللغة المكتسبة ، تزداد كل يوم اتساعاً ، وتكتسب أنصاراً ، عن طريق التقليد والرواية ، فأصبحت مفهومة لدى الجميع ، يقول المستشرق

---

(١) تبدو بعض الملامح القبلية فى شعر امرئ القيس حين يستخدم الفعل هراق بدل أراق ، والأول صيغة حميرية ، والثانى صيغه شمالية ومعناهما واحد ، وقد ورد اسم المفعول من هذا الفعل فى معلقته :

وإن شفائى عَبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معوّل

والأعشى ، وكان يفد على ملوك الفرس ، تكثر فى شعره الألفاظ الفارسية :

بالجُلَّسانِ وَطيّبٍ اردانُهُ بالوَنّ يضرب لى يَكُرّ الأصبعا

والناى نَرْمٍ ، وَبربَطٍ ذى بحَّةٍ والصَّنجُ يبكي شجوَهُ أن يُوضعا

الجلسان : الورد الأبيض ، أو قبه ينثر عليها الورد والريحان .

الون : المعزف أو العود — الناى والبربط والصنج من آلات الملاهى .

ويقول ابن قتيبة : إن العرب لا تروى شعر أبى دواد وعدى بن زيد ، لأن ألفاظهما ليست بنجدية .

الإنجليزى رينولد نيكلسون .Nicholson, R : « إذا وجدنا أن اللغة لا تجرى على ألسنة الشعراء الجوالين فحسب، وكانوا عادة على جانب من الثقافة، أو عرب الحيرة وكانوا مسيحيين، بل تتداولها ألسنة الرعاة واللصوص والبدو الغلاظ فى كل البقاع، إذا وجدنا هذا فليس ثمة داع للشك فى أننا نسمع من خلال شعر القرن السادس الميلادى اللغة العربية التى كانت مستعملة فى طول البلاد وعرضها ».

وجود لغة عليا للشعر والأدب وتتكلم فى المحافل والمجامع، ولهجات محلية لحاجات الناس اليومية، ليس فيه شىء مخالف للعادة لا عند العرب ولا عند غيرهم، لا فى العصر الجاهلى ولا بعد آلاف الأعوام من عصرنا الحديث، وليس فيه ما يخالف ما انتهت إليه قواعد علم اللغات، ويعززه الحاضر المشاهد فى أكثر من مكان. فاللغة التى يعبّر بها شعراء المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة العربية — حتى وقتنا هذا — يجب أن تكون كلماتها مما لا يسمع فى الحياة اليومية، كما أن الشعراء المنشدين بين البربر فى المغرب العربى ينظمون أشعارهم فى لغة تخالف لهجاتهم الدارجة.

ولغة العالم العربى الثقافية الآن على امتداده واحدة فى الصحف والإذاعة والكتب والمحاضرات والندوات، وعبر أراضيه الشاسعة يوجد العديد من اللهجات تقترب من الفصحى أو تبتعد عنها بقدر ما أتيح لأصحابها من الثقافة العربية الخالصة، وما أتيح لها من البعد عن المؤثرات المحرّفة للغة فى ألسنة الناس، وبعض هذه اللهجات يتشابه ويتقارب، وقليل منها ينبو حتى ليكاد يصبح لغة مستقلة.

ولقد كانت لهجات الشمال فى القرون القريبة من الإسلام ذات سلطان قوى وواسع ، فكانت تبتلع اللهجات الجنوبية ابتلاعاً ، الواحدة تلو الأخرى ، فكان أن شملت معظم شبه الجزيرة العربية ، فى حين أخذت اللهجات فى بلاد اليمن تتدهور وتتلاشى حتى كادت تفنى فى القرن السادس الميلادى ، من جرّاء فقد اليمن لحريتها واستقلالها السياسى ، إذ كانت تئن تحت حكم الأحباش طوراً وتحت حكم الفرس طوراً آخر ، بينما كان هذا القرن هو عصر النهضة الشاملة فى الشمال ، واللغات تتبع الحضارة صعوداً وانحطاطاً ، فتقلّص ظل اللهجات اليمنية وانفسح المجال أمام الشمالية ، كما تقلصت اللغات السامية الأخرى فى سورية والعراق وأطراف الشام أمام اللغة العربية الشمالية التى كانت تفيض حيوية وقوة .

ويمكن القول أن ذلك تم على نحو أسرع وأشد بين القبائل الشمالية من الجنوب العربى ، على حين أنها فى داخل اليمن وأقصاه الجنوبى كانت تسير بخطى متواضعة ، حتى جاء الإسلام بأفكاره وثقافته وكتابه فأجهز على ما كان عالقاً بعد ببعض الألسنة اليمنية من بقايا لغتهم الأولى ، ولم يفلت من هذا المصير إلا ثلاث لهجات ساعد انعزالها وانزواؤها على حمايتها من اللغة العربية فاحتفظت بشكلها القديم حتى عصرنا الحاضر ، وهى : المهرية وتتكلم الآن فى منطقة مَهَرَة ، الواقعة شرق حضرموت ، ولهجة الشحر وتسمى حِكلى ، وتتكلم بها القرى الضاربة فى بلد مرياط من ناحية ظفار الحبوظى ، واللهجة السقطرية وتتكلمها جزيرة سقطرة والجزر المجاورة لها ، وقد بعدت هذه اللهجات عن أصولها بل وعن اللغات السامية جميعها لتأثرها الشديد باللغات التى احتكت بها .

اتخاذ أهل الجنوب لغة الشمال الأدبية الراقية والزاحفة ليس أمراً عسيراً ولا مستبعداً ولا وحيداً ، فقد كان فى الجزيرة العربية يهود ، وكان هؤلاء اليهود وافدين ، جاءوا إلى يثرب فى القرن الأول أو الثانى للميلاد ، وكانت العبرية أو الآرامية لغتهم دون ريب ؛ ومع ذلك تكلّموا العربية ، وشعروا بها فى قصائد لا يرقى إليها الشك ، ولا ينكرها منصف ، ومن شعراء كانوا معاصرين لامرئ القيس ، فإذا جاز أن تتغلب اللغة العربية ــ الأدبية على الأقل ــ على الآرامية أو العبرية التى كان يتكلمها اليهود قبل نزوحهم إلى الجزيرة العربية ، وحافظوا على استخدامها فى صلواتهم حتى بعد أن اتخذوا العربية لسانا ، فأولى أن يتم التوحيد بين لغة العرب فى الجنوب ولغتهم فى الشمال .

هل يعنى هذا أن العربية الجنوبية انقرضت تماما فى القرن السادس الميلادى ؟ من العسير الجزم بذلك ، ولكن المرجح دون ريب أن ازدواجية اللغة كانت هى السائدة ، وأن العربية الجنوبية كانت تحتل المكان الأول والأهم فى المناطق النائية والمنعزلة ، بينما فى المراكز الحضارية تأتى العربية الشمالية فى المقدمة ، على أن بقاء العربية الجنوبية لغة محادثة عند بعض القبائل لم يحل دون قيام علاقات أدبية رفيعة بين الجنوب والشمال .

ويمكن القول أن لغة المحادثة الشمالية لم تكن عسيرة الفهم على غالب أهل اليمن فى أواخر القرن السادس الميلادى ومطلع القرن السابع، فلم يرد فى أى من كتب التاريخ التى عرضت لمقابلة الرســـول عليه السلام عام ٦٣١ م للوفود القادمة من الجنوب أن اليمنيين استعملوا فى الحديث العربية الجنوبية ، وليس

ثمة ما يشير إلى أنهم جهلوا ما سمعوه أو نطقوا بكلام لا يفهمه أهل الحجاز. كما أن الدعاة الذين أوفدهم الرسول إلى اليمن، ومنهم علي بن أبي طالب ومعاذ ابن جبل ومن كان يصحبهما في عمل الولاية أو التعليم، كانوا يتكلمون العربية الشمالية في دعوة الناس إلى الإسلام ويتخذونها الوسيلة في تنظيم المجتمع اليمني الجديد. وهناك رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وليس في أخبار هذه الرحلات إلماع إلى تفاهم قريش مع أهل اليمن بغير العربية الشمالية في الجيل السابق للبعثة أو الجيل الذي تقدمه، وأقدم شعر وصل إلينا لا يتجاوز هذا الجيل.

غير أن العربية في اليمن — وفي غيرها — تأثرت شيئا بما كان غالبا على أهلها من لهجاتهم القديمة، وما درجوا عليه من عادات في النطق والنبر، وما كان يكتنفهم من ظروف طبيعية واجتماعية تختلف في جوهرها عما كان يكتنف عرب الشمال، فهم يستخدمون ألفاظا يعرفها عرب الشمال حينا ويجهلونها أحيانا. ومن قبيل ذلك ما روى أن رجلا من بني كلاب، أو من سائر بني عامر بن صعصعة، خرج إلى ذي جدن من ملوك اليمن، فأطلع إلى سطح عليه الملك، فلما رآه الملك اختبره فقال له: ثب، يريد اجلس، فقال الرجل: ليعلم الملك أني سامع مطيع، ثم وثب من السطح، فقال الملك: ما شأنه؟ فقالوا له: ابيت اللعن! إن الوثب في كلام نزار الطفر، أي الوثوب إلى أسفل، فقال الملك: ليست عربيتنا كعربيتهم من دخل ظفار حمّر، أي فليتكلم الحميرية». ولهذا تذكر المعاجم العربيـة: الوثب هو القعود بلغة حمير».

ومنه ما روى أن أبا هريرة — وهو يمنى — لقى النبي صلى الله عليه وسلم

وقد وقعت من يده السكين ، فقال له : ناولنى السكين ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم المراد بهذا اللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة وهو يفعل ذلك ، ثم قال : آلمدية تريد ؟ وأشار إليها ، فقيل له : نعم . فقال : أوتسمى عندكم سكينا ؟ ثم قال : والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ .

وكان النبى فى حديثه مع زعماء القبائل اليمنية أو رسائله إليهم يرعى ما درجوا على استخدامه من تعابير وألفاظ ، فقد جاء فى رسالته إلى وائل بن حجر الحضرمى : « من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب من حضرموت »[1] ، وفى مِنْ الجارة يستخدم مِمْ ، وفى الاستفهام يستخدم كلمة مَهْم بمعنى : ما الأمر وما الشأن ؟ ، وكلمة مخلاف بمعنى ناحية أو كورة .

وقد نزل القرآن الكريم بهذه اللهجة الأدبية التى كان العرب يقولون فيها الشعر ، ويتبادلون القول فى المحافل والمجامع ، ولعل قريشاً وكانت تمثل مركز الثقل فى الحياة العربية — إذ ذاك — من مختلف جوانبها ، كان بين جمهورها كثرة وافرة قادرة على التحدث بهذه اللهجة وتفهمها ، فقيل أن القرآن نزل بلهجة قريش ، وهى دعوى وجدت فيما بعد من يدعمها لأسباب سياسية ، خلال فترات النزاع القبلى العنيف . لقد كان الشعراء هم الذين أعطوا اللغة فى البدء وحدتها وصفاءها ونقاءها ، وكان القرآن هو الذى ثبتها إلى الأبد ، وجعل منها لغة الثقافة والحضارة لمائة مليون من البشر أو يزيدون .

---

١ ـ الأقيال : جمع قيل ، وهم الملوك ـ العباهلة : القار حكمهم ـ الأرواع : الحسان الوجوه ـ المشابيب : السادة .

كندة

نزحت كندة إلى قلب الجزيرة منذ النصف الثانى للقرن الرابع الميلادى ، وليس لها نصيب فيما بين أيدينا من نقوش يمنية ، ربما لأنهم كانوا أنصاف بدو وأنصاف حضر ، كثيرو التنقل والترحال ، ولم يتح لهم عمر الدولة ، وكان قصيرا ، استقرارا يطورون به حضارتهم على نحو ما كان عليه أشقاؤهم من بقية دول عرب الجنوب . كما أنهم جاءوا فى فترة قليلة النقوش نسبيا ، لأنها خلت من الملوك العظام ومن المشروعات الكبيرة ، والنقش الوحيد الذى فيه إشارة إلى كندة متأخر ، جاء قريبا من زوال دولتهم ، يقول النقش : إن أبرهة نائب النجاشى على اليمن خلال احتلال الحبشة لها ، عين يزيد بن كبشة من كندة عام ٥٣٥ م حاكما على سبأ بدلا من معد يكرب ابن الملك سام يفع ، والذى كان يحكم تحت السيادة الحبشية ، لكن يزيد ما لبث أن تحين الفرصة وقاد حملة ضد أبرهة ، وانضم إليه الزعماء الحميريون ، إلا أن أبرهة انتصر عليهم وبطش بهم ، وسجل أحداث الثورة وهزيمة الثوار فى أثر أقامه عام ٥٤٢ م تخليداً لترميمه سد مأرب ، ومن بين أسماء جميع الملوك الحميريين فإن اسم يزيد أقربها إلى الأسماء العربية الشمالية .

قبل اكتشاف هذا النقش لم يكن أى من المؤرخين أو الأدباء يعرف من هو ابن كبشة الذى يشير إليه امرؤ القيس مباهيا ومفتخرا فى قصيدته التى يرد فيها على سُبَيْع بن عوف بن مالك بن حنظلة ، وكانت بينهما قرابة

أمّل معها سبيع أن يجود عليه امرؤ القيس بشىء إذا أتاه وسأله ، ولـكن هذا أخلف ظنه ، فقال سبيع أبياتا يعرّض فيها بامرىء القيس ويذمه ، ورد عليه امرؤ القيس بقصيدة يفخر فيها بنفسه وبقومه ، وذكر ابن كبشة مفتخراً بخئولته :

وأنا الذى عرفتْ معدّ فضله وَنَشَدْتُ عن حجر بن أمّ قَطَامِ

خالى ابن كبشة قد علمتَ مكانه وأبو يزيـــد ورهطه أعمامى

وإذا أُذيتُ ببلدة ودّعتهـــا ولا أقيم بغــــــير دار مقام

واكتفى شراح شعره بالقول : « ابن كبشة وأبو يزيد من أشراف كندة » ، وإذا كانت النقوش أماطت اللثـام شيئا عن ابن كبشة فإن أبا يزيد عم امرىء القيس مازال فى انتظار المزيد من الضوء والوضوح .

على أى حال من الثابت أن كندة بطن من كهلان ، كانت تسكن جبال اليمن الشرقية مما يلى حضرموت ، وكان ثور الجد الأعلى لامرىء القيس يسيطر على منطقة الاحقاف ، ملـكها وأخذ الإتاوة من أهلها ، حتى إذا غلب وقومــه على أمرهم هاجروا ونزلوا حضرموت ، وساكنوا الحضرميين ، ثم ما لبث أن حدث بينهم خلاف وحروب كادت تأتى عليهم ، وضعف أمر كندة وظهر عجزها عن القدرة على مواصلة الحرب ، فغادرت حضرموت واتجهت شمالا حتى نزلت فى مــكان دُعى فيما بعد غمر كندة أو غمر ذى كندة ، وهى أرض لبنى جنادة بن معدّ فى نجد على بعد يومين من مــكة شرقـا واتخذوا عاصمتهم فى « بطن عاقل » ، وكان ذلك نحو عام ٣٥٠ م .

اختلط بنو كندة بعرب الشمال اختلاطا أصبحوا به وكأنهم شماليون فعلا ، ولكن دون أن يتنكروا لأقربائهم فى الجنوب ، وحرص ملوك التبابعة على أن يجعلوا منهم ما كان اللخميون للفرس، وما كان الغساسنة لبيزنطة ، فيهيمنوا لهم على الطرق التجارية الشمالية التى ترتادها قوافلهم حتى يأمنوا اعتداء بدو الشمال عليها . فلما وقع الخلاف فى قبيلة بكر ، وهى تسكن شمال نجد ، سار جماعة منهم إلى حسان بن تبع ملك اليمن ، وكان ملوك اليمن للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين فيما يقول ابن الأثير ، فطلبوا منه أن يولى عليهم ملكا ، فاختار لهم حجر بن عمرو زعيم الكنديين قريباً من منتصف القرن الخامس الميلادى ، وثمة عوامل كثيرة رجّحت اختياره : كان أخا حسان من الرضاع — أو أخا غير شقيق — وله عصبية يمنية ، ومن أسرة تولت الملك فى بلادها الأولى ، واستقرت فى الشمال منذ أكثر من قرن فعرفت اتجاه العصبيات فى المنطقة ، وفهمت العقلية الشمالية ومناحى تفكيرها .

انتظمت مملكة حجر بن عمرو معظم بلاد نجد مما يلى الحجاز شرقا ، وبلغت شمالا أطراف الشام والعراق ، وانتزع جانبا من الأرض التى كانت تحت سيطرة المناذرة ، وفى فترة ازدهار المملكة كانت تمارس نفوذا على قبائل عُمان فى الجنوب ، وسار حجر بقبائل ربيعة فى محاولة لغزو البحرين ، فلما علم زياد بن عمرو بن الهبولى القضاعى القائم عليها خالف حجرا فى طريقه وسار بدوره إلى غمر كندة ، وأفسد فى البلاد ثم حمل معه أسرى كثيرين فيهم زوجة حجر ، فيما قيل ، فأسرع إليه حجر وأدركه عند الحفير قرب

عين أباغ[1] ، وقتله واستعاد زوجته ، ولما علم أنها كانت راضية عن عمل زياد انتقم منها وقتلها .

وكان حجر يسمى « آكل المُرار »[2] ، لأنه إذا غضب تزبد شفتاه كأنه بعير أكل مراراً .

وتوفى حجر بن عمرو آكل المرار عام ٤٨٠ م ، بعد أن حكم نحواً من ثلاث وعشرين سنة ، وبعد أن طعن فى السن . ودفن فى بطن عاقل .

بعد حجر جاء ابنه عمرو ، وعرف بالمقصور لأنه اقتصر على ملك أبيه ، فلم يضف إلى المملكة أو الحلف قبائل جديدة وكان ميالا إلى السلم راغبا فى الهدوء ، فنزل عن لقب ملك ، وآثر أن يدعى « سيد كندة » ، ووثق صلاته باليمن فتزوج بنتا لحسان بن تبع ، وحسن صلاته بالغساسنة فتزوج هند الهنود بنت ظالم بن وهب ، وكانت أختها مارية زوجة للحارث الثانى ابن أبى شَمِر الغسانى ، ويلقبه المؤرخون العرب بالأعرج ، وكان أعظم شخصية فى تاريخ الجفنيين ، وحكم من ٥٢٩ إلى ٥٦٩ م. وكانت تربطه بمناذرة الحيرة صلة نسب ، فقد تزوج الأسود بن المنذر ملك الحيرة بنتاً له جاء منها بولد هو النعمان بن الأسود . ثم تقرب إلى القبائل التى كان يحكمها فى نجد فتزوج أم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانى من بكر بن وائل ، وعين أخاه معاوية الجون ، أى الأسود ، على اليمامة .

---

(١) مكان بين الفرات والشام .

(٢) المرار شجر مر ، من أفضل العشب وأضخمه ، إذا أكلته الإبل قلصت مشافرها فبدت أسنانها .

وفى أيام عمرو ظهر فى قبيلة تغلب وائل بن ربيعة المعروف بكليب وائل ، فوحّد قبائل ربيعة وقوى أمرها ، وحررها من سيطرة الكنديين ، وقد استنجد عمرو المقصور بمرثد بن عبد ينكف الحميرى فأنجده مرثد بجيش كبير . والتقى عمرو بكليب فى ديار بنى أسد ، على مقربة من جبل القنان ، فقُتِل عمرو فى المعركة ، وتحررت قبائل ربيعة من سيطرة آل كندة إلى حين .

خلف عمرا المقصور ابنه الحارث ، وهو أشهر ملوك كندة وأعظمهم ، وكان يلقب « أبا الملوك » . وقد أتاح له خروج بكر وتغلب منهكتين من حرب البسوس تماما أن يعيد سلطان كندة على قبائل ربيعة فى نجد ، وعلى بنى أسد وبنى كنانة وبنى بكر خاصة . وكانت مطامع الحارث واسعة وآماله كبيرة ، فأرسل ابنه حجرا فى جيش لفتح فلسطين لكن رومانوس الحاكم البيزنطى عليها هزمه ، وقد آثر أنستاسيوس إمبراطور بيزنطة أن يتخفف من مشاكله ويقلل من أعدائه ، وبخاصة بعد حربه مع الفرس ، فعقد مع الحارث بن عمرو الكندى معاهدة يترك بمقتضاها آل كندة مهاجمة الشام ، ويتعاونوا على قتال الفرس والمناذرة ، وفعلا قام الروم بمساندة من آل كندة بهجوم على الحيرة واستولوا على قافلة .

وفى أيام الحارث فتح الأحباش اليمن وأذهبوا دولة التبابعة ، وظلوا فيه مستعمِرين من عام ٥٢٥ إلى ٥٧٥ م ، فضعف شأن كندة لأنهم كانوا يستمدون نفوذهم من قوة اليمن ، فآثر الحارث أن يحسّن علاقاته مع الفرس ، وأن يتقرب إلى الأكاسرة ، وكان معاصره منهم قباذ ، وفى عهده ظهر مزدك عام ٤٨٧ م فى فارس ، ودعا إلى شيوعية فوضوية ، وكان يرى أن الناس ولدوا

سواء فليعيشوا سواء ، وأن الذى يمنع الناس من سلوك طريق السداد منحصر فى خمسة أشياء : الغيرة والحقد والغضب والحرص والفقر ، وإذا قمعت هـذه الأخلاق الشيطانيـة استقام طريق الحق ، ومنشؤها كلها من شيئين : المال والنساء ، فينبغى أن يجعلا على الإباحة بين الخلق أجمعين حتى تأمن الآفات الخمس . وقد افترص العـامة هذا المبدأ ، وتبعه خلق كثير ، وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم ، فابتلى بهم الناس ، وقوى أمرهم حتى أنهم كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، وتبعهم قباذ الملك ، وتعصب لهم فجعل المزدكية الدين الرسمى لفارس ، فعظم أمرهم واعتنق مذهبهم آلاف من الناس .

إبان حركة مزدك كان يتولى أمر الحيرة المنذر الثالث (٥٠٦ — ٥٥٤م) وهو الذى تسميه العرب ابن ماء السماء ، لقب كان لأمه مارية أو ماوية ، فدعاه قباذ ملك الفرس إلى الدخول معه فى الدعوة الجـديدة فأبى ، فبلغ التوتر بينهما غايته ، ومن جانب آخر كان الحارث بن عمرو الـكندى طامعاً فى الحيرة وليس لديه ما يحول دون اعتناقه المزدكية ، فآمن بها ، وأدرك قباذ أن الحارث قوى الشخصية واسع الدهاء فعقد معه معاهدة على أن يكون للحـارث وقومه مادون جنوب الصراة [1] يسيمون فى تلك المنطقـة أنعامهم ، وما فوقها فهو لقباذ ، ثم ولاه ملك الحيرة بعد أن طرد المنذر منها عام ٥٢٩م.

ليس لدينا من الإشارات التاريخية ما يعين على توضيح موقف الحارث هل آمن بالمزدكية عقيدة أم اتخذهـا وسيلة لتحقيق مطامعه السياسية دون أن

---

١ ـ الصراة قناة تصل بين دجلة والفرات قرب بغداد اليوم .

تمتد مبادئها إلى الواقع العملي فى حياته ، لكن من الواضح أن فى أخلاقه ما يود أن يسنده بهذا المعتقد ، وبما لا يخاف منه لو شهر به بين الناس ، وهو اتجاه سيكون لنا هادياً فى تفسير اتجاهات امرىء القيس الغزلية فيما بعد .

على أن مقام الحارث فى الحيرة لم يطل ، ذلك أن كسرى أنوشروان لم يكن على رأى أبيه فى المزدكية ، فتتبع وهو ولى العهد مزدك وأصحابه ، ودبّر لهم مذبحة عظيمة عام ٥٢٣م قُتِلَ فيها منهم خلق كثير ، ثم تعقبهم فى كل مكان ، فلما آل إليه الملك بعد وفاة قباذ عام ٥٣١ م ، ألغى اتخاذ المزدكية ديناً رسمياً للدولة ، ثم أعاد المنذر الثالث إلى الحيرة ، فلما عاد المنذر عزم على الانتقام من الحارث بن عمرو ، فطلبه وكان مقيما بالأنبار ففر بماله وولده وهجائنه ؛ فتتبعته خيل المنذر من تغلب وبهراء وإياد ولحقته بأرض كلب فهرب الحارث تاركاً إبله وهجائنه فانتهبوها ؛ وقتلوا ولديه عمرا ومالكا وأسر بنو تغلب ثمانية وأربعين من بنى آكل المرار ، قدموا بهم على المنذر فضرب رقابهم بجفر الأملاك فى ديار بنى مَرِين العباديين[1] وصار الحارث إلى مسحلان فقتلته كلب عام ٥٤٠م ، ويقول الكنديون إنه لم يقتل ولكنه مات مجهداً وهو يلاحق ظبياً فى رحلة صيد ، والرواية الأولى أقرب إلى منطق الأحداث .

وقد ترك موت الحارث صدى أليماً لدى قومه وأسرته ، وعدد من القبائل اليمنية التى كانت تقطن وسط الجزيرة وشمالها الشرقى ، وتعلق عليه الأمل فى وحدتها وبقائها وأمنها ، وحفظ لنا أبو تمام فى حماسته الصغرى (أو الوحشيات) بيتين لحميرى مجهول ينعاه فيهما :

---

١ — مكان بين دير هند والكوفة .

ياخليلىَّ بكِّيا وانعَيا لى أبَا حُجرْ
أبْلغا لى بكاءه حيث لا يبلغ الخبر

كما سجل امرؤ القيس مأساة قومه فى أبيات تضمنها ديوانه :

ألا يا عين بكّى لى شَنِينَا وبكّى لى الملوكَ الذاهبينا(1)
ملوكاً من بنى حُجْر بن عمرو يساقون العشية يقتلونا
فلو فى يوم معركة أُصيبوا ولكن فى ديار بنى مرينا
فلم تُغْسَل جماجُمهم بِغَسْلٍ ولكن بالدماء مُرَمَّلينا
تَظلُّ الطيرُ عاكفةً عليهم وتنتزِع الحواجِبَ والعيوناَ

وربما كان عمروٌ بن كلثوم ، وهو تغلبى ، يشير فى البيت التالى من معلقته إلى نفس الأحداث :

فآبوا بالنِّهَاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مُصَفَّدينا

خلال عزل المنذر الثالث عن ملك الحيرة ، وتولية الحارث بن عمرو الكندى عليها ، تنفسّت قبائل وسط الجزيرة الصعداء ، كراهية فى المنذر وهربا من قسوته ، ورحّبت بالحارث ورغبت إليه أن يولِّى عليهم من أبنائه من يحكمهم ليبطل ما بينهم من الغزوات والحروب ، ففرق أولاده فيهم :

حجر بن الحارث على أسد وغطفان .

وشرحبيل على بكر بن وائل بأسرها وبنى حنظلة والرباب .

---

(1) شنين : فعيل من الشن وهو الصب .

ومعد يكرب على قيس عيلان بأسرها .

وسلمة على تغلب والنمر بن قاسط .

ورواية حماد فى الأغانى تجعل له ابنا خامسا اسمه عبد الله ولاّه على قبيلة عبد القيس ، كما يجعل معد يكرب مكان سلمة ، وسلمة مكان معد يكرب فى توزيع القبائل .

وبقى أبناء الحارث على ما خلفهم أبوهم عليه ، لكن المنذر الثالث أخذ يسعى بينهم بالوقيعة انتقاماً لنفسه منهم ومن أبيهم ، يهادى سلمة ويرسل إلى شرحبيل من يوغر صدره على إيثار أخيه بالهدايا دونه حتى تحاربوا ، فقاتل سلمة بن الحارث ، ومعه بنو تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة والصنائع [1] ، أخاه شرحبيل بن الحارث ، ومعه قبائل بكر بن وائل وطوائف من بنى عمرو بن تميم والرباب وبنو حنظلة ، والتقى الاثنان فى الكُلاب [2] واشتدت الحرب بينهما فتخلى عن شرحبيل بنو حنظلة وبنو عمرو والرِباب وثبت معه بنو بكر ، وتخلى بنو سعد عن سلمة وثبت معه بنو تغلب والصنائع ، فكانت الدائرة على شرحبيل وصحبه ، وقتل شرحبيل نفسه [3] وعرفت

---

(١) الصنائع قوم من شذاذ العرب كانوا يحاربون مع الملوك بأجر أو بجزء من الغنائم .

(٢) الكلاب : ماء بين الكوفة والبصرة ، أو بين جبلة وشمام .

(٣) فى رواية ابن قتيبة أن قاتل شرحبيل يوم الكلاب الأول هو أخوه معديكرب ، وليس سلمة ، وهو غير صحيح ، لأن معديكرب كان حاكما على قيس عيلان ، بعيدا عن مسرح الأحداث ولم يشارك فيها .

هذه المعركة عند العرب بيوم الكلاب الأول[1] . وقد أشار إليها امرؤ القيس فى قصيدته التى مطلعها :

أرانا مُوضِعين لأمر غيبٍ ونسحر بالطعام وبالشراب[2]

إلى أن يقول :

وأعلم أننى عما قليل سأنشب فى شبا ظفُر وناب[3]

كما لاقى أبى حجر وجدّى ولا أنسى قتيلا بالكلاب

وفى آخر الأمر أدرك سلمة نوايا المنذر السيئة ، فخرج من تغلب والتجأ إلى بكر بن وائل خصومهم التقليديين فأذعنوا له ، وملكوه عليهم ، فبعث فيهم المنذر يدعوهم إلى طاعته فأبوا ، فسار إليهم ومعه تغلب والنمر بن قاسط وكانت بينهم وقعة على جبل أوارة ، دارت فيها الدائرة على سلمة وأنصاره ، فتلهم المنذر وأحرق نساءهم ، وذلك بنجد قريبا من عام ٥٤٨ م ، وتعرف هذه المعركة عند العرب بيوم أوارة الأول[4] .

---

(١) للعرب يومان مشهوران باسم الكلاب ، الأول كان بين شرحبيل وسلمة على ما أشرنا إليه . والثانى كان بين بنى سعد والرباب وبين الحارث بن كعب وقبائل من اليمن ، وفيه قتل عبد يغوث بن وقاص الحارثى بعد أن أسر ، وقال وهو فى الأسر قصيدته المشهورة :

أيا راكباً إمّا عرضت فبلّغن نداماى من نجران أن لا تلاقيا

(٢) موضعين : مسرعين — لأمرغيب : للموت المغيب ، يريد أننا نسرع فى آجالنا نحو الموت دون أن ندرى ، ونخادع أنفسنا عنه بالجميل من الطعام والشراب .

(٣) يريد أنه سيموت كما مات أبوه وأجداده من قبل .

(٤) رواية ابن رشيق القيروانى فى كتابه العمدة تجعل سلمة ومعديكرب اسمين لشخص واحد . وأوارة اسم الجبل الذى تمت عليه المعركة . وهناك يوم يعرف بيوم أوارة الأخير ، وكان بين عمرو بن هند ملك الحيرة وبين بنى دارم ، وكانت الغلبة فيه لعمرو .

وبقى حجر بن الحارث ملكا على بنى أسد ، لـكنه أساء سيرته فيهم ، وشقّ فى جمع الضرائب منهم ، فلما قُتل أخواه تضعضع نفوذ كنـدة ، فخرج بنو أسد عليه ، وحجر يومئذ بتهامة ، ونبذوا طاعته ، ورفضوا دفع الإتاوات وضربوا رسله ، فبلغ ذلك حجراً فسار إليهم بجند من ربيعة ، ومن جند أخيه من قيس وكنانة ، فأتاهم وأخذ سراتهم وجعل يقتلهم بالعصا ، فسُمُّوا « عبيد العصا » ، وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم فى جنوبى وادى الرمّة إلى تهامة ، وحبس جماعة من أشرافهم فيهم عمرو بن مسعود بن كندة بن فزارة سيد بنى أسد ، وشاعرهم عبيد بن الأبرص ، الذى استعطف حجراً فى قصيـدة مُؤثرة :

يا عينِ ما فابكى بنى أسدٍ هُمُ أهلُ النّدامهْ
أهل القِبابِ الحُمْرِ ، والنَّعم المُؤَبَّل ، والمُدامه(١)
وذوى الجيادِ الجُرْدِ ، والأَسَل المثقَّفَةِ المُقامه(٢)
مهلاً أبَيْتَ اللعن ! مهلاً ، إن فيما قلتَ آمه(٣)
فى كل وادٍ بين يثربَ والقصـورِ إلى اليمامَه
تطريبَ عانٍ ، أو صياح مُحَرَّقٍ ، أو صوتُ هامه(٤)

---

(١) النعم : المال الراعية ، وأكثر مايقع على الإبل ــ المؤبل : المقتنى ــ المدامه : الخمر

(٢) الجيـاد الجرد : الخيل القصيرة الشعر ؛ وهو مما يستحب فى الخيل ــ الأسل المثقفة : الرماح المحددة المقومة .

(٣) الآمه : العيب .

(٤) الطرب : غناء الإنسان فرحا أو حزيناً ، وتطريب عان : تأوهات أسير ــ الهامة : رئيس القوم ، والهامة من طير الليل الصدى ، وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذى لا يدرك بثأره تصير هامة فتزقو عند قبره تقول : اسقونى اسقونى . فإذا أدرك بثـأره طارت ، وكلا المعنيين قد يكون مرادا هنا .

ومنعتهم نجـــدا فقـد حلّوا على وجل تهامه
بَرِمتْ بنو أســـد ، كما برمتْ ببيضتها الحمـامه
جعلت لهـا عودين من نَشَمٍ ، وآخر من ثُمامه[1]
إما تركتَ تركتَ عفوا ، أو قتلْتَ فلا ملامه
أَنت المليـك عليهمُ ، وهم العبيدُ إلى القيـامه
ذَلُّوا لسوطك مثلَ ما ذلَّ الأشيْقِرُ ذو الخِزامه[2]

فعفا حجر عنهم رحمة بهم ، وتأثّرا برائعة شاعرهم ، وبعث فى إثرهم فأقبلوا وهم يضمرون الانتقام . وقد ثأروا لأنفسهم فعلا وقتلوه .

أورد صاحب الأغانى أربع روايات عن مقتل حجر : الأولى لابن هشام الكلبى ، المتوفى سنة ٢٠٤ هـ — ٨١٩ م ، وموجزها أن بنى أسد وهم على مسيرة يوم من تهامة استشاروا كاهنهم عوف بن ربيعة فأذن لهم ، فركبوا كل صعب وذلول فما أشرف النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قبّته ، وحاول حجابه أن يدفعوا عنه المغيرين ، لـكن عِلْباء بن الحارث الكاهلى ، وكان حجر قد قتل أباه ، تمـكن من الإفلات منهم ثم طعنه فقضى عليـه ، فانصرف عن حجر حراسه لقسوته عليهم ، وانتهبوا هجائنه ، ولفوه فى ريطة بيضاء وطرحوه على ظهر الطريق ، وضم عمرو بن مسعود عياله وقال أنا جار لهم .

وأسند أبو الفرج الرواية الثانية إلى أبى عمر الشيبانى المتوفى سنة ٢١٣ هـ —

(١) النشم : شجر جبلى تتخذ منه القسى — الثمامة : نبت بالبادية .
(٢) الأشيقر تصغير الأشقر ، وهو الأحمر من الدواب — الخزامة : حلقة من شعر تجعل فى وترة أنف البعير يشد بها الزمام .

٨٢٨ م ، وكان عالماً بالشعر وغريب اللغة والرواية ، وجمع شعر أكثر من ثمانين قبيلة ، ومُؤدّى روايته أن حُجْرا خاف على نفسه من بنى أسد ، فاستجار بِعُوَيْر بن شِجْنة التميمى لبنته هند وأهله ، ثم مال على بعض بنى سعد ابن ثعلبة فأدركه علباء بن الحارث الأسدى وغافله فقتله .

صاحب الرواية الثالثة هو الهيثم بن عدى المتوفى سنة ٢٠٦هـ = ٨٢١ م ، ويذكر فيها أن حجرا لما استجار عُوَيْر بن شِجْنة لبنيه وخدمه تحول عنهم فأقام فى قومه كندة مدة ، وجمع لبنى أسد حشدا عظيما من قومه، وأقبل مُدِلاّ بمن معه، فتآمرت بنو أسد بينها ، وقالوا : والله لئن قهركم هذا ليحكمن عليكم حكم الصبى ! وما خير عيش يكون بعد قهر ، وأنتم بحمد الله أشد العرب فموتوا كراما . فقرّ رأيها على مواجهته، فساروا إليه وقد ارتحل نحوهم، فلقوه فاقتتلوا قتالا شديدا، وكان صاحب أمرهم عِلْباء بن الحارث ، فحمل على حجر فطعنه، فقتله ، وانهزمت كندة وفيهم يومئذ امرؤ القيس ، فهرب على فرس شقراء له وأعجزهم ، وأسروا من أهل بيته رجالا وقتلوا آخرين ، وملئوا أيديهم من الغنائم ، وأخذوا ما كان من جوارى حجر ونسائه وأمواله فاقتسموها بينهم .

ونسب الرواية الرابعة إلى أبى يوسف يعقوب بن السكيت ، العالم اللغوى المتوفى عام ٢٤٥ هـ = ٨٥٩ م وموجزها أن حجرا كان قد وفد على أبيه الحارث بن عمرو فى مرضه الذى مات فيه ، وأقام عنده حتى هلك ، ثم أقبل راجعا إلى بنى أسد ، وكان قد أغار عليهم فى النساء وأساء ولايتهم ، وكان يقدّم بعض ثقله أمامه ، ويُهَيِّأ له نزله ، فلما دنا من بلاد بنى أسد ، وقد بلغهم

موت أبيه طمعوا فيه، فلما أظلّهم وضربت قبابه تشاورت بنو أسد وقرّ رأيهم على الفتك به ، فخرج نوفل بن ربيعة بن خدان فى خيل له ، حتى أغار على الثّقل فقتل من فيه ، وساق الثّقل وأصاب قينتين لحجر ، ثم أقبل حتى قومه فلما عرفوا ماحدث أدركوا أن حجرا سوف يقاتلهم وأن لامفرّ من مواجهته، وبلغ حجرا أمرهم فأقبل نحوهم ، غير أنهم هزموا أصحابه ثم أسروه وحبسوه ، وتشاوروا فى قتله فعارض كاهنهم ، فلما رأى ذلك عِلْباء بن الحارث خشى أن يتوا كلوا ، فدعا غلاما من بنى كاهل — هو ابن أخته وكان حجر قد قتل أباه — فقال له : خُذْ بثأر أبيك ، فدخل الغلام عليه فقتله .

تلك هى الروايات الأربع لا أستثنى منها رواية ابن الكلبى رغم ميل العلماء المحدثين إلى تجريحه ، فلا يستقيم مع المنطق أن نقبل روايته عندما تخدم رأيا يتفق مع هوانا ، ثم نرفضها عندما تأتى على غير ما نريد لمجرد أن قائلها ابن الكلبى ، ودون أن يكون وراء الرواية نفسها ما يزيدها قربا من الواقع أو بعدا عنه غير اسم الراوى . وفى كلٍّ نقص وفى كلٍّ زيادة ، وإذا تدارسناها كلها فى ضوء شعر امرىء القيس ، وشعر عبيد بن الأبرص شاعر بنى أسد ، وكان معاصرا للأحداث وطرفا فيها ومسه هجيرها ، وجدنا :

أن امرأ القيس يأسى لإفلات علباء بن الحارث من غارة قام بها على بنى أسد ، وتخصيصه من بين قومه أمر يوحى بأهميته ، ويؤكد الدور الذى لعبه فى مقتل حجر :

وأفلتهنَّ عِلْباءُ جريضاً ولو أدركنه صَفِرَ الوِطَابُ

وفى مقطعة أخرى ينحى باللائمة على البراجم ويربوع ودارم وآل مجاشع، وكلها قبائل من تميم، لأنهم خذلوا عمه شُرَحْبيل بن عمرو وقعدوا عن نصرته وغدروا به فلم يعلموه بخذلانهم له فيرحل عنهم سالما قبل حلول العدو به. ويفخر بما فعل عُوَيْز بن شِجْنة من إجارته لقومه بعامة، ولهند أخته بخاصة، ويذكر اسمها صريحا:

ألا قَبَّح اللهُ البَرَاجِمَ كلَّها　　وجدَّع يَرْبوعا وعفَّر دارماَ
وآثر بالمَلْحاة آل مُجاشِـع　　رقابَ إماءٍ يقتنين المفارِماَ
فما قاتلوا عن ربِّهم وربيبهم　　ولا آذنوا جاراً فيظعن سالمـاَ
وما فعلـوا فِعْلَ العُوَيْزِ بجـاره　　لدى باب هنـدٍ إذ تجرَّد قائمـا

وفى مكان آخر يمدح بنى عوف قوم العُوَيْز، وأنهم ابتنوْا لهم حسباً بالوفاء، وأضاعه غيرهم بالغدر، يمنعون جارهم ولا يسلمون من يلوذ بهم، ولا يصنعون ما صنع بنو حنظلة بن مالك بن زيد مناة، من قبيلة تميم، حين شاركوا فى الغدر بشُرَحْبيل، ثم يمدح العُوَيْز بأنه كان وفيًّا لم يفرِّط فيمن استجاروا به:

إنَّ بنى عوفٍ ابتنوْا حسـباً　　ضيَّعه الدُّخْلُلُون إذ غدروا(١)
أدَّوْا إلى جارهم خُفَـــارته　　ولم يَضِـع بالمَغيب مَن نصروا
لم يفعـــــلوا فعلَ آل حنظلةٍ　　إنهم جَـيْرِ بئسَ ما ائتمروا(٢)

---

(١) الدخلل: خاصة الرجل ومداخله فى أمره.

(٢) جير: فى معنى حسب، وقيل: معناها حقا، وهى فى معنى القسم.

لـكن عُوَيرِ وفى بذمّته لا عَوَرٌ شانه ولا قِصَرُ

وأن عويرا كان فى عمله هذا مثالا عالياً فى الوفاء ، فلم يكتف بإجارتهم وإنما حمل هنداً ورفقتها من نجد حيث مسرح الأحداث إلى نجران مهبط قومها الأول لتستقر آمنة :

عويرٌ ومَن مثل العوير ورهطِهِ وأسعدَ فى لَيْـل البلابلِ صفوانُ(١)
هُمُ أبلغوا الحىَّ المضلّلَ أهلَهُمْ وساروا بهم بين العراق ونجرانِ

أما الأحداث كما يصورها شعر عبيدبن الأبرص فمؤداها أن حجراً قُتِل فى معترك ، ولقى حتفه بين اشتجار الأعنة ، ورنين القِسِىّ ، وقراع الرماح ، وتنازل الفرسان :

يا ذا المخوّفنا بمقتـل شيخه حجرٍ ، تمنّى صاحبُ الأحلامِ
لا تبـكنا سفها ولا ساداتِنا واجعـل بكاءك لابن أمّ قطام
حجرٍ غداة تعاورتْه رماحُنا بالقاع بين صفاصِفٍ وإكام
حتى خطرن به وهنّ شوارع من بين مقتصـد وآخر دام
والخيل عاكفة عليه كأنهـا سُحُقُ النخيل نأتْ عن الجرّام

ويفهم من شعره أيضاً أن امرأ القيس حضر المعركة ، وفرّ عند الهزيمة :

وركضُكَ لولاه لقيتَ الذى لقوا فــذاك أنجاك مما هُنَا لِكا

ثم يعيّر عبيد امرأ القيس بأنه فرّ وترك أباه مقتولا ، طريح الأرض ،

---

(١) البلابل : الأحزان والفكر .

للغربان تريغ سواد عينيه ، وأن قومه أسد! لايدينون للملوك ، لقاحاً لم يصبهم في الجاهلية سباء ، لايحفلون من الحرب ، ولا يقعدون عنها إذا دعوا إليها ، وأن امرأ القيس كان مجدودا فلم يدرك علباء بن قيس ، ولو أدركه لدارت عليه الدائرة :

أتوعد أسرتى وتركتَ حُجْراً ... يُريغ سواد عينيه الغرابُ

أبوْا دينَ الملوك فهم لقاح ... إذا نُدِبوا لحرب ما أجابوا

فلو أدركتَ علباءَ بن قيس ... قنعت من الغنيمة بالإياب

شعر امرىء القيس إذن ، وشعر عبيد بن الأبرص يلتقيان فى تصويرهما للحادث ، ويتفقان مع الرواية الثانية ، رواية الهيثم بن عدى ، ومن ثَمَّ فهى الرواية التى نرتضيها من بين الروايات الأربع التى أوردها صاحب الأغانى ، ونقلها عنه أو شاركه فى روايتها آخرون ، ولا نرى بأسا أن نستهدى الروايات الأخرى فى تقويم رواية الهيثم وتفصيل موجزها إذا احتاج الأمر إلى بيان .

لم تكن دولة كندة على غرار دولتى المناذرة أو الغساسنة ، وإنما مجرد اتحاد أو تحالف يجمع بين عدد من القبائل ، ولم تكن تعتمد على سند قوى من فارس أو بيزنطة ، بل إنها بعد أن توطد سلطانها أصبحت منافسا خطراً لكل من الحيرة وبنى غسّان الواقعتين تحت نفوذ هاتين الدولتين ، وبخاصة المناذرة ملوك الحيرة ، فقد طردوا ملكها وضموها إلى حلفهم كما أشرنا إليه من قبل.

ولم تكن للكنديين حضارة متميزة ، ولا مدن ضخمة ، لأنهم كانوا أقرب إلى البداوة ، والشيء الواضح فى قيام دولتهم القصيرة العمر أنها كانت أول محاولة فى قلب الجزيرة العربية لتوطيد مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية لها زعيم ، وهى محاولة لم تنجح على أيديهم ، ثم قدّر لها أن تنجح فيما بعد على يد القرشيين بظهور الإسلام . وأحوالهم الاجتماعية ، رغم أنهم جنوبيون ، لا تختلف عن أحوال عرب الشمال .

ولقد ذهب سقوط أسرة حجر بنفوذهم السياسى كدولة ، لكنهم كقبيلة ما يزالون حتى الآن ، ولعبوا دوراً كبيراً فى الصدر الأول للإسلام ، واشتهر من بينهم عدد من القواد ، وكان لبعضهم دور ملحوظ فى فتح فارس والعراق. ومنهم حجر بن عدّى ، وكان من عظماء أصحاب الخليفة الرابع ، علىّ بن أبى طالب ، فأراد أن يولّيه رياسة كندة ، ويعزل عنها الأشعث بن قيس فأبى أن يقبل ذلك والأشعث حىّ ، وقد قُتل حجر فى المعارك التى دارت بين على ومعاوية ، وكلاهما ، حجر والأشعث ، من أحفاد الحارث بن عمرو آكل المرار ، وجد امرئ القيس .

سيرة شاعر

كأى شاعر جاهلى آخر لا نعرف عن طفولته كثيراً ، أمر طبيعى فى مجتمع مُتبدٍّ ، يحسب للسنّ حسابه ، ويجعل لتقدم العمر وزنه ، ويسقط من حساب الرعاية والعناية فى مجال الحكاية أو الرواية ، ما يتصل بالمرء فى سنّ طرّية لا يدفع معها غازيا ، ولا يهجم مقاتلا ، ولا يقول شعراً تقوم فيه الكلمة مقام السيف ، والإشادة بالأمجاد والمفاخر مقام الطعن والنزال .

هو فى رواية الأصمعى : امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المُرار بن معاوية بن ثور .

وقد ارتضى ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء » رواية الأصمعى ، فنقلها عنه دون أن يشير إليه .

ويتفق محمد بن حبيب مع الأصمعى فى روايته حتى حجر آكل المرار ثم يضطرب به الأمر ، فيزيد أسماء هى خلط ذاكرة وتكرار متذكّر ، فهو عنده: امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الملك بن عمرو بن حجر آكل المرار بن عمرو ابن معاوية بن الحارث بن يعرب بن ثور بن مُرْتع بن معاوية بن كندة .

وتأتى رواية ابن الأعرابى متهالكة ظاهرة القصور ، تسقط الملك الحارث جد امرئ القيس وكان أعظم ملوك كندة وأذيعهم صيتاً ، وأكثرهم جرياناً فى شعر حفيده ، ويسقط معه حجرا آكل المُرار وهو مؤسس المملكة

وبانيها فيما تذكر كتب التاريخ ، فهو يرى أنه : امرؤ القيس بن حجر ابن عمرو بن معاوية بن الحارث بن ثور .

وقد ارتضينا أن نقف بنسب امرئ القيس عند ثور ، وهو أول من حمل لقب كندة ، ولم نتجاوزه إلى ما بعدها ، لأن الروايات التى ترتفع به إلى كهلان أبى الشعب الجنوبى الثانى ، المقابل لحمير[(١)]، تدخل فى دائرة الشكّ وتخضع فى مجال النقد والدراسة لما تخضع له بقية الأنساب العربية .

واسمه حندج ، وعدىّ ومُلَيْـكَة ، ويروى الفيروزابادى فى معجمه أن اسمه : سليمان ، وهو رأى لم ينسبه إلى أحد ، ولم يدعمه بخبر ، ولم أقف له على مصدر ، وليس فى طبيعة الأسماء الجاهلية ما يدعمه .

وكان يكنى أبا الحارث ، أوأبا وهب ، أو أبا زيد ويلقب بالملك الضلّيل ، وامرئ القيس ، والقيس الذى يضاف إليه صنم كان يعبد فى الجاهلية ، وتعدل الكلمة فى اللغة الشمالية عبد القيس ، وبه سُمِّى كثيرون ، وأصاب ثعلب شاكلة الصواب حين رأى أنها بمنزلة عبد الله وعبد الرحمن ويقال له : ذو القروح ، وإياه عنى الفرزدق فى قوله :

وهب القصائدَ لِى النوابغُ إذ مضوا
وأبو يزيد وذو القروح وجَـرْول[(١)]

---

(١) انظر جدول الأنساب العربية فى آخر الكتاب .

(١) النوابغ هم : النابغة الذبيانى ، والنابغة الجعدى ، والنابغة الشيبانى . وأبو يزيد شاعر مخضرم فحل ، عمر طويلا ، ويقال أنه مات فى خلافة عثمان ، واسمه ربيعة بن مالك ، ولقبه المخبل ، وكنيته أبو يزيد ، وإليه يشير الفرزدق . وذو القروح : امرؤ القيس . وجرول يعنى به الحطيئة ، شاعر مخضرم ، نشأ معلول النسب ، متبرماً بالناس يهجوهم جميعاً ، جيد الشعر ، مستوى الأسلوب ، ينسب إلى مدرسة زهير ، توفى عام ٥٩ هـ = ٦٧٨ م .

وأمه تغلبية ، فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير ، وأخواها كليب ومهلهل . وكانت تغلب القبيلة تقطن فى الجاهلية الشمال الشرقى من الجزيرة العربية[1] ، وذات بطش وصولة ، وكان يقال : « لو أبطأ الإسلام لأكلت تغلب الناس » . وكليب[2] هو الذى تضرب به العرب المثل فى العزّة فيقال : « أعزّ من كليب وائل » ، ولما قتله جسّاس بن مرة فى ناقة لامرأة يقال لها البسوس كانت فى جواره ، اندلعت الحرب بسببها بين قبيلة بكر التى ينتمى إليها جسَّاس ، وتغلب التى ينسب فيها كليب ، واستمرت أربعين عاما ، وعرفت بحرب البسوس ، وكانت بدايتها قرب نهاية القرن الخامس الميلادى ، وانتهت بتدخل المنذر الثالث ملك الحيرة حين أصلح بين الفريقين وهما أولاد عمومة قريباً من عام ٥٢٥ م ، فاستجابوا له لأن الحرب أنهكتهما فلم تعد بهما قدرة على مواصلة القتال .

وإذا كانت أخبارنا عن كليب نادرة لا تتجاوز فى مضمونها حديثاً قصيراً عن عزته ودوره فى الحرب ، فأخبار مهلهل وجيزة فى مادتها ، وافرة فى دلالتها ومع غيرها تصلح تفسيراً لفلسفة امرىء القيس فى الحياة إذا ارتضينا الرواية القائلة أن أمه أخت مهلهل .

آلت سيادة تغلب إلى عدى بن ربيعة ، أو مهلهل كما شهر فى كتب

---

(١) أنظر مصور توزيع القبائل فى آخر الكتاب .

(٢) اسم كليب الحقيقى وائل بن ربيعة ، فلما أصبح سيد تغلب اختار شاهداً على سلطانه جرو كلب ، ثم حمى أرضاً من العالية (ما فوق نجد إلى أرض تهامة إلى ما وراء مكة) وكان يلقى ذلك التكليب فى أية بقعة منها شاء فلا يستطيع أحد أن يرعى أو يستقى من مكان يسمع فيه عواؤه إلا بإذن من وائل ، فعرف وائل من ذلك الحين بلقب كليب وائل ، أو بكليب فحسب .

الأدب ، بعد مقتل أخيه كليب ، وكان على النقيض منه ، جادة وأخلاقاً وسيرة فى الحياة .

كان صبوح الوجه ، فصيح اللسان ، محبّاً للحياة ، يعيش عيشة الفرّاغ ، عكوفاً على الشراب ، مولعاً بالنساء ، فلما قُتِل أخوه رثاه بالشعر ، وتهدد بنى مرة قوم جساس وتوعدهم بالثأر ، وغبر على ذلك زمناً ، يتكلم كثيراً ولا يفعل شيئاً ، فضاق به قومه ، وقالوا : « إنما هو زير نساء لا يصلح لحرب ولا يقوى على الأخذ بالثأر » ، وانتهى إليه ما قالوا ، فثارت حميَّته ، وجزَّ شَعره ، وقصّر ثوبه ، وهجر اللهو ، وحرَّم على نفسه الشراب ، وأنشأ :

أقول لتغلب والعزّ فيها أثيروها لذلكم انتصارَ
خذوا العهد الأكيد علىّ عمرى بتركى كل ما حوت الديارُ
وهجرى الغانيات وشرب كأس ولبسى جُبَّة لا تستعارُ
ولست بخالع درعى وسيفى إلى أن يخلع الليلَ النهارُ
وإلاّ أن تبيد سراةُ بكر فلا يبقى لها أبداً آثارُ

وتزعّم قومه فى الحرب ، فلمّا كان يوم قِضَة ، وهو آخر أيّامهم ، وكان على تغلب ، أسره الحارث بن عُباد ، وهو لا يعرفه ، فقال له الحارث : تدلّنى على عدىّ بن ربيعة المهلهل وأنت آمن ؟ فقال المهلهل : إنْ دللتك على عدى فأنا آمن ولى دمى ؟ فقال الحارث : نعم ، قال : فأنا عدى ! فجزّ ناصيته وخلاّه . ثم خرج مهلهل فلحق باليمن ، فنزل فى جَنْب ، حىّ من مَذْحِج ، وكان صاحب لوائها معاوية الخير بن عمرو بن معاوية ، فأجار مهلهلا ، ثم خطب إليه ابنته ، فتوقف مهلهل قائلا : إنى طريد غريب فيكم ، ومتى أنكحتكم قال الناس

اغْتَسَرُوه ، فأكرهوه حتى زوّجها ، وكان مهرها أدما ، وفى ذلك يقول :

هانَ على تغلب بما لقيتْ   أخت بنى الأكرمين من جُشَمَه[1]
أنكحها فقدها الأراقم فى   جَنْب، وكان الحِباء من أدم[2]
لو بأبانَيْن جاء يخطبها   رُمِّلَ ما أنفُ خاطبٍ بدمِ[3]

ثم انحدر فلقيه عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، عمّ المرقش وأبو صاحبته أسماء ، فأسره ومات المهلهل فى إساره قريبا من عام ٥٣١ م .

كان مهلهل شاعرا ولم يكن محاربا ، ويعدّه علماء القرنين الثالث والرابع الهجرى فى العراق أقدم ممثل للشعر العربى ، وهى فكرة سنناقشها فيما بعد ، وربّما كان مصدرها بيتا من الشعر ورد فى لاميّة الفرزدق ، والتى ضمّنها حديثا عن عدد من شعراء الجاهلية ، ولمحا من أخبارهم ، ونقدات سريعة لشعرهم ، وأشرنا لبيت منها قبلا ، والبيت الذى اتكأ عليه علماء العراق منها فى اعتبار المهلهل أقدم شاعر هو :

وأخو بنى قيس وهُنّ قَتَلْنَه   ومهلهل الشعراء ذاك الأوّلُ[4]

(١) جشم فرع من تغلب كان مهلهل سيده .

(٢) الأراقم تطلق على أحياء من تغلب هم : جشم ومالك والحارث ومعاوية وثعلبة وعمرو ، بنو بكر بن حبيب بن غنم بن تغلب .
الحباء : المهر ـ الأدم : الجلد ، يريد أنهم لم يكونوا أرباب نعم فيمهروها الأبل ، وإنما دباغون الأدم ومنه كان مهرهم .

(٣) أبانان : جبلان ، يقال لأحدهما أبان الأبيض ، والآخر أبان الأسود ، وكانت فى سفحهما منازل تغلب .
رمل بالدم : لطخ به ، وما زائدة .

(٤) أخو بنى قيس : طرفة بن العبد .

وطبقا لرواية « الفهرست » كان للمهلهل ديوان برواية الأصمعي وابن السِّكِّيت ، ولكنه ضاع ولم يصلنا ، ولو وصلنا لأفاد كثيرا فى إلقاء بعض الضوء على فجر القصيدة العربية .

وكان لامرىء القيس خالان آخران ، هما عديّ وسلمة ، لم يبق لهما من خبر غير اسميهما ، ولم يتبع أحد آثار أحفادهم ، غير ليلى بنت مهلهل ، لأنها ستصبح أم الشاعر عمرو بن كلثوم .

تكاد الروايات تجمع على هذه الخئولة ، إلاّ رواية واحدة تقول إن أمّ امرىء القيس هى : تَمْلِك بنت عمرو بن زبيد من مَذْحِج ، فهى يمنية وليست عدنانية . واستشهد رواتها ببيت شارد ينسب لامرىء القيس أورده صاحب الأغانى :

ألا هل أتاها ، والحوادث جمّة   بأنّ امرأ القيس بن تَمْلِك بيقرا

ولم يرد البيت فى أى من مخطوط ديوان امرىء القيس أو مطبوعه ، ويخيل إلىّ أنه صنع ليدعم الخبر الذى تضمنته الرواية .

ترددت طويلا أمام خئولة كليب ومهلهل لامرىء القيس ، لأنه لم يعرض لهما ولا مرة فى شعره ، ولهما من الصفات ما يفتح أمامه المجال للفخر والادّعاء واسعاً وعريضاً ، ولتغلب من الأمجاد ما يجعل الانتساب فيها شرفاً وعزة . كما أن أحداث حرب البسوس وكانت فاشية ومريرة وقاسية وعمّرت طويلا ، لاتترك صدى من أى لون فى شعر امرىء القيس ، ولا يعرض لها من قريب

أو بعيد . وإلى جانب ذلك يصرّح هو نفسه في قصيدة له ثابتة ، يلتقى فى روايتها الأصمعى والمفضل الضبى وآخرون، بأنّ خاله هو ابن كبشة[1] :

خالى ابن كبشة قد علمت مكانه ۝ وأبو يزيد ورهطه أعمامى

وقد أماطت النقوش التى اكتشفت حديثا فى اليمن اللثام عن هذه الشخصية وعرفنا منها أن اسمه يزيد ، وأن أبرهة ولاّه على كندة عام ٥٣٥ م ، وامرؤ القيس لمّا يزل صبياً ، فتزعم ثورة وطنية ضد الاحتلال الحبشى كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

يمكن أن يقال تأييدا للرواية الأولى أن التزاوج بين كندة والعدنانيين كان شائعا، فأصهر عمرو المقصور فى بكر كى يكسب ودّهم، وربما أصهر حجر فى تغلب ، وكانت على أيامه تتزعم القبائل العربيــة كلها فى الشمال الشرقى من الجزيرة بقيادة كليب وائل ، ليبلغ نفس الغاية . وأن امرأ القيس لم يعرض لحرب البسوس فى شعره لأن أحداثها انتهت مع مولده ، فلم يكتو بنارها ، ثم شُغل عنها فى شبيبته بمباذله ، كما شغل فى هذه الفترة عن أحداث قبيلته نفسها ، ثم توزعته أحداث الثأر وطلب الملك رجلا ، ولأن أخواله — إذا ارتضينا الرواية — تخلوا عنه فلم يسايروه فى حروبه حتى النهاية فى البدء ، والتزموا من أسرته موقف العداء فى خاتمة المطاف .

والرواية التى تقول إن كليباً قتل عمرا المقصور جد امرىء القيس، قبل أن

---

(١) لا نعرف شيئاً عن ابن كبشة غير إشارة امرىء القيس، وما ورد فى نقش أبرهة المشار اليــه ، ومن تتبعى للأسماء الجنوبية يغلب على ظنى أن « كبشة » اسم سيدة ، وإذن يكون يزيد منسوباً الى أمه لا إلى أبيه .

يولد هذا، حين تزعم قبائل ربيعة فى محاولة لتحريرها من التسلط اليمنى، تدعم رواية المصاهرة ولا تضعفها، فمن الشائع بين القبائل العربية فى القديم، وحتى أيامنا هذه، أن تكون المصاهرة بين كبار رجال القبائل سبيلا إلى دعم الصلات، وإزالة الإحن، وتقريب أواصر الود. فلعل حجراً رأى فى إصهاره إلى سيدى تغلب شيئاً يمكن أن يخدمه فى مجال السياسة والسيادة كما أصهر أبوه من قبل فى بكر مصلحة لا عاطفة.

وتأتى رواية إصهار حجر فى تغلب مقترنة فى الأعم الأغلب، بإصهار المنذر الثالث ملك الحيرة فى كندة (حكم من ٥٠٦ م إلى ٥٥٤ م)، وزواجه من هند بنت الحارث بن عمرو، أخت حجر وعمة امرىء القيس، فكان له منها عمرو بن هند طاغية الحيرة، وحكم من ٥٥٤ إلى ٥٦٨م، وإلى أمه ينسب، وزواج المنذر من هند ثابت تاريخياً، وانتسابها فى كندة قريب من اليقين. ولدينا شعر لعمرو بن لأى بن مَوْألة بن عائذ بن ثعلبة، من أشراف قبيلة بكر، يخاطب فيه عمرو بن هند، ويفخر عليه بأن قومه من بكر عاونوا فى الأخذ بثأر خاله حجر، وانتقموا له مع كندة من أعدائهم بنى أسد، وأمدّوا ابنه امرأ القيس بجيش هدم به الآمن من مساكنهم، وقتل رجالهم وهزمهم فى الحرب:

عمرَو بن هند إنّ مهلكةً   قولُ السفاهِ وشدّة الغَشْمِ
وبنا تُدُورِكَ فى بنى أسد   وَغَمٌ لخالك أكبر الوغمِ
قتلوا ابن أمّ قطام سيِّدَهم   حجرا وما برئوا من الإثم
فسما امرؤ القيس الهمام له   فى جحفل من وائل ضُخْمِ

لهُمُ فهدّم من مسا كنهمْ ما كان أرْعن آمنْ الهدمِ
لم يلق حيّ مثل صَبْحتهم في الناس من قَتْل ومن هزْمِ

وقد اعتنقت هند المسيحية ، بينما ظلّ زوجها المنذر على وثنيّته ، وبنت ديراً في الحيرة أقامت له شاهدا أوردت فيه نسبها كاملا ، وحفظ لنا ياقوت في « معجم البلدان » فقرات منه : « بنت هــذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو ، وأمَة المسيح ، وأم عبده ، وبنت عبيده »ومن اعتساف الرأى أن نقبل أحد الخبرين ، وهو زواج المنذر من كندة ، ونرفض الآخر ، وهو إصهار حجر في تغلب . دون مرجّح صريح ثابت من شواهد التاريخ .

لـكنّ إشارة بيت الشعر على تفرّدها وايجازها وقصورها ،لامجال لإنكارها أو تجريحها ، وفيما أرى تعدل الروايات الأخرى ، وانطلاقا مع دلالتها يغلب على ظنى أن القول بخئولة كليب ومهلهل لامرىء القيس مجرّد خبر نتلقّاه ، لانطمئنّ إليه يقينا ، ونتردد طويلا قبل أن نقول إنه مختلق من صنع الرواة . ولربّما نحتاج إلى التوفيق بين الروايتين ، ودون أن نكذّب الرواية الأولى ، أو نتجاهل إشارة الديوان ، نرّجح أن حجرا تزوّج فاطمة بنت ربيعة ، وليس من الضرورى أن تكون أمّ امرىء القيس ، فمن الثابت أن حجرا تزوج بأكثر من امرأة ، ويخيّل إلىّ أن النفور الذى كان قائماً بين امرىء القيس وزوجات أبيه كان مع فاطمة هذه : لأنها تِيهاً منها بشرف أسرتها ، وإحساساً بعراقة حسبها ، كانت تسرف فى الغطرسة على أميرات وأمراء البيت المالك الـكندى ،ممّا بغّضها إليهم ، وأوغر صـدورهم عليها . فأغفـل امرؤ القيس الحديث عن قومها فى شعره متعمّداً ، وانتظرت عمته هند ، زوج المنذر وأم

عمرو ملك الحيرة ، الفرصة المواتية ، لكى تثأر لنفسها وقومها ، فتعمّدت أن تذلّ فاطمة بنت ربيعة فى شخص ابنة أخيها ليلى بنت المهلهل ، وأم الشاعر عمرو بن كلثوم ، فأهانتها فى حفل عام ، وطلبت منها أن تخدمها حين دُعِى القوم إلى تناول الطعام ، ولم تسكت ليلى على الإهانة ، وأدرك ابنها ما أصاب أمّه ، فانتقم لها بقتل عمرو بن هند نفسه .

وُلد امرؤ القيس فى ديار بنى اسد ، وما حولها كان مسرح تنقلاته ، ومعظم الأمكنة التى تتردّد فى شعره من منازلهم ، عبر المنطقة التى تعرف بنجد وإليها تسبه ابن قتيبة على أى حال . ويبدو أن دائرة نشاطه كانت أوسع من ذلك ، فكان يرحل إلى اليمامة وإلى البحرين وإلى اليمن .

ولا نعرف له تاريخ ميلاد أكيدا ، وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى كان جلّة المستشرقين يدرسون امرأ القيس على أنه معاصر للرسول عليه السلام ، مَضَلّين برواية فارسية جاءت فى كتاب « تذكرة الشعراء » لدولة شاه السمرقندى ، ولم يشر دولة شاه إلى المصدر الذى اعتمد عليه أو نقل عنه ، ومن بين هؤلاء المستشرقين سيل Sale الانجليزى ، فى الفصل الثالث من مقدمته للترجمة الإنجليزية للقرآن ، وهنجشتنبرج Hengstenberg الألمانى فى مقدمته لمعلقة امرىء القيس عندما نشرها لأول مرة فى بونا عام ١٨٢٣ م ، وريسك Reiske فى مقدمته لمعلقة طرفة ، وهربلوه Herbelot فى مقال له عن لبيد بن ربيعة نشره فى المكتبة الشرقية . وكان رسموسن Rasmussen الوحيد فى عصره الذى أوضح فى كتابه « تاريخ العرب قبل

الإسلام » أن امرأ القيس كان معاصراً لعمرو بن هند ملك الحيرة (حكم من ٥٥٤ م إلى ٥٦٨ م) ، والحق أنه كان أقربهم جميعاً إلى الصواب .

بمقارنة الأحداث يمكن القول أن امرأ القيس طرق باب الحياة فى مشارف الربع الثانى من القرن السادس الميلادى ، قريبا من عام ٥٢٦ م ، جاء إلى الدنيا وجدّه الحارث ملك على كندة ، وسلطانها يمتــدّ فيشمل الحيرة ، وأبوه وأعمامه يتقاسمون قبائل وسط الجزيرة وشمالها الشرقى، يحكمونها بالسياسة طوراً وبالقهر أطواراً ، وكان هو أصغر أخوته ، فلم يكن بدعاً أن يصبح الولد المدلل ملء نهاره صيد ولعب ، ومحتوى ليله شرب وطرب ، يسير مع جمع من صحبه ممن هم على شاكلته ، من أبنــاء أسرته المالكة ، أو من أبناء سادة الأسر العربية من طيىء وكلب وبكر وغيرهم ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معــه ، وخرج للصيد فتصيَّد ، ثم عاد فأ كل وأ كلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم ، وغنَّته قيانه ، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء الغدير ، أو يملّ هو طول المقام ، فينتقل منه إلى غيره وفى مثل هذا الفراغ فإن المرأة تكوّن الاهتمام الأول للرجل ، و بخاصة إذا كان جميلا وسيما قسيما ، يأمل أن يكون فارس ميدانه . ولقــد كان امرؤ القيس كذلك .

لـكن الترف وحده لا يفسر إدمان امرىء القيس على الرحلة ، وابتعاده الدائم عن مواطن الأسرة ، وفيما يبدو لى لم تكن صلته بوالده حجر ، وكان متزوجاً من أخرى غير أمّه ، صلة وثيقة ، عمادها العطف والبر ، وأنه كان يفتقد عند أهله الحنان الذى يشد الأطفال إلى البيت ، ويجمع الصبيان إلى الأسرة ، ويجعل من الاحترام المتبادل بينهم عرفاً سائدا ، ولقد كان الأب ضائقاً بسيرة الابن ، فحاول أن يقوّمها ، وأن يحمّله المسئولية صغيراً ، فوكل إليه

رعاية أملاك الأسرة من الإبل، لكن امرأ القيس فشل فى ذلك، وترك تنميتها إلى مباهجه. وتكاد الروايات تتفق على أنه كان دائم الخلاف مع والده، وتعطى لذلك أسباباً مختلفة.

رواية ترجع السبب إلى أن امرأ القيس عشق عُنيزة ابنة عمه شُرَحبيل، وطلبها زماناً فلم يصل إليها، فكان محتالا يطلب الغرة من أهله. فلم يمكنه ذلك حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل، حين ارتحل الحىّ، فتقدم الرجال وخلفوا النساء والعبيد والعسفاء والثَّقَل، فلما رأى ذلك امرؤ القيس تخلف بعد قومه غلوة فكمن فى غيابة من الأرض حتى مر به النساء، فإذا فتيات فيهن عنيزة، فلما رأين الغدير قلن: لو نزلنا فى هذا الغدير واغتسلنا ليذهب عنا بعض الكلال. فقالت إحداهن: فافعلن. فعدلن إلى الغدير فنزلن ونحين العبيد عنهن ودخلن الغدير، فأتاهن امرؤ القيس مخاتلا وهن غوافل، فأخذ ثيابهن وهن فى الغدير، ثم جمعها وقعد عليها وقال: والله لا أعطى جارية منكن ثوبها، ولو ظلّت فى الغدير إلى الليل، حتى تخرج كما هى متجردة فتكون هى التى تأخذ ثوبها! فأبَيْن ذلك عليه حتى ارتفع النهار، فخشين أن يقصرن دون المنزل الذى يردنه؛ فخرجت إحداهن فوضع لها ثوبها ناحية فمشت إليه فأخذته ولبسته، ثم تتابعن على ذلك حتى بقيت عنيزة، فناشدته أن يضع لها ثوبها، فقال: لا تمسّيه حتى تخرجى عريانة كما خرجن! فخرجت ونظر إليها مقبلة ومدبرة، فوضع لها ثوبها فأخذته ولبسته، فأقبل النسوة عليه فقلن له: غدّنا فقد حبستنا وجوّعتنا! فقال: إن نحرت لكن ناقتى تأكلن منها؟ فقلنا: نعم، فاخترط سيفه فعرقبها ثم كشطها، وجمع الخدم حطباً كثيراً فأجج ناراً عظيمة، فجعل يقطع لهنّ من كبدها وسنامها وأطايبها فيرمية على الجمر، وهن

يأكلن منه ، ويشربن من فضلة كانت معه فى زقّ له ، ويغنّيهن ، وينبذ إلى العبيد من الكباب حتى شبعن وشبعوا ، وطربن وطربوا ، فلما ارتحلوا قالت إحداهنّ : أنا أحمل حشيته وأنساعه . وقالت الأخرى : أنا أحمل طنفسته . فتقسّمن متاع راحلته وزاده بينهن ، وبقيت عنيزة لم يحملها شيئاً ، فقال لها امرؤ القيسُ : يابنت الكرام ، ليس لك بدّ من أن تحمليني معك فأنا لا أطيق المشى ولم أتعوده . فحملته على بعيرها فكان يميل إليها ويدخل رأسه فى خدرها ويقبّلها ، فإذا مال هودجها قالت : يا امرأ القيس ، قد عقرت بعيرى! حتى إذا كان قريباً من الحى نزل فأقام ، حتى إذا أجنه الليل أتى أهله ليلا ، فقال فى ذلك :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللِّوى بين الدَّخُول فحومل

. . . .

ألا ربّ يومٍ لك منهن صالحٍ   ولا سيما يومٌ بدارة جُلْجُلِ
ويوم عقرتُ للعذارى مطيّتى   فيا عجبَا لرحلها المُتَحَمِّلِ
فَظلّ العذارَى يرتمين بلحمها   وشحمٍ كهُدّاب الدِّمقس المُفتَّل
ويوم دخلتُ الخدر خدرَ عُنَيزَةٍ   فقالت : لك الويلاتُ إنك مُرْجِلِى
تقول ، وقد مالَ الغبيط بنا معاً :   عقرتَ بعيرى يا امرأ القيس فانزلِ
فقلتُ لها : سيرى وأرخِى زمامَه   ولا تُبعدِينِى من جَناكِ المُعَلَّلِ

. . . .

وأن ذلك أغضب والده منه وأثاره عليه فطرده . وهى رواية نقبلها جملة ، ونتحفظ إزاء تفاصيلها .

(ج)

ورواية البغدادى : فى « خزانة الأدب » أنه كان يشبّب بزوجة أبيه ،

هرّ بنت سلامة بن عبد ، وأم الحارث بن حصين بن ضمضم بن جناب الكلبي، وأن أباه غضب لذلك فأقصاه عنه ، وشعر امرىء القيس يعرض لهرّ هذه ثلاث مرات . يكنى لها مرة ، ويذكر اسمها صريحاً مرتين . فقد أشار إليها كناية في البيت السابع من المعلقة ، متأسّيا عن حاضره بماضيها ، ومؤملا أن يكون له مع صواحبه اليوم ما كان له معها بالأمس :

كدأبكَ من أمّ الحويرث قبلها وجارتِها أمِّ الرباب بمأسل

والثانية في المقدمة الطللية للقصيدة الرابعة عشرة من الديوان في طبعته الجديدة ، وهي من رواية الأصمعي ، ومطلعها :

لعمركَ ما قلبي إلى أهله بِحرّْ ولا مقصرٍ يوماً فيأتيني بِقرّْ

وفيها يرسم صورة أخاذة لامرأة جميلة ، إن شبّهتها بالنعاج لجمال عينيها فأنت مصيب ، وأن شبّهتها بالدمى لتناسق قوامها فأنت مصيب . وتعوّد امرؤالقيس أن يراها،وأن يشرب عندها، مذ كان وليدا، حتى ذهبت بشبابه ، وتعود أن يقبّلها فيجد لفمها طعم خمر معتّقة مستوردة من أكرم مكان تصنع فيه:

أُغادي الصبوح عند هـرّ وفَرْتني وليدا ، وهل أفنى شبابيَ غيرُ هرّْ(1)

إذا ذقتُ فاهاَ قلتُ طعم مُـدامة معتَّقة مما يجيء به التُّـجُرْ (2)

همـا نعجتانِ من نعاج تبـالة لدى جُؤذرَيْنِ، أو كبعضِ دُمى هَـكِرْ (3)

(1) الصبوح : شرب الغداة .

(2) المدامة : الخمر ــ المعتقة : القديمة ــ التجر : تجار الخمر .

(3) النعجة : أنثي بقر الوحش ــ الجؤذر : ولدها ــ تبالة وهكر : اسما مكانين .

وفى المرة الأخيرة عرض لها فى مقدمة طللِيّةَ أيضا ، وتساءل عنها: أظعنتْ أم مقيمة ؟ وتجاوز السؤال ليقرر إن جمالها مصيدة رجال ، لا يكاد أحد يراها حتى تطوّق قلبه ، فيصبح أسير هواها ، وأفلت منها حجر أبوه فلم يقع فى حبائلها ، ثم رمته هو فأصابت قلبه ، فوقع صريع هواها ، لكنه لم يستطع أن يصنع معها ما صنعت معه فيوقعها فى شباك غرامه :

وفيمن أقام من الحى هرّْ أم الظاعنون بها فى الشُّطرْ (١)

وهرّ تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرْ حُجُرْ

رمتنى بسهم أصاب الفؤاد غداة الرحيل فلم أنتصر

واتفق شراح الديوان على أن أم الحويرث فى المرة الأولى هى : هر أخت الحارث بن حصين بن ضمضم . وفسروها فى المرة الثانية بأنها كانت جارية لامرىء القيس . وفى المرة الأخيرة قالوا إنها ابنة سلامة بن عبد ، أو عبد الله ابن عُلَيم من كلب . وابنها الحارث بن حصين بن ضمضم بن جناب الكلبى ؛ وهى الرواية التى اعتمدها البغدادى قبلا .

لكن تصويرها فى الأبيات يُبعد أنها كانت زوجة لحجر ، أو حتى زوجة لأى رجل ، كذلك يَبعد أنها كانت جارية لامرىء القيس نفسه ، وفيما يلوح لى كانت جارية لحجر ، و كانت تعشقه ، وكان هو موزع القلب مشغولا عنها ، فحاول الابن وليدا مراهقا أن يجد عندها منفذا لطاقاته المكبوتة فى مجال الغريزة أو الشعور . ولا نستبعد مع هذا التفسير أن يكون الابن قد شبب بامرأة أخرى لأبيه ، وأن أباه غضب لذلك وطرده ، فمن ينصب الشباك لابنة عمه

(١) الشطر : جمع شطير ؛ وهو البعيد .

عاشقا ، ويلاحق جارية أبيه متغزلا ، يمكن أن تقع عينه على زوج أبيه مشتهياه وليس فى أخلاق امرىء القيس كما يصورها شعره ما يأبى أيا منها ، وليست تأباه على النحو العنيف مثاليات أسرة يقبل الجد الأقرب فيها مبادىء مذهب يدعو إلى أن يكون المال والنساء على المشاع؛ ثم يورثه ابنه من بعده سلوكا، فنحن نعلم أن مما أثار قبيلة أسد على حجر ملكها ، أنه كان يغير على نسائها . كما أن امرأ القيس خلف أباه حجرا على زوجته هند بنت ربيعة بن وهب ابن الحارث ، بعد وفاته ، ولم تكن أعقبت منه نسلا ، وكان ذلك من الجائز المقبول فى شريعة الجاهليين ، ولا أراه كان مستحبا أو مرغوبا فى شرعة الذوق السليم .

كذلك كان أبوه غير راض عنه شاعراً ، روى الأصمعى قال : بينا امرؤ القيس قاعد ذات يوم وهو يشرب مع أبيه ، وهو غلام حين احتلم ، وأبوه يشرب مع ندمائه وفتية من أهل بيته ، إذا مرّ عليهم الساقى بالكأس ، فقال امرؤ القيس :

اسْقِيَا حجراً على علاّته ... من كُمَيْت لونُها لونُ العلَقْ

فسمعه أبوه ، فقال للساقى : الطم وجهه ، وأخرجه عنى ، وقال له : إياك أن أسمعك تقول شعراً فأقتلك ! وكان حجر يرفع نفسه عن الشعر وولده ، فغبر امرؤ القيس بذلك زماناً ، فكان لا يقول الشعر إلا سرّا مخافة من أبيه . فبينا أبوه ذات يوم نائم فى قبته وقد شرب حتى طابت نفسه إذ انتبه وامرؤ القيس يشرب من فضل آنية أبيه وهو يقول :

وهرٌ تصيد قلوب الرجال ... وأفلتَ منها ابنُ عمروٍ حجرْ

فوثب إليه أبوه ، فجعل يَجَأ في عنقه حتى أدمى منخريه ، ثم طفق يلطمه ويقول : ألم أنهك عن أن تقول شعراً ، وعن أن تذكرني في شعرك ! ثم دعا مولى له يقال له ربيعة — وكان حاجبه — فقال له : انطلق بهذا إلى موضعٍ فاقتله ، فإني لا أظنه إلا سيشتمنا ، وجئني بعينيه ، فانطلق ربيعة ، فاستودعه رأس جبل مُنيف .

وعلم أن أباه سيندم على قتله إذا هو صحا من سكره ؛ فعمد إلى جؤذر كان عنده فذبحه وانتزع عينيه ، فاحتملهما إلى حجر ، فقال له حجر : أقتلته ؟ قال : نعم ، قال : فأين عيناه ؟ قال هاهما ؛ فوقعت الندامة على حجر وهم بقتل ربيعة ، فلما رأى ذلك ربيعة قال : أبيت اللعن ! إني استودعته ولم أقتله ، قال : فأين هو ؟ قال : في موضع على رأس الجبل ، قال : فائتني به ، فانطلق ربيعة إلى امرىء القيس فوجده حيث خلفه ، وسمعه وهو يقول — وظن أنه قاتله :

لا تُسْلِمَنّي يا ربيعُ لهـــذه ... وكنتُ أراني قبلها بك واثقا
مخالفةٌ نوى أسـيرٍ بقـريةٍ ... نوى عربيات يَشِمْن البوارقا(١)
فإمّا تريْني اليوم في رأس شاهقٍ ... فقد أغتدي أقودُ أجردَ تائقا(٢)

---

(١) النوى : النية ، أي الوجه الذي يقصدونه — يشمن : أي ينظرن أين وقع السحاب وفيه البرق .

(٢) الشاهق : الجبل المرتفع — الأجرد : الفرس القصير الشعر — التائق : الممتلىء من كل شيء ، أراد ها هنا اجتماع السلاح عليه وكماله .

وقد أَذْعرُ الوحشَ الرِّتاع بقفرة   وقدأجتلى بيضَ الخدودَ الروائقا[1]

نواعمُ تجلو عن متونٍ نقية   عبيرًا وريْطا جاسدا وشقائقَا[2]

(٤) كان والده يأنف أن يقول ابنه الشعر لأنه ملك ، وكان امرؤ القيس حريصاً على قوله ، وهى رواية تدعمها الإشارات التاريخية فى مضمونها ، ولابأس بعد ذلك أن يكون القصاص قد أضافوا إليها شيئاً من أفاويه الأساطير ، فقد كان الأب يمانياً ، ولم يحفظ لنا التاريخ أن ملوك اليمن كانوا بالشعر محتفين ، أى شعر حتى ولو كتب فى العصر الذى خلف العديد من النقوش والآثار ، وهو شىء كان يشاركهم فيه سادة القبائل فى الشمال ، فقد كان للقبيلة سيدها وشاعرها ، وَقلّما كان السيد شاعراً . ولا بأس أن يكون بين اليمنيين من عاش فى الشمال ورأى احتفاء الناس بالشعر ، فأعجب به وكافأ عليه وهادى قائليه ، ففرق بين الإعجاب بشىء سياسة أو عاطفة ثم احترافه ، وفى مطلع هذا القرن كان علية القوم فى مصر ــ وفى غير مصر من العالم العربى ــ يستجدون الصحافة أخبارها وثناءها ، وليس بينهم من يرضى لابنه أن يكون محرراً فى صحيفة أو حتى رئيس تحرير ، وحتى أيامنا هذه فإن كثرة لا بأس بها فى مجال الـكم والعدد ، تعجب بالتمثيل وَتصَفّق لأهله، لـكنها لا ترتضى لأحد من بنيها أن يعتلى خشبة المسرح ، ينثر المرح والبهجة ، أو يصنع الحزن والتفـكير .

---

(١) أذعر : أفزع — الرتاع : اللواتى يرتعن ، وأصله من الرعى ، وكثر ذلك فى كلامهم حتى صيروه إلى اللهو واللعب — القفرة : الأرض الخالية — اجتلى : انظر — الروائق : المعجبات ، يعنى النساء .

(٢) المتون : الظهور — الريط : ضرب من الثياب — الجاسد : الثوب المشبع من الزعفران ؛ شبه حمرة الثياب بشقائق النعمان .

وإلى جانب ذلك لم يكن امرؤ القيس محبوباً من النســاء ولا مطلوباً ، غير موفق فى حياته العاطفية ، كثير الزواج كثير الطلاق ، مئناثاً مفرّكا يفتقد أهم ما يطلب فى الزوج وما من أجله تتزوج المرأة . وعندما هرب من المنذر بن ماء السماء وجاور فى طيّء تزوج أم جندب ، وبدا له أن يسألها يوماً « ما يكره النساء منى ؟ قالت : يكرهن منك أنك ثقيل الصدر ، خفيف العجز ، سريع الهراقة ، بطيء الإفاقة . وسأل أخرى عن مثل ذلك فقالت : يكرهن منك أنك إذا عرقت فحت بريح كلب ! فقال : أنت صدقتنى ، إن أهلى أرضعونى بلبن كلبة » !

وقد صدقته الأولى ، وسخرت منه الثانية فلم يفطن لها ، أو فطن ثم آثر التسليم ، يوهم نفسه ، أو يوهم المرأة ، صدق ما قالت ، وكان فى الحالين هو المخدوع الوحيد ؛ لأنه يعرف أكيداً كما تعرف هى ألاَّ صلة بين نتن العرق ورضاع لبن أشد الحيوانات ضعة فى الصحراء ، ولم يكن من عادة أجلاف البدو وغلاظهم أن يرضعوا لبن الكلاب ، فكيف بمن كان أبوه ملكا يتقاسم مع أبنائه الشراب ، ومن كانت أمه بعض أمجادها أنها أخت سيدى تغلب مهلهل وكليب فى رواية ، أو أخت يزيد بن كبشة أول حاكم على كندة فى اليمن من قبل أبرهة فى رواية أخرى .

(٥) وكما افتقد فى أسرته العطف والهدوء النفسى ، فقد افتقد بين زوجاته الحب والتقدير فلم يكنّ حريصات على رضاه أو مناغاته ، وكان هو من جانب آخر سيء الظن بهن ، سريعاً إلى التخلّص منهن .

عند ما كان مجاوراً فى طيِّىء نزل به علقمة بن عبدة التميمى ، فقال كل واحد منهما لصاحبه : أنا أشعر منك ، فقال علقمة : قد حكّمتُ امرأتك أمّ جُندُب بينى وبينك ، فقال قد رضيتُ . فقالت أم جندب : قُولاَ شعراً تصفان فيه الخيل على رويّ واحد وقافية واحدة . فقال امرؤ القيس قصيدته التى أولها :

خليليّ مرّا بى على أمّ جندبٍ ... نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفؤادِ المُعذّبِ

وقال علقمة قصيدته التى أولها :

ذهبتَ من الهجران فى كلّ مذهبِ

ولم يكُ حقًّا كلّ هـذا التجنُّبِ

فقالت لامرىء القيس : علقمة أشعر منك ، قال : وكيف ، قالت : لأنك زجرتَ فرسك وحرّكتَه بساقك وضربتَه بسوطك ، فى قولك :

فللساق ألهوبٌ ، وللسوط دِرّةٌ ... وللزجْر منه وقعُ أهوجَ مِنْعَبِ(١)

أما علقمة فأدرك الصيد ثانياً من عنان فرسه لم يضربه بسوطه ، ولم يَمرِه بساقه ، ولم يزجره ، حين قال :

فأقبلَ يهوى ثانياً من عِنانه ... يمرّ كمرّ الرائح المتحلّبِ

فقال لها . ما هو بأشعر منى ، ولكنّك له عاشق ! ثم طلّقها ، وخلفه عليها علقمة ، فسمى الفحل لذلك . وقد أنكر كليمان هوار Clemamt Huart

---

(١) المنعب : الذى يستعين بعنقه فى الجرى ويمده.

القصة ، ورآها ضرباً من الخرافة ، بزعم أنّ الشاعرين لم يلتقيا ، وأن علقمة وُلِد بعد وفاة امرئ القيس ، وتبعه فى إنكاره بعض الباحثين العرب المحدثين . والواقع أنّ امرىءالقيس تُوفى قريباً من عام ٥٦٥ م ولدينا شعر لعلقمة يرجع أكيداً إلى نحو عام ٥٥٤ م ، على نحو ما سنفصّله بعد قليل[1]

من وجهة النظر النقدية الخالصة لم يكن الحق فى جانب أم جندب وكان مع امرىء القيس ، وإشارته إلى أن تحريك الساق يلهب الفرس فى الجرْى ، وضربه بالسوط يجعله ُيدرّ فى العدْو ، وزجره يجعله كالأهوج لا عقل له ، تصوير لما يجرى فى الصيد والسباق ، ولِمَا يحدث لفرسه ولغير فرسه أحياناً ولا يفهم منه — فى غير مجال التحامل — أن فرس امرىء القيس كان كليلا لا يسبح فى عدوه إلاّ إذا غُمز بالساق وأُلهب بالسوط . وفى البيت التالى للبيت الذى اتخذته أمّ جندب أساساً لتفضيل علقمة على امرىء القيس ، حقق امرؤ القيس الشرائط التى رجّحت كفّة علقمة ، فأبان أن فرسه أدرك الوحش دون تعب أو مشقّة ، فى طَلَق واحد لشدة سرعته ، وكان فى سرعة عدوه كلعبة الخذروف يديرها غلام ماهِر :

فأدركَ لم يَجْهدَ ، ولم يَثْنِ شأوَه يمرّ كخذروف الوليد المثقَّبِ

لقد تغلّب هوى الأنثى فى أمّ جندب على حيدة الناقد ، وعبّرت — ربمّا من حيث لا تدرى — عن نفور داخلى تحسّه فى أعماقها نحو زوجها ، فكان نقدها انعكاساً لنفس كارهة أكثر منه حكماً لامرأة متذوّقة أو ناقدة .

---

(١) انظر الفصل الخاص بالرحلة إلى قيصر .

ومن جانب آخر لو لم تقم حياة امرىء القيس على ضيق من رأى زوجاته فيه رجلا ، لتقبّل نقدها راضياً ، أو لتعزّى عنه متسلياً ، لكنه مضى سريعاً يلمس الجانب الذي يحسّ بعجزه عن توفيره لها فطلّقها .

ولا ينفى ذلك أن أمّ جندب نفسها لم تكن حريصة على استرضائه ، أو فى الأقل على تجنّب إثارته ، إن لم تكن فى ذلك راغبة حتى ولو كانت على صواب ، وإلاّ لاستطاعت أن تعبّر عما تريد دون أن تفجع زوجها فى مباراة على هذا النحو . وكانت المرأة العربية فى عصر امرىء القيس ، وما بعد عصره قادرة دائماً على تجنب هذه المزالق ، وتجاوزها بما يعلى قدرها فى مجال العاطفة ، ولا يحط من حصافتها فى مجال التقويم والتقدير . ولقد عرض الأمر للخنساء الشاعرة حين نازل أخوها معاوية أباه عمرو بن الشريد فى سباق خيل، وسبق الأب ابنه ، فتوزعتها العاطفة ، وحار قلبها بين إجلال الأب وحبّ الأخ ، فكانت لها هذه الأبيات التى تتسم بالذكاء اللمّاح والتخلّص اللّبق ، فلم تجعل سبْق أبيها ناجماً عن عجز أخيها ، ولكن ما خالط قلب معاوية من هيبة أبيه وجلال قدره وكبر سنه ، قلل من جرأته على أن يسبق أباه :

جارَى أباه ، فأقبلا وهُما ... يتعاوران مُلاءة الحُضْر
حتى إذا نَزَتِ القلوب وقدْ ... لزّتْ هناك العُذر بالعُذرِ
وعلا هُتافُ الناسِ : أيُّهما ؟ ... قال المجيب هناكَ : لا أدرى
برزتْ صحيفةُ وجه والده ... ومضى على غُلوَائه يجرى
أوْلى فأوْلى أن يساوِيَه ... لولا جلالُ السّنّ والكِبْرِ
وهما ، وقدْ برزا ، كأنّهما ... صقران قد حطّا على وَكْرِ

ومن بعدها سُئلتْ فاطمة بنت الخُرْشُب الأنمارية عن أولادها الأربعة ، عمارة والربيع وأنس وقيس ، وكان يقال لهم الكَمَلَة لفضلهم : « أىٌّ بنيك خير ؟ قالت : ثكلتُهم إن كنتُ أعلم أيّهم أفضل ، هم كالحلقة المفْرغة لا يدرى أين طرفاها » .

وهو تخلّص جميل ، لأن الطبيعى أن يتقارب الناس فى الكمال ، يرجح أحدهم فى جانب وتشيل كفته فى جانب آخر ، وليس من الطبيعى فى شىء أن يكون الأبناء نسخاً مكرورة حتى فى المواهب والفضائل . لكنها أمّ لا تريد أن تأخذ من بنيها موقف المفاضلة ، ولو كانت تصنع ذلك فى الواقع ، أو تشعر به فى خفايا النفس وبين طيات الضمير .

(١) أىّ أديان العرب كان يملأ وجدان امرئ القيس ؟ لم يعن أحد من القدامى بإلقاء بعض الضوء على عقيدة امرئ القيس الدينية ، والسبب واضح ، فمادام الرجل قد عاش قبل الإسلام فهو جاهلى ، ومادام جاهلياً فهو وثنى شأن الكثرة الغالبة من قومه ، فلا ضرورة فى أن يشار إلى دينه ، ولا ضرر فى أن يترك ذلك لفهم الدارس وفطنته .

وطوال ثلاثة عشر قرناً خلت كان الناس يرون فى امرئ القيس وثنياً ابن وثنىّ ، حتى جاء الأب لويس شيخو[1] فى مطلع هذا القرن ، فألّف

(١) كان الأب لويس شيخو راهبا ومبشرا ومتخصصا فى الآداب العربية ، وأستاذا فى الجامعة اليسوعية فى بيروت . ولد فى ماردين بالجزيرة عام ١٢٧٥هـ = ١٨٥٩ م ، وانتقل إلى لبنان فتربى فى مدرسة الآباء اليسوعيين فى غزير ، وانتظم فى سلك الرهبنة الكاثوليكية ، وأنشأ فى عام ١٨٩٨ م مجلة « المشرق » ، ومن مؤلفاته أيضاً : « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » ، وتوفى ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م .

كتابه « شعراء النصرانية » ، وحاول فيه أن يجعل من معظم الشعراء الجاهليين ، وامرؤ القيس فى طليعتهم ، مسيحيين . ومسيحية امرئ القيس لم يشر إليها ، فيما أعلم ، أى مصدر عربى أصيل صراحة أو ضمنا ، وليس فى شعر امرئ القيس ما يبرّر افتراضها . ولكن ذلك لا ينفى أن امرأ القيس كشاعر كان يرسم بعض صوره الشعرية بمادة ملتقطة من جو مسيحى ، فوجه حبيبته يشرق فى الظلام إشراق مصباح راهب متعبد فى جوف الليل :

يضيء الظلام بالعشاء كأنّه منارة ممسى راهبٍ متبتّلِ

والبرق يتألق وميضه فجاءة ، فى سرعة خاطفة ، تألق مصباح الراهب أميلتْ فتيلته بصبّ الزيت عليها :

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمع اليدين فى حبيٍّ مكلل
يضيء سناه ، أو مصابيح راهبٍ أمال السليط بالذُّبال المفتَّل

ويتخيل من بعيد حبيبته ، فيمد إليها بصره عبر المسافات الشاسعة ، يصنع ذلك ليلا ، والنجوم تلمع فى السماء لمعان مصابيح الرهبان توقد ليلا ليهتدى بها السائرون :

تنوّرْتها من أذرعات ، وأهلُها بيثربَ ، أدنى دارها نظرٌ عال
نظرت إليها ، والنجوم كأنها مصابيح رهبان ، تُشَبّ لقفَّال

وفى واحدة من رحلات صيده ، يصور لنا الثور تطارده الكلاب ، فإذا أدركته التفت به ، وأخذت بساقه ، ومزقت بدنه ، كما يلتف الصبيان حول حاج مسيحى قادم من بيت المقدس ، يخرقون ثيابه تمسحا ، ويمزقونها تبركا به :

فأدركْنَه يأخـذنَ بالساق والنسا ... كما شَبْرقَ الولدانُ ثوبَ المقدِّس[1]

وناقته صلبة قوية ، تطوى الطريق سراعاً ، وتتحمل العنت صابرة ، ثابتة أمام تقلب الطبيعة كألواح تابوت موتى النصارى :

وعنسٍ كألـواح الإران نسأتُها ... على لاحبٍ، كالبُرْد ذى الحبرات[2]

ويصف قدم الدار وبعد أهلها بالأنيس حتى تغيرت رسومها ، ودرست آثارها ، فأصبحت كخط الـكتب فيما تقادم من مصاحف الرهبان :

أتتْ حجج بعدى عليها فأصبحت ... كخطّ زبور فى مصاحف رهبان

وربما أوهم القائلين بمسيحيته أن أمه من تغلب فى رواية ، وكانت عامة تغلب تعتنق المسيحية فيما يقال ، وعمته هند أم عمرو بن هند تمسحت وبنت لها ديرا ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

لكن ذلك كله وأكثر منـه لا يكفى دليلا على أن امرأ القيس اتخذ المسيحية دينا . وغاية ما فى الأمر أن شمال الجزيرة الشرقى أصبح منذ القرن الخامس الميلادى هدفا لحركات تبشيرية متوالية ، فكان المبشرون يتجولون فى مضارب البدو لدعوتهم إلى المسيحية، وبعض الأجانب يتناثرون فى الحواضر وأطراف نجد يتجرون فى الخمور ويدعون إلى المسيحية فى نفس الوقت ، وأن صوامع عديدة تناثرت على حافة الصحراء ، ولو أن جانبا كبيراً من نجد ظل بعيداً عن نشاط المبشرين . وكان موقف العرب من المسيحية متحفظا فى

(١) النسا : عرق — شبرق : مزق .
(٢) عنس : ناقة — الإران: سرير الموتى للنصارى — لا حب :طريق بين.

الحواضر ، بينما كان البدوىّ يزدرى المسيحيين واليهود على السواء . وبعض القبائل التى اعتنقت المسيحية كجذام وتغلب وعاملة كان إيمانها رقيقا للغاية، لا يتجاوز بعض المظاهر الشكلية التى لا تصطدم مع العرف الجاهلى الوثنى ، ولم يمثّل فى طريقها أية عقبة فيما بعد ، لـكى تقبل كغيرها من القبائل الوثنية على اعتناق الإسلام .

ومع ذلك يمكن القول أن زهد الرهبان ونسكهم ، وحياتهم الخاشعة المتقشّفة ، فى أديرة نائية منعزلة ، يقودون نيرانها ليلا ليهتدى بها الضالّون فى حلـكة الليل ، والحائرون عند مفارق الطرق ، ومايقدّمونه من نماذج خيّرة حين يجعلون من صوامعهم مراكز للاسعاف والإيواء فى أيام القحط والأوبئة ، كان يثير كوامن الشعور عند البـدو ، ويلهب خيال حداة القوافل ، ويثير أحاسيس الشعراء ، ويقدم لهم مادة جديدة وطريقة للتمثيل والتصوير ، كالمقارنة بين مصابيح الرهبان ونجوم الليل والوجوه المشرقة ، وما تثيره نواقيس الصوامع ، فى جرسها الرتيب ، عبر الفيافى الموحشة ، لدى القوافل الراحلة ، يقول المتلمس[1] :

حنّتْ قلوصى بها ، والليلُ مطّرِق بعد الهدوّ ، وشاقَتها النواقيس

إلاّ أنَّ إعجاب الشعراء ، وهم فنّانون أصحاب حسّ رقيق ، بهذه النمـاذج شىء ، واعتناقهم المسيحية شىء آخر ، وإلى مثل هـذا الإعجاب يمكن أن نرُدّ الإشارات المسيحية القليلة الواردة فى شـعر امرىء القيس . ونلحظ أنه حين يعجب بهذه النمـاذج ، ويتخذ منها المثل ، لا يقف عندها

(١) شاعر جاهلى ، كان شابا حين كان امرؤ القيس يطرق أبواب الشيخوخة ، وسنأتى على خبره فى الفصل الخاص بامرىء القيس وأولية الشعر العربى .

وحدها، ولا يُغفل غيرها من كل جديد مثير لأنه ليس بمسيحى . وإذا كانت مصابيح الرهبان أداته لتوضيح ضوء النجوم، واشراق وجه الحبيبة، فأبنية اليهود الآمنة المتينة العالية المحصّنة وسيلته لتصوير نياق صاحباته فى طولها وأمنها وقوتها وامتلائها :

فعزّيتُ نفسى حين بانوا بجسرة أمونٍ كبنيانِ اليهودىّ خَيْفق[1]

أما الأب أنستاس الكرملى فسلك بالأمر طريقاً أخرى، حاول أن يلتمس لامرئ القيس دينا فى ضوء أخلاقه وما يصوّره شعره، فوجده تميّز من بين شعراء عصره بالفكرة الجريئة،والتعبير الفاضح، والخروج على ما هو متعارف عليه من حدود القول، وفى حياته الشخصية عُرف بالعكوف على الملذّات ؛ والإسراف فى اللهو، وكثرة الزواج وسهولة الطلاق، والتطلّع إلى زوجات أبيه، وتعشّق بنات عمّه، فحاول أن يردّ ذلك إلى ما كان سائدا من المذاهب الاجتماعية فى عصره، ووجد المزدكيّة أقرب ما تكون منه فنسبه إليها.

وأعتقدُ أن خلق امرئ القيس كان استجابة لغرائز منطلقة، أكثر منه اتباعاً لفلسفة معيّنة، ولقد اعتنق جده الحارث المزدكية مصاحة لادينا، ثم عدل عنها حين لم تعد مصاحة ملكه تقتضيها كما عدلت عنها فارس نفسها، وتتبّعت معتنقيها قتلا وإفناءً . وليس فى تاريخ حجر وأسرته ما يشير إلى أنها بقيتْ فيهم ديناً، وإن كنتُ أميل إلى أن جانباً من عهر امرئ القيس

(١) بانوا : انقطعوا — الجسرة : الناقة — الخيفق : الطويلة.

مرده إباحية فاشية فى أسرته ، وأن إقبال جدّه على اعتناق المزدكية حين اقتضت مصلحته ، كان نتيجة لهذه الإباحية ولم يكن سبباً فيها . وفيما خلا هذا الجانب من حياة امرىء القيس ، ليس فى سيرته محارباً وطالب ثأر ومسرفاً فى الانتقام ما يتفق ومبادىء المذهب المزدكى ، وقد جاء ليبطل الخلاف بين العقائد والأمم ، وينهاهم عن المباغضة والقتال .

انتفى إذن أن يكون امرؤ القيس مسيحياً أو يهودياً أو مزدكياً ، وبقى له ما يفترض أن يكون عليه من العقيدة، وما يفهم من كتب التاريخ التى تحدثت عنه تفصيلا ، أو عرضت له فى مقام الإشارة والإجمال ، وثنياً على دين آبائه وأجداده ، ولا يقدح فى عقيدته أن يأتى من الأفعال ما لا يستقيم معها ، أو ماهو من خصائص غيرها ، فالوثنية لا تستوعب المؤمن بها فتمنعه أن يأخذ بعض الصفات من هنا ، وأن يتقبل بعض الآراء من هناك . والشاهد الوحيد على وثنيته أورده الأغانى ، حين أشار إلى حجّه إلى ذى الخُلَصة ، واستقسامه بالقداح عنده ، حين خروجه لغزو بنى أسد ثأراً لأبيه ؛ فلما خرج له « الناهى » ثلاث مرات جمع القداح وحطَّمها ، وقذف بها فى وجه الصنم ، وهى رواية تحمل من مرجّحات الصدق مايجعل منها يقيناً ، على غير ما يبدو للوهلة الأولى. فاختيار ذى الخُلَصة لم يجىء عفواً ولم يكن مجرّد صنم عادى صادفه امرؤ القيس فى الطريق أو كان قريباً من منازل قومه فى نجد ، وإنما كان أحد أصنام خمسة تُقصد فى الجزيرة العربية من مكان بعيد ، وكان له بيت فى « تَبالة» من منازل خثعم ، فى الطريق بين مكة واليمن ، وكان يدعى بالكعبة اليمانية ، على حين يطلقون اسم الكعبة الشامية على كعبة مكة تمييزاً بين الكعبتين . فامرؤ القيس ذهب فى أخطر أمر اعترضه ، فى أدق مرحلة من حياته ، إلى أكبر

صنم يعظمه قومه ، يطلب منه المشورة والتوجيه ، فلمّا جاءه النصح على غير ما يهوى أعرض عن ربه منكراً. أمر قد يعرض لأشد الناس إيماناً حين تفجؤه الأقدار بما لا يتوقع أو يحب ، فيفقد معها الصواب الذى ينتهى به إلى العناد والكفران. وكانت هذه المرّة الوحيدة التى سجّلها التاريخ لوثنية امرئ القيس ، ولا حاجة به بعد ذلك لكى يتتبّعه فى مزاولته لطقوس عبادته ، حين يجرى فيها على المألوف والمعتاد عند كل الناس.

ليس فيما بين أيدينا من شعر امرىء القيس صور أدبية اتخذ مادتها من التقاليد الوثنية غير اثنتين ، حين شبّه قطيعاً متراصّاً من بقر الوحش ، سود القوائم والرءوس ، بيض الظهور والبطون ، بفتيات يمنيّات يرتدين أثواباً بيضاً ، حُلّيت أسافلها بسواد ، وشعورهن فاحمة ، وانتظمن صفوفاً يطفن بصنم « دوار » :

فعنّ لنا سرب كأنّ نعاجه عذارى « دُوار » فى ملاء مُذيّلِ

فإذا أراد أن يصوّر ألم الفراق ساعة الرحيل، حين تغيب الطرق بأحبائه ، اتخذ من فراق الحجاج مثلا ، يقدمون من كل فجّ على « منى » ، فيرمون الجمرات « بالمحصّب » ، ثم يتفرقون إلى منازلهم ، وقد لا يلتقون مرة أخرى :

فلله عينا مَن رأى مِن تفرّق أشتّ وأنأى من فِراق المحصّبِ

ذلك ما عثرتُ عليه فى شعره ، وأتخيّل أن الإشارات المسيحية واليهودية والوثنية كانت أكثر مما لدينا منها ، فلعلّ جانباً كبيراً منها ضاع فيما لم يصلنا من شعره ، ولعلها كانت بعضَ أسباب ضياعه.

ويتصل بدين امرىء القيس ما أثير من جدل حول ورود لفظ « الله » فى شعره . فمن الباحثين مَن أراح نفسه من المشكلة وأنكر الشعر الواردة فيه ، بزعم أن « الله » أثر إسلامى ، فلا مجال لأن ترد الكلمة فى شعر جاهلى .

وفريق ارتضى أنّ الرواة المسلمين هروبا من كل ماهو وثنىّ استبدلوا كلمة «اللات» بكلمة «الله» ، وهى تساويها فى الوزن العروضى ، فلا تضطرب معها موسيقى الشعر ، وآخرون اتخذوا منها دليلا على أنّ امرأ القيس كان يدين بالمسيحية ، أو على علم بها ، ومنها جاءته ، والاتجاهات الثلاثة فيما أرى جانبت الصواب ؛ لأن لفظ «الله» لم يكن مجهولا عند العرب فى عصر البعثة المحمدية ، أو ما قبلها ، والقرآن ، وإلى « الله » يدعو ، كان يتحدث إلى العرب بلغتهم ، وفى ألفاظ يفهمونها ، وكل ماهناك أن مفهوم الجاهلى من كلمة « الله » يغاير ما أراده الإسلام منها ولها .

أحصيتُ المرّات التى وردت فيها كلمة « الله » فى شعر امرىء القيس فوجدتها إحدى عشرة ، أربعاً منها فى مجال القسم ، إحداها على لسان صاحبته واثنتين منها فى مقام لا يليق فيه الحلف بالإله ، فى الأولى تقسم صاحبته أنها استنفدت حِيَلها فى صدّه عنها ، وفى دعوته إلى الاستقامة ، لكنّها تراه على استهتاره مقيما :

فقالتْ : يمين الله مالكَ حيلة وما إنْ أرى عنكَ العماية تنجلى

ويردّ عليها — أو على أخرى — فى قصيدة ثانية ، إنه سيبقى عندها ،

ولو دفع حياته ثمناً لبقائه معها ، ويقسم لها يمين فاجر أن الناس ناموا ، فما أدرك أحد مجيئه ولا أحسّوا به .

فقلتُ : يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديكِ وأوصالى
حلفتُ لها بالله حلفة فاجر لناموا ، فما إنْ حديثٍ ولا صال

ثم يقسم بالله مهدداً بطونا من بنى أسد ، بأن دم أبيه لن يذهب هدراً ، ولن يهدأ له بال حتى يقضى عليهم جميعاً :

واللهِ لا يذهب شيخى باطلا
حتى أبير مالكا وكاهلا

وجاءت ثلاث مرّات فى مقام الدعاء . فى أولاها يحمد الله على أنه أصبح آمنا فى جوار قيس وشَمِر ابنى زهير ، من بنى سلامان بن ثعل ، وإبله ترعى مطمئنة حيث طاب لها ، فسمنت ، واكتنزت لحماً ، حتى ضاقت عنها جلودها:

أرى إبلى والحمدُ لله أصبحتْ ثقالاً إذا ما استقبلتْها صُعودُها
رعتْ بحَيال ابنى زهيرٍ كليهما معاشيب حتى ضاق عنها جلودُها

وفى الثانية يدعو بالقبح والمذلّة وقطع الأنوف على البراجم ويربوع ودارم قبائل من تميم ، لأنهم تخلّوا من عمه شُرَحْبيل فلم يدافعوا عنه :

ألاَ قَبَحَ اللهُ البراجم كلّها وجَدَّع يربوعا ، وعفّر دارِما

والثالثة فى آخر قصيدة من ديوانه ، من زيادات أبى سهل ، وليست مما تطمئن إليها النفس ، وجاءت على لسان ذئب يتودد إليه امرؤ القيس كى لا يفترسه ، فيدعوه إلى أخوّة مواسية ، فيردّ عليه الذئب :

هداكَ اللهُ ! إنكَ تدعونى لشىء لم يفعله سَبُع قبلى :

فقلت له : ياذيبُ هــــل لكَ فى أخٍ

يواسى بلا أُثْرَى عليــــك ولابُخْلِ

فقال : هــــداكَ اللهُ إنّكَ إنمــا

دعوْتَ لمالَمْ يأته سَبُع قَبْـــلى

وجاءت ثلاث مرّات أخرى فى مجال الإخبار . أجار عُوَيْر بن شِجْنة بعضا من أهل امرىء القيس خلال حروبه ، فمدحه ، ومدح قومه بأن الله اختارهم وفضّلهم بالعوير ، فـكانوا أوفى الناس ميثاقا لمن يجاورهم أو يعاهدهم أو يلوذ بهم :

فقد أصبحوا واللهُ أصفاهُمُ بِهِ أبرَّ بميثاقٍ وأوفى بجـــيران

ثم نذر ألا يشرب الخمر حتى يدرك ثأر أبيه ، فإذا ظنّ أنه ناله عاد يحلّها لنفسه ، ويشربها غير آثم عند الله ، ولا واغل فى مجالس القوم :

فاليومَ أُسقَى غير مُستحقَبٍ إثمـاً من اللهِ ولا واغـــلِ

والأخيرة جاءت فى القصيدة الخمسين ، وهى من زيادات نسخة الطوسى ، ومع أنها لم تنسب لأحد غير امرىء القيس ، أشك فى أنهاله ، لأن طابع الوعظ المباشر يغلب عليها ، وهو غير معتاد فى شعره ، وفيها جاء ذكر «الله» فى بيت أعجب به الثعالبى وأثنى عليه ، وقال إنه من جوامع الكلم ، لأن فيه الاستنجاح بالله ، ومدح البر ، والحث عليه :

واللهُ أنجحُ ما طلبت بــــه والبرّ خير حقيبة الرجـــل

وجاءت مرة واحدة فى مقام التعجب ، تكون جانباً من صورة وثنية ، أو هكذا كانت فى عصر امرىء القيس ، العجب الحزين لفراق يكون كتفرق الحجاج غداة رمى الجمار :

فلله عينا مَن رأى من تفرّقٍ أشت وأنأى من فراق المحصَّبِ

وجاءت كلمة « الرحمن » فى حوار زُعِمَ لامرىء القيس مع عبيد بن الأبرص ، أورده كاملا على بن ظافر الأزدى المتوفى عام ٦١٣ هـ = ١٢١٦ م فى كتابه « بدائع البدائه » ، وعنه نقله ابن منظور المتوفى ٧١١ هـ = ١٣١١ م ، فى كتابه « لسان العرب » ، ولم أعثر له على أثر فيما بين يدىّ من المصادر الأولى .

قال عبيد يسأل :

ما السودُ والبيض والأسماء واحدة لا يستطيع لهنّ الناس تمساسا

فأجاب امرؤ القيس :

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها روّى بها مِن مُحول الأرض أيباسا

فقال عبيد :

ما الحاكمون بلا سمع ولا بصر ولا لسان فصيح يُعجب الناسا

فرد امرؤ القيس :

تلك الموازين والرحمن أنزلها رب البرية بين الناس مقياسا

وذكْر امرئْ القيس لكلمة « الرحمن » ، دون معاصريه من الشعراء ،

يقوى الرأى فيه شاعراً يمنيا وثنيا ، لأن « الرحمن » اسم لإله جنوبى قديم ، أو وصف له فى أضعف الحالات ، ثم تنوسى اسم الإله وحلت بعض صفاته فى الدلالة عليه .

كان امرؤ القيس وثنياً كبقية قومه ، وكشاعر يمثل الذروة فى مجال الثقافة والشعور والتفاعل مع ما حوله ، يحترم شعائر أمته وتقاليدها ، لكنه لا يجرى معها إلى النهاية فى الإيمان بما تباشر من طقوس وعبادات . وكفنان لا يدع الوثنية تعتقله داخل دائرة ضيقة محدودة من الخيال ، فهو يلتقط مادة صوره الشعرية من الحياة العريضة حوله ، بكل جوانبها ، مسيحية أو يهودية أو وثنية على حد سواء .

لكن الفتى الشاعر العابث ، الخلى من تبعات الحياة ، يعب من مباهجها ، سرعان ما ألقى على كاهله أثقل عبء يلقى على كتفى عربى أمير . . . أن يأخذ لأبيه ثأرا ، وأن يسترد لقبيلته ملكا !

طالب ثأر

رواية واحدة من بين روايات أربع أوردها « الأغانى » تقرر أن امرأ القيس شهد لقاء كندة مع أسد ويتزعمها عِلْباء بن الحارث ، وأنه هرب على فرس شقراء له ، وأسرع فلم يمكنهم اللحاق به . وهى الرواية التى ارتضيناها قبلا .

والروايات الأخرى تصمت عنه تماماً ، ومفهومها أنه لم يحضر ،ودون تكلف نستنتج منها أنه لم يكن حفياً بالصراع السياسى والقبلى الذى كان دائراً بين أبيه وقومه وبين القبائل التى تدين لهم بالطاعة والولاء . ولا يناقض ذلك فى شىء أنه حضر معركة واحدة من معارك عديدة ، ويرجح استنتاجنا أنه لم يثبت عند اللقاء فلاذ بالفرار .

وثمة روايات أخرى تجعل بدء رحلة امرىء القيس لطلب الثأر عهداً أوصى به حجر قبل وفاته إلى واحد من أصحابه ، أودعه تركته من سلاح وخيل وطلب إليه أن يدفع بها إلى أىّ واحد من أبنائه الكثيرين لم يجزع لموته ، ونفّذ الصديق الوصية ، فمرّ على أبناء حجر الواحد تلو الآخر ، وروى لهم حكاية مقتل أبيهم ، فكلّ جزع . حتى إذا أتى امرأ القيس ، وكان فى قرية من قرى حضرموت يقال لها « دمون » يجلس مع نديم له ، يشربان الخمر ويلعبان النَّرْد فأعلمه الخبر فلم يلتفت إلى قوله،واستمرّ فى اللعب حتى لا يفسد

على صاحبه الدَّسْت[1] فلما انتهى من اللعب التفت إلى الناعي وقال : « ضيَّعني صغيرا ، وحمّلني دمه كبيراً ، لاصحو اليوم ولا سكر غدا ، اليوم خمر وغدا أمر » . وأخذ على نفسه العهد ألا يأ كل لحماً ، ولا يشرب خمراً ، ولا يدهن رأسه بطيب ، ولا يلهو ، حتى يدرك ثأر أبيه من بنى أسد ، فيقتل منهم مائة، ويجزّ نواصي مائة .

وهذا الخبر لانطمئن إليه ، لأنه يناقض ما هو أوثق ، من مشاركته فى المعركة ، إلا إذا أسرفنا فى التأويل وارتضينا أنه فرّ من المعركة بعد أن هُزم قومه وقبل أن يُقتل أبوه ، وأن الخبر جاءه هارباً فى دمون .

والسؤال الذى يطرح نفسه للوهلة الأولى ، لماذا كان امرؤ القيس من دون إخوته جميعاً هو الذى صمد للكارثة ، وحمل عبء الثأر واستعادة الملك ، وأنفق فى سبيل ذلك أعواماً من حياته ثم حياته نفسها أخيراً ، وليس ثمة إشارة إلى أن واحداً من إخوته أعانه فى شىء أو تولى عنه أمراً طوال أعوام الصراع .

يمكن للمرء أن يعطى أكثر من جواب لهذا السؤال : لعل إخوته ، وكانوا أكثر التصاقاً بالواقع منه ، رأوا أن فى إعادة بسط سلطان كندة على ما كانت تحكم من قبائل يتطلب تضحيات جساماً لا قبل لهم بها ، وقد يعودون ملوكا ولكن لأمد قصير ، لأنهم كانوا يعتمدون على أصدقاء فى الجنوب تلاشى سلطانهم ، ولأن أعداءهم فى الحيرة كانوا ضعافاً فأصبحوا أقوياء ، وأخيراً فلأن عصبيتهم انتثرت ، وخصومهم تضاعفوا .

---

(١) الدست : المجلس ؛ وهى كلمة فارسية.

وكان امرؤ القيس على النقيض من إخوته، أمضى شبابه لاهياً فوجدها فرصة سانحة ليدرك هدفين فى ضربة واحدة، ملكا جاءه على غفلة منه، وفرصة يدخل بها ومعها التاريخ بطلا مقاتلا كما دخله من قبل شاعراً غزلا.

دُفِعتْ أسد إلى الثورة على حجر بفعل طغيانه، ولعلها كانت تؤثر أن تجد لمشكلاتها مع ملكها حلاً آخر غير الحرب وغير الثورة، وأرادت بعد مقتله أن تتجنب حرباً شبيهة بحرب البسوس يذهب ضحيتها شباب القبيلتين، فأرسلت إلى امرىء القيس وفداً منها يمثل كهولها وشبانها، فيهم المهاجرين خداش، ابن عم عبيد بن الأبرص الشاعر، وقبيصة بن نُعَيم وكان فى بنى أسد مقيما. وقد أكرمهم امرؤ القيس، واحتجب عنهم ثلاثاً، وخرج إليهم فى قباء وخفّ وعمامة سوداء، وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا فى الغارات، فلما رأوه تقدّم إليه من الوفد قبيصة بن نُعَيم، وكان رجلا حكيما بصيراً بمواقع الكلام فقال:

«إنك فى المحل والقدر، والمعرفة بتصرف الدهر، وما تحدثه أيامه وتنتقل به أحواله، فلا تحتاج إلى تبصير واعظ، ولا تذكرة مُجرّب. ولك من سؤدد منصبك، وشرف أعراقك، وكرم أصلك، مُحْتَدٌ يحتمل ما حُمِل عليه من إقالة العثرة، ورجوع عن الهفوة، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعتْ إليك، فوجدتْ عندك من فضيلة الرأى، وبصيرة الفهم، وكرم الصفح، فى الذى كان من الخطب الجليل، الذى عمَّت رزيته نزاراً واليمن، ولم تختصّ به كندة دوننا للشرف البارع».

«كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد وطيب

الشيم . ولو كان يُفدَى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلتْ كرائمنا على مثله ببذل ذلك ، ولفديناه منه ، ولكن مضى به سبيل لا يرجع أخراه ، ولا يلحق أقصاه أدناه ، فأحمدُ الحالات فى ذلك أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال ؛ إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتاً وأعلاها فى المكرمات صوتاً ، فقدناه إليك بِنِسْعه[1] يذهب مع شفرات حسامك ؛ أو فداء بما يروح من بنى أسد من نَعَمها ، فهى ألوف تجاوز الحِسبة ؛ فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها ، لم يردده تسليط الأحن على البرءاء ، وإما أن توادعنا حتى تضع الحوامل ، فنسدل الأُزُر ، ونعقد الخُمُر فوق الرايات » .

واختار امرؤ القيس الثالثة : « لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر فى دم ، وأنى لا أعتاض به جملاً أو ناقة ، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطبها سبباً ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل فى القلوب حنقاً ، وفوق الأسنة علقاً » .

انصرف بنو أسد ، وارتحل امرؤ القيس حتى نزل بكرا وتغلب فسألهم النصر على قاتلى أبيه ، فأمدوه العون ، فأقبل بمن معه ، لكن أسداً كانت قد رحلت عن منازلها بعد أن أنذرها علباء بن الحارث ، فأصاب بنى كنانة ، وهو يحسبهم بنى أسد ، فوضع السيف فيهم وهو يصيح . ياالثارات الملك !... ياالثارات الهمام ! فخرجت إليه عجوز من بنى كنانة فقالت : أبيت اللعن ! لسنالك بثأر ، نحن من كنانة ، فدونك ثأرك فاطلبهم ، فإن القوم قد ساروا بالأمس ، فقال فيهم :

---

(١) النسع : سير يضفر على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال .

أَلا يالهف نفسيَ إثْر قــوم هم كانوا الشفاء فــلم يصابوا
وقاهم جَـــدُّهمُ ببني أبيهم وبالأَ شْقَيْن ما كان العِقاب[1]
وأفْلَتهُنَّ عِلبــــــاء جريضاً ولو أدركنه صَفِرَ الوطابُ[2]

ثم تبع بني أسد فأدركهم ظهرا ، وقد تقطعت خيله ، وهلـكوا عطشاً، وبنو أسد جامون على المـاء ، فنهد إليهم فقاتلهم حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ، وحجز الليل بينهم ، وهربت بنو أسد . فلما جاء الصباح أبت تغلب وبـكر أن يتبعوهم وقالوا له : قد أصبت ثأرك ! قال : ما فعلت ولا أصبت من بني كاهل ، ولا من غيرهم من بني أسد أحدا ، قالوا : بلى ولـكنك رجل مشئوم، وكرهوا قتال بني أسد ثانية ، فانصرفوا عنه وتركوه .

لم يقنع امرؤ القيس بما أصاب ، ومضى يهدد بني أسد ويتوعدهم ، ويزهو بما قتل منهم وما أفنى ، فيرد عليه عبيد بن الأبرص ، شاعر بني أسد :

ياذا المُخَوِّفنــــا ، بقتْــــلِ أبيــه ، إذلالاً وحيْنا[3]
أزعمتَ أنّك قــد قتلْــــتَ سراتنـاً كَذِباً ومَيْنا[4]
هلاّ على حُجْر بن أمِّ قطامِ تبكي لا علينـــــا
إنّا إذا عضّ الثّقـــــاف برأس صَعْدَتِنا لَوَيْنَا[5]

(١) يعني ببني أبيهم بني كنانة لأن أسداً وكنانة أخوان ، ابني خزيمة .
(٢) أفلتهن : يعني الخيل — الجريض : الذي يغص بريقه عنـد الموت .
صفر الوطاب : أي هلك فخلا جسمه من روحه كما يخلو الوطاب من اللبن .
(٣) الحين : الهلاك .
(٤) سراتنا : جمع سري ، أشرافنا .
(٥) الثقاف : ما يسوى به الرمح — الصعدة : القنـــاة المستوية . أي إذا ما سويت رماحنا ، وثقفت وأعدت للقتال ، ملنا بها على العدو لنعملها فيه .

نحمى حقيقتنــــا ، وَبَعــض القوم يسقط بَيْن بَينْا
هلّا سألتَ جمـوع كِنــدَةَ يومَ ولّوْا اين أينـا
أيّام نضربُ هَامَهــم ببواترٍ حتّى انحْنينا(١)
وجموع غسّان الملو ك أتينهم وقـد انطوينا
لُحُقـا ، أياطلهن قـــد عالجن أسفاراً وأينَـا(٢)
ولقد صَلَقْن هـوازنا بنواهلٍ حتّى ارتوينا(٣)
نُعْلِيهُمُ تحت الضبا بِ المشرفىّ إذا اعتريْنا(٤)
نحن الأُلَى ، فاجمعْ جمو عَكَ ، ثُمَّ وَجِّهُمْ إلينـا
وأعلمْ بأن جيـادنا آلين لا يقضين دينا
ولقـــد أبحْنا ما حَمَيْــتَ ، ولا مبيح لمـا حمَيْنا
هذا ، ولو قـدرتْ عَليــك رماحُ قومى ما انتهيْنا
حتّى تنــوشك نوشة عاداتُهن إذا انتوينا
نغلى السِّباء بكلّ عا تقة شمـول ما صحونا(٥)
ونُهِين فى لذّاتها عُظْم التـلاد إذا انتشينا
لا يبلغُ البــانى ، ولو رفعَ الدعائم ، ما بنينا

---

(١) الهام : جمع هامة ، رءوسهم ، وهامة القوم رئيسهم — بواتر : سيوف قواطع
(٢) لحقـا : جمع لاحق ، خيل ضامرة — أياطل: جمع أيطل ، خواصر — الأين : التعب ، أى تحملن كثيراً من مشاق السفر .
(٣) صلق : أوقع بهم وقعة منكرة — نواهل : عطاش .
(٤) علاه بالسيف : ضربه — المشرفى : السيف ، نسبه إلى «مشارف» الشام ، قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، شهرت بصنع السيوف — عراه : غشيه .
(٥) عاتقة : خمر معتقة — الشمول : الخمر أيضاً .

كم مِنْ رئيس قد قتلنـا ه ، وضَـيْمٍ قد أبَيْنا

ولرُبَّ سـيدِ معشرٍ ضخم الدسيعة قد رَمينا[1]

عِقبانَه ، بظلال عِقْبـانٍ تيمم ما نويْنـا[2]

حـتى تركنا شِـلْوَه جزَر السباع ، وقد مضينا[3]

وأوانسٍ مثلِ الدُّمى حورِ العيونِ قد استبينا[4]

إنا لعَمْرُك ما يُضا مُ حليفُنـا أبداً لدينْـا

فلما امتنعت بـكر وتغلب من أتباع بنى أسد خرج من فوره إلي اليمن ، فاستنصر قبيلة أزد شنوءة ، فأبوا أن ينصروه وقالوا : إخواننا وجيراننا .

فنزل بقيل يدعى مرثد الخير بن ذى جدان الحميرى، وكانت بينهما قرابة ، فاستنصره واستمده على بنى أسد ، فأمده بخمسمائة رجل من حمير ، ومات مرثد قبل رحيل امرىء القيس بهم ، فقام بالمملـكة بعده رجل من حمير يقال له قرمل بن الحميم ، فسوّف امرأ القيس وطوّل عليه حتى هم بالانصراف ، وقال فيه :

وإذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا وإذ نحن لا ندعى عبيداً لقرمل

---

(١) الدسيعة : العطية .

(٢) العقبان : جمع عقاب ، وهو طائر ضخم سريع .

(٣) شلوه : بقيته — جزر : جمع جزرة ، وهى الشاة والناقة تذبح وتنحر ، أى أصبح للسباع طعاماً .

(٤) الدمى : جمع دمية ، وهو الصور والتماثيل — حور العيون : جمع حوراء ؛ وهى الشديدة بياض العين مع شدة سوادها — استبينا : أسرناهن فى الحروب .

فلما سمع ذلك منه أنفذ له الجيش، وضم إليه جمعا من شذاذ العرب، وأستأجر من قبائل العرب رجالا، ثم سارهم إلى بني أسد، ومر بتبالة[1]، وبها صنم للعرب تعظمه، يقال له ذو الخلصة، فاستقسم عنده بقداحه، وهى الآمر والناهي والمتربص، فأجالها فخرج الناهى، ثم أجالها فخرج الناهى ثانية، ثم أجالها فخرج الناهى للمرة الأخيرة، فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم، وقال له: « . . . . . . لو كان أبوك الذى قتل ما عقتنى! » . ثم خرج فظفر ببني أسد.

وكان المنذر يخشى أن ينجح امرؤ القيس فيما يريد، وأن يعيد لكندة سطوتها، فوجه إليه الجيوش، وأمده كسرى أنو شروان بجيش من الأساورة فسرحهم فى طلبه، وتفرقت عن امرىء القيس حمير ومن كان معه، فلم تعدله بهم طاقة، فنجا فى جماعة من أهله ونزل بالحارث بن شهاب من بنى يربوع بن حنظلة، ومعه الدروع التى كان بنو المرار يتوارثونها، فأرسل المنذر إلى الحارث يوعده بالحرب إن لم يسلم إليه الكنديين اللائذين به، فأسلمهم إليه، وأمر المنذر باثنى عشر فتى من أمرائهم فقتلوا فى جفر الأملاك[2].

لم ينس امرؤ القيس لبنى حنظلة موقفهم منه، وتخليهم عنه وقومه، فاتخذهم مثلا للغدر والخذلان والخبث والشر، وتهددهم بالفضيحة والذل:

أحنظل لو حاميتمُ وكَرُمتمُ   لأثنيتُ خيرا صادقا ولأرضانى

---

(١) موضع إلى الجنوب من مكة، على طريق القوافل، وقد بقيت قائمة حتى عصر الدولة الأموية. وكانت أول عمل وليه الحجاج الثقفى، فلما قرب منها قال للدليل: أين هى، وعلى أى سمت؟ قال: تسترها عنك هذه الأكمة. قال: لا أرانى أميرا الا على موضع تستر منه أكمة! أهون بها ولاية، وكر راجعا، فقيل فى المثل: « أهون من تبالة على الحجاج »!
(٢) مكان بين الحيرة والكوفة، سمى بذلك لقتل هؤلاء الفتيان عنده.

ولـكن أبى خذلانـكم فافتضحتمُ ... وخبّثتمُ من سعيكم كلَّ إحسانِ

وقد كان أصفاكمْ بأخلص ودّهِ ... على غيركم، فكنتمُ شرّ خُلْصانِ

وكم مطرتْ كفّاه من كفّ نائلٍ ... له فيكمُ فاشٍ، وكم فكّ من عانِ

أحنظل لا شكرٌ بصالح فعله ... ولا عفة، إذ نصرُكمْ خاذلٌ وانِ

فألفيتُمُ عنـــد الجوار أذلّةً ... وعيدانكمُ فى الجهد أخور عيدانِ

. . . .

احنظل هذا ذكرُ ما قد فعلتمُ ... وأجلوُ لكم وجه الحديث بتبيانِ

سأوقدُ حتى يعلمَ الناسُ غدركمْ ... بمشهورةٍ فوق العلاء بنيرانِ

وأبتمْ بلا غُنْمٍ ولا بسلامـــةٍ ... فياشرّ أتباعٍ ويا شرّ أخدانِ

وإذا شكر العوير بن شجنة وقومه، قال إنهم حفظوا جيرانهم، ولم يفعلوا ما فعل بنو حنظلة:

أدَّوْا إلى جارهم خفَارتـــه ... ولم يَضِعْ بالمغِيب من نصرُوا

لم يفعلوا فِعْـــلَ آل حَنْظَلةٍ ... إنَّهُمُ جَيْرِ بئس ما ائتمروا[(1)]

---

(١) جير فى معنى حسب، وقيل معناها: حقا، وهى فى معنى القسم.

* شراح ديوان امرئ القيس يرون أن البيت إشارة إلى تخلى بنى حنظلة عن عمه شرحبيل فى معركة يوم الكلاب الأول، وهو وهم منهم، لأن شرحبيل لم يكن مستجيراً فى بني حنظلة حينئذ، وإنما كان هؤلاء جنداً مساعداً له فى الحرب، وكانت قبيلة بكر عماده فى المقام الأول، وقد تخلى عنه بنو حنظلة فعلا، ومعهم بنو عمرو والرباب، وفرارهم عن المعركة جبن يعيرون به، وليس خذلانا للجار يؤاخذون عليه. ولو كان البيت، والأبيات التى قبله هنا، تتصل بهذا اليوم، لما توجه إلى بنى حنظلة باللائمة وحدهم، ولضم إليهم بنى عمرو والرباب. وأخيراً فإن المنتصر فى هذا اليوم وقاتل شرحبيل كان عمه سلمة، فهو ــ أى امرئ القيس ــ قاتل ومقتول فى نفس الوقت، إن صح التعبير.

نجا امرؤ القيس من المنذر ومعه يزيد بن معاوية بن الحارث وابنته هند وأدرعه وسلاحه، ونزل على سعد بن الضباب الإيادى سيد قبيلة إياد فأجاره، فشكر له امرؤ القيس نصره :

منعتَ الليثَ من أكل ابن حُجْر ... وكاد الليثُ يودى بابن حجرِ
منعتَ، وأنتَ ذو مَنٍّ ونُعْمىً ... عَلَيَّ، ابنَ الضِّباب بحيث تدرى
سأشكُرُكَ الذى دافعتَ عنِّى ... وما يجزيك عنى غيرُ شكرى
فلا جارٌ بأوثق منك عَهْداً ... فنصرُكَ للطَّريدِ أعزُّ نَصْرِ

والقصيدة الرابعة عشرة فى الديوان[1]، وهى كاملة ذات مقدمة ونسيب وصناعة، نظمها خلال إقامته بديار سعد بن الضّباب مستجيراً، يشكره ويعدّد مآثره وصفاته، فهو ليس بضعيف يوم الحِفاظ، ولا ضيّق الصدر عند الشدائد ذو خيل ومال، عزيز منيع، ليس كقوم أرضهم مسبعة، وأموالهم غَنم، أذلّاء يفرّون من السهل إلى الجبل يتحصنون فيه خوفا، وطعامه لحم جزر، وشرابه خمر معتقة :

لَعَمْرُكَ ما سعدٌ بِخُلّةِ آثمٍ ... ولا نأنأٍ يوم الحفاظ ولاحَصِرْ[2]
لَعَمْرِى لَقَوْمٌ قد نرى أمس فيهمُ ... مرابطَ للأمهار والعَكَر الدَّثِرْ[3]

---

(١) ديوان امرئ القيس، تحقيق : محمد أبى الفضل ابراهيم، ص ١٠٩ وما بعدها، الطبعة الأولى، دار المعارف، ذخائر العرب رقم ٢٤، القاهرة ١٩٥٨

(٢) الخلة : الخليل — النأنأ : الضعيف المقصر — الحفاظ : الأنفة — الحصر : الضيق الصدر عند الشدة.

(٣) الأمهار : جمع مهر، ولد الفرس — العكر : جمع عكرة، ما بين الستين الى السبعين من الإبل — الدثر : الكثير.

أحبُّ إلينا من أُناس بقُنةٍ   يروحُ على آثار شائِهِم النمِر
يفا كِهُنا سعدٌ ويغدو لجمعنا   بمثنى الزِّقاق المُترعاتِ وبالجُزُرْ
لعمرى لَسَعدٌ حيث حُلَّتْ دِيارُه   أحبُّ إلينا منكَ ، فَا فرسٍ حَمِر (١)
ونعرفُ فيه من أبيه شمائلاً   ومن خالِه ،ومن يزيدَ ،ومن حُجُرْ
سماحة ذا ، وبِرَّ ذا ، ووفاء ذا   ونائلَ ذا ،إذا صحا وإذا سَكِرْ

ولكن المنذر ظل يطلب امرأ القيس ، فتحول عن سعد الإيادى إلى المعَلّى بن تَيْم ، من جديلة طيّء ؛ وقد استشعر فى جواره الأمن والطمأنينة وتباهى بأن المُعلّى فوق قدرة المنذر ملك الحيرة ، والحارث بن أبى شَمِر ملك الغساسنة ، ولم يصف امرؤ القيس أحداً من الذين نزل بهم مستجيرا بمثل هذه القوّة كما وصف المعلّى ، ربما لأنه يمنىّ مثله يلتقى معه فى النسب على المدى البعيد :

كأنىَ إذ نزلتُ على المُعلَّى   نزلتُ على البواذخ مِنْ شَمامِ (١)
فما مَلِكُ العراقِ على المعلىَّ   بمقتدر ، ولا ملِكُ الشآمِ
أَصدَّ نَشاصَ ذى القرْنيْن حتىّ   تولى عارضُ المَلِكِ الهمامِ (٢)
أقرَّ حشا امرىءِ القيس بن حُجْرٍ   بنو تَيْمٍ مصابيحُ الظّلامِ (٣)

---

(١) الضمير فى «منك» يعود على شخص يقارن امرؤ القيس بينه وبين سعد ، ويقول عنه أنه كان بخر الفم ، لأن الفرس إذا حمر أنتن فوه ، فعيره بذلك.
(٢) البواذخ : جمع باذخ ، الشامخ العالى — شمام : جبل .
(٣) النشاص : ما ارتفع من السحاب ، شبه الجيش به — العارض : أصله السحاب المعترض فى السماء ، ويريد به هنا الجيش .
(٤) أقرحشا : اطمأنت نفسه ولم تضطرب أحشاؤه فزعا .

وعند المعلّى فكّر امرؤ القيس أن يستقرّ زمناً ، لكن بقية قوم المعلّى ضاقوا به ، وطردوا رواحله ، فخرج حينئذ من عندهم ، ونزل على خالد بن أصمع النبهانى ، ونبهان بطن من طيّئ ، فأغار بنو جديلة عليه وذهبوا بإبله ، فبقى بلا رواحل يتأسّى : إلاّ يكن غنى وفير ومال كثير فبلغة من العيش تغنى ، وإلا تكن أبل عتاق فقطيع من المعزى يكفى :

ألاَ إلاّ تكن إبلٌ فمِعْزَى كأنّ قرون جِلّتِها العِصِيُّ[(1)]
وجاد لها الربيع بواقصاتٍ فآرام ، وجاد لها الولىُّ[(2)]
إذا مُشّتْ حَوَالِبُها أرنَّتْ كأن الحىّ صبّحهم نَعِىُّ[(3)]
فتوسِعُ أهلَها إقطاً وسَمْناً وحَسْبُكَ من غِنىً شِبَعٌ ورِىُّ[(4)]

بقى امرؤ القيس فى بنى نبهان وقتا ، ثم فارقهم ونزل بعامر بن جُوَيْن ، وكان خليعاً فاتكا ، تبرأ منه قومه لجرائره ، فراودته نفسه فى أموال امرىء القيس ، وأحسَّ هذا بما كان يراوده ، من شعر كان ينطق به :

---

(١) الجلة : جمع جليل ، المسن من الغنم وغيرها .
(٢) واقصات : اسم موضع — الآرام : جمع ارم ، علامات فى الطريق ، يريد مواضع الأعلام فيها — الولى : مطر يلى الوسمى .
(٣) مشت : مسحت بالكف لتنزل درة اللبن — الحوالب : جمع حالب ، عرق فى السرة يدر اللبن فى الضرع — أرنت : صاحت .
(٤) الإقط : شىء يصنع من اللبن المخيض على هيئة الجبن .
* شك الأصمعى فى هذه الأبيات ، وكان يقول : « امرؤ القيس ملك ولا أراه يقول هذا » . والذى دعا العالم الجليل إلى الشك أن الأبيات وردت فى الديوان مجردة من مناسبتها التاريخية . والواقع أن امرأ القيس حين قالها لم يكن ملكا ، وإنما هارب مستجير ، منهوب الرواحل ، معرى من القوة ، يلفه حزن ويأس ، ومشاعر الألم والخيبة ، والرضا بالقليل والقناعة ، تعتور الملوك والعامة على السواء .

فكم بالصعيد من هِجان مُؤَبَّله تسير صحاحاً ، ذات قَيدٍ ومرسله[1]
أردتُ بهـــا فتكا فلم أرتمض له ونَهنهتُ نفسى بعد ما كدتُ أفعله[2]

وكان يعرّض بهند ابنة امرىء القيس[3] :

ألا حىّ هندا وأطلالهـــــا وتظعان هند وتحلالهــــــا
هممتُ بنفسى كل الهـــموم فأولى لنفسى ، أولى لهـــا
سأحمـــــل نفسى على آلة فإمّا عليهـــــا ، وإمّا لها[4]

فلما عرف امرؤ القيس ذلك منه ، وخافه على أهله وماله ، تغفّله وانتقل إلى جارية بن مرّ بن حنبل ، من بنى ثُعَل ، فاستجار به ، ووقعت الحرب بين عامر بن جُوَيْن وبين جارية الثعلى من أجله . فدافع بنو ثعل عنه ، وقدّر لهم امرؤ القيس موقفهم ، فشكرهم فى قصيدة بدأها بالسخرية من خالد النبهانى لأنه توانى عن استرداد رواحله التى أغار عليها بنو جديلة وكان فى جواره . لقد أُخِذتْ الرواحل كأن عُقابا من عِقبان « تَنوفَى » ذهبت بها ، وعبث المغيرون بذمة خالد ، دون أن يحرّك سا كنـا . وامرؤ القيس يتأمل خالدا ، قصيرا يمشى الهوينى ، خائرا بطىء الحركة ، كأتان مُنعتْ عن الماء وهى عطشى ، تتلكأ حوله راغبة فى الشراب ، لكنها عاجزة عن الوصول إلى ما تريد . أما جارية وقومه فلا يسلمون جارهم ، ولهم من العزّة ما يجعل

---

(١) الصعيد : وجه الارض — الهجان : البيض الكرام من الأبل — المؤبلة : الأبل الكثيرة المجتمعة التى جعلت للقنية لا يمسها أحد .
(٢) ارتمض : حزن ، أى فلم أحزن ولم آسف له .
(٣) بعض الرواة ينسبون هذه الأبيات للخنساء ، وهى بعامر أشبه .
(٤) آلة : حالة .

أبلى فى حماهم ترعى مطمئنة وتبيت آمنة ، فلا يستطيع الذين أغاروا عليها فى بنى نبهان أن يمسّوها هنا ، رغم أنها تسرح فى رءوس الجبال ، وتلاعب صغارها أولاد الوعول ، على جبـال عالية يلفها السحاب ، وتتناثر على بطنها الطرق كما لو كانت بردا مخططا :

دعْ عنك نَهْبا صِيحَ فى حَجَراته ... ولكنْ حديثا ماحديث الرواحل[1]
كأنَّ دِثارًا حلّقتْ بلبونه ... عُقابُ تَنُوفَى لا عُقابُ القَواعِلِ[2]
تلعّب باعثٌ بذمّة خـالد ... وأودَى عصامٌ فى الخطوب الأوائل
وأعجبنى مَشْىُ الحُزُقّةِ خالدٍ ... كمشْى إتانٍ حُلّئتْ بالمناهِلِ[3]
أبتْ أجأ أن تُسلِمَ العامَ جارها ... فمن شاء فلْينْهضْ لها من مُقاتِل[4]
تبيتُ لَبُونِى بالقُـرَيَّةِ أُمَّنًا ... وأَسْرِحها غِبًّا بأكنافِ حائل[5]
بنو ثعل جيرانهـا وحماتُها ... وتُمنَع منْ رُماةِ سعْد ونائـل[6]
تُلاعبُ أولادَ الوعول رِباعُهـا ... دُوَيْنَ السماء فى رءوس المجادل[7]
مكلّلةً حمـراء ذاتَ أَسِرّةٍ ... لها حُبُكٌ كأنّها من وَصَائل[8]

---

(١) الحجرات : النواحى .
(٢) دثار : راعى إبل امرىء القيس — اللبون : ذات اللبن من الإبل والشـاء — العقاب : طائر ضخم ـ تنوف : جبل من جبال طيىء مرتفع ـ القواعل : جبال منخفضة
(٣) الحزقة : الرجل القصير ـ حلئت : طردت ـ المناهل : موارد الماء .
(٤) أجأ : أحد جبلى طيىء ، والآخر سلمى .
(٥) الغب : أن ترسـل فى المرعى يوما وتترك فيه يوما ، ثم تراح فى اليوم الثـانى ـ أكناف : جوانب ـ حائل : اسم موضع .
(٦) سعد ونائل : من بنى نبهان .
(٧) الوعول : جمع وعل ، وهو تيس الجبل ـ الرباع : الفصلان المنتوجة فى الربيع ـ المجادل : الحصون ، يريد الجبال المرتفعة .
(٨) الأسرة : الطرائق فى الأرض المنبتة ـ حبك : جمع حباك ، الطرائق فى الرمل ونحوه ـ الوصائل : ضرب من البرود المخططة .

فلما وقعت الحرب بين طيء من أجله ، خرج من عندهم ، ونزل على عمرو ابن جابر بن مازن ، من بنى فزارة وكان عمرو صاحب رحلة وتجربة وخبرة ، فطلب منه امرؤ القيس الجوار حتى ينظر فى أمره ويصلح من شأنه . وخلال إقامته فى بنى فزارة فكّر أن يطلب العون من الإمبراطور جوستنيان Justinien إمبراطور بيزنطة ، ولعله سمع عنه كثيراً من مجيره ، فقد كان « كثير التردّد على قيصر إمبراطور بيزنطة والنعمان ملك الحيرة » . ويوحى تطور الأحداث ومفهومها أن امرأ القيس طلب النصيحة من الحارث الغسّانى ، وأن الحارث شجعه على الرحلة ، وقَبِل أن يقدّمه لقيصر ، فثمة هدف مشترك يجمع بينهم . كان الغساسنة ، ومِن ورائهم بيزنطة ، أعداء ألداء لمناذرة الحيرة ، وقد لعب هؤلاء دوراً واضحاً ، بمساعدة فارس فى تحطيم مُلْك كندة ، وملاحقة امرئ القيس ونجاحهم فى إقصائه وأسرته عن السيادة ، جعل كلّهم هى النافذة بين القبائل الضاربة فى شرق الجزيرة الشمالى ونجد ، وكان للغساسنة ولبيزنطة مصلحة مُلحَّة فى دعم امرئ القيس لاستعادة سلطانه ، كى يصبح شوكة فى ظهر المناذرة خصومهم التقليديين .

بدأ امرؤ القيس المحاولة فأرسل إلى قيصر وفدا يطلب النجدة على بنى أسد وعلى ملك الحيرة ، وكان مع الوفد ابنه معاوية ، فكتب قيصر إلى النجاشى يدعوه لمعاونة امرئ القيس ، لكن الحبشة كانت موتورة من الكنديين ، فقد تزعم يزيد بن كبشة خال امرئ القيس ثورة ضدها ، حين عينه أبرهة حاكما على اليمن عام ٥٣٥ م ، كما أن أبرهة ممثل الاستعمار الحبشى فى اليمن كان مشغولا بالدفاع عن اليمن ضد احتمالات الغزو الفارسى ، وبتأمين

طرق القوافل الشمالية لصالح قومه ، وذلك بوضع الحجاز تحت السيطرة الحبشية وإزاء ذلك كله رأى امرؤ القيس أن يذهب بنفسه ، ولما كانت نفقات رحلته — كأمير — باهظة ، فقد اتجه أولا إلى تيماء ، وكانت قريبة من ديار بنى فزارة ، ومركزاً كبيراً للأقراض بالربا ، وفيها رهن سلاحه ودروعه عند مراب يهودى اسمه صموئيل (السموءل بن عاديا فى المصادر العربية) .

الرحلة إلى قيصر

كانت الظروف مهيَّأة لتجعل من الذهاب إلى القسطنطينية محاولة يمكن أن تنجح ، فالعلاقات متوترة بين بيزنطة وفارس ، والمناوشات لا تنقطع بين ممثلى الدولتين ـــ الحيرة والغساسنة ـــ على أطراف الجزيرة الشمالية ، وكندة عدو لدود للحيرة منذ لاحق المنذر الثالث امرأ القيس فى كل مكان ، ومنذ أن طرد ، بمعاونة الفرس ، جده من الحيرة ، وقتل أهله ، وكندة وتوابعها فى وسط الجزيرة يمكن أن تكون شوكة فى ظهر الحيرة . واستجابة لهذه الدواعى رأى امرؤ القيس أن يذهب بنفسه إلى قيصر ، مؤملا أن يعينه فى استرداد مُلْك آبائه ، ولسنا نعرف على التأكيد هل الاتجاه إلى بيزنطة كان وليد تفكير امرىء القيس أو اقتراحا ساقه إليه مجيره عمرو بن جابر بن مازن الفزارى ، وقوّاه الحارث الغسانى ؟ .

رحل امرؤ القيس إلى القسطنطينية ، رفقة عمرو بن قميئة الشاعر ، من من بنى قيس بن ثعلبة ، وأحد حجّاب أبيه — أو خدمه — فيما تقول بعض الروايات ، وإليه يشير امرؤ القيس صراحة فى أطول قصائده عن الرحلة :

أرى أمّ عمرو دمعُها قــد تحدّرا بكاءً على عمرو وما كان أصبرا

وكان معه جابر بن حنّى التغلبى وإليه أشار فى قصيدة أخرى له تتصل بالرحلة :

فإما ترْينى فى رحالةِ جابرٍ على حرج ، كالقرّ تخفق أكفانى

وخرج معه الحارث بن حبيب السلمى ، ولـكنه لم يكمل الرحلة ، فمات فى الطريق قريباً من بصرى فى ديار الشام ، وبكاه امرؤ القيس بشعر حفظ لنا منه الرواة بيتين :

ثوَى عندالوَدِيَّة جوف بُصرَى أبو الأيتام والـكلّ العجـاف

فمن يحمِى المضـاف إذا دعاهُ ويحملُ خطةَ الأنسِ الضِّعافِ

وكان معه على التأكيد آخرون من أهله ومعاونيه ورفاقه وخدمه ، فقد كان أميراً قادماً على إمبراطور ، ومما يسهّـل مهمته أن يبدو فى مظهر يضفى على موكبه مسحة من جلال وعظمة .

يمكن أن نحدّد تاريخ رحلة امرىء القيس إلى القسطنطينية بشىء من المقارنة بين الأحداث البارزة التى سبقت الرحلة أو رافقتها ، على أرض الجزيرة العربية أو خارجها .

أول إشارة ذات أهمية نلتقى بها وتكوّن حجر الأساس فى المحاولة ، لقاء امرىء القيس مع علقمة بن عبدة الملقب بالفحل ، فى محاورة شعرية أشرنا إليها قبلا ، ولم يكن علقمة يومها شاعراً شيخاً ، وإنما كان شاباً فتياً ، أخذ جماله بمجامع قلب أم جندب زوج امرىء القيس فهجرت زوجها رغبة فيه. وأول قصيدة نعرفها لعلقمة قالها بعد يوم حليمة[1] ، وكان بين المنذر بن النعمان وبين الحارث بن أبى شَمِر الغسانى ، وبدأت الحرب بينهما سجالا ، والتقى الجيشان

(١) جرت معارك هذا اليوم فى مقاطعة نسرين ، وعرف بيوم حليمة نسبة إلى حليمة ابنة الحارث الغسانى ، وقد عطرت بيديها قبل المعركة مائة بطل من أبطال الغساسنة تهيئوا للموت ، وألبستهم الدروع وثيابا من التيل الأبيض ، وأعلن أبوها أنه سيزوجها ممن سيقتل النعمان ابن المنذر ملك الحيرة .

مرتين ، انهزم فيهما المنذر وقُتِل فى الثانية . وفى هـذه الحرب أسر الحارث سبعين رجلا من تميم ، بينهم شأس بن عبدة ، أخو علقمة — أو ابن أخيه فى رواية — فأتى علقمة الحارث ومدحه بقصيدة طويلة أوردها المفضل الضبى فى « مفضلياته » كاملة ، ومطلعها :

طحابك قلبٌ فى الحسان طروبُ   بُعَيدَ الشباب عصْرَ حان مشيبُ
يكلّفنى ليلى ، وقد شطّ وليُها   وعادت عواد بيننا وخطـــوب
مُنَعّمة ، ما يستطاع كلامها   على بابهـــا من أن تُزار رقيب

وبعد مقدمة طللية طويلة ، اكتفينا منها بالأبيات السابقة ، يتوجه بالحديث إلى الحارث :

إلى الحارث الوهّاب أعملتُ ناقتى   لِـكَلْـكَلِها والقصْرَيَيْن وجيبُ
إليك أبيت اللعن ! كان وجيبُها   بمشـتبهات هولهـــن مهيب
هدانى إليكَ الفرقدان ولا حب   له فوق أعلام المتان علوب
فلا تحرمنّى نائلا عن جنـــاية   فإنى امرؤ وسط القباب غريب

فلما بلغ هذا البيت :

وفى كل حىّ قد خبطتَ بنعمة   فحُقّ لشأس من نداك ذَنُوبُ

فقال الحارث : نعم وأذنبة . وإنما أراد علقمة بقوله :

* وفى كل حىّ قد خبطت بنعمة *

أنّ النابغة كان قد شفع فى أسارى بنى أسد فأطلقهم الحارث ، وكانوا

نيفاً وثمانين ، ثم سأله علقمة أن يطلق أسارى بنى تميم[1] ، فاستجاب الحارث لرجائه وأطلق سراحهم .

كانت معركة « يوم حليمة » عام ٥٥٤م ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن وقعة « يوم أوارة الأول » التى قتل فيها سلمة عم امرىء القيس كانت عام ٥٤٨م ، أو قريباً منه ، وأن حجرا والد امرىء القيس قتل بعد هـذا التاريخ ، وأن امرأ القيس حين التجأ إلى طيىء والتقى بعلقمة كان قد طوّف فى عديد من القبائل ، وجاب الجزيرة شرقاً وغرباً من الشمال إلى الجنوب ، طالباً العون مرة ولاجئاً مرة أخرى ، وأن طيئاً كانت بين آخر من استجار بهم ، أمكننا أن نحدد لهذا اللقاء تاريخاً يأتى بعد عام ٥٥٥م ، وإذا عرفنا أن امرأ القيس تنقّل فى بطون طيىء ، وأمضى وَقتاً يدبّر أمره ، وأرسل وفداً إلى قيصر قبل أن يذهب إليه ، وأمضى فى تيماء فترة يدبر نفقات رحلته ، وأن الأمبراطور جوستنيان الذى وفد عليه توفى عام ٥٦٥ م ، كان لنا أن نقرر دون اعتساف أن بداية رحلة امرىء القيس إلى القسطنطينية تقع فى زمن قريب من عام ٥٦٣ م .

وصل امرؤ القيس إلى القسطنطينية ، تجمع الروايات كلها على ذلك ، وتختلف فيما عداه .

تقول الرواية الأولى : إنه صار إلى ملك الروم فأكرمه ونادمه واستمدّه فوعده ، ثم بعث معه جيشاً فيهم أبناء ملوك الروم ، فلما فصل قيل لقيصر : إنك أمددت بأبناء ملوك أرضك رجلا من العرب ، وهم أهل غدر ، فإذا

---

(١) لمراجعة قصيدة النابغة فى مدح الغساسنة والظروف التى قيلت فيهاوشرحها ، انظر : عمر الدسوقى، النابغة الذبيانى، ص١٢٦ ومابعدها، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م.

استمكن مما أراد وقهر بهم عدوّك غزاك، فبعث إليه قيصر مع رجل من العرب كان عنده يقال له : الطمّاح بن قيس الأسدى، وكان امرؤ القيس قد قتل أخا له، بحلة منسوجة بالذهب مسمومة، ولبسها فأسرع فيه السمّ، وتنفط جلده، والعرب تدعوه ذا القروح لذلك. ولما صار إلى مدينة أنقرة ثَقُل فأقام بها حتى مات، وقبره هناك.

وتقول الرواية الثانية إن الطمّاح قال لقيصر : إن امرأ القيس غوىّ عاهر، وأنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها وهو قائل فى ذلك أشعارا يشهّر بها فى العرب فيفضحها ويفضحك. فبعث إليه بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب، وقال له : إنى أرسلت إليه بحلتى تكرمة لك، فإذا وصلتْ إليك فالْبسها، واكتبْ إلىّ بخبرك، فلما وصلت إليه لبسها، فأسرع فيه السمّ وسقط جلده، فسُمِّى لذلك ذا القروح.

ورواية أخرى تذكر أن ابنة قيصر نظرت إليه فعشقته، فكان يأتيها وتأتيه، وفطن الطماح بن قيس الأسدى لهما، وكان حجر قد قتل أباه، فوشى به إلى الملك، فخرج امرؤ القيس متسرّعا فبعث قيصر رسولا فى طلبه، فأدركه دون أنقرة بيوم ومعه حلّة مسمومة، فلبسها فى يوم صائف، فتناثر لحمه، وتفطَّر جسده.

وانفرد ابن سهل برواية أن قيصر زوّجه ابنته، وأنها كرهته لأنّه كان مُفرّكا، فلما دخلت عليه أبغضته، فلما أراد المسير دخلت على أبيها فقالت له : إن امرأ القيس يقول لئن غلب على عدوّه ليعطفن عليك فيقتلك ويضمّ ملكك إلى ملكه، فلم يتهم ابنته على نفسه، فدعا بسبيبة فأنقعها فى السمّ،

ثم صنعها ، وبعث بها إلى امرىء القيس مع رجل يثق به ، فدخل الحمام فلما خرج لبسها فتقطّع لحمه .

تتفق الروايات إذن على ذهابه إلى قيصر ، وعلى أنه لم يجن من رحلته شيئا ، وأنه مات فى الطريق ، وتختلف فى التفاصيل ، ويستطيع الدارس أن يميّز بين ما هو جوهرى أصيل منها ، وما كان من إضافة الرواة وتوليد القصّاص .

فاتجاه امرؤ القيس إلى القسطنطينية ليس بغريب ولا الأول من نوعه فى تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام . كان أجداد امرىء القيس ملوكا على وسط الجزيرة زمناً ، وامتد سلطانهم لفترة من الوقت على الحيرة نفسها ، وكانت جدارا أقامه الفرس ليحميهم من هجمات البدو يضربون ثم يضيعون فى الصحراء ، وكان بين الفرس وبيزنطة صراع طويل ومرير ، فمن الطبيعى أن يستغل امرؤ القيس هذا الخلاف ، وأن يحاول أن يكون هو لبيزنطة فى شمال شرقى الجزيرة مالها مع الغساسنة فى الشمال الغربى ، وأن يؤدى لها نفس الدور الذى تؤديه الحيرة لفارس ، ومن العادى أن يقابل امبراطور بيزنطة أميرا من الجزيرة العربية ، وأن يحاول استخدامه ضد أعدائه ، ولم تكن الأولى فى تاريخه امبراطورا ، أو فى تاريخ بيزنطة دولة ، فقد سبق له أن قابل على مر الأيام ، عددا من كبار رجالات العرب يمثلون عددا من القبائل العربية من كافة أنحاء الجزيرة .

ومن التعنّت القائم على غير دليل ملموس أن نرفض رواية القدامى القائلة أن أسدا تتبّعت رحلة امرىء القيس إلى بيزنطة تحاول إفسادها ، وهى تعرف سلفاً قوة جيرانهم على الحدود الشمالية ، وفى صراع مع امرىء القيس

يتوقف عليه مستقبل القبيلة ومصيرها ، فأرسلت إلى الإمبراطور من يحمل وجهة نظرها ، ويشجب محاولة الشاعر الكندى ، وعبيد بن الأبرص شاعر بنى أسد ، يشير فيما وصلنا من شعره ، إلى رحلة امرىء القيس إلى قيصر ، ويسخر من وعيده ، ويتهدّده بأنه سيلقى مصيره وهو بأرض الشام :

أزعمتَ أنك سوف تأتى قيصرا ... فَلَتَهلِكنّ إذا وأنت شآمى

لكننا نشك أن اسمه الطمّاح الكندى ، كما تقول الرواية ، اعتماداً على بيت من الشعر فحسب ، ورد فى قصيدة موثّقة لامرىء القيس ، دون أن يكون إلى جانب الشعر خبر آخر يفسّر هذه الإشارة ويوضّح شخصية الرسول لأن ما فى بيت الشعر يحتمل اكثر من تفسير ، والتفسير الأقرب إلى المنطق ليس فى صالح الرواة ، والبيت هو :

لقد طمح الطمّاح من بُعدِ أرضه ... لِيُلْبِسنى من دائه ما تلبّسا

فالطمّاح فى البيت ليست علماً على شخص ، فيما يبدو لى ، وإنما هى صيغة مبالغة من طمح ، كناية عن رجل عدوّ لامرىء القيس فحسب .

كذلك تبدو الرحلة غريبة فى إطار وهم قديم ، وعلى خطاه سار المحدثون؛ وهو أن امرأ القيس رحل إلى القسطنطينية ليطالب من الامبراطور البيزنطى مساعدته فى الأخذ بثأر أبيه ، ذلك أن امرأ القيس ثأر لأبيه فعلا ، وقتل بسببه كثيراً ، واحتمال أن يرحل من أجل هدف كهذا يبدو ضرباً من الحقد المجنون ، والواقع أن امرأ القيس لم يكن مشغولا بالثأر بقدر ما كان يهدف إلى استعادة عرش يصبح به ملكا مسموع الكلمة ، مهيب الجانب ، فى منطقة

واسعة الأرجاء ، تضم العديد من القبائل ، ويحتـاج حكمهـا إلى قوة ، وهو صريح فى تحديد هدفه هذا :

فقلتُ له : لا تبكِ عينُـــك إنما
نحاول ملـكا ، أو نموت فنعـــذرا

كذلك نرفض أن يكون الامبراطور قد غضب على امرئ القيس لأنه شبّب بابنته ، ولا نستبعد أن يكون شاعر كندة قد خفق قلبه عند مرآها لأن التغزّل فى امرأة جميلة ليس بمستغرب من شاعر هوايته الحديث عن النساء ولم يكن مما يعاب فى بيزنطة فى عصر امرئ القيس ولا بعد عصره ، ولدينا أخبار لا يتسرّب إليها الشكّ عن شاعر عربى آخر ، هو يحيى الغزال ، جاء بلاط قيصر سفيراً لعبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس ، فأعجبته زوجة الامبراطور فتغزّل فيها ، وسجّل غزله فى شعر تحفظه كتب الأدب والتاريخ (١) وكان الامبراطور مسروراً بما قيل عن جمال زوجته وكانت زوجته أكثر منه سروراً .

وفيما يبدو يعود السبب فى إخفاق رحلة امرئ القيس إلى الإمبراطور نفسه ، فقد كان شيخاً هرماً ، وتوفى فى نفس العام الذى فارق فيه الشاعر العربى مدينة القسطنطينية عام ٥٦٥ م ، فحالته لا تسمح له بأن يعد أو يغامر ، وكانت الدولة فى أواخر أيامه مهدّدة بهجمات البرابرة ، على حين تضاءل الجيش من ٦٥٠ ألف مقاتل إلى ١٥٠ ألفا . فأرضى امرأ القيس بلقاء حارّ ، وطيب خاطره بهدايا حسنة ، دون أن يتجاوز ذلك إلى إمداده بالمقاتلين .

---

(١) انظر مثلا : المقرى ، نفح الطيب، ص ٢١ ج٣ ، طبعة محمد محي الدين ، القاهرة ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م .

ومن ثمّ فنحن نرفض خبر الحلّة المسمومة ، ونرى من تجميع الأخبار فى صورها المختلفة أن امرأ القيس كان مصابا بمرض كالجدرى ، وأن عرقه نتن له رائحة عرق كلب ، وأنه كان مصاباً بخلل جنسى فى بنيته ، وانعكس ذلك فى التهاب جلدى تذكر كل رواية واحدة من أعراضه المختلفة ، ولا تناقض بينها أو تباين ، لأن العلاقة بين أمراض الجنس وأمراض الجلد مقررة علميا ، وأن المرض هو الذى أودى به فى الحقيقة ، ولا نتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد منه ، لنقرر أن الرحلة كلها مكذوبة غير معتمدين على دليل ، فى حين أن أحداثها تتردد فى شعره ، ويرتبط بها أكثر من قصيـدة ومقطوعة ، موثقة الرواية ، على ما سنعرض له بعد قليل .

كانت وفاة امرئ القيس عائداً من القسطنطينية نحوا من عام ٥٦٥ م ، قريباً من أنقرة ، ويذكر الأب شيخو فى كتابه (شعراء النصرانية) أن الإمبراطور حين بلغته وفاة امرئ القيس أمر بأن ينحت له تمثال ينصب على ضريحه ففعلوا ، وكان التمثال قائما حتى أيام الخليفة المأمون ، وأن الخليفة شاهده عند مروره من هناك لما دخل بلاد الروم غازيا فى إحدى صوائفه .

ولما بلغ الحارث بن أبى شِمِر موت امرئ القيس وعرف ما ترك عنـد صموئيل (السموءل) من سـلاح ودروع طمع فى أن يستولى عليها لنفسه ، دون أن يدفع ما عليها ، فأرسل الحارث بن مالك ليطلبها من صموئيل ، لـكن هذا رفض ولاذ بحصنه ، وأغلقه دون رسول الحارث الغسانى وتقول الرواية أن الرسول أخذ ابناً لصموئيل كان خارج الحصن ، وجعل إطلاق سراحه مقابل دفع السلاح ، فرفض صموئيل ، وآثر أن يحتفظ بما خلّف امرؤ القيس حتى ولو فقد ابنه ، وقد قتل ابنه فعلا . تلك هى القصة فى جوهرها ، ثم صُنِـع منها فى

أيام صموئيل أو بعدها ، وربما لهدف دعائى يهودى مقصود،قصة تمثل الصراع بين الغدر والوفاء ، جعلت من صموئيل بطلا لأسطورة أصبحت مثلا ، سجلها الأعشى فى شعره وقد عاش قريبا من أحداثها ، والشك فى نسبة الشعر إليه والظنّ بأن صانعه هو أحد أبناء صموئيل يسقط اعتبار القصيدة من شعر الأعشى، لكنه لا يسقط القصة نفسها من أحداث التاريخ ، وقد يكون الشعر مصنوعا قيل ليدعم موقفاً معيناً ، ولا يتأتى أن يُنْحل شعر فى مجال التفاخر والتباهى، يعتمد على قصة موضوعة ، ليس لها سند من جوهر أحداثها ، وإن اختلفت التفاصيل واختلفت الناس إزاءها فى التفسير والتعليل .

تروى كتب الأدب والتاريخ أن رجلا من قبيلة كلب أسر الأعشى وحبسه ، ثم اجتمع عنده شرْب فيهم شُرَيحُ بن عمرو الكلبى ، فعرف الأعشى ، فقال للكلبى : مَن هذا ؟ فقال خَشاش التقطته ! قال : ما ترجو به ولا فداء له ؟ خلِّ عنه ، فخلّى عنه،فأطعمه شريح وسقاه ، فلما أخذ منه الشراب سمعه يترنّم بهجاء الكلبى ، فأراد استرجاعه، فقال الأعشى :

شُريحُ ! لا تتركنّى بعد ما علقتْ ... حِبالُك اليومَ بعد القِدّ أظفارى(١)

كن كالسموءل إذ طاف الُهمام به ... فى جحفلٍ كهزيعِ الليلِ جَرّار

بالأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجارٌ غير غدّارِ

خَيَّرَهُ خُطتىْ خسف فقال له : ... اعرضهما ، هكذا اسمعْهُما حارِ(٢)

فقال : ثكلٌ وغدر أنت بينهما ... فاختَرْ ، وما فيهما حظٌّ لمختار

(١) القد : سير يقد من جلد غير مدبوغ .

(٢) حار : ترخيم حارث .

فشكَّ غيرَ طويل ، ثم قال له : اقتـلْ أسيرك ، إنى مانع جارى
وسوف يُعقِبُنيه إنْ ظفرت به رب كريم ، وبيض ذات أطهار
فاختار أدراعه أن لا يسبّ بهـا ولم يكن عهــده فيهـا بختّار[1]

ما صدى هذه الرحلة فى شعر امرىء القيس ؟

ليس لنا أن نتوقع من إنسان رهِيف الحسّ كامرىء القيس أن يصبح شاعراً نظّـاما ، يجعل من قصيده أرجوزة يضمنها وقائع رحلته وأحداث قومه على نحو علمى يختفى معه الانفعال والعاطفة والخيال ، ويحل مكانها التروّى والعقل والحقيقة ، فى وقت وبيئة لم يكن التاريخ فيهما علماً يكتب فى النثر بله الشعر ، ولا أظن شاعراً فى القديم أو الحديث ، فى لغتنا أو غيرها من اللغات ، عُنِى بأن يجعل من شعره معرضاً لوقائع التاريخ كحقائق مجردة ، ومع ذلك أعطانا امرؤ القيس فى ديوانه من الإشارات التاريخية والجغرافية ما يكفى ليجعل من الرحلة واقعاً تاريخياً ، ومن الشعر المروىّ عنه حقيقة يصعب إنكارها .

من الشعر الذى يتصل بالرحلة إلى قيصر ثلاث قصائد يلتقى فى روايتها العالمان الجليلان ، عبد الملك الأصمعى والمفضل الضبىّ وآخرون ، ومقطوعة تفرّد الضبىّ بروايتها ، وقصيدة أوردها الطوسى ، لم تثبت فى رواية المفضل ونسبها غيره إلى امرىء القيس ، ومقطوعتان مما زاده السكّرى على غيره من الرواة .

---

(١) ختار : مبالغة من الختر ، وهو أسوأ الغدر وأقبحه .

الأولى من القصائد تتضمن إشارات وافرة إلى الرحلة وأحداثها[1] ، ويبدو أنه قالها في الطريق إلى القسطنطينية ، لأنها رغم وميض التشاؤم الذى يبرق بين سطورها ، تعكس روح شاعر لم يصرع اليأس طيب آماله بعد ،ومن الوجهة النقدية هى من خير شعره ، ولا تكاد تنقص عن أروعه ، وتبدو فيها شخصية امرىء القيس الشاعر واضحة . فقد بدأها بمقدمة طللية مُصرّعة طويلة ، أطول مقدمة طللية فى ديوانه ، وتلائم موضوع الرحلة ، وأتبعها بغزل وقور حيىّ على غير العادة،انتقل منه إلى تذكر أهله الصالحين وقد بعدت به الرحلة،وتجاوز «خَمَلَى» و « أَوْجَرَ » من بلاد الشام ، فلما أشرف على «حَوْران» بدا له كل شىء جديداً وغريبًا وحقيراً ، لايصله به نسب ولا تشدّه إليه عاطفة، ، فكأنه يرى شيئاً كثيرا ، ولايرى شيئا ، فلما عبر «حماة» و «شيْزر » تقطّعت به أسباب الذكرى يأساً ، وشغل بما فيه من شدة وعناء، وقد أسرعت القافلة تجهد نفسها بسرعة فوق طاقتها ، حتى ضجّت الإبل، ومن تخلّف لشىء أصابه لم يتربّص عليه أحد حتى يدرك القافلة ، ورغم أهواله لم ينس صويحباته هناك ، فى ظعائن مرتفعة ، خضراء اللون كأثل الوادى، خلّفن « بِنْيشة » و«الغُمير» قاصدات « غَضْوَر »[2] :

تذكّرتُ أهلى الصالحين وقد أتتْ ... على خَملَى خوصُ الركابِ وأوْجَرا[3]

---

(١) ترتيبها الرابعة من الديوان فى طبعته الجديدة بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، وهى الرابعة فى مخطوطة الأعلم الشنتمرى ، والخامسة فى مخطوطة الطوسى،والرابعة فى مخطوطة السكرى ، والخامسة فى مخطوطة البطليوسى ، والسادسة عشرة فى مخطوطة ابن النحـاس ، والأربعون فى مخطوطة أبى سهل . (انظر الفصل الخاص بديوان الشاعر) .

(٢) لم نعرض للمقدمة الطللية للقصيدة ،لأننا سندرسها فى الفصل الخاص بدراسة هذه المقدمات .

(٣) خملى وأوجر : موضعان قبل الشام .

فلما بدتْ حَوْران فى الآلِ دُونَها نظرتَ، فلم تَنْظُرْ بعيْنيك منظرا[1]

تَقطّعَ أسبابُ اللُّبانةِ والهـوى عشيَّةَ جاوزْنا حماةَ و شَيزَرا[2]

بِسَيْرٍ يَضجُّ العَوْدُ منه ، يَمُنُّهُ أخو الجهْدِ، لا يُلوِى على مَن تعذَّرا[3]

ولم يُنسنى ماقد لقيتُ ظعائننا وخملا لها كالقَرِّ يوما مُخدَّرا[4]

كأثْلٍ من الأعراض مِنْ دون بِيْشَةٍ ودون الغُمَيْرِ عامدات لغَضورا[5]

ثم وصف ناقته ، وأنها تحمل على ظهرها فتى لم تحمل الأرض مثله ، وفاء بما عاهد عليه ، وصبرا على ما يلقى ، واستعرض بعض ما صنع من أجل الثأر لأبيه مباهيا ، فهو المنزل الألوف من بوادى ناعط بأرض همدان على بنى أسد ، فإذا أرادوا الأمن لأنفسهم فعليهم أن ينزلوا ما غلظ من الأرض وخشن أو يتحصنوا بالجبال . وفخر بقومه من اليمن فزعم أن بوسعه أن يسوق إلى بنى أسد من يغزوهم من حمير ، لكنه عمد إلى طلب العون من قيصر نكاية بهم وتشنيعا ، وإظهارا لمكانته وشرفه :

فدعْ ذا ، وسلِّ الهمّ عنكَ بجسرَةٍ ذمولٍ إذا صام النهارُ وهجرا

. . . .

(١) حوران : مدينة فى الشام ــ الآل: يريد به الأفق ، والضمير فى « دونها » يعود على أسماء فى بيت سابق .

(٢) اللبانة : الحاجة .

(٣) العود : الجمل المسن وفيه بقية ــ يمنه : يجهده ــ لا يلوى: لا ينتظر ، لا يتربص.

(٤) الظعائن : جمع ظعينة ، وهى الهودج فيه سيدة ـــ الخمل : ريش النعام ــ القر : الهودج ـــ مخدرا : جعل كالخدر .

(٥) الأثل : شجر ــ الأعراض : جمع عرض ؛ وهو الوادى ــ بيشة والغمير وغضور : مواضع فيها ماء يقام عليها .

عليها فتى لم تحمل الأرضُ مثله أبرّ بميثاقٍ وأوفى وأصبرا
هو المُنزِل الآلاف من جوّ ناعط بنى أسدٍ حزنا من الأرض أوْعرا[1]
ولو شاء كان الغزْو من أرض حمير ولكنّه عمدا إلى الروم أنْفرا

وخلال الرحلة أحسّ عمرو بن قميئة ، وكان شيخاً معمّرا ، بقسوة الغربة ، وعذاب الوحدة ، وضباب الغد ، فحن إلى قومه وأرضه وأمسه ، وشعر فى العالم الجديد بوحشة مقبضة ، فبكا وهو يفارق آخر شبر من أرض الجزيرة ويضع أول قدم فى أرض بيزنطة ، وأدرك أن بينه وبين نهاية الرحلة أمدا غير قصير ، فهدهد امرؤ القيس من آلامه ، وسلاه عن أحزانه : إنما نحن طلاب ملك تهون دونه الصعاب ، ولئن متنا دونه فسوف يلتمس لنا الناس عذرا ولئن عدت بجيش من قيصر أسترد به ملكى فسوف أطوى الأرض طيا فنبلغ أوطاننا فى زمن وجيز :

بكَى صاحبي لمّا رأى الدّربَ دونه وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلتُ له : لا تبكِ عينُك ، إنّما نحاول ملكاً ، أو نموتَ فنُعذرا
وإنّى زعيم إنْ رجعتُ مُملّكاً بسَيْرٍ ترى منه الفُرانقَ أزْورا[2]

ثم أخذ يصف الطريق الذى سلكه ، طريقا واضحة مسلوكة ، لا يحتاج

---

(١) ناعط : جبل فى صنعاء وبه حصن . يحمل نفس الاسم — الجو : المنخفض من الأرض تتجمع فيه مياه المطر ، أو تتسرب إليه فتبقى فيه مدة طويلة وتنبت فيه الأعشاب ، ويطلق على اليمامة وثلاثة عشر موضعا غيرها ، وذكر شراح الديوان أن « جو » هنا يراد بها « اليمامة » وهو خطأ ولا يستقيم المعنى معه ، ومن ثم آثرت أن أفهمها على معناها الأصلى وهو الوادى — الحزن : ما غلظ من الأرض وما خشن .

(٢) الفرانق : سبع يصيح بين يدى الأسد كأنه ينذر الناس به ، ويقال إنه شبيه بابن آوى — أزور : مائل العنق .

فيها إلى علم يُرشِد أو منار يهتدَى به ؛ إذا شمّته الإبل المُسِنة رغتْ جزعاً لبعده وقلّة مائه ، وما تلقى من مَشقّته ، وكانت دابته فى الرحلة فرساً قويًّا استخدم من قبل فى البريد ، خميص البطن كذئب الغضا ، منطلقاً يتصبَّب العرق من جوانبه لشدة السَّيْر ومشقّته ، فإذا حرّكه بالركْض والزجْر من جانبيه تبختر فى مشيه وتمايل ، ثم حرّك فمه باللجام عبثا ونشاطاً ، فإذا شقّ علينا السيْر طلبتُ من صاحبي أن يروِّح عنّا ، فأرن « الفرانق » بالغناء ، وهو على فرس قوى شديد ، ليِّن العروق والمفاصل ، مقطوع الذّنَب :

على لاحب لا يُهتدَى بمنــــاره
إذا ســافه العوْدُ النباطىّ جرجرا[1]

على كلّ مقصــوص الذُّنابى مُعَاودٍ
بريدَ السُّرَى بالليـــل من خيل بربرا[2]

أقبّ كسرْحانِ الغضا مُتَمطِّرٍ
ترى المــاء من أعطافه قد تحــدّرا[3]

إذا زُعْتَــــه من جانبيه كِلَيْهما
مشى الهَيْدَبَى فى دفّــــه ثم فرفرا[4]

---

(١) لاحب : طريق واضح ــ ساف : شم ــ العود : المسن من الإبل ــ النباطى : نسبة إلى النبط ؛ وإليها تنسب النجائب .

(٢) الذنابى : جمع ذنب ؛ وهو الذيل .

(٣) أقب : خميص البطن ــ السرحان : الذئب ــ الغضا : شجر من نبات الرمل ــ أعطافه : جوانبه .

(٤) زاع : حرك البعير بزمامه ليزيد فى السير ــ الدف : الجنب ــ فرفر : حرك اللجام فى فمه .

إذا قلتُ روِّحْنــا أرنَّ فُرانِقٌ
على جَلْعَد واهِى الأباجِـل أبْـترا[1]

ومع الطريق لا ينتهى ، إلى بلاد هو فيها غريب اليد واللسان ، أنـكرته بعلبك وأهلها ، وكان الروم فى حمص أشد إنكارا له ، ووجد نفسه مشدود القلب إلى وطنه يتابع المطر هاطلا ، مؤمِّلا أن يكون مصبَّه ديار أهله وأحبائه ، لـكن لا شىء يشفيه من الشوق إلى ابنة « عفزر » والحنين إليها ، هى وغيرها من جميلات قومه ، لا تطمح أعينهن إلى غير أزواجهنّ تعفّفا وحسن صحبة ، ناعمات رقيقات لو مرّت نملة صغيرة فوق ثوب واحدة منهن لأثّرت فى بشرتها ، وحسبه من الرحلة شقاء أنها تمضى به بعيداً عن أم هاشم والبسباسة بنت يشكر :

لقــد أنـكرتنى بعلبـــكُّ وأهلُها
ولابنُ جُرَيْج فى قرى حمص أنْـكرا
نشيمُ بروقَ المُزْنِ أين مَصــابُه
ولا شىء يَشْفِى منك يا ابنة عفزرا[2]
من القاصرات الطرفِ لو دبّ مُحوِلٌ
من الذرّ فـــوق الإتْب منها لأثّرا[1]
له الويلُ إنْ أمسى ولا أمُّ هاشمٍ
قريبٌ ، ولا البسْباســةُ ابنة يشـكرا

---

(١) أرن : رجع صوته بالغناء ــ الجلعد : الغليظ الشديد ــ الأباجل : جمع أبجل ؛ وهو عرق غليظ فى الرجل .

(٢) شام : نظر ــ المزن : السحاب ــ مصابه : مصبه .

(٣) محول : أتى عليه الحول ــ الذر : جمع ذرة ؛ وهى أصغر النمل ــ الأتب : ثوب رقيق ، له جيب ، وليس له كمان .

فإذا أمضى خمس عشرة ليلة سيرا وراء « الحساء » من أرض بيزنطة ، فى بلاد قيصر ، بدا له أن أمّ عمرو بن قميئة ترسل دمعها غزيرا حزنا على فراق ابنها ، ولم يكن عمرو بأكثر منها صبرا ، فهو بدوره لا يكفّ عن البكاء . وبعيد عن صحبه فى قنصه ولهوه ، وعن المهابط التى احتفت به فتى لاهياً ، ثم أميرا ثائرا ، راح يندب حظّه من الدنيا : لا أرتضى صديقا تأنس به روحى وتقرّ عينى ، إلاّ أخلف ظنى ، وخان سرّى ، فأتخذ صاحبا غيره، لكن الناس كلّهم سواسية فى هذا الخلق :

إذا نحن سرنا خمس عشرة ليلة
وراء الحساء من مدافع قيصرا(١)
أرى أمّ عمرٍو دمْعُها قد تحدّرا
بكاءً على عمرو وما كان أصْبرا
إذا قلتُ هذا صاحب قد رضيتُه
وقرّتْ به العينان بُدِّلْتُ آخَرَا
كذلك جَدِّى ، ما أُصاحبُ صاحباً
من النَّاس إلاّ خاننى وتغيّرا

ويخلص لنفسه ، يفخر ـ على غير عادة منه ـ بقومه فى أصلهم البعيد ، فلقد كانوا قبل غزوة « قرمل » ، ورغما منها ، يتوارثون الغنى والمجد كابرا عن كابر ، ولئن تراخت خيله عن اللقاء فليس ذلك جبنا

(١) هذا البيت يأتى فى الديوان ومخطوطاته بعد البيت التالى له ، وقدمناه ليستقيم المعنى ، ويصبح لإذا الشرطية جواب هو « أرى » فى البيت التالى .

منها ، وإنما حنينها إلى مرابطها فى « بربعيص » و « ميسر » . وما أكثر الأيام التى شهدها فى « تاذف » و « ذات النعل » و « طرطر » فكانت له فيها الغلبة والظفر . وأما يوم « قذاران » فقمّة انتصاره وغاية مجده ، وكان فيه ، وأصحابه ، على حذر وقلّة طمأنينة كأنهم على قرن ثور ، فأصابوا حاجتهم ، وأدركوا طلبتهم . ثم أبان عن شىء من عاداته ، يزهو بغناه وثرائه ، أنهم يسكرون حتى يحسبوا الخيل حولهم غنما ، والسُّود شُقْرا :

وكُنّا أناساً قبل غزوة قَرْمَلٍ
وَرِثْنا الغِنَى والمجْدَ أكْبرَ أكْبرَا[1]
وما جَبُنتْ خيلى ولكنْ تذكّرتْ
مَرابِطَها من بَرْبَعِيصَ ومَيْسَرَا[2]
ألاَ ربَّ يومٍ صالحٍ قد شَهِدْتُهُ
بتاذِفَ ذاتِ التَّلِّ من فَوْق طَرْطَرا[3]
ولا مِثْل يومٍ فى قُذارانَ ظِلْتُهُ
كأنِّى وأَصْحَابِى على قَرْنِ أَعْفَرَ[4]
ونَشْرَبُ حتى نَحسِبَ الخيلَ حوْلنا
نِقادا ، وحتى نحسبَ الجوْنَ أشقرا[5]

---

(١) قرمل : ملك يمنى ليس بين يدى ذكر له إلا إشارة امرئ القيس .
(٢) بربعيص وميسر : موضعان .
(٣) تاذف وطرطر : موضعان .
(٤) قذاران : اسم مكان ــ الأعفر : الظبى الأبيض يخالط بياضه حمرة .
(٥) النقاد : غنم صغار ــ الجون : الفرس الأسود .

القصيدة الثانية التى تتصل برحلة امرئ القيس يأتى ترتيبها التاسعة من الديوان فى طبعته الجديدة المحققة[1] ، وهى أقصر من الأولى ، فإذا كانت تلك فى اربعة وخمسين بيتا ، فأبيات هذه لا تتجاوز السبعة عشر ، ومن جوّها يبدو أنها كانت تالية فى الخلق لتلك . بدأها بمقدمة طللية قصيرة ما لبث أن تجاوزها إلى ذكر حاله مريضا على سريره يرعاه جابر بن حنىّ التغلبىّ فى رَحَالته ، ذوى جسمه واتسعت عليه ملابسه فهى مضطربة تذهب مع الريح كما لو كانت هودجا يتمايل . وفى مثل حاله ضعيفا عاجزا وحيدا بدأ يلتفّ داخل نفسه ، يسترجع ذكرياته وأيامه وصبواته ، فما أكثر ما فكّ محصورا ، وافتدى أسيرا ، وأصدقاء لَهَا معهم ، أيقظهم مُبكّرين فاستجابوا له بين عاث ونشوان ، ووديان رحيبةقطعها على ظهر ناقة قوية الخلق ، ليّنة المشى ، وسهول أصابها الغيث فأعطت نبتامتعدّد الألوان ، هبطها بفرس ضخم يعطيك ما عنده من العَدْو قبل أن تكلّفه ذلك وتسأله أيّاه :

فإمَّا ترينى فى رِحالة جابرٍ على حرجٍ ، كالقرّ تخفقَ أكفانى[2]
فيارُبَّ مكروبٍ كررْتُ وراءه وعانٍ فككْتُ الغُلّ عنه ففدّانى[3]
وفتيان صدقٍ قد بعثتُ بسحرةٍ فقاموا جميعاً بين عاثٍ ونشوان[4]

---

(١) وهى التاسعة فى مخطوطة الأعلم الشنتمرى ، والثامنة فى مخطوطة الطوسى ، والحادية عشرة فى مخطوطة السكرى ، والعاشرة فى مخطوطة البطليوسى ، والثانية والخمسون فى مخطوطة ابن النحاس ، والثالثة والثلاثون فى مخطوطة أبى سهل .

(٢) الرحالة : أراد بها الخشب الذى يحمل عليه فى مرضه ـ الحرج : سرير يحمل عليه المريض أو الميت ـ القر : الهودج .

(٣) العانى : الأسير .

(٤) السحرة : قبيل الصبح ـ العاثى : أراد به هنا كالسكران من النعاس .

وخرقٍ بعيد قـــد قطعتُ نياطَهُ على ذاتِ لوثٍ ،سَهْوة المشى مذعان[1]

وغيثٍ كألوانِ الفـــنا قَدْ هبطتُه تعاورَ فيـه كلُّ أوْطَفَ حنّانِ[2]

على هَيْكلٍ يُعطيكَ قبلَ سؤالِـه أفانينَ جرْيٍ ، غير كزٍّ ولا وانِ[3]

وتنتهى به القصيدة ، أو ينتهى بها الرواة ، عند وصف الحصان بأبيات لاتعكس من واقع الرحلة شيئاً ، وخارج عن هدف هذا الفصل أن نعرض لها .

القصيدة الأخيرة التى تتصل برحلة امرىء القيس ترتيبها الثالثة عشرة من الطبعة الحديثة لديوانه[3] ، وأبياتها أربعة عشر ، فهى أقصر من الثانية ، وفيما يبدو قالها أثناء عودته ، ومقدمتها الطللية لا تتجاوز ثلاثة أبيات ، ينتقل منها إلى الحديث عن داء يشدّه إلى السهر ، فلا ينام شيئاً إلا أن يكبّ فينعس ، ومع الظلمة يتذكر داءه القديم ، ويخشى أن يصاب بنكسة يعاوده فيها المرض ، ومع الإحساس بالعجز يجد فرجة عن ضوائق نفسه بتذكر ماصنع وهو سليم معافى ، فما أكثر ، فى سوابق أيامه ، ما أنجد مكروبا محاصرا ، طاعن عنه الخيل حتى أفلتَ من عدوّه ، وما أكثر الأيام التى كان يخلص فيها لنفسه ، يُعنى بهندامه ، فيبدو فتى وسيما حبيبا إلى الصبايا ، يشدّهنّ صوته ، ميلا إليه وكَلَفا به ، كما ترجع الأبل إلى الفحل منها :

تأوّبنى دائى القـــديمُ فغلّسا أحاذِر أنْ يرتدّ دائى فأُنْكَسا[4]

(١) الخرق : الأرض الواسعة ـ النياط : أراد به هنا ما اتصل بهذه الأرض ـ ذات لوث : ناقة ذات قوة ـ السهوة : اللينة المشى ـ المذعان : المطاوعة .

(٢) الفنا . عنب الثعلب أو نبت يشبهه ـ الأوطف: سحاب دان من الأرض ـ الحنان: الشديد الصوت .

(٣) الثالثة عشرة فى مخطوطة الأعلم الشنتمرى ، والرابعة عشرة فى الطوسى ،والتاسعة عشرة فى السكرى ، والرابعة عشرة فى البطليوسى ، والسادسة والثلاثون فى ابن النحاس ، والثالثة والأربعون فى أبى سهل .

(٤) هذا البيت يأتى ترتيبه فى الديوان بعد تاليه ، وكمال المعنى يقتضى تقديمه فقدمناه .

فإما تَرَيْنى لا أُغمِّض ساعةً من الليل ، إلاَّ أنْ أُكِبَّ فأنْعَسَا
فيارُبَّ مكروبٍ كررْتُ وراءه وطاعنتُ عنه الخيلَ حتى تنفَّسا (١)
ويارُبَّ يوم قد أرُوح مُرجَّلاً حبيباً إلى البيضِ الكواعبِ أمْلسا (٢)
يَرِعْن إلى صوتى إذا ماسَمِعْنَه كما ترعوى عِيطٌ إلى صوت أعْيَسا (٣)

ولكنه اليوم غيره بالأمس ، شاب منه الشعر ، وتقوّس الظّهر ، وتصرّم من بين يديه المال ، وهى عوارض تنفّر النساء منه ، ومن أى إنسان ، ومع ذلك فهو لا يضيق بالحياة حتى ولو قست ، ولو بلغ منه المرض مبلغا يعجز معه عن ارتداء ثيابه بنفسه ، وأشقى مافى حياته أن الموت لا يأتيه معافى فيذهب بنفسه دفعة واحدة ، ولكنه يموت شيئا بعد شىء ، وذلك أقسى الموت . لقد بُدِّل بصحته مرضا ، وامتلاءُ جسمه قروحا ؛ كأن منيته قد استحالت إلى بؤس ؛ ورغم أهوال المرض ؛ وعناء الغربة ، ومأساة العجز ، يتعلّق بالأمل ، الأمل فى أن يعقب الشدّة رخاء ، والفقر غنى ، والشيب عمر ومُسْتَمتع :

أراهُنَّ لا يُحبِبْنَ من قلَّ مالُهُ ولا مَن رأينَ الشيبَ فيه وقوّسا
وما خِفتُ تبريحَ الحياة كما أرى تضيق ذراعى أن أقومَ فألبَسا
فلو أنها نفسٌ تموتُ جميعةً ولكنّها نفسٌ تساقطُ أنْفُسَا

---

(١) طاعنت : قاتلت عليه أصحاب الخيل .

(٢) المرجل : من يسرح شعره ويدهنه .

(٣) يرعن : يرجعن ـ عيط : الإبل اعتاطت فلم تحمل سنتها ـ الأعيس : البعير الأبيض الذى يضرب بياضه إلى الحمرة والشقرة .

وَبُدِّلتُ قُرْحاً دامياً بعد صِحّةٍ

لعلّ منايانا تحوّلْنَ أبْؤُساً

لقد طمح الطّمّاح مِن بُعْدِ أرضِهِ

لِيُلبِسنى من دائه ما تلبّسا

ألاَ إن بَعْدَ العُدْم للمرء قِنْوَةً

وبَعْدَ المَشِيب طولَ عُمْرٍ ومَلبَسَا[1]

أما المقطوعة فى أبيات ثمانية ، وتفرّد بها الضبىّ فلم يشاركه الأصمعى فى روايتها ، ويأتى ترتيبها السادس والأربعين فى الطبعة الجديدة من الديوان[2] ، ويغلب على الظنّ أنها بقايا قصيدة ، لأنها بلا مقدمة طللية ، وغير مصرّعة ، ويبدو أن ترتيبها فى الخلق يأتى بعد القصائد التى عرضنا لها من قبل ، لأنها تعكس نفس امرىء القيس يرى الموت فى طريقه إليه ، فلا يملك له دفعاً ، ولا معه مقاومة ، ويتمنّى أن يعرف قومُه حاله وما هو فيه . لقد قطع رحلة الحياة كما يقطعها أىّ إنسان ، ذاق حلو الحياة ومرّها ، ثم جاءته النهاية ؛ بلِىَ جسده ، وأُنهِكت روحه ، وزوت آماله ، وتلك طبيعة البشر ، فما زعم لنفسه يوماً أنه قُدّ من حجر أو حديد ، وليست ثورته على الموت ، ولا نقمته على انتهاء حياته ، لأن الخلود محال ؛ لكنه ضائق لموته فى أرض الروم بمنأى عن قومه وأهله ، ولو جاد بنفسه بينهم للقى المنيّة مطمئناً ، مؤمناً بأن الموت حقّ ، لقد شقى بآماله الكبار يطلب ملكا كملك قيصر ، ومَنْ كانت له مثلها وعلى حاله مِنْ

---

(١) قنوة : رخاء ــ الملبس : ما ينتفع به ويستمتع .

(٢) هى الحادية والأربعون فى مخطوطة الطوسى ، والسادسة والخمسون فى مخطوطة السكرى ، والرابعة والثلاثون فى ابن النحاس ، والسابعة فى أبى سهل .

المرض فإنّ الموت يترقبه بأرض الغربة فى كل خطوة ، وليس له من يأسو أو يَشْفِى أو يعود :

ألاَ أبْلغْ بنى حُجْرِ بن عمرٍو
وأبلغْ ذلك الحىَّ الحريدا(١)
بأنىّ قد بَقِيتُ بقاء نفْسٍ
ولم أُخْلَق سِلاماً أو حديدا(٢)
فلو أنىّ هَلَكْتُ بدار قَومى
لقُلْتُ : الموتُ حقٌّ ، لا خلودَا
ولكنى هلكتُ بأرض قومٍ
بعيدٍ من ديارِكُم بعيدا
أعالج ملكَ قيصرَ كلَّ يومٍ
وأجْدِرْ بالمنيّة أن تعودا
بأرض الرّوم لا نسبٌ قريبٌ
ولا شافٍ فَيُسنِدَ أو يَعُودا
ولو وافَقْتُهنّ على أُسَيسٍ
ضُحَيّا أو وَرَدْنَ بنا زَرُودا(٣)

---

(١) الحريد : الذى ينزل ناحية منفردا .
(٢) السلام : جمع سلمة ؛ وهى الحجارة .
(٣) أسيس وزرود : موضعان — والضمير فى «وافقتهن» يعود على المنايا والأحداث

على قُلُصٍ تظلّ مُقَـــــلّداتٍ
أزمّتُهُنّ ما يَعْـــــدِفْنَ عودا(١)

وانفرد السكرى برواية أربعة أبيات، قاطعة الدلالة فى موت امرىء القيس، وتذهب بكل الأقاصيص التى صيغت عن الحلّة المسمومة، فهو يتحدث فيها صريحاً ودقيقاً عن قروح كست بدنه، وأعجزته عن السير كما لو كان مصاباً فى مفاصله، وتـكاثرتْ ونزّ صديدها، فيبدو معها كل ثوب يلبسه، ولو كان جديداً يرتديه للمرة الأولى، قديماً خَلَقاً قد لُبِس دهراً، وتناثرت الدمامل على بشرته كأختام طبعت متراصة على صحيفة:

لِمنَ طلـــــل داثر آيُهُ تقادم فى سالف الأحرس(٢)
فإمّا ترْينَى بِى عُـــــرَّةٌ كأنىِّ نـكيب من النّقْرس(٣)
وصيّرنى القَرح فى جُبّـــة تُخال لبيســاَ ولم تُلبس(٤)
ترى أثر القَرْحِ فى جـلده كنقش الخواتم ِفى الجِرْجس(٥)

كما انفرد برواية الأبيات التالية له، قالها وهو يحتضر قريباً من أنقرة:

رُبَّ طعْنَـــــةٍ مُثْعَنْجِرهْ(٦)

---

(١) القلص: جمع قلوص؛ وهى الناقة الفتية ــ ما يعدفن: ما يأكلن
(٢) الأحرس: جمع حرس؛ وهو الدهر.
(٣) العرة: القرحة فى الجسم ــ النقرس: مرض يصيب المفاصل.
(٤) اللبيس هنا: الثوب الخلق الملبوس.
(٥) الجرجس: الصحيفة.
(٦) المثعنجرة: السائلة؛ يقال: ثعجر الدم فاثعنجر إذا صبه فانصب.

وجَفنــــــةٍ مُتَحـــــيِّرهْ(١)

وقصيـــــــدةٍ مُحَــــــبَّرهْ

تبـــــقى غـــــداً بأنقِرهْ

وزاد أبو سهل فى مخطوطته البيتين التاليين :

أجارتَنا إنّ المزار قريبُ وإنّى مقيم ما أقام عسيبُ

أجارتَنا إنّا غريبان ها هُنـا وكلّ غريب للغريب نسيب

وزعموا أنه قالها حين حضرته المنية عند سفح جبل اسمه « عسيب » ، قريباً من قبر امرأة غريبة مدفونة هناك . وهو استنتاج ممكن ، إلا أن البيت لا يقطع به ، ويمكن لأى غريب فى أية رحلة أن يستشعر الغــربة فيجرى على لسانه مثل هذا الشعر إبداعا وتمثلا ، وأميــل إلى أنهما بعض من قصيدة وليسا بمنفردين .

تلك هى رحلة امرئ القيس من شعــره ، صوّرت القصائد جانباً غير قليل من مشاعر صاحبها النفسية ، بعيداً عن ديار أهله ، فى مدن يراها للمرة الأولى ، موزّع القلب بين ملك يرجوه ، وأمس طافح بالذكريات الجميلة وغير الجميلة ، وتصوير الشعر للرحلة أدق وأكمل من تصوير الرواية لها ، وإن تجرّد من التفاصيل ، لأنه بعيد عن الافتعال والخرافة والأسطورة وخوارق الأشياء . وفيما وصلنا منه نعرف شيئاً عن رفاق امرئ القيس فى الرحلة ، وعن مشاعره المتلونة ، المتأرجحة بين الرجاء واليأس ، يقوّى عزائم مَنْ معه ، فإذا انهارت عزائمه هو حاول أن يتماسك ؛ وفيــه إشارة إلى الأسباب التى جعلته

---

(١) تحيرت الجفنة : إذا امتلأت طعاما ودسما .

يتجه إلى بيزنطة ، وتعداد للمدن التي مرّ بها ، ووصف للطرق التي سلكها ، والمتاعب التي تعاورته ثم حرّكت عليه داءه القديم فذهب ضحية له ، ولا أظن شاعرا داخل نطاق الشعر وقيوده والفن ومتطلباته يمكن أن يتحدث عن رحلة له بأوفى مما تحدث امرؤ القيس ، إذا أخذنا في الحسبان أن جانباً كبيراً من شعره ضاع ولم يصلنا .

ديوان امرئ القيس

حظى شعر امرىء القيس بنصيب وافر من عناية العلماء المتقدمين ، ومنه كانت شواهد النحو والبلاغة،وشارك في تدوينه عدد من رواة الشعر وجامعيه ، بينهم اثنان من جهابذة اللغة : الأصمعى والمفضّل الضبىّ ، والأول شيخ علماء البصرة بعد أبي عمرو بن العلاء ، والثانى خير رواة مدرسة الكوفة تحرّياً فى القبول ودقة فى التحرير . وكان الإقبال على درسه وشرحه شائعاً فى مختلف حواضر الإمبراطورية الإسلامية ، على امتداد تاريخها الطويل ، فكان الفرزدق أروي الناس لأحاديث امرىء القيس وأشعاره ، لأن امرأ القيس كان فى صحبة عمه شُرَحْبِيل قبل أن يقتل يوم الكُلاب الأول ، وكان شرحبيل مُسترضعاً فى بنى دارم رهط الفرزدق . وباع الشاعر سلْم بن عمرو البصرى مصحفاً يملكه واشترى بثمنه شعر امرىء القيس ، فعُرِف لذلك باسم « سلْم الخاسر » .

ومن بين شراح شعره الذين وصلتنا مؤلفاتهم اثنان من كبار العلماء الأندلسيين : الأعلم الشنتمرى ، والوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسى ، ومصرى لغوى هو أبو جعفر النحاس ، وآخرون كثيرون من كل صقع إسلامى . ووصلنا ديوان امرىء القيس مفرداً ، أو مضموماً إلى نظائره من كبار الشعراء الجاهليين ، كما أن قصيدته :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ترتيبها الأولى ، عند كل الرواة ، فيما اصطلح على تسميته « بالمعلقات » .

مخطوطات الديوان :

أقدم المخطوطات التي بين أيدينا لديوان امرىء القيس ، نسخة لا يعرف جامعها ولا شارحها ولا ناسخها ، كُتبتْ عام ٤٠٣هـ = ١٠١٢م بخط قريب من الكوفي ، وتقع في ١٠٤ ورقة ، ومسطرتها ٢٧ سطراً ، وأصلها محفوظ في مكتبة « لا له لي » باستانبول في تركيا تحت رقم ١٨٢٠ ، ومصورة على « ميكروفلم » في معهد إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ٨٦٠ ، وقام بنسخ هذه المخطوطة اسماعيل عبد الحليم بن محمد ثروة الاستانبولي ، وانتهى منها في العُشر الأخير من ذي القعدة عام ١٣٠٣ هـ = ١٨٨٥ م وأهداها « لشيخه وسيده محمد محمود الشنقيطي » ، وتقع في ١٣٤ صفحة ومسطرتها ١٧ سطراً ، وكتبها بخط فارسي جميل ، وتوجد الآن في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٥ أدب ـ ش ، وعلى الصفحة الأولى منها إهداء الناسخ ، وتوقيف الشيخ الشنقيطي لها ، وعنوان المخطوطة : « هذا ديوان امرىء القيس بن حُجْر ابن عمرو الكِندي ، رواية أبي الحسن الطوسي ، وأبي نصر أحمد بن حاتم عن الأصمعي عبد الملك بن قُرَيب ، وعن أبي عمرو الشيباني مع بعض شرحه» .

لكن مصورة المخطوطة في معهد المخطوطات لا تبدو فيها الواو التي تسبق « عن أبي عمر الشيباني » ، واعتمادا عليها خطّأ الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم العنوان وقال : إنه « عنوان يشيع فيه الخطأ والتخليط فليس لأحمد بن حاتم من رواية في هذه النسخة إلا ما ذكر من أوجه الخلاف في شروح بعض القصائد ، كما أنه ليس للأصمعي رواية عن أبي عمرو الشيباني إطلاقاً [1] »

---

(١) محمد أبو الفضل إبراهيم ، ديوان امرئ القيس ، المقدمة ص ١٤ و ١٥ ، الطبعة الأولى .

وكان الدكتور ناصر الدين الأسد أكثر تحفُّظاً فقال : « إنه غير مستقيم » وإن صحته : « ديوان امرىء القيس رواية أبى الحسن الطوسي عن أبى عمرو الشيبانى ، وأبى نصر أحمد بن حاتم عن الأصمعى عبد الملك بن قريب »[1] . وكلا الأمرين التخطيء والتصحيح فى حاجة إلى تقرير ؛ لأن معظم ما رواه أبو الحسن الطوسى كان عن ابن الأعرابى ، من رواية المفضل الضبى ، ولم يشر إلى أبى عمرو الشيبانى إلا فى موضعين ؛ الأول عند حديثه عن رائية امرىء القيس :

أحار بن عمرو كأنى خَمِرْ ... ويعدو على المرء ما يأْتَمِر[2]

والثانى عند حديثه عن قصيدة :

أمِنْ ذكر سَلْمَى أن نأتكَ تنوصُ

فتقصر عنها خُطْوة أو تبُوصُ

فقد نصّ على أنها « ليست فى رواية الأصمعى ، وإنما هى من رواية أبى عمرو الشيبانى »[3] ، وهى حقائق يقررها الدكتور ناصر الدين الأسد فى مكان آخر من كتابه[4] .

---

(١) ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٥٠١ .

(٢) القصيدة رقم ٢٩ من الديوان فى طبعته الجديدة بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ص ١٥٣ .

(٣) القصيدة رقم ٣١ من الديوان فى طبعته الجديدة ، ص ١٧٧ .

(٤) مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٤٩٠ وما بعدها .

فإذا أردنا للعنوان توضيحاً ييسر فهمه للقارئ كان ما نحتاج إليه هو إعادة ترتيب الجملة لتصبح : « هذا ديوان امرئ القيس بن حجر بن عمرو الكندى ، رواية أبى الحسن الطوسى عن أبى عمرو الشيبانى (وابن الأعرابى عن المفضل الضبى) ورواية أبى نصر أحمد بن حاتم عن الأصمعى عبد الملك ابن قريب » .

تنسب المخطوطة إلى الطوسى تجاوزاً ، لأن جامعها المجهول اتخذ من نسخة الطوسى أصلا اعتمد عليه ، ثم علّق على بعض قصائده ، وأضاف إليها قصائد أخرى ، فأصبحت المخطوطة تضم ثلاثة أقسام :

القسم الأول ، ويضم اثنتين وأربعين قصيدة ومقطوعة ، كلها من رواية المفضّل الضبىّ ، عدا المقطوعة رقم ٢٠ ، وهى فى ثلاثة أبيات[(١)] ، ومطلعها :

أذودُ القوافىَ عنّى ذيادًا   ذياد غلام جرىء جوادًا

وقد قرأ الطوسى هذا الشعر كله على ابن الأعرابى فأقره عليه باستثناء المقطوعة رقم ٤٠[(٢)] ، وهى من أربعة أبيات ، ومطلعها :

ألاَ قبّح الله البراجم كلّها   وقبّح يربوعا وقبّح دارما

والمقطوعة رقم ٤١[(٣)] ، وهى من ثمانية أبيات ، ومطلعها :

ألاَ أبلغْ بنى حُجْر بن عمرٍو   وأبلغْ ذلك الحىّ الحريدا

---

(١) القصيدة رقم ٥٣ فى الديوان المطبوع ، ص ٢٤٨ .

(٢) المقطوعة رقم ١٩ فى طبعة الديوان ص ١٣٠ .

(٣) المقطوعة رقم ٤٦ فى الديوان المطبوع ، ص ٢١٢ .

والقصيدة رقم ٤٢[(١)] وهى من واحد وعشرين بيتاً، ومطلعها :

قد أتانى عن مُـــرَيْئٍ مَألُكٌ   لابنة الحصّاء أنْ هَبْها فجُدْ[(٢)]

فقد ذكر الطوسى أن ابن الأعرابى لم يعرف المقطوعتين ، وقرأ عليه القصيدة فعرفها . وختم هذا القسم بقوله : « هذا آخر رواية المفضل الضبى ، والذى يلى هذا ما رواه أبو عبيدة مَعْمر بن المثنى والأصمعى » . ورواية هذين وغيرهما تكون القسم الثانى من المخطوطة ، وجاءت فى سبع قصائد ختمها بقوله : « تمَّت نسخة أبى الحسن الطوسى من القـديم الصحيح المنحول » ، ويعنى به الشعر الذى لم يروه المفضل ونسبه غـــيره من الرواة إلى امرىء القيس .

لـكن صاحب المخطوطة المجهـول لم يكتف بما فى نسخة الطوسى من قصائد ومقطوعات فأضاف إليها ستاً وعشرين قصيدة ومقطوعة أنهاها بقوله : «تمّتْ نسخة أبى الحسن الطوسى من القديم الصحيح المنحول ، ومما كتبناه عن غيره من منحول شعره وهو المنحول الثانى » .

وتليها نسخة الأعلم الشنتمرى (أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى) أندلسى من مدينة شنتَ مَرِيّة Santa Maria ، المتوفى عام ٤٧٦ ﻫ = ١٠٨٣م وكان عالماً بالنحو واللغة ، حافظاً للشعر جامعاً ، وقد جاء شعر امرىء القيس ضمن مجموعة شعرية له تشتمل على دواوين : امرىء القيس الـكندى ، والنابغة الذبيانى ، وعنترة العبسى ، وعلقمة الفحل ، وزهير بن أبى سُلْمى ، وطرفة بن

---

(١) هى القصيدة ٤٧ فى الديوان المطبوع ،ص ٢١٥ .

(٢) مريئ : تصغير امرئ ـ مألك : رسالة ـ ابنة الحصاء . اسم ناقة .

العبد . وأوضح السبب فى اختياره لهؤلاء الشعراء : « ... رأيت أن أجمع من أشعار العرب ديواناً يعين على التصرف فى جملة المنظوم والمنثور ، وأن اقتصر فيه على القليل إذ كان الشعر العربى كله متشابه الأغراض والمعانى والألفاظ ، وأن أوثر بذلك من الشعر ما أجمع الرواة على تفضيله ، وإيثار الناس استعماله على غيره » .

ونسخة الأعلم الشنتمرى من أدقّ النسخ التى بين أيدينا وأصحّها ، لأن روايتها واضحة النسب ، موثّقة الرواة ، ينتهى بها السند إلى العالم الأصمعىّ ، وذكر الأصمعىّ كاف لـكى يطمئن المرء إليها جملة ؛ وليس ذلك مجرّد رأى انتهيت إليه ، إنما هو نهج فصّله الأعلم نفسه ، حين قرر أنه اعتمد فيما أورد من أشعار « على أصح رواياتها وأوضحهـا وهى رواية الأصمعى ، لتواطؤ الناس عليها واعتيادهم لها ، واتفاق أهل العصر على تفضيلها ، وأتبعتُ ما صح من روايته قصائد متخيّرة من رواية غيره » .

وفصّل ابن خير الأشبيـلى ، فى فهرسته عما رواه عن شيوخه ، اتصال الرواية بين الأعلم والأصمعىّ : « كتاب الأشعار الستة الجاهلية ، شرح الأستاذ أبى الحجاج يوسف بن سليمان النحوى الأعلم ، رحمه الله — حدثنى بها أيضاً قراءة منّى عليه لها ولشرحها : الوزير أبو بكر محمد بن عبد الغنى بن عمر بن فندلة رحمه الله ــ عن الأستاذ أبى الحجاج الأعـلم مؤلفه رحمه الله ــ يرويها الأستاذ أبو الحجاج الأعلم المذكور ، عن الوزير أبى سهل بن يونس بن أحمد الحرّانى ، عن شيوخه أبى مروان عبيد الله بن فرج الطوطالقى وأبى الحجاج يوسف بن فضال وأبى عمر بن أبى الحباب ؛ كلهم يرويها عن أبى علىّ القالى ، عن أبى بكر بن دريد ، عن أبى حاتم ، عن الأصمعى رحمه الله » .

وكما أوضح الأعلم نهجه فى الاختيار أوضح نهجه فى الشرح فقال : « شرحت جميع ذلك شرحا يقتضى تفسير غريبه ، وتبيين معانيه ، وما غمض من إعرابه ، ولم أطل فى ذلك إطالة تخلّ بالفائدة ، وتمِلُّ الطالب الملتمس للحقيقة ، فإنى رأيت أكثر العلماء فى شروح هـذه الأشعار قد تشاغلوا عن توضيح المعانى ، وتبيين الأغراض ، بجلب الروايات والتوقيف على الاختلافات ، والتقصىّ بجميع ما حوته اللفظة الغريبة ، من المعانى المختلفة ، حتى أنّ كتبهم خالية من أكثر المعانى التى يُحتاج إليها ، ومملولة من الألفاظ والروايات المستغنى عنها ، وفائدة الشعر معرفة لغته ومعناه ، وإلاّ خاطبنا المتعلم بما لا يفهم ، والجاهل بما لا يعلم » .

وقد أهدى الأعلم كتابه إلى «سيف الدولة أبى الوليد إسماعيل بن المعتضد بالله ــ المنصور بفضل الله ــ أبى عمر عبّاد بن محمد بن عبّاد » .

تضم نسخة الأعلم ٢٨ قصيدة ومقطوعة من رواية أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى ، وست قصائد أخرى مما اختاره من رواية المفضل الضبىّ وأبى عمرو الشيبانى وغيرهما . وشكّ الأصمعى فى إحدى المقطوعات التى رواها ومطلعها :

ألاَ إلاَّ تكن إبل فمِعْزىَ
كأنّ قرونَ جِلَّتِها العصىّ

فقد ذكر الأعلم : « كان الأصمعى يقول : امرؤ القيس مَلِك ، ولا أراه يقول هذا ، فكأن الأصمعى أنكرها » . وعلى نهج الأصمعى سار الوزير

أبو بكر عاصم بن أيوب البَطَلْيوسى ، وقال : « امرؤ القيس لا يقول هذا ، وأحسبه للحطيئة[1] » .

لدينا من مجموعة الأعلم الشنتمرى عدة مخطوطات ؛ أقدمها كُتبتْ عام ٥٧١ هـ — ١١٧٥ م ، وتوجد فى مكتبة باريس الوطنية تحت رقم ١٤٢٤ ، وحجمها من القطع الصغير ، وتضمّ ١٥٠ ورقة ، وكتبت بخط مغربى جميل ، على ورق أبيض ، اسمرّ لونه بفعل الزمن ، وتضمّ النصّ كاملا ، جيِّد الضبط ، والكلمات الصعبة مفسَّرة بحبر أحمر بين السطور ، وبالهامش بعض الشروح والتعليقات ، وعلى الصفحة الأولى عنوان تخرّم بعضه وبقى منه :

« كتاب . . . شعر . . . هلية » .

« شعراء الجاهلية الستة وهم : امرؤ القيس ، والنابغة وعلقمة وزهير وطرفة وعنترة » . لمحمد بن يوسف بن إبراهيم بن قحطبة الخزرجى .

وعلى آخر ورقة من المخطوطة : « تمّ جميع الديوان ، وكتبه لنفسه بخط يده محمد بن يوسف بن إبراهيم بن قحطبة ، فى العشر الأول من رجب الفرد ، من سنة إحدى وسبعين وخمس مائة ، حامدا لله تعالى ومصليًا على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم » . ولا نعرف من هو محمد بن يوسف هذا ، لكن رسم المخطوطة ، وطريقة الرسم ، يوحى بأنه أندلسى ، واحد من كثيرين فى الأندلس الذاهب ، كانوا يُعنوْن بالمعلقات درسًا وكتابة ونسخا .

والثانية أحدث من الأولى ، كُتبتْ فى القرن الحادى عشر للهجرة ، السابع

(١) لا أشارك الأصمعى والوزير أبا بكر رأيهما هذا ، وفيما يبدو لى كلاهما قرأ المقطوعة مجردة من مناسبتها ، وقد عرضت للأبيات ص١١٧ وأبديت رأيى هناك .

عشر الميلادى ، وتوجد فى مكتبة باريس الوطنية تحت رقم ١٤٢٥ ، وعدد أوراقها ٢٢٣ ورقة ، من القطع المتوسط ، وتضمّ نفس قصائد المخطوطة الأولى وتسير على نفس نظامها ، وتتميز بتفسير الكلمات الصعبة ، وشرح معنى الشعر مجملا ، فلا يقف عند البيت الواحد ، وإنما يشرح الشعر بيتين بيتين ، وأحيانا يشرح مجموعة من الأبيات دفعة واحدة . وعملا بوعد قطعه المؤلف على نفسه فى المقدمة لا يعرض إلاّ نادراً للقضايا النحوية التى يمكن أن يصبح شعر هذه القصائد موضوعا لها .

ونص الأبيات يتفق مع المخطوطة الأولى ، وإذا وجد خلاف فهو على التأكيد سهو من الناسخ ولا يستحق أىّ اهتمام . والنصّ ليس مشكولا ، وكُتب فى رسم مغربى ، مع إهمال واضح ، وناسخ الشرح هو ناسخ النصّ ، لأنه كُتب فى نفس الرسم وعلى نفس المستوى من عدم الاعتناء . وفى الشرح أخطاء كبيرة وقع فيها الناسخ ، تبلغ أحيانا قدراً يصبح معه من العسير تحديد معنى الجملة ، إلى جانب الفراغ المتعدد الذى يتركه أثناء الشرح ، ويشير إليه من حين لآخر بقوله : « فى الأصل بياض يقرب من هذا البياض » . وبعض الشروح مبتورة ، وغير مفهومة ، تنقصها كلمة ، أو كلمات متعددة ، وأحيانا ينقص قدر كبير من الشرح . ورغم هذه الأخطاء فإن شروح المخطوطة ذات فائدة كبيرة . ويوجد عنوان المخطوطة على الصفحة الأولى ، ونصه :

« هاذا[1] شرح ديوان الشعراء الستة للأديب الأعلم يوسف الشنتمرى ، رحمه الله » .

---

(١) حين خفت قبضة التزمت على الحياة الثقافية فى الأندلس ، بدأت حركة تحررية فى مختلف مجالات الأدب من شعر ونثر وإملاء ، وتحرر الأندلسيين من قواعد الإملاء المتزمتة =

وثمة مخطوطة ثالثة لديوان امرئ القيس وحده ، كان يمتلكها المستشرق الفرنسي Perçeval , Caussin de وأفاد منها مواطنه المستشرق de Slane في نشره لشعر امرىء القيس ، ولا أدرى لمن آلت ملكيتها الآن ، ولكن سلان فى مقدمته باللغة الفرنسية لشعر امرىء القيس عرّف بها فى إيجاز ، فقد كُتبت عام ١١٦٣ هـ — ١٧٤٩ م يزدحم هامشها بشرح الشعر ، ويكثر فيها الخرْم وبخاصة عند نهاية المجلد ، وتسبق القصائد والمقطوعات مقدمات توضح مناسبة الشعر ، وهى أخبار تكوّن جانباً من ترجمة امرىء القيس ، ويبدو أن شارح النسخة أخذها من كتاب الأغانى ، وتضم قصائد ومقطوعات لا توجد فى مخطوطتى الأعلم السابقتين ، كما أنها تنقص عنهما بعض القصائد . ولا يقف الخلاف بينهما عند هذا الحدّ ، وإنما يمتد إلى ترتيب القصائد ، وعدد أبيات كل قصيدة ، وقد نجد قصائد فى المخطوطتين الأولى والثانية كل منها موحدة مجموعة ونجدها فى هذه المخطوطة متفرقة ، موزعة فى أكثر من مكان ، والعكس صحيح أيضاً . ومن الواضح أن هذه المخطوطة نقلت عن أصل لشعر امرئ القيس مخالف للأصل الذى نقل عنه ناسخا المخطوطتين الأخريين .

وثمة مخطوطة رابعة أشار إليها المستشرق M. Fauriel كتبها ميشيل صباغ ، لكنها فى الحقيقة منسوخة من المخطوطة الثالثة ، فهى صورة مكتوبة منها ، وليست أصلا جديداً .

= لم يدرس بعد ، ولكننا سوف نلحظ قريبا من بداية القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميلادى ، أن أسماء الإشارة ، وأسماء وحروفا أخرى تكتب كما تنطق ، ولهذا آثرت أن أترك كلمة « هاذا » فى النص كما هى عليه ، وهى أدق من ناحية تصوير النطق ومن ناحية التحليل اللغوى .

ومخطوطة خامسة توجد فى مكتبة جوته Gotha بألمانيا ، تحت رقم ٥٤٧ ، ويرجع تاريخها إلى عام ١١٣١ هـ = ١٧١٩ م ، وكتبت فى خط مغربى ردىء ، وبخاصة الشروح التى بها مشها ، ولم أطلع عليها ، أو على مُصوَّر لها ، ولكن هلوارد Ahlwardt وصفها فى مقدمته باللغة الإنجليزية لكتابه «العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين» .

ولدينا فى دار الكتب المصرية مخطوطتان لنسخة الأعلم الشنتمرى ، الأولى تحت رقم ٨١ أدب — ش ، وكانت فى حوزة العالم اللغوى محمد بن محمود بن التلاميد الشنقيطى ، ثم آلت ملكيتها إلى دار الكتب المصرية ، وهى مكتوبة بقلم مغربى ، وتقع فى ١٦٤ ورقة ، يأتى شعر امرىء القيس فى ٢٨ ورقة منها ، ومسطرتها ٢٦ سطرا ، وكتبها أحمد بن عبد المختار بن الطالب أحمد ، لأخيه فى الله السيد حبيب بن سيد العابد الكنتاوى الهاملى ، ضحوة يوم الثلاثاء ، الثالث من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ = ١٨٦٥ م ، وخطها واضح منمّق وقد كتب الشعر فى حبر أحمر وأكبر قليلا ، والشرح فى حبر أسود وأصغر شيئا ، وبها خرم يبتدىء عند نهاية شرح البيت الخامس والأربعين من قصيدة « سمالك شوق بعد ما كان أقصرا » ، وينتهى فى أثناء شرح البيت ٣١ من قصيدة : « أحار بن عمرو كأنى خمر » ، ويختم شعر امرىء القيس بقوله : « تمت القصائد المتخيرات من شعر امرىء القيس ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

والثانية ، نسخة مصورة ، عن نسخة مكتوبة بخط مغربى ، توجد فى الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٤٥٠ أدب ـ شعر ، وكُتبتْ عام ١٢٦٢ هـ = ١٨٤٥ م ، ويقع الأصل فى ١٦٠ ورقة ، يشغل منها

شعر امرئ القيس ٣٨ ورقة ، والمصوَّر من هذه المخطوطة شرْح شعر امرئ القيس والنابغة وعنترة ، أما أشعار علقمة وزهير وطرفة فلم تصور لأنها طبعت ، وتبلغ صفحات الأصل المصوَّر ٩٨ ورقة .

وقام بنسخ المخطوطة محمد بن عبد الجبار بن على بن محمد الطيب الحسنى من أصل لا يشير إليه .

ولدينا مخطوطة تجمع شعر امرىء القيس صنعة أبى سعيد الحسن بن الحسين السكّرى ، المتوفى عام ٢٧٥ ﻫ = ٨٨٨ م ، كتبها عام ٥٤٥ ﻫ = ١١٥٠ م ، بخط جيّد صحيح جميل ، على بن ثروان الكِنْدى ، نقلا عن أصل مكتوب بخط الوزير المغربى أبى القاسم الحسين بن على ، كتبه سنة ٣٨٣ ﻫ = ٩٩٣ م . وأصلها محفوظ فى مكتبة ليدن بهولندا تحت رقم ٩٠١ ، وتقع فى ١١٩ صفحة ، وفى كل صفحة ثمانية أسطر ، وهى مضبوطة بالشكل الكامل ، وخالية من الشرح عدا كلمات يسيرة ، ومن مقدمات القصائد إلا قليلا . وتضم ٦٧ قصيدة ومقطوعة ، وفيها يجمع السكرى بين الروايتين البصرية والكوفية ، ومنها نسخة مصورة على « ميكروفلم » بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

وتلى مخطوطة السكّرى فى الأقدمية مخطوطة أبى سهل : خرابُنداذ ابن ماخراشيذ . ولدينا منها فى مصر نسخة كان يملكها الأستاذ محمد محمود الشنقيطى ، وآلت ملكيتها إلى دار الكتب المصرية ، وقد نسخها بقلمه عن مخطوطة توجد فى مكتبات الآستانة ، عليها خط الحافظ جلال الدين السيوطى ، والعالم اللغوى الأديب عبد القادر البغدادى ، صاحب كتاب « خزانة

الادب» ، أتم نسخها عجلا لعشر مضت من ذى القعدة الحرام سنة ١٣٠٣هـ = ١٨٨٥ م ، وهو يتهيأ لرحلة إلى المدينة المنورة ، وذكر أن الأصل الذى نقل عنه يأتى فى عشرين كرّاسة ونصف ، ويرجع تاريخه إلى عام ٦٣٧هـ = ١٢٣٩م وعلى الصفحة الأولى منه : « هذا ديوان امرىء القيس بن حجر الكندى مع شرحه ، رواية أبى سهل خرابنداذ عن أبى جعفر الكوفى المعروف بدندان ، وعن أبى عمر العبدى الاصطخرى » . و « فيه تحريف كثير ، وتصحيف عجيب لا يكاد يوصف؛ ولولا «حفظى له من صغرى والحمد لله ماحصلت منه على طائل » .

قدّم لنا أبو سهل ؛ فى بداية شرحه ؛ إسناد روايته كاملا ؛ فى جانبيها البصرى والكوفى ؛ فهى تنتهى إلى الأصمعى شيخ مدرسة البصرة ؛ وإلى المفضل الضبى خير رواة الكوفة ، يقول : « قرأت على أبى جعفر أحمد بن الحسن الكوفى المعروف بدندان بشيراز شعر امرىء القيس بن حجر ؛ ثم قرأته بفسا على أبى عمر حفص بن عمر العبدى الاصطخرى » .

« قال أبو جعفر : قرأته على أبى العَبْشمى ، وعلى عدّة من أصحاب الأصمعى » .

« وقال بو عمر : قرأته على أبى عبيدة الحسن العَبْدرى ، عن أبى محمد المفضل بن محمد الضبىّ » .

فرواية أبى سهل بصرية كوفية ، تجمع بين روايتى الأصمعى والمفضل الضبىّ ، وتشتمل على ٥٩ قصيدة ومقطوعة ، وانفردت بقصائد لم تذكر فى أية نسخة أخرى ، وأبو سهل يشرح الشعر بيتاً بيتاً ، من عمله أو نقلا عن الأصمعى وأبى عمرو الشيبانى وغيرهما ، ويفسّر اللغويات ، وقليلا ما يتعرض للقضايا

النحوية ، ويسبق الشعر عادة تمهيد تاريخى ، موجز أحياناً ومطوّل أحياناً أخرى ، يوضح المناسبة التى قيل فيها .

كتب الشنقيطى نسخته بخط مغربى ، ومسطرتها مختلفة ، والشعر فيها مكتوب بخط أكبر، والشرح بخط أقل حجماً ، وعلى هامشها تصويبات يبدو أنها من عمله ، ويتخللها بياض يشير الناسخ إلى أنه يساوى البياض الموجود فى الأصل ، وعدد أوراقها ٣٧ ورقة ، يشغل شعر امرىء القيس منها ٣٤ ، والصفحات الباقية تضمّ شعراً لعبد بنى الحسحاس ، والكتاب المأثور عن العَمَيْثل الأعرابى الشاعر صاحب عبد الله بن طاهر . وتوجد الآن فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١٣ أدب — ش .

وتوجد مخطوطة أخرى فى مكتبة « ولى الدين يكن » باستنبول ، تحت رقم ٢٦٨٤ ، ويرجع تاريخها إلى عام ٦٣٩ ﻫ = ١٢٤١م ، ومنها نسخة مصورة على « ميكروفلم » بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، وتقع فى ٢٠١ ورقة من الحجم المتوسط ، وعورضت على أصلها المنقولة عنه .

ثمّة نسخة تنسب إلى ابن النحّاس ، وتوجد بمكتبة الأسكوريال فى ضواحى مدريد ، تحت رقم ٣٠٣ ، وأوراقها ١٥١ ورقة ، وفى كل ورقة ١١ سطراً ، وكتبت بخط النسخ ، وليس عليها اسم ناسخها ولا تاريخ تدوينها ، ولكننا نعرف من إشارة واردة بأول النسخة أنها كانت فى مكتبة السلطان زيدان الحسنى ملك مراكش ، وقد استولى عليها الأسطول الإسبانى فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى ، العاشر الهجرى ، أيام فيليب الثانى ملك إسبانيا ، وكانت محملة فى بعض السفن المغربية . فلعل تاريخ نسخها يرجع إلى القرن الثامن أو التاسع الهجرى . والشعر فيها تام الشكل ، ومكتوب بخط أكبر من

خط الشرح ، ومنها نسخة مصورة على « ميكروفلم » بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

وصاحب النسخة غير معروف ، وعلى الورقة الأولى : (شرح ديوان امرىء القيس المسمى بالتعليقة للعلّامة ابن النحاس) ، وكتب بجوار هذه الكنية بخط آخر مائل (بهاء الدين أبي العباس أحمد) ، وهو اسم غير معروف ولا تتحدث عنه كتب التراجم والطبقات التي بين أيدينا . وقد درس الدكتور ناصر الدين الأسد أمره ، فوجد أن هناك اثنين يسميان (ابن النحاس) ، أولهما أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس[1] ، والثاني : أبو عبد الله بهاء الدين بن النحاس محمد بن إبراهيم بن محمد[2] . ورجّح أن الكاتب الذي استدرك على اسم ابن النحاس فجعله بهاء الدين أبا العباس أحمد قد أخطأ ، وأنه يقصد أبا عبد الله هذا ، لأن بهاء الدين أبا العباس لا يظهر في أيّ من كتب التراجم والطبقات .

---

(١) من أعلام النحاة بمصر في القرن الرابع الهجري ، ويعرف بأبي جعفر النحاس ، كان غزير العلم ، واسع الرواية ، كثير التآليف، تزيد مصنفاته في رواية ياقوت على الخمسين وقد ضاع أغلبها . وتوفي ضحية جهل العامة ، إذا كان يجلس على درج مقياس النيل في جزيرة الروضة ، ومعه كتاب في العروض يقطع منه بعض البحور ، فسمعه واحد من العامة يردد هذه المقاطع فلم يفهم من ألفاظه شيئاً ، فظنه يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلوا الأسعار ، فركله برجله فتدحرج من فوق السلم فمات غريقا في النيل في ٥ من ذي الحجة ٣٣٨ هـ = ٢٦ من مايو ٩٥٠ م .

(٢) من نحاة القرن السابع الهجري في مصر ، ولد عام ٦٢٧ هـ = ١٢٢٩ م وتوفي عام ٦٩٨ هـ — ١٢٩٨ م قال عنه أبو حيان ، وهو من تلامذته : « لم ألق أحداً أكثر سماعا منه لكتب الأدب ، وتفرد بسماع صحاح الجوهري ، وولي التدريس بالجامع الطولوني » ثم تولى مشيخة الديار المصرية ، ووصفه جلال الدين بأنه كان معروفا بحل المشكلات والمعضلات في النحو ، وشهر باسم « البهاء بن النحاس » تمييزا له عن أبي جعفر النحاس » .

ولا يقف الدكتور ناصر الدين الأسد عند هذا الحد من الاستنتاج، وإنما يرجح أن صاحب الشرح ليس بهاء الدين بن النحاس، وإنما هو أبو جعفر النحاس المشهور، لأن البهاء بن النحاس من رجال القرن السابع الهجرى، الثالث عشر الميلادى، ولا نجد فى النسخة التى بين أيدينا ذكراً لأحد من الرواة بعد النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى، وكانت شهرته فى النحو؛ ولم يصنف شيئاً إلا ما أملاه شرحاً لكتاب المقرب. أما أبو جعفر النحاس فله عناية كبيرة بالشعر ويؤلف فيه؛ فله (شرح المعلقات) و(شرح المفضليات) و(شرح الحماسة) و(شرح الدواوين العشرة)، وله كتاب (أخبار الشعراء). وأنه رحل إلى بغداد، وروى عن المبرد والأخفش والزجاج، من كبار علماء مدرسة البصرة. ونجد فى الشرح الذى معنا عبارة: «قال أصحابنا البصريون»، وفيه من الأخبار ما ينال من الكوفيين ويضعف آراءهم[1].

ويلتقى الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، محقق ديوان امرىء القيس، مع الدكتور ناصر الدين فى جانب من رأيه ويخالفه فى جانب، فهو يستبعد أن يكون البهاء بن النحاس هو صاحب الشرح، لكنه لا يوافق على ترجيح أن يكون صاحبه هو أبو جعفر النحاس، لأنه عارض روايته للمعلقة وشرحها فى النسخة موضع الدراسة، بروايتها وشرحها لأبى جعفر النحاس فى مطبوع برلين عام ١٨٧٦م، فوجد بينهما اختلافاً بيناً، ومن ثم فهو يرى أن نسبة النسخة لشارحها ما تزال غامضة[2]. ومع تقديرى لوجهة نظر الأستاذ المحقق أرى أنها غير

(١) الدكتور ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلى، ص ٤٩٦ وما بعدها.
(٢) محمد أبو الفضل ابراهيم: ديوان امرىء القيس، المقدمة ص ١٨ وما بعدها، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٨.

كافية وحدها لدفع نسبة الكتاب إلى أبى جعفر النحاس ؛ اعتماداً على التباين القائم بين شرحه للمعلقة فى الديوان وبين شرحه لها فى مطبوع برلين ، لأن هذه فيما يبدو جزء من كتابه (شرح المعلقات)[1] وليست بعض شرحه للديوان ، وقد تشرح المعلقة بين بقية المعلقات على نهج معين . ثم تشرح فى ديوان الشاعر نفسه على نهج آخر . وقد يُفهم الشعر بعامة فى مرحلة معينة من العمر على نحو يختلف عنه فى مرحلة أخرى ، فلعل التباين بين شرحى المعلقة مرده إلى هذا السبب أو ذاك .

وتضم هذه النسخة ٥٦ قصيدة ومقطعة ، بروايات مختلفة متداخلة ، بصرية وكوفية ، وهو يشير إلى الراوى ، وإلى من يدفع نسبة القصيدة وينكر أنها لامرىء القيس ، ويفهم من الشرح أنه اتخذ نسخة اليزيدى (أبو عبد الله محمد ابن العباس بن محمد بن يحيى بن المبارك المتوفى ٣١٠هـ — ٩٢٢م) أصلا للنسختة. ثم أضاف إليها روايات أخرى .

وعلى نهج الأعلم الشنتمرى نفسه سار مواطنه الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسى المتوفى عام ٤٦٤ هـ = ١٠٧١ م . فاختار دواوين الشعراء الجاهليين الستة نفسها : امرئ القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة وعنترة . وتوجد مخطوطتها فى مكتبة فيض الله بتركيا برقم ١٦٤٠ ، وتضم ١٥٠ ورقة ، كتبها عبد الكريم بن محمد فى مدينة القسطنطينية . وفرغ من كتابتها فى يوم السبت ٩ من شوال المعظم سنة ١٠٤٦ هـ = ١٦٣٦ م ، ويشغل شعر امرىء القيس منها ٤٠ ورقة ، ومصورة على (ميكروفلم) بمعهد مخطوطات

---

(١) لدينا نسختان مختلفتان من شرح المعلقات « لابن النحاس » ، أولاها تضم المعلقات السبع المعروفة ، وتضم الثانية تسع قصائد ، بزيادة معلقتى النابغة والأعشى .

جامعة الدول العربية . وتوجد لها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٢٩٨٤ .

تضم نسخة الوزير أبي بكر ٣٠ قصيدة ومقطوعة ؛ ولم يعن فيها بالرواية ؛ لـكن من السهل بالمقابلة تبيُّن أنها نفس القصائد التى اختارها الأعلم ؛ مع اختلاف فى الترتيب فهى إذاً من رواية الأصمعى ، أشاعها فى الأندلس أبو على القالى ، ولم يختر من القصائد الست التى اختارها الأعلم من غير رواية الأصمعى إلا قصيدة واحدة من رواية المفضل بدأ بها الديوان ، هى :

أحار بن عمرو كأنى خَمِرْ ويعـدو على المرء ما يأتمِرْ

ومقطوعة أخرى من بيتين هى :

إنى حلفتُ يميناً غير كاذبةٍ أنَّكَ أقلف إلاّ ماجنى القمرُ

إذا طعنتَ بهمالتْ عمامتُهُ كما تجمّع تحت الفَلْـكةِ الوَبَرُ

وقدشرح الوزير الشعر شرحاً وافياً، معتمداً على شروح سابقيه ، مصرحا بنهجه فى المقدمة : « وكل ماذكرته فى هذا الشرح فمن كتب العلماء أخذته ، ومن مكنون أقوالهم استخرجته » .

وإلى جانب المخطوطات التى عرضنا لها قبل توجد مخطوطات أخرى تضم شعر امرئ القيس منفرداً ، أو مضموما إلى واحد من الشعراء الستة السابقين ، أو إلى غيرهم . وأوضح هذه المخطوطات واحــدة لا يعرف جامعها ، وتضمّ الشعراء الستة الذين شرح شعرهم الأعلم الشنتمرى ، ومواطنه الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسى ، وأعطاها صاحبها اسم « العقد الثمين فى دواوين

الشعراء الستة الجاهليين » خطّها محمد بن عبد الرحمن الصنهاجى ، فى رسم مغربى منمق واضح ، وفرغ من كتابتها فى أوائل ذى الحجة سنة ١٠٨٦ هـ = ١٦٧٥م وجاءت فى ١٤٨ ورقة ، ومسطرتها عشرة أسطر ، ويشغل شعر امرئ القيس منها ٣٦ ورقة . والشعر فيها مكتوب بخط أسود ، والشرح بحبر أحمر وفى حجم أقل ، ويكون بين السطور أو على الهامش ، دون التزام لقاعدة مضطردة ، ولكن فى تناسق دائماً . وتوجد فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١١١٦٢٦ ز . ومن الواضح أن جامعها اتكأ على نسخة البطليوسى فهو يشير صراحة فى الورقة ٣٨ب : « قال شارح هذا الديوان عاصم بن أيوب » ولو أنه كان على علم بشرح الشنتمرى وأفاد منه .

ومخطوطة أخرى لنفس الشعراء الستة ، أوقفها المرحوم الشنقيطى عام ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦م ، وهى مما آل إليه أو اشتراه خلال رحلاته العديدة فى أرجاء العالم الإسلامى ، لأن مظهرها يوحى بالقدم ، وقد عبثت بها الأرضة وتمزَّقت بعض أطرافها ، لكن النصَّ فى مجموعه سليم . وهى لا تحمل اسم صاحبها ولا ناسخها ، ولا عنوانا معيناً ، ويمكن إرجاع تاريخها إلى ماقبل القرن العاشر الهجرى ، ويظن أن مكان نسخها المغرب العربى ، وأكاد أشك فى أنها كُتِبتْ فى الأندلس ، لأن زخرفة الكتب على النحو الذى جاءت فيه المخطوطة من خصائصه ومما شهر به . فالشعر داخل إطار صنع من خطين أحدهما بالحبر الأحمر والثانى بالأخضر أو الأسود وكُتِبتْ بحبر أسمر فى حجم كبير ، على حين تناثر تفسير اللغويات بخط أصغر بين الشعر بحبر وردى أو أحمر أو أسمر ، والمعنى الإجمالى والتعليق يكون بالهامش عادة ، وفى كل الأحوال تتحرك الكتابة ، شعراً وتفسيراً وشرحاً ، داخل تناسق هندسى بديع .

وتتميز هذه المخطوطة من بين جميع مخطوطات امرىء القيس التى وصلتنا بأن الشعر فيها كلها ؛ أيًّا كان البحر الذى صيغ فيه ، يكتب البيت منه كوحدة دون بياض أو فاصلة تميّز بين شطريه ، وأحيانا يكتب كذلك ماعدا الكلمة الأخيرة من البيت ، فتكتب بعد بياض يفصل ما بينها وبين بقية البيت . يكتب الكاتب ذلك زخرفة وعلى نحو ما كانوا يفعلون فى نوع مُعيَّن من الموشحات ، وأوراق المخطوطة تبلغ ١٠٨ ورقات ، ويشغل ديوان امرىء القيس منها ٢٧ ورقة ، وتوجد فى دار الكتب تحت رقم ٦٦ أدب ـ ش .

وفيما يبدو كان العلامة محمد محمود الشنقيطى مولعاً بنسخ ديوان امرىء القيس وتملّك مخطوطاته ، فلدينا من مكتبته غير ما أشرنا إليه مخطوطتان أخريان . الأولى تحت رقم ١٤ أدب ـ ش ، ومصورها برقم ١٠٢٣٩ ز حصل عليها فى مكة المشرفة عام ١٢٨٦ هـ = ١٨٦٩ م ، وتقع فى ثلاثين صفحة وكتبتْ فى خط مغربى ، ومسطرتها ٢٣ سطراً ، وتغلب عليها التفسيرات اللغوية والتعليلات النحوية ، مكتوبة على الهامش أو بين الشعر نفسه ، والشعر مشكول كله ، وفى خط أكبر ، وما نكاد نصل إلى الورقة الخامسة منها حتى تختفى الشروح والتفسيرات لغوية أو نحوية ، وهى مجرّدة من المقدمات التاريخية ، ويختمها ناسخها بعبارة : « انتهى شعر امرىء القيس ابن حجر بحمد الله تعالى وحسن عونه ، فى رواية الأصمعى وغيره ، ويتلوه شعر علقمة الفحل » ، لكن النسخة تقف عند هذا الحد ، ويبدو أن صاحبها أراد أن ينسخ مجموعة الأعلم الشنتمرى ، ثم توقَّف عند نهاية شعر امرىء القيس .

ومخطوطة أخيرة للشنقيطي جمع فيها شعر امرىء القيس ، مما لم يذكر في ديوان الشعراء الستة ، جمعه من رواية أبي سهل ، ومن رواية الطوسي ، كتبه كعادته في خط مغربي واضح ،عام ١٣٠٣ هـ = ١٨٨٥م ويتناثر شرحه في خط أصغر على الهامش أو بين أبيات الشعر ، وتقع في ٢٩ ورقة ، ومسطرتها مختلفة ، ومسجلة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٦ أدب – ش .

مطبوعات الديوان :

طُبِع ديوان امرىء القيس لأول مرة في باريس خلال عامي ١٨٣٦ – ١٨٣٧ م ، على يد المستشرق الفرنسي دي سلان de Slane ، وأسماه : « نزهة ذوى الكيس ، وتحفة الأدباء في قصائد امرئ القيس » ويضم ماجمعه الأعلم الشنتمرى من شعر امرئ القيس في كتابه « دواوين الشعراء الستة الجاهليين » ، وآثر حذف المعلقة منه ، فلم ينشرها مع بقية شعره محتجاً بأن المستشرق الألماني هنجشتنبرج M. Hengstenberg . نشرها في بونا عام ١٨٢٣ . واعتمد أصلا في نشره للديوان على مخطوطتي المكتبة الوطنية في باريس ، وعلى المخطوطة التي أعاره إياها المستشرق كوسان دي برسفال M. Caussin de Perçeval وكتب للديوان مقدمة باللغة الفرنسية ضمنها وصفاً شافياً للمخطوطات التي اعتمد عليها ، وبحثاً موجزاً عن حياة الشاعر ، اعتمد فيه على ماورد في كتاب « الأغاني » ، وناقش الفكرة التي كانت شائعة بين مستشرقي عصره ، ومَن قبلهم ، ومؤداها أن امرأ القيس كان معاصراً للرسول عليه السلام .

وقد حذف من الديوان شروح الأعلم الشنتمرى ، واستعاض عنها بهوامش

صنعها باللغتين العربية والفرنسية ألحقها بآخر الديوان، كما قام بترجمته كله إلى اللغة اللاتينية .

وتلاه وليم أهلوارد W. Ahlwardt وكان أستاذاً للغة العربية فى جامعة جريفزولد Greifswald بألمانيا ، فنشر ديوان امرىء القيس فى لندن خلال عامى ١٨٦٩ و ١٨٧٠ م ، مع دواوين الشعراء الستة الآخرين ، واعتمد فى نشره على روايتى الأعلم الشنتمرى والسكّرى ، واستخدم مخطوطات باريس وجوته وليدن ، وأسماه : « العقد الثمين فى الشعراء الستة الجاهليين » وجاء شعر امرئ القيس فى ٦٨ قصيدة ومقطوعة ، ورتب الشعر أبجديا حسب القافية وجرّده من شروحه وتفاسيره ، وانتزع المقدمات التاريخية من مكانها وألحقها بآخر الكتاب ، مشيراً إلى القصائد التى تتصل بها أو تسبقها ، ثم ضم إلى الديوان ذيلا جمع فيه كل ماوجده من شوارد شعر امرىء القيس وشوارد غيره من رفاقه، صحيحة أو مصنوعة ؛ وجرى فيها على نحو ما صنع فى شعر الديوان فرتّبها أبجديا، وبلغ ما استدركه على الديوان من شعر امرىء القيس ٤٢ قصيدة ومقطوعة وبيتاً مفرداً ، وجدها فى المظان الأدبية المختلفة .

ويعتقد معظم الدارسين المحدثين أن عنوان « العقد الثمين فى داووين الشعراء الستة الجاهليين » ، هو من ابتداع المستشرق الألمانى ، جريا على عادة المستشرقين فى اختيار عناوين تعكس ثقافتهم الواسعة فى الأدب العربى قديمه ووسيطه ، وتمرّسهم بأساليبه ، من التزام السجع ، واختيار الكلمات المجازية ، على نحو ماصنع دى سلان وغيره ، وبخاصة أنه لم يشر فى مقدمته أنه نقله عن واحدة من المخطوطات التى اعتمد عليها ، ولكنى وجدت فى دار الكتب المصرية مخطوطة تحمل نفس العنوان ، وتضم نفس الشعراء ، بنفس الترتيب ،

وترجع إلى تاريخ سابق (كُتبت عام ١٠٨٦ هـ = ١٦٧٥ م) فلعل المستشرق الألمانى نقل العنوان عنها ، أو عن كتاب آخر جاء فيه ذكر الكتاب .

وطبع الديوان بشرح الوزير أبى بكر عاصم بن أيوب البطلليوسى، بطريقة الحجر ، فى طهران عاصمة إيران عام ١٢٧٢ هـ = ١٨٥٥ م ، وفى بومباى عام ١٣١٣ هـ = ١٨٩٥ م ، ثم طبع فى القاهرة بالمطبعة الخيرية عام ١٣٠٧ هـ = ١٨٨٩م، وبمطبعة هندية مرتين، فى عام ١٩١٠م و١٩٢٨م، دون أن يشير أى منهم إلى المخطوطة التى نقل عنها .

ومع يسر الطباعة ، وانتشار الثقافة ، توالت طبعات الديوان فى صور متعددة ، وحده أو مع شعراء آخرين ،مشروحا أو خالياً من الشرح ، محققاً أو على نحو تجارى ، وبين هذه الكثرة فإن ثلاث طبعات تستحق أن يشار إليها .

الأولى قام بها الأستاذ مصطفى السقّا، إذ نشر فى عام ١٩٣٠ ما سبق أن نشره دى سلان ، وأسماه : « مختار الشعر الجاهلى » ، وأعاد طبعه مرة أخرى عام ١٩٤٨ م .

والثانية قام بها الأستاذ حسن السندوبى ، نشرها بعنون : «شرح ديوان امرىء القيس ، ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم ، فى الجاهلية وصدر الإسلام ». وصدرت الطبعة الأولى منه عام ١٣٤٩ هـ = ١٩٣٠ م وأعاد طبعه ثانية عام ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م وقد جمع فى طبعته شعر امرىء القيس ، « مافى ديوانه ، وما هو فى أسفار التاريخ ومجاميع الأدب ودواوين الأشعار ، مما ليس فى الديوان المطبوع ، فضم أشتاتها ، وجمع متفرقها ، وميّز أصيلها من دخيلها ، ولم يشأ أن يغمره بالشروح والحواشى والتعليقات، بل اكتفى بحل ألفاظه اللغوية التى قد تعسر معرفتها على الشادين». «وزاد عليه الكثير من الشعر المنسوب

إلى من يحملون اسم امرىء القيس ، ويختلف فيه الرواة بين امرىء القيس شاعرنا وبين غيره ممن يحملون اسمه فلم يترك شاعراً يسمى بامرىء القيس إلا روى أخباره وجاء بأشعاره » .

وأخيراً قام الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم بتحقيق ديوان امرىء القيس، معتمداً على معظم المخطوطات التى أشرنا إليها،ومستخدما كل ما أحرزناه من تقدم علمى فى مجالات نشر المصادر الأدبية ، وجمع بين كل المخطوطات دون أن يكرر شعراً أو يسقط شعرا ، وكسر الديوان على أقسام ثلاثة :

القسم الأول : رواية الأصمعى ، واتخذ لها أساساً نسخة الأعلم الشنتمرى

القسم الثانى : رواية المفضل الضبى ، واتخذ لها أساساً نسخة الطوسى .

القسم الثالث : زيادات النسخ على هاتين الروايتين من ملحق الطوسى والسكرى وابن النحاس وأبى سهل ، على هذا الترتيب .

وهو لا يذكر مكرّراً ، فحذف من نسخة الطوسى مارواه الأصمعى ، ولم يذكر من نسخة السكرى إلا مازاد عن نسختى الأعلم والطوسى ، وأثبت من نسخة ابن النحاس ما لم يذكره الأعلم والطوسى والسكرى ، ولم يذكر من نسخة أبى سهل إلا ما انفردت به .

وقد جاءت رواية الأصمعى فى ٢٨ قصيدة ومقطوعة ،ورواية المفضل مما لم يروه الأصمعى فى ١٩ قصيدة ومقطوعة (من رقم ٢٩ إلى ٤٧) ، وشملت زيادات نسخة الطوسى من الصحيح القديم المنحول ٦ قصائد ومقطعات (من رقم ٤٨ إلى ٥٣) ، وزيادات ملحق الطوسى من المنحول الثانى ٢٦ قصيدة ومقطوعة (من رقم ٥٤ إلى ٧٩) ، وزيادات نسخة السكرى ١٥ قصيدة ومقطوعة (من

رقم ٨٠ إلى ٩٤)، وزيادات نسخة ابن النحاس ٦ قصائد ومقطعات (من رقم ٩٥ إلى ١٠٠). ونهج سبيل اهلوارد، فألحق بالديوان ما وجده فى كتب الأدب والتاريخ من الشعر منسوبا إلى امرىء القيس، ورتبه على حروف المعجم بحسب القافية، وبلغت استدراكاته ٥٧ بين بيت مفرد، وقصيدة مطولة ومقطوعة.

« وعقد فصلا مستفيضاً ألحقه بآخر الديوان، أثبت فيه خلافات الروايات من حيث اللفظ، ومواضع الزيادة والنقص، وأثبت الزيادات التى جاءت فى الروايات جميع، ولم يذكر من خلافات الروايةسوى ماورد فى نسخ الديوان، عدا « المعلقة » فقد عارضها بموضعها من « المعلقات » ، فى رواياتها المختلفة وشروحها المتعددة » .

وبذلك أهدى قراء العربية، وللمرة الأولى، ديوان امرىء القيس محققاً على نهج علمى صحيح، وقد صدرت الطبعة الأولى منه، عن دار المعارف فى سلسلة « ذخائر العرب » عام ١٩٥٨[1]. وعليها اعتمدنا فى دراستنا لحياة امرىء القيس من شعره، ولمذهبه فى التعبير ومنحاه فى التصوير .

توثيق الديوان :

إذا كان فى صحيح شعر امرىء القيس ما يكفى لبيان حاله إنسانا، وتقويم قدره فنانا، فقد ارتضينا منه روايتى الأصمعى والمفضل الضبى كَلاًّ، ولم نر فيهما ما يجزم العقل المعاصر باستحالة أن يكون لامرىء القيس، وأسقطنا كل شعر نسبه الأقدمون إلى آخرين مع امرىء القيس، ولم يقطعوا فيه برأى. ووقفنا

---

(١) صدرت الطبعة الثانية منه عام ١٩٦٧ .

من زيادات الطوسى والسكرى وابن النحاس وأبى سهل موقفاً متحفظاً ، لأن معظمها لايشاكل شعر امرىء القيس شكلا ومضمونا . لم نقبلها جملة وفيها مايستحيل أن يكون لشاعرنا ، ولم نرفضها كلاً لأن بين ماتضمنته شعر يدعمه واقع الأحداث ، ويرجح فيه جانب اليقين ، وأسقطناها من الاعتبار عند تعادل الظن وتساوى المرجحات .

وقولة الأصمعى : « كل شىء فى أيدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حماد الراوية ،إلا نتفا سمعناها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء » ؛ أراد بها فيما أتصور أن يعتذر عما أهمل من رواية شعر امرىء القيس ، ولا أظنها تمتدّ إلى القليل الذى رواه . وخارج عن نطاق التصور أن يكون كل ما رواه حمادٌ كذبا ، فقد عاش حماد فى عصر ازدهار ثقافى وحضارى ، ولم يكن الوحيد الذى انتهت إليه الرواية أو أُخذتْ عنه ، وإنما شاركه فيها كثيرون وجانب مما أثير حوله ، ومن التشنيع عليه ، ينبغى أن يقبل فى حذر ، فقد يكون وليد الصراع بين مدرستى الكوفة والبصرة .وقد وهم الأستاذ الدكتور شوقى ضيف حين قرر : « أمامنا الرواة الآخرون غير الأصمعى يلاحظون كثرة ما دخل من انتحال فى شعر امرىء القيس ، حتى انرى الطوسى يفرد لذلك فصلين فى نسخته ، فصل (١) يذكر فيه القديم المنحول وفصل (١) يفرده للمستحدث المصنوع » (٢) . لأن الطوسى يعنى بكلمة المنحول ما كان من رواية الأصمعى وأبى عبيدة وغيرهما ولم يثبت فى رواية المفضل الضبى ، ولا يريد بها شعرا مصنوعا نُسب لامرىء القيس وليس له ، وأما الفصل الثانى

---

(١) هكذا فى الأصل ، وصحتها فصلا ، لأنها بدل من « فصلين » قبلها .

(٢) الدكتور شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، العصر الجاهلى ، ص ٢٤٤ .

والخاص بالمستحدث المصنوع فليس من عمل الطوسى حتى ينسب إليه ، وإنما ذكره نسخته شارحها وهو مجهول .

وعملا بهذا النهج نرى — مثلا — أن القصيدة السابعة والسبعين من الديوان فى طبعته الجديدة ،وهى الرابعة والعشرين من ملحق الطوسى الثانى ، بيِّنة الزيف ، ليس لناظمها من موهبة الشعر إلا معرفته بالعروض ، ولا تعدو أن تكون نثرا منظوماً ، ومثل امرىء القيس لا يقول :

وقوم ضررتُ ، وقومٍ نفعتُ   وقومٍ مدحتُ ، وقوم هجوتُ
وحىّ أبرتُ ، وحىّ جبرتُ   وحىّ عصمتُ ، وحى نفيتُ
وخيلٍ طردتُ ، وحرب ضرستُ   وأمر نهيتُ ، ونهب حويتُ
وبيضٍ منعتُ ، وبيض سلبتُ   وبيض كنفتُ ، وبيض كفيتُ
وقِرْن غلبتُ ، وقرن سلبتُ   وقرن كتفتُ ، وقرن شأوتُ
وشعر نطقتُ ، وشعر وقفتُ   وشعر كتمتُ ، وشعر رويتُ

وهناك مقطوعات فى زيادات الطوسى والسكرى وابن النحاس وأبى سهل ، جاءت فى شعر امرىء القيس ، ولم يورد رواة الديوان خلافا حولها ، ثم رواها غيرهم فى مصادر أخرى ، منسوبة لشعراء آخرين ،فالمقطوعة رقم ٩٦ وهى من زيادات نسخة ابن النحاس ، وأبياتها :

الحربُ أوّلُ ما تكون فُتَيَّة   تسعى بزينتها لكل جهولِ
حتى إذا استعرتْ وشبّ ضرامها   عادتْ عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزّتْ رأسها وتنكّرت   مكروهةً للشمّ والتقبيل

نسب « لسان العرب » البيت الأول منها لعمرو بن معد يكرب الزبيدى وذكر ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » أنه أنشدها فى حوار له مع الخليفة عمر بن الخطاب حول حرب القادسية ، وجو الرواية ، وحياة الشاعر نفسه ، تجعل الأبيات به أشبه ، ونسبتها إليه أقرب .

وقد يسبق القصيدة أو المقطوعة ذكر المناسبة التى قيلت فيها ، لـكن مضمون القصيدة لايشير إلى شيء من ذلك التمهيد ولا يوحى به ، فلم نقبله قضية مسلمة ، وإنما اعتمدت على النص نفسه ووقفت عنـده ، إذا ارتضى المضمون تلك الإشارة أخذنا بها وإلاّ صرفت النظر عنها .

ترجمته إلى اللغات الأجنبية :

حظيت معلقة امرىء القيس ، من بين بقية شعره ، بعناية أكثر من جلة المستشرقين . فقام فرنر Warner ، وهو مستشرق هولندى تدين له مكتبة ليدن بما يقرب من ألف مخطوطة عربية أهداها إليها ، بترجمتها إلى اللغة اللاتينية ، ونشرها فى ليدن عام ١٧٤٨ م . ونقلها إلى اللغة الإنجليزية جونز W Jones ونشرها فى لندن عام ١٧٨٢ ، وأعاد طبعها كلوستون Clo ston فى كتابه عن الشعر العربى ، وقد نشره فى جلاسجو عام ١٨٨١ م . ونقلها إلى اللغة السويدية بولمير B. M. Bolmee ، ونشرها فى مدينـة لند Lund عام ١٨٢٤ م . وترجمها إلى اللغة الفرنسية كل من سلفستر دى ساسى Silvestr de Sacy وكوسان دى برسفال Coussin de Perçeval . ونقلها إلى اللغة الألمـانية هارتمان Hartmann ,M. عام ١٨٠٢ م . وإلى اللغة الروسية موركس Murkes . كما شرحها فرسك باللغة التركية ونشرها فى القسطنطية

عام ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م . ويقوم الآن السنيور فيدريكو كوريتى ده قرطبة Fedrico C. de Cordoba بنقلها مع بقية المعلقات إلى اللغة الإسبانية .

أما الديوان كاملا فقد ترجمه إلى اللغة الألمـانية بتصرف روكرت Fr. Ruckert ، ونشره فى شتوتجارت وتوبنخن عام ١٨٤٣ . وترجمه إلى اللغة اللاتينية دى سلان عند نشره لديوان امرىء القيس عام ١٨٣٧ م .

امرؤ القيس وسابقوه

السائد بين علماء النقد القدامى أن امرأ القيس أول شاعر جاهلى ، وقد يشذ منهم من يسبق به مهلهلا عدىّ بن ربيعة ، خاله فيما يزعمون . فأبو عبيدة يرى أن الشعر افتُتِح بامرئ القيس وختم بابن هرمة. ويقول الصاحب بن عباد وقوم معه : بُدئ الشعر بملك ، يعنون امرأ القيس ، وخُتم بملك ، يعنون أبا فراس الحمدانى . وقال آخرون : بدئ الشعر بربيعة ، يريدون مهلهلا ، وعاد إلى ربيعة ، يريدون أبا فراس الحمدانى . وقد أثرت هذه الأحكام فى النقد العربى القديم ، فبذل علماء البلاغة جهداً كبيراً للتدليل على أن امرأ القيس أول من قال هذا البيت ، أو جاء بهذه الفكرة ، أو صنع هذا التشبيه ، أو صاغ تلك الاستعارة .

فلما كان العصر الحديث وقف الدارسون أمام استواء القصيدة العربية عند امرئ القيس موقف المفكِّر ، وذهاباً مع المنطق رفضوا أن يكون امرؤ القيس ممثلا لطفولة الشعر العربى ، إنه يمثل من مراحله الفجر الساطع ، أما الخطوات الأولى فقد اختفت مع الكثير الذى ضاع . ودعما لرأيهم قالوا إن امرأ القيس نفسه يقول :

عوجاً على الطلل المُحيل لعلّنا نبكى الديار كما بكى ابن خذام (١)

---

(١) فى رواية ابن حذام ، وفى أخرى ابن حمام .

فتساءلوا من هو ابن خذام هذا الذى شعر وبكى قبل أقدم شـــاعر لدينا عرفه النقّاد ، ودعموا وجهة نظرهم ببيت آخر لعنترة يقول فيه :

هل غادر الشعراء من مُتردَّم   أم هل عرفت الدَّار بعد توهم

بنشْر ذخائر التراث العربى ، والغوص فى نفائسه لم يعد الأمر كما كان قبلا ، فقد تبين أن ثمة عدداً من الشعراء سبقوا امرأ القيس فى الشعر وفى الحياة وأن عدداً منهم عاصروه ، وكان آخرون امتداداً له ولهم فى مســيرة الخلود . وفى « الشعر والشعراء » لابن قتيبة معلومات موجزة ، ذات أهمية بالغة ، عن عدد لا بأس به منهم .

ما ليس بين أيدينا ونفتقده حقاً ، ونبحث عنه جادين ، هو المرحـلة التى تسبق هؤلاء جميعاً ، ولدينا إشارات عنها فى كتابات أجنبيــة ، فالقديس نيلوس Nilus المتوفى حوالى عام ٤٣٠ م ، وأقدم من أى شاعر عربى وصلتنا أخباره ، يصف لنـا غارة بدوية وقعت على دير سيناء عام ٤١٠ م ، ثم يتحدث عن أناشيد استقاء كان هؤلاء البدو ينشدونها عند بلوغهم بعض موارد المياه . وما يزال البدو حتى اليوم ينظمون شعراً من هذا القبيل يتغنون به ، غير فنى ولا مصقول ، وقريب الشبه بالأغانى التى خلّدت انتصار العرب على الرومان عام ٣٧٢ م ، وبقيت متداولة حتى أيام سوزمن ، فذكرهـا فى كتابه « تاريخ الكنيسة » ، وقد ألفه قريباً من عام ٤٤٠ م .

إن أقدم شعر وصل إلينا يحمل تنوّعاً فى الوزن ، وصفاء واضحاً فى التعبير ، مما يقطع بأنه كان قمّة تجارب سابقة ، ويصاغ وفقاً لتقاليد صارمة متعارف عليها ويمكن أن يُردّ إلى ما قبل نهاية القرن الخامس الميلادى ، أى قبل ميلاد امرىء

القيس بنصف قرن على وجه التقريب ، وكله يستخدم اللغة الأدبية المشتركة ، ومن العسير أن نحدّد الفترة التى قطعها الشعر العربى فى رحلته عبر الزمن حتى بلغ هذه المرحلة من الجودة البالغة . وإذا تخيّلنا له تطوّراً متدرجاً أمكن أنْ نقول إن شيوع العرافة ، واتخاذ العرّافين والحكّمين الكلام المسجوع ، ثمّ السجع الموزون ، وسيلة للتعبير عن تنبؤاتهم وأحكامهم ، أدّى إلى اعتقاد الناس فى « سحر الكلمة » ، لأن لغتهم تصْدر عن شعور بالفوْق والأفضلية والسموّ ، وتعتمد على المواربة والرمز والإيهام ، وعلى التهويل والغموض والإغراب ، ورنين اللفظ وموسيقى الجملة ، وعلى شىء من ألمعيّة الكاهن أو العراف أو الحكَم ، وجانب من ثقوب ذهنه ، وحاضر بديهته ، وخلابة بيانه ، وقدرته على الاستنباط والقياس وقراءة الأفكار ، فشاعت العزائم والرقى والتنبؤات والدعوات(١) فى كلام مسجوع أولا ، ثمْ فى سجع موزون ثانياً ؛ وهذا ما يفسّر لنا أن الرسول عليه السلام كان يضيق بالسجع ، ويجبه المتحدث به : « أَسَجعٌ كسجع الجاهلية ! » وأوضح الجاحظ فى صراحته المعهودة أسباب كره الناس له فى أيام الإسلام الأولى : « كان الذى كرّه الأسجاع بعينها ، وإن كانت دون الشعر فى التكلّف والصنعة ، أن كهّان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدّعون الكهانة ، وأنّ مع كل واحد منهم رئِياً (٢) من الجن ، مثل حازى (٣) جهينة ، ومثل

---

(١) ماتزال رواسب هذه الظواهر قائمة ، فى كل المجتمعات ذات الحظ المحدود من الثقافة ، فى الشرق والغرب على السواء .

(٢) الرئى : هو الذى يعتاد الإنسان من الجن يحبه ويوالفه ، فيما يزعمون ! .

(٣) الحازى : الكاهن .

شقّ وسَطيح (١) ، وعزّى سَلِمة (٢) وأشباههم ، كانوا يتكهّنون ويحكمون بالأسجاع » .

يقول سطيح متنبئاً باحتلال الحبشة لليمن ، أو تعبيراً لرؤيا تدور حوله :
« أحلف بما بين الحرّتين من حنش ، ليهبطن أرضكم الحبش ، وليملـكن ما بين أبين إلى جرش » (٣) .

ويقول شقّ فى الأمر نفسه : « أحلف بما بين الحرّتين من إنسان، لينزلن أرضكم السودان ، وليغلبن على كل طفلة البنان ، وليملـكن ما بين أبين إلى نجران » (٤) .

ومن السجع إلى الرجز ، ومن الرجز إلى الشعر ، وأصاب ابن سلام الجمحى فى كتابه « طبقات الشعراء » شاكلة الصواب حين ألمح إلى أن الرجز سابق على الشعر ، وأن القصائد تالية للمقطوعات ،وأن القصائد وُجدت فى عهد هاشم ابن عبدمناف،وكان حياً بين عام ٤٦٤ م و ٥١٠ م ، لـكنه أخطأ حين قرّر أن مهلهلا وامرأ القيس أول من قصّداه . كان السجع أداة الـكهّان فأصبح الرجز غناء الحداة ، حرّاس القوافل تضرب فى طول الجزيرة وعرضها شرقاً وغرباً ، ثم تطوّر مع الزمن فاستعمل فى أغراض من الشعر مختلفة ، من التغنّى به تسلية

---

(١) شق أنمار بن نزار ، زعموا أنه كان شق إنسان ، له يد واحدة ورجل واحدة، وعين واحدة . وسطيح هو ابن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب .

(٢) اسمه سلمة بن أبى حية .

(٣) الحرة : أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار ، وأبين : مخلاف يمنى تقع فيه مدينة عدن ، وجرش : مخلاف يمنى آخر ، مما يلى مكة .

(٤) الطفلة : الناعمة .

إلى إنشاده ملاحاة أو تهكماً ، ومن التهكم إلى الهجاء ، استجابة لعداوة شخصية أو قبلية ، يصاغ قصداً أو يأتى عرضاً فى تضاعيف الأبيات ، وإذا كان الهجاء تطور للملاحاة فإن الرثاء ابن النياحة ، وليس من قبيل الصدف وحدها أن يبلغ الرثاء قمته على يد امرأة شاعرة هى الخنساء . ثم تابع التطور سيره ، فى الشكل من بحر إلى بحر ، وفى المضمون من فنّ إلى آخر ، ويخيّل إلىّ أن بحر « الكامل » كان التالى للرجز فى الوجود ، لأنه قريب منه ، وبإضمار تفاعيله يصبح رجزاً [1] . وكقاعدة عامة يمكن أن أقرّر مطمئنا أن أقدم بحور الشعر العربى ما تركب من تفعلة واحدة مكررة كالرجز ، والكامل ، والوافر ، والمتقارب ، والرمل ، والهزج ، والخبب ، وأن البحور ذات التفعلتين كانت تالية لها فى الوجود ، كالطويل ، والمديد ، والبسيط ، والسريع ، والمنسرح ، وهو ما سنلاحظه عند إلقائنا نظرة سريعة على أوائل القدامى من الشعراء الجاهليين .

رافق ذلك التطور طالة تدرجية فى بنية القصيدة ، واتساع فى مادة الموضوع ، دون أن يطرأ على البناء الأساسي تغيّر ما ، « فالشاعر يبدأ بالحسرة على حبّ ضائع وحبيبة مرتحلة ، وقد يبثّ شكواه ما تخلّف فى ديار الحبيبة من بقايا وأطلال ؛ أو يدعو رفاقه إلى تأمّل قافلة ظاعنة ، وهو فى كلتا الحالتين يستعيد ذكريات سابقة ، ويلف تفكيره فى غمامة من الحزن ، ثم يحاول أن ينتزع

---

(١) الأضمار فى الكامل إسكان التاء فى « متفاعلن » لتصبح « متفاعلن » بسكون التاء ، وهذه تساوى « مستفعلن » التى بنى عليها الرجز .

نفسه من فيض أحزانه ، فيختم النسيب الذى استهلّ به قصيدته بموقف يصف فيه نفسه ، وقد ارتحل وحيداً فى صحراء محفوفة بالمخاطر ، ويعدّد فضائل حصانه ، أو ناقته ، وربّما استرسل فى الحديث عنه ، ويأتى على ذكر الأوابد من حيوان البادية ، غزال أو ثور وحشى أو نعامة ، وقد يضمّن وصفه حادثة صيد قام بها أو صحبه ، حافلة بالحياة والحركة ، فإذا وصل إلى هذا القدر تجاوزه إلى غايته ، سياسية تمس مصالح القبيلة ، أو شخصية يهدف منها إلى استثارة أريحية زعيم أو أمير ، وفيهما لا ينسى أن يمدح نفسه ، وأن يعدد مفاخر قومه. وقد يختم قصيدته بأبيات من الحكمة يضمّنها تجاربه فى الحياة » .

أىّ مهابط الجزيرة العربية كانت مصدر ذلك الإلهام ؟

يقول النقاد العرب القدامى بدءا بابن سلام الجمحى فى « طبقات الشعراء » حتى ابن رشيق القيروانى فى « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » : « إنّ الشعر العربى بدأ فى ربيعة » ، وكانت تسكن إلى الشرق من شمال بلاد العرب ، قريبا من نهرى دجلة والفرات ، وقد تهبط جنوباً حتى البحرين . وأكثر قبائلها ذكرا فى التاريخ عبد القيس ووائل وبكر وتغلب وسدوس[1] .

ومن العجيب أن يكون الشعر فى ربيعة وأن تبدأ أعظم نهضة عربية ممثلة فى الإسلام فى مُضر !

فمن ربيعة عدىّ بن ربيعة المعروف بمهلهل ، وهو خال امرىء القيس فى

---

(١) راجع الجدول الخاص ببيان أنساب القبائل ، ومصور توزيعها الجغرافى فى آخر الكتاب .

رواية ، وكان امرؤ القيس وأبوه وأخوته وأعمامه مقيمين فى أسد وحكاماً على تغلب وبكر وعبد القيس ، وكلها تنسب فى ربيعة . ومنها المرقّش الأكبر ربيعة ابن سعد بن مالك ، وهو عمّ عمرو بن قميئة ، وعمرو بن قميئة ابن عمّ المرقّش الأصغر ، والمرقّش الأصغر عم طرفة بن العبد ، وطرفة ابن أخت المتلمّس . ومن ربيعة أيضا الحارث بن حلّزة اليشكرى ، وعمرو بن كلثوم ، والأعشى ، وهم مع طرفة بن العبد من شعراء المعلقات . وانتقل الشعر إلى مضر ، إلى تميم منها على التحديد ، فكان منها أوس بن حجر شاعر مضر فى الجاهلية ، ثم استقر فى قيس عيلان فكان منها النابغة ، والنابغة الجعدى ، وزهير بن أبى سلمى ، ثانى شعراء المعلقات ، وابنه كعب ، ولبيد بن ربيعة ، والحطيئة والشماخ وآخرون . ولم يكن الشعر وقفاً على عرب الشمال وحدهم ، وإنما كان للجنوبيين نصيب منه ، وحتى قبل امرىء القيس ، ولكن الظاهرة التى تلفت النظر أنه كان من يمنيين يعيشون بين قبائل ربيعة أو فى منازلها .

لم يكن امرؤ القيس إذن بداية النهضة الأدبية ولا باعثها ، وإنما كان قمتها والمشير إليها ، ولقد سُبق بشعراء ، ورافقه آخرون ، وتدفق بعده منهم سيل لا ينتهى . ويهمنا فى المقام الأول أولئك الذين عبدوا له الطريق ، والذين التقوا معه عبره ، أو على التحديد أولئكم الذين جاءوا إلى الحياة فى الفترة ما بين عامى ٤٧٥ و ٥٣٥ م على وجه التقريب .

إن ثلاثة شعراء على الأقل ، نعرف عنهم شيئا ، ويكوّنون فيما أرى المدرسة التى استهداها امرؤ القيس فى حياته شاعرا ، وكانوا أساتذته فى مجال القول والتعبير .

أولها زهير بن جَناب الكلبي ، وكلب من مَذْحِج ، ومذحج من قضاعة ، وقضاعة تُنسب في حمير ، فهو إذاً شاعر من الجنوب وليس من الشمال ، أو هو بلغة القدامى قحطانيّ وليس عدنانيّاً ، ولكن قبيلة كلب اتخذت من قديم مسا كنها في شمال الجزيرة الشرقي ، على حافة بادية السماوة ، قريباً من منازل إياد وتغلب . وجمع زهير ، فيما يقول المؤرخون ، الخصال العشر التي يعدها العرب نهاية في الزعامة ، « كان سيدقومه ، وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، ووافدهم إلى الملوك ، وطبيبهم ، وحازيهم[(1)] ، وفارسهم ، وله البيت فيهم ، والعدد منهم » . وكان يقود مذحج وعدد من قبائل اليمن الأخرى التي تقطن الشمال ، في صراعها مع بكر وتغلب وقبائل عدنانية أخرى ، وكان يقود هؤلاء ربيعة بن الحارث التغلبي ، ثم ابنه كُلَيب من بعده ، وقد انتصر كليب على زهير بن جَناب في يوم خَزازى (أوخزاز)[(2)] ، وكوفىء كليب على انتصاره في هذا اليوم بأن أصبح زعيما ولأول مرة على القبيلتين بكر وتغلب معاً .

وعمل زهير فترة من الوقت ممثلا للغساسنة في صحراء الجزيرة ، لكن صلته بهم لم تستمر طويلا ، إذ كان — جغرافياً — أقرب إلى اللخميين في الحيرة ، فولّى وجهه شطرهم ، ويفهم من أبيات رواها له الأغاني ، وأبو حاتم السجستاني في كتابه « المعمّرين » أنه كان نديماً لملوك كندة ، وربما يشير إلى الحارث جدّ امرىء القيس على التحديد ، وإلى المنذر بن ماء السماء ، وأشار فيها إلى يوم خَزازى أيضاً :

---

(١) الحازى : الكاهن .

(٢) خزازى : جبل بطخفة في نجد .

لقـــد عُمِّرتُ حتى لا أبالى أَحَتْفِى فى صباحى أو مســـائى

وحُقّ لمن أتت مائتان عاماً عليـــه أن يملّ من الثواء(١)

شهدتُ الموقِدين على خزازى وبالسُّلّانِ جمعا ذا زُهاء(٢)

ونادمت الملوكَ من آل عمـــرو وبعــــــدهمُ بنى ماء السماء

فإذا عرفنا أن يوم خزازى من أيام العرب القديمة ، أقدم من حرب البسوس ، وكانت بدايتها فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وأن زهيراً شهده بنفسه وأسهم فيه ، وذلك لا يتأتّى إلا لشاب فتىّ ، أمكننا أن نرجع تاريخ ميلاده ، ونحن مطمئنون ، إلى قريب من عام ٤٧٥ م .

عمِّر زهير طويلا ، حتى ملّ الحياة كبقية رفاقه من بعد ، زعم الأب لويس شيخو أنه تُوُفِّى عام ٥٦٠ م ، وهى رواية ينقضها أن زهيراً شهد محاولة أبرهة فتح مكة ، وأن القائد الحبشى أدرك طموحه وتاريخه ومكانته ، فحاول أن يتخذ منه رسولا إلى قبائل الشمال كى يحكمها لحساب الحبشة ، ووجَّهه إلى ناحية العراق يدعو قبائله إلى الدخول فى طاعته . وهو خـــبر تدعمه رواية المرزبانى فى « معجم الشعراء » ، والسجستانى فى « كتاب المعمّرين » ، أبيات للمسيِّب بن الرَّفل ، أحد أحفاد زهير ، يفخر فيها بأن جدّه قاسم أبرهة إمرته ، فكان على حيَّى معد ، ربيعة ومضر ، وعلى الحى المُعالى منها بكر وتغلب :

---

(١) هكذا فى الأصـل ، ويخيل إلى أن الرقم أصابه تغيير ليكون أبلغ فى الدلالة ، وليدخل به زهير فى قائمة المعمرين ، وربما كانت « تسعون عاماً » . وعلى أى حال ولد زهير قريباً من عام ٤٧٥ م ، وتوفى بعد عام ٥٧١ م بأعوام قليلة كما حققناه .

(٢) السلان : واد لبنى عمرو بن تميم ، لعل معركة وقعت فيه فنسبت إليه — زهاء : هنا بمعنى القوة .

وأبرهة الذى كان اصطفانا وسوّسنا وتاج المُلك عالى
وقاسم نصف إمْرته زهـيرا ولم يكُ دونه فى الأمر والى
وأمَّره على حيّ معـــد وأمَّره على الحىّ المُعـالى
على ابنىْ وائل لهما مُهينـا يردّهما على رغم السِّيال[1]

وقد ضاقت به قبيلة بكر ، وحاول رجل منها اغتياله ، لـكنه أفلت من المحاولة وخرج هاربا ، وعاش حتى هرم ، وغَرِض من الحياة ، وخرِف فكان يحدِّث نفسه بالعشىّ ، ولا يخرج إلاّ فى رفقة ، فشقّ عليه حاله ، فلم يجد له مخرجا إلا فى الخمر ، فأسرف فى شربها حتى مات بها .

يهمنا من زهير تحديد عصره وقد أومأنا إليه ، فهو من شعراء النصف الأول من القرن السادس الميلادى ، ولا ينازعه هذه الأسبقية إلا شاعران آخران ، ويأتيان بعده بقليل على التأكيد ، وهما أبو دواد الإيادى وعمرو بن قميئة . ثم شعره ، وحفظ لنا السجستانى منه قصيدة كاملة ، فى خمسة عشر بيتاً . وتعكس نفسيته ومشاعره فى صدق ، زها فيها بالمجد الذى أورثه بنيه ، من سيادة وقوة ، وافتخر بأنه نال كل ما يطمح فيه شاب إلا البقاء ، وقد شهد الحروب ، وانتضب الحسام ، وغنم وقتل ، وقام خطيباً ، ولأن يأتى الموتُ المرء وبه بقية من قوة ، خير من أن يأتيه محطماً ، عبئاً على من حوله :

جد الرحيل ، وما وقفتُ على لميس الأرأشيـّةْ
ولَـقِىَ ثوائى اليوم ما علقت حبـال القاطنيَّةْ

---

(۱) السيال : السب والشتم والتهديد .

حتى أؤديهـــا إلى المـــلك الهمام بذى الثويَّة

قـد نالنى من سَـيْبه فرجعتُ محمود الحذيه[1]

أبَنىَّ إنْ أهلكْ فقد أورثتكم مجداً ، بَنِـيَّهْ !

وتركـتكمْ أولاد ســادات ، زنادكُمُ وَرِيَّـه[2]

من كل مانال الفتى قـد نلتُـه ، إلاَّ التحيَّـه[3]

كم من محيَّـا لا يوازينى ، ولا يهب الدعيَّـه[4]

ولقد رأيت النار بالســـــلاَّن توقد فى طميَّـه[5]

ولقـد رحلتُ البازل الوجنـاء ليس لها وليَّـه[6]

ولقد غدوت بمشرف الطرَفين لم يغمـز شظيَّـه[7]

فأصبتُ من حُمْـر القنا معاً ، ومن حمْـر القفـيَّه[8]

ونطقتُ خطبة ماجدٍ ، غير الضعيفة والعييَّـه

فالموت خـيرٌ للفتى ، فليهْـلكنْ وبه بقيَّـه

من أن يُـرَى الشيخ الـكبير يُـقاد يُهدى بالعشيَّـه

---

(١) السيب : العطاء — الحذية : المراد بها هنا نصيبه من العطاء .

(٢) الزند : العود الذى يقدح به النار ، وورى خرجت ناره .

(٣) التحية : البقاء .

(٤) الدعية : الفضلة ، باقى الشئ .

(٥) السلان : واد لبنى عمرو بن تميم — طمية : جبل فى ذلك الوادى .

(٦) البازل : البعير الذى استكمل السنة الثامنة ، وطعن فى التاسعة ، وبزل نابه فاستكمل قوته — الوجناء : الضخمة الصلبة — الولية : البرذعة .

(٧) غمزت الدابة : مالت رجلها — الشظية : الساق .

(٨) القنان : جمع قنة ؛ الجبل السهل المستوى المنبسط على الأرض — القفية : الممتازة .

كذلك أوردت له كتب الأدب بيتين من الشعر ، نازعه فيهما غيره ، وقيل إن عائشة كانت ترددهما ، وأن الرسول عليه السلام تمثَّل بالثانى منهما :

ارفعْ ضعيفك لا يحُر بك ضعفه
يوما فتدركه عواقب ماجنى ،
يَجزيك أو يثنى عليك ، وإنَّ من
أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

وبيت آخر ، أعجب به النقاد وأثنوا عليه ، وعدُّوه جيداً فى معناه :

إنَّ بَنِى مالك تَلقَى غَزِيهُمُ
فى الزاد فوضىَ وعند الموت إخوانا

وأبيات أخرى رواها ابن الأثير فى معرض الأحداث التاريخية ، ونصائح نثرية ترويها كتب الأدب ، وأسقطنا كليهما لأنهما يحملان طابع الصنعة والانتحال .

شعر زهير على قلته يسقط القضية القائلة أن امرأ القيس ، أو مهلهلا ، أول من نظم القصائد ، لكن قصيدته — وهى وحيدة — لا تضم مقدمة طللية ، ولا مطلعاً مصرّعاً ، ويغلب على الظن أنها بقية من شعر وليست قصيدة كاملة ، لا تصلح وحدها أساساً لكى نعرف ماذا أخذ امرؤ القيس من نديم جده وأبيه ، وتبقى لزهير وشعره دلالته الأقوى فى أن عرب اليمن القاطنين فى الشمال كانوا كبقية العدنانيين فى قول الشعر ، منذ أن عرف للشعر العربى تاريخ ، وأن امرأ القيس لم يكن أول شاعر يمنى، ولا الظاهرة الوحيدة التى تفتقد التشبيه والتمثيل .

ع) الأستاذ الثاني ، والمباشر ، لامرىء القيس هو : أبو دؤاد الإيادى ، جارية بن الحجاج ، ولمّـا كان اسم جارية قليل الورود فى أسماء الجاهليين فقد حرّفه الأغانى – ومصادر أخرى – إلى حارثة . ونُسب خطأ إلى الأصمعى قوله إن اسمه : حنظلة بن الشرْقىّ [1] ، لأن حنظلة شاعر جاهلى معروف، اسمه أبو الطمحان القينى ، ولا صلة له بأبى دواد [2] . وينسب إلى حذاقة من إياد ، فيقال له الحذاقى ، وبهذه النسبة ورد فى بيت لطرفة بن العبد أوردناه فيما سبق ، وكنيته أبو دؤاد ، ويرى المستشرق الألمانى F. Krenkow أنها يجب أن تكون دُواد بلا همز ، لأنها تصغير لكلمة دُود ، مثل دُوَيد ، اسم عربى أصيل وقديم .

كان أبو دواد معاصرا لزهير بن جناب ، وربما جاء معه إلى الحياة فى نفس الزمن ، وخلّف لنا من الشعر قدراً أوفر نسبياً ، وقد شُهر زهير بالزعامة والقيادة وكانت السياسة أكثر وضوحا فى حياته ، أما أبو دواد فكان ، طبقاً لرواية الأغانى ، موظفاً عادياً على خيل المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، أو مديراً للركائب الملكية بلغة العصر الحديث ، ودخل التاريخ من أوسع أبوابه شاعراً كبيراً . ويذكر البغدادى فى « خزانة الأدب » أنه عاصر قباذ ملك الفرس (حكم من ٤٨٨ م إلى ٥٣١ م) ، ومن ثَمّ يمكن أن يقال أنه وُلد

---

(١) نسب الرواية إلى الأصمعى خطا ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » . أقول خطا لأن الأصمعى فى «الأصمعيات» يذكر نسبة الشاعر صحيحة، فيقول فى الأصمعية رقم ٦٥ : « وقال أبو دواد الإيادى واسمه جارية بن الحجاج » .

(٢) أبو الطمحان القينى شاعر جاهلى ، كان جيد الشعر مقلا ، خبيث الخلق فاسقا ، يذكرون له أنه سئل : ما أدنى ذنوبك ؟ قال : ليلة الدير ، قيل له : وما ليلة الدير ؟ قال : نزلت بديرانية فأكلت عندها طفشيلا (نوع من المرق) بلحم خنزير ، وشربت من خمرها ، وزنيت بها ، وسرقت كساءها ، ومضيت ! .

قريباً من عام ٤٨٠ م. ويرى الثعالبي فى «المنتخل» أن أبا دواد توفى عام ٥٢٠م بعد أن تقدمت به السن ، وهو تحديد غير دقيق ، لأن أبا دواد عاش بعد وفاة قباذ ، فاتخذ منه المثل فى قصيدة له جاءت كلها ، أو ما وصلنا منها ، خواطر ذاتية ، يتحدث فيها عن همومه ، وخلافه مع زوجه ، ويعرض للفناء ، والغافلين عن الدواهى ، والموت المفاجىء ، وصرعى الأيام :

أين ذو التاج والسرير قُباذ   خَبَّنَتْه فباد إحدى الُخبون
ولقد عاش آمنا للدواهى   ذا عتاد وجوهر مخزون
وأرى الموت قد تدلّى من الحضْـ   ـر على ربّ أهله الساطرون
صرعتْهُ الأيام من بعد مُلْك   ونعيم وجوهر مكنون
مَلَكَ الخضر والفرات فما دجـ   ـلة شرقاً فالطور من عَبدين
ولقد كان فى كتائب خُضْر   وبلاط يُشاد بالآجرون

ولأن كتب الأدب تذكر أن امرأ القيس كان راويته واتكأ عليه ، وامرؤ القيس كان حيّاً بين أعوام ٥٢٦ م و ٥٦٥ م ، والرواية تقتضى المعاصرة ، وأرجّح فى ضوء دراسة شعره أنه توفى قريباً من عام ٥٥٠ م .

الشعر الذى وصلنا لأبى دواد قليل نسبيا ، ويعلّل الأصمعى الراوية قلّة وروده بأن « العرب لا تروى شعر أبى دواد وعديّ بن زيد لأنّ ألفاظهما ليست بنجدية » ، ويزيد الأغانى : « ولمخالفتهما مذاهب الشعراء » . ومن الواضح أن كليهما يشير إلى المفردات ، فليس فى موضوعات أبى دواد موضوع لم يعالجه معاصروه ، ومَن جاءوا بعده ، وليس فى شعره خروج على العروض العربى المعروف ، لكن قصائده، فيما يبدو، كانت تتضمّن ألفاظا غير شائعة فى

قاموس اللغة الأدبية المشتركة فى عصره ، والتى يلتزم بها الشعراء والمثقفون ، وقد تجافى عنه النحويون أيضاً . وليس بين أيدينا الآن من شعره ما يكفى لدعم الفكرة أو نقضها ، ولكننا نلحظ أن القاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى فى كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » لا يرى رأى الأصمعى ومن سار على دربه ، ويتعاطف مع أبى دواد وعدىّ بن زيد ، ويراهما من خيرة الشعراء .

تميز أبو دواد من بين شعراء زمانه ، بأنه أكثرهم ذكراً فى شعر معاصريه يتتبعون أحداثه ، ويترسمون خطاه ، ويتخذون من مواقفه المثل ، ولم يكن فى حياته ما يشدهم إليه غير الشعر ، لأن وظيفة القائم على خيل المنذر لا تضفى على صاحبها جاهاً كبيراً فالأسود بن يَعْفُر ، شاعر جاهلى من ندماء النعمان أبى قاموس اللخمى (٥٨٠ — ٦٠٢ م) يشير إليه فى قصيدة يزهو فيها بأيامه الخوالى ويسترجعها ، بعد أن كف بصره وعمى :

ومن الحوادث لا أبالك أننى ضُربت علىّ الأرض بالأسدادِ
لا أهتدى فيها لمدفع تَلْعة بين العُذَيْب وبين أرض مُراد[1]
ماذا أؤمِّل بعد آل مُحرِّق تركوا منازلهم ، وبعد إياد
أهل الخَوَرْنق والسدير وبارق والقصر ذى الشرفات من سَنْدَاد[2]
نزلوا بأنْقِرَةٍ يسيل عليهمُ ماء الفرات يجىء من أطواد[3]

---

(١) التلعة . ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها ، وهو من كلمات الأضداد — العذيب : ماء بينه وبين القادسية أربعة أميال .
(٢) سنداد : نهر من أسفل الحيرة ، بينها وبين البصرة .
(٣) أطواد : جمع طود ، وهو الجبل العظيم .

أرض تخيرها لطيب مَقِيلها كعب بن مامة، وابن أم دواد[1]

ويشير إليه فى شعره قيس بن زهير العبسى، سيد عبس، وصاحب « داحس »، أشهر فرس فى التاريخ العربى، فقد اشتعلت الحرب بسببه بين عَبْس وذُبيان، واستمرت قريباً من أربعين عاماً، يقول قيس:

أُحاول ما أحاول ثم آوى إلى جار كجار أبى دواد

وكانت قبيلة إياد ترى فى أبى دواد شاعرها المقدّم، وكغيرها من القبائل جعلت له فضل الأسبقية فى نظم القصائد، وكان يشاركها رأيها ويتعصب له أبو الأسود الدؤلى، وعدّه الحطيئة أشعر العرب، واتكأ على قصيدته الميمية، وجاءتنا فى واحد وأربعين بيتاً، ومطلعها:

منع النومَ ماوِىَ التهمامُ وجدير بالهمّ من لا ينام[2]

والحق أنها أجود شعره، لكن لا نشارك رجال النقد القدامى إسرافهم فى استخدام أفعل التفضيل، فنقول عنه إنه أشعر العرب، وكان ابن رشيق القيروانى محقاً حين قرّر: « لم يقل فيه أحد من النقاد مقالة الحطيئة ». كان لأبى دواد ديوان شعر موجود حتى زمن عبد القادر البغدادى المتوفى عام ١٦٨٢م، وكان صاحب الخزانة يملك نسخة منه، ومن رواية له نعرف أن أطول قصيدة لأبى دواد وصلتنا، ومطلعها:

---

(١) كعب بن مامة الإيادى، يضرب به المثل فى الجود والإيثار، فقد آثر على نفسه بنصيبه من الماء رفيقه النمرى، ومات عطشا.

(٢) ماوى: منادى مرخم؛ أى يا ماوية — التهمام: الهم.

أَوحشتْ من سُروب قَومى تِعارُ فأروم ، فشابة ، فالسِّتـــارُ[1]

لم تصلنا كاملة لأن ما هو موجود منها ثلاثة وأربعون بيتاً ، بينما يصرح عبد القادر أن عِدة أبياتها ثمانية وسبعون . وهى أطول قصيدة وصلتنا من شعره ، بين عدد من القصائد يبلغ ثلاث عشرة قصيدة ، وعـــدد آخر من المقطوعات والأبيات المفردة .

ماذا أخذ امرؤ القيس عن أستاذه ، وفيم فاقه أو قصر عنه ؟ . لا معدى لنا من تتبع ما أبدعه أبو دواد وكان فيه أولا غير مسبوق ، مقروناً بما بين أيدينا من شعر سابقيه ومعاصريه ، ليمكن الإجابة عن هذا السؤال فى موضعه من الكتاب .

يجمع النقاد على أن أبا دواد متفوق فى وصف الخيل، يقول الأصمعى : « إن نعّات الخيل المجيدين ثلاثة ، أبو دواد ، وطُفَيل الغَنَوِيّ ، والنابغة الجعدى » ويقول المبرِّد ، محمد بن العباس اليزيدى ، صاحب كتاب « الكامل » : « لم يصف أحد قط الخيل إلاّ احتاج لأبى دواد » . وما كان لأبى دواد إلاّ أن يكون كذلك ، فقد كان يَصْدر فى تصويرها عن دافعين هما عماد كل عمل فنى أصيل وجميل ؛ انفعال صادق بالخيل ، يتجلى فى حبه العارم له مُذ كان وليداً ، لا يحول الإقتار بينه وبين اقتنائها وركوبها ، بها يراهن ويقاتل ويرحل :

عَلِق الخيلَ حبّ قلبى وليـداً وإذا ثاب عنـــدى الإكثارُ

(١) سروب : جمع سرب ، وهو المال الســارح — التعار وأروم وشابة والستار : أسماء أمكنة .

علقتْ هِمّتى بهنّ فمـــا يَمـــنع منى الأعِنَّةَ الإقتـــارُ
جُنّة لى فى كل يوم ِ رهانٍ جُمِّعتْ فى رهانها الأعْشارُ
وانجرارى بهنّ نحو عدوّى وارتحالى البـــلادَ والتسيارُ

ومعرفة واسعة ، مستمـــدة من تجاربه الشخصية وحياته العملية ، عن الخيل وأنواعها ورغائبها وفضائلها ، ما يحسن منها وما به تصح ، تضع بين يديه مادة وفيرة للتصوير والتعبير ؛ فلا بِدع أن تشغل الخيل ، وكانت مُتعة السراة و بُغية الهواة ، الجانب الأهم من قصيده .

يصف أبو دواد حصانه فيقول : إنه غدا به مبكّرًا ، والليل يجر بقاياه ، على فرس عربى خالص ، طويل العنق ، ينازعه الرّسَن ، ضامر من شدة الجرى ، نحيف من كثرة القنص ، حديد البصر ، مكتنز اللحم ، محكم مفتول ، معتدل صلب ، رفيع الجنْب كذئب الغضا ، يضرب بساقيه ، مستوى الذراع ، إذا اعترضته أرض طريّة وثب عليها ، يتقدم من يقوده ويقحمه ، إذا جرى اهتز جسمه كله ، فليس فيه عضو إلاّ وهو يعين ما يليه :

وقد أغتدِى فى بياض الصباحِ وأَعْجازِ ليـلٍ مُوَلِّى الذنَبْ
بطـرْفٍ ينـازعنى مِرْسناً سَلوفِ المقادةِ ، مَحْض النَّسبْ (١)
طواه القنيـــص وتَعـداؤه وإرشاش عِطفيه حتى شَسَبْ (٢)
بعيدُ مدى الطّرْف، خاظى البضيـع مُمَرَّ القُوَى ، مُسْمَهِرُّ العَصَبْ (٣)

(١) سلوف المقادة : رسنه طويل ؛ كناية عن طول عنقه .
(٢) القنيص : الصيد — ارشـــاس عطفيه : تعريقه إياه حتى ضمر — شسب : ضمر ونحف .
(٣) خاظى البضيع : ممتلىء اللحم — ممر : مفتول — المسمهر : الشديد .

رفيع المعدِّ كسِيدِ الغضا تَميم الضُّلوع بجوْفٍ رَحِبْ(١)
ضروحُ الحماتَيْن ، سبْط الذراع إذا ما انتحاه خَبارٌ وثبْ(٢)
وهادٍ تقدَّم لا عيب فيه كالجذع شُذِّب عنه الكَرَبْ(٣)
إذا قِيد قَحَّمَ مَنْ قاده وولَّتْ عَلاَبيُّهُ واجْلَعَبْ(٤)
كهزِّ الردينىّ تحت العجاجِ جرى فى الأنابيب ثم اضطرب

مقدمات طللية

والقصائد الكاملة من شعر أبى دواد ، على قلتها ، ذات مقدمات طللية ، تتفاوت فيما بينها طولا وقصرا ومعنى ، وأوفاها وأصدقها تمثيلا لمذهبه فى هذا المنحى ، مقدمة قصيدته الميمية ، وقد أعجب بها الحطيئة ، وقدَّمه بها على كل الشعراء . فيها يوجه الحديث إلى صاحبته ماوية، إن الهمَّ منع النوم عن عيونه ، والسهر يجلب المزيد منه . قام الناس ، وسهر وحده ، راحلا مهموماً أو مقيماً حزيناً ، ألاَ ترى الظعائن تغدو مبكِّرة ، تنساب فى الصحراء انسياب السفين على سطح الماء . وفى الهوادج فتيات طيبات الرائحة ، مساويكهنّ من خشب الضِّرْم ، ذوات دَلّ يشفى من الهيام ، وأنَّ بنات نخلة سبينه ، وطيبهنَّ العود الذكى ، يضرمنه فى المدافىء المشتعلة ، خلال ليالى الشتاء

(١) المعد : الجنب — السيد : الذئب .

(٢) يضرح بحماتيه : يضرب بهما ويرمح ؛ والحماتان : اللحم المجتمع فى ظاهر الساقين من أعاليهما — الخبار : ما استرخى من الأرض ولان .

(٣) الكرب : أصول سعف النخل .

(٤) العلباوان : عصبتان فى العنق ، والعلباء يمتد حتى يكاد يتصل بالرأس ثم يولى إلى ناحية العنق — اجلعب : امتد ومضى فى السير .

القارسة ، ساذجات الأحلام ، غافلات عن الريبة ودواعيها ، قسيمات وسيمات، خلف ستائر رقيقة من حرير ميسان ، مصونات فى الهوادج ، لا يغير لونهن تقلب الليل والنهار ، وتعاور الصيف والشتاء . وهن داخل الهوادج ، فى ملابسهن الحريرية الملوَّنة ، على نوقهن العالية ، كنخل « بيسان » أينع فأعطى ثمرا مختلفاً ألوانه ، وقد اتجهن نحو موارد الماء فى بُرد ، و فُلَيْج ، وسَنَام :

منع النــومَ ، ماوىَ ، التَّهمامُ   وجــديرٌ بالهم من لا ينــامُ(١)

مَن ينم ليــله ؛ فقد أُعمِلَ الليـــلَ ، وذو البثِّ ساهرٌ مُسْتهام(٢)

هــل ترى من ظعائنٍ باكراتٍ   كالعَـدَوْلِىِّ سَيْرُهن انقحام(٣)

واكناتٍ يَقضَمْنَ من قضُبَ الضِّرْ   مِ ويُشْـفَى بدلّهــن الهُيَـام(٤)

وسبتْنى بناتُ نخلة لو كُنْ   تُ قريباً ألَمَّ بى إلمــام(٥)

يَـكْتبِين اليَنْجوج فى كَبَّة المش   تىَ وبُلْـهٌ أحلامهُنَّ وِسامُ(٦)

وَيصنَّ الوجوه فى الميْسَنا   نِىِّ ، كما صان قرْنَ شمس غمام(٧)

---

(١) ماوى : مرخم ماوية منادى — التهمام : الهم.

(٢) البث : الحزن .

(٣) الظعائن : جمع ظعينة ؛ وهى النســاء فى الهوادج -- العدولى : منســوبة إلى عدولى جزيرة بالبحرين كانت مشهورة بصناعة السفن .

(٤) واكنات : شبههن بالطير التى استقرت فى وكناتها ــ الضرم : نبت طيب الرائحة ؛ ومنه كن يتخذن مساويكهن .

(٥) نخلة : اسم واد .

(٦) يكتبين : يحرقن العود ويلتففن حوله ــ الينجوج : العــود - كبة المشتى : شــدة برد الشتاء ــ وسام : جمع وسيمة ؛ جميلات .

(٧) الميسنانى : ثياب منسوبة إلى ميسان .

وتراهن فى الهوادج كالغز   لانِ ما إنْ ينالهنَّ السِّهام(١)

نخلاتٌ من نخل بَيْسانَ أَيْنَعْـ   نَ جميعاً ؛ ونَبْتُهنَّ تُؤَام(٢)

وتدلَّتْ على مناهل بُرْدٍ   وفُلَيْجٍ من دونها وسَنَام(٣)

تلك أطول وأوفى مقدمة طللية عند أبى دواد ؛ يخيَّل إلىَّ أن صاحبها سُبِق بمحاولات فى هذا المجال . ومقدمته ولو أنها لا تبلغ قدراً عالياً من الإجادة والاتقان ، كالذى بلغته فيما بعد على يد تلميذه — أو تلاميذه — إلا أنها حدَّدتْ الخطوط العريضة لمذهب فى التعبير سيترك بصماته واضحة فى مطالع الشعر العربى ، طوال العصر الجاهلى وما تلاه من عصور . ونلحظ أنها تبدأ بالتشكِّى فى بيت واحد ، تمضى منه مباشرة إلى وصف قافلة سيدات ، أوهن فيها بيت القصيد ، لكن الحديث عنهن بارد فاتر يوحى بأنه جاء التزاماً لنهج معين من التعبير ، أكثر منه استجابة لدافع داخلى يفيض بوجدان قائله ، ويحرك مشاعره ، فيجرى القول على لسانه شعراً حاراً متدفقاً ومثيراً .

وكما عُنى أبو داود بالخيل ، وبمقدمات شعره ، ترك لنا أبياتاً فى وصف المطر ، ربما كانت بعض قصيدة ، وهى ، فيما أعلم ، أقدم وصف له فى الشعر العربى . فالرياح تلقح السحاب أسود ليناً ناعماً ، وتدفع قطعان البقر الوحشى كثيفة ثقيلة متوانية ، ثم تأتى ريح الجنوب فتحيله مطراً يُزْهر ، فتسمن عليه

---

(١) السهام : تغير اللون .

(٢) تؤام : جمع توأم.

(٣) مناهل : جمع منهل ، موارد الماء ـــ برد وفليج وسنام : أسماء أمكنة .

قطعان عجاف من الغنم والمعزى ، كان سحاباً متراً كا ، سقط أوله غزيراً بذى سلع ، ولمع برقه متوالياً كتوهج المصابيح فى « ضُرافة » ، قريباً من « لعلع »، سقط عليها وابلا، فتفرقت قطعان الوحش وجماعاته ، ثم انقطع المطر ، فصفا الجو ورق، وهدأت الحياة وطابت،وأمنت الطيور وانتشرت عبر الرياض والوديان، فرحة نشوى كجماعة سكْرَى .

وعلى فرس كالنسر ، قلق لا يستقر ؛ أخـذ يذعر به قطيعاً من الحمر الوحشية ، وهو عائد إلى البيت ، بينما عين النماج على سخالها ترعاها ، وتُعنى بها :

وغيثٍ تَوسَّنَ منـه الريا ... حُ جوْناً عشاراً وعَوْناً ثقالا (١)
إذا كركرتْه رياح الجنـو ... ب ألقَحْنَ منه عجافاً حِيالا (٢)
وإن راح ينهض نَهْض الكسـ ... ـير جاجأه المـاء حتى أسالا
فحلَّ بذى سَـلَع بَرْكَهُ ... تَخالُ البوارقَ فيه الذُّبالا (٣)
فـروَّى الضُّرافة من لعلعٍ ... يَسُحُّ سجالاً و يَفْرِى سجالا (٤)

---

(١) غيث : يريد به هنا السحاب — توسن : تلقح ، تأتيه ، تسوقه — الجون : يطلق على الأبيض والأسود ، لأنه من أسماء الأضداد ، والمعنى الثانى هو المراد هنا — عشار : لينة ناعمة — عون : جمع عانة ؛ القطيع من بقر الوحش .

(٢) كركر : حمل — عجاف : جمع عجفاء ؛ هزال — حيال : جمع حيلة (بفتح الحاء وسكون الياء) ، القطيع من الغنم أو المعزى .

(٣) سلع : واد باليمامة — برك : صدر ، والمراد بها هنا أول السحاب — البوارق : جمع بارق ؛ السحاب المصحوب ببرق — الذبال : جمع ذبالة ؛ الفتائل .

(٤) الضرافة : مكان قريب من لعلع ، ولعلع مكان قريب من ذى قار،وذى قار على مقربة من البصرة — السجال : الماء ، والقطيع من بقر الوحش — يفرى : يقطع ، يفرق .

تخال مكاكيّه بالضُّحى ... خلال الدَّقاريِّ ، شَرْباً ثِمالا (١)

بمثل القطاميِّ مُسْتقبلاً ... إذا جلتَ فى منكبيه استحالا

ذعرْتُ السُّكيْنَ به آيلا ... وعَيْنَ نعاجٍ تراعى السِّخالا (٢)

وكما وصف الحصان ، واستهلّ قصائده بتتبع الظعائن ، وتقصّى حركة المطر مذ كان سحاباً ، حتى أينع زهراً ، قدم لنا صورة مفصلة عن رحلة صيد قام بها . لقد نهض إلى فرس أشمَّ كصدر الرمح ، رقيق خفيف البدن ، ضامر الحالبين ، فنزع عنه الجِلال ، وصعد به على الصِّرار ، وقال لغلامه : ارقب لنا الأوابد وتابعها ، واستطلع الوادى فلعل فيه خافياً ، فغاب الغلام ثم عاد يعدو كالنعامة ، فأخبره عما رآه من صيد ، [فهناك حيوانات كثيرة متفرقة فى الوادى (٣)] ، بينها أوابد يخالطها نعام ، ونعام تتناثر بينه أثوار وحشية ، فتتبعها بفرسه ، فصرع منهن ستًّا : نعامة ربداء رائعة ، ضخمة كخباء كبير ، وظليما وحمار وحش ، ومهاتين وثوراً . ثم انقسم صحبه ، بعضهم يعد الصيد لحماً ، يشرّحه أو يقسّمه ، وآخرون يصنعون منه طعاماً :

فنهضنا إلى أشمَّ كصدر الرُّمْـ ... ـح صَعْلٍ ، فى حالبيه اضطمار (٤)

---

(١) المكاكى : جمع مكاء (بضم الميم وتشديد الكاف) : اسم طائر – الدقارى : الرياض أو كل أرض خضراء – الشرب : جمع شارب – ثمال : جمع ثمل : وهو السكران .

(٢) السكين : الحمار الوحشى .

(٣) زيادة عما يقتضيه الشعر فى الأصل ، لأن البيت الذى يتضمن هذه الفقرة ساقط ، وأحسبه يدور حول فكرة كهذه ، لكنه ضرورى لفهم ما بعده ، انظر الهامش رقم ٥ من الصفحة التالية .

(٤) صعل : دقيق خفيف البدن – اضطمار : ضمور .

فسروْنا عنه الجِلالَ كما سُـــ ـلَّ لبيع اللَّطيمة الدَّخدار (1)

وأخـــذْنا به الصِّرار وقُلْنا لحقــيرٍ بنـــانُه إضمـار (2)

أوْفِ ،فارقب لنا ، الأوابدوارْبأْ وانفُضِ الأرض إنهـا مِذْ كار (3)

فأتانا يسعى ، تفرُّش أمّ الـــ ـبيْض شدًّا ، وقد تعالى النّهار (4)

غـيرَ جُعْفٍ أوابدٍ ونعـامٍ ونعــامٍ خــلالَها أثْوار (5)

فى حوال العقارب العمر فيها حين ينهضن بالصـباح عذار

يتــكشّفْن عن صرائعَ ستٍّ قُسِّمتْ بينهن كأسٌ عُقار (6)

بين رَبْداء كالمِظلّة أفْقٍ وظليمٍ ، معَ الظليمِ حمار (7)

ومهاتين : حـــرس ورئال وشَبُوب ، كأنه أوْثار (8)

ففريقٌ يُفَلِّج اللحم نَيْئاً وفريقٌ لطابخيــه قُتــار (9)

---

(1) سرونا : نزعنا ــ الجلال : ما تلبسه الدابة لتصان به ــ اللطيمة : سوق المسك ــ الدخدار : من الفارسية ، وهى تخت دار ؛ أى الثوب الذى يمسك التخت .

(2) الصرار : الأماكن المرتفعة ــ لحقير : لخادم ــ بنانه إضمار : لعل صوابها ثيابه أطمار .

(3) اربأ : كن ربيئة ؛ أى رقيبا ــ الأرض المذكار : التى تنبت ذكور البقـل ، والمشى فيه أخفى .

(4) تفرش أم البيض : يعدو كما تعدو النعامة .

(5) قبل هذا البيت ، بيت آخر أو أبيات ساقطة ، لأن الغلام ذهب وعاد يخبره عما رأى من صيد ، وأخذ فى هذا البيت يعدها .

(6) أى أن هذه الست وقعت صريعة ، كأنها شربت من كأس واحدة هى كأس الموت .

(7) ربداء : لونها كلون الرماد ، وقيل سـوداء ــ المظلة : الخيمة الـكبيرة الضخمة ــ أفق : رائع أو رائعة ــ الظليم : ذكر النعام .

(8) المهاة : بقرة الوحش ــ الشبوب : ثور الوحش . أما حرس ورئال فلم أهتد إلى معناها .

(9) يفلج : يشرح أو يقسم ــ قتار : ريح القدر والشواء .

ومن بين أوائل الشعراء يعرض لنا أبو دواد أغنى تنوع عروضى فى الشعر القديم ، فقد جاءت قصائده ومقطوعاته على أحد عشر بحراً ، هى : الرجز ، والكامل ، والوافر ، والطويل ، والبسيط ، والمتقارب ، والسريع ، والخفيف ، والرمل ، والمنسرح ، والكامل المرّفل . ولا يستخدم بحر الرمل من الشعراء القدامى غير أبى دواد ، فى ثلاث من قصائده ، وطرفة فى ثلاث أيضاً ، وعدى ابن زيد فى سبع قصائد ، وامرئ القيس فى ثلاث كأستاذه ، توافق جاء عفواً ولا مجال فيه للقصد والاختيار ، وانفرد أبو دواد بخاصية عن امرىء القيس ، كان نزّاعاً إلى استخدام بحر الخفيف ، فجاءت له على وزنه خمس عشرة قصيدة ولم يستخدمه امرؤ القيس ولا مرة واحدة .

وكان التصريع معروفا لدى أبى دواد ، فلدينا منه أحد عشر مطلعاً ، لإحدى عشرة قصيدة ، كلها مصرّعة(١) .

الثالث ، والأخير ، من أساتذة شاعر كندة ، عمرو بن قميئة ، وكان خادم أبيه ، أو حاجبه ، ورفيقه فى الرحلة إلى قيصر . وهو من قيس بن ثعلبة ، من بنى سعد بن مالك ، وينسب فى ربيعة ، ومن قدماء شعراء الجاهلية ، ويمكن أن نرجع تاريخ ميلاده إلى نحو من عام ٤٨٠م. مات أبوه وخلفه صغيرا ، فكفله عمه مرثد ، وكان من رؤساء قبيلته . وكان عمرو حسن الوجه ، مديد القامة ،

---

(١) التصريع هو استواء آخر جزء فى صدر البيت ، وآخر جزء فى عجزه ، فى الوزن والروى والإعراب ، وأغلبية العلماء لا ترى للاعراب ضرورة ، لأن اختلافه عيب يلحق التصريع ، ولا يخرجه عن حقيقته .

سبَّابتا قدميه ووسطهما ملتصقتان ، ثم حدثت بينه وبين عمه جفوة مصدرها امرأة عمه ، فقد راودته عن نفسه ، فيما تقول الرواية،فصدَّها وردَّ عليها : «لقد جئتِ بأمر عظيم ، وما كان مثلي ليدعى لهذا ، ولو لم أمتنع وفاء لعمى لامتنعت خوف الدناءة والذكر القبيح ، فخافت أن يخبر عمه بما جرى ، فكفأت جفنة على أثره ، فلما عاد عمه قالت له : إن رجلا من أهلك جاء يراودنى ، قال : ومن هو ؟ قالت : أنا لا أسميه ، ولكن انظر أثره تحت الجفنة . فلمَّا رأى الأثر عرفه ، وهم بقتل عمرو ، فهرب ، وأتى الحيرة مستجيرا ، ومن هناك أرسل يعتذر لعمه :

لعمرك ما نفسٌ بِجِـدٍ رشيدةٍ   تؤامرنى سرًّا لأصْرِمَ مرثدا
وإنْ ظهرت منه قوارضُ جمَّةٌ   وأفْرعَ فى لومى مرارا وأصعدا
على غير غير ذنب أن أكون جنينُهُ   سوى قول باغ ، كادنى فتجهَّدَا

ويبدو أنه كان يتردد على المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ويمدحه ، ويتلقى عطاءه ، وأن هناك من كان ينفس عليه مكانته فدس عليه عند المنذر ، وقد ترك لنا فى القصيدة الخامسة عشرة من ديوانه ، وهى أطول قصائده فيما وصلنا من شعره ، وصفاً لرحلته إلى الحيرة ، ومدحه للملك ، واعتذاره عما نسب إليه ، وأنه باطل قاله عدو حاقد ، فكيف يعاقب على جرم لم يرتكبه :

إلى ابن الشقيقـة أعملتُها   أخاف العقاب وأرجو النوالا[1]
ألستَ أبرهم ذِمَّـةً   وأفضلهم ، إنْ أرادوا فضالا
فأهلى فداؤكَ مُستعتِباً   عتبتَ فصدَّقتَ فىَّ المقالا

(١) ابن الشقيقة : المنذر بن ماء السماء .

أتاكَ عـــــدوٌّ فصدَّقته   فهلاَّ نظرت ؟ هُدِيتَ السؤالا

فما قلتُ ما نطقوا باطـــلا   ولا كنتُ أَرْهبه أن يُقالا

فإن كانَ حقاً كما خبَّروا   فـلا وصلتْ لىِ يمينٌ شمالا

تصـدَّقْ علىَّ فإنى امـــرؤ   أَخافُ على غير جُرم نـكالا

كما كان يتردد على بلاط كندة أيام الحارث بن عمرو ، ويعمل حاجباً — أو خادما — لابنـه حجر فى بعض الروايات ؛ وليس فى شعره مايدعم الرواية أو ينفيها . فلما تقدّم به العمر اعتزل خدمة حجر وعاش فى قبيلته . وقد اطمأن إليه امرؤ القيس فيما بعد شيخاً محنكا تقدمتْ به السنّ،ووضحت أمامه الرؤية ، فصحبه معه فى رحلته إلى القسطنطينية ، على نحو ماروينا .

وتوفى عمرو ، فيما يبدو ، خلال رحلته مع امرىء القيس ، وكانت العرب تسميه عمراً الضائع ، لأنه مات غريباً لغير هـدف يعود على شخصه ، وفى غير عمل يرفع من شأنه .

وصلنا ديوان عمرو بن قميئة يضم بعضاً من شعره ، أما أكثره فضاع ، وما لدينا منه يؤلف عدداً من القصائد تبلغ تسعاً ، أطولها فى تسعة وعشرين بيتاً وأقصرها فى أحـد عشر ، ومقطوعات عدتها سبع ، أقصرها من بيتين وأطولهـــا فى ستة أبيات ، وقد نشره السير س . ج . ليال Lyalt, Cl. فى كمبردج عام ١٩١٩ م . وألحق بالديوان جملة من المقطوعات والأبيات المتناثرة ، عثر عليها فى المصادر الأدبية المختلفة ، وتبلغ تسع مقطوعات .

من دراسة الديوان نجد أن عمراً يلتقى مع أبى دواد فى بعض موضوعاته ، ويزيد عليها بعضاً ، ويختلف معه فى تصوير ماتوافقا فيه إحساساً .

فعمرو أول شاعر قديم بكى شبابه بين شعراء عصره ، وأنه فقد بذهابه شيئاً غالياً ، أيّام كان يلاحق الوحش فى الوهاد ، ويجر إزاره تِيهاً إلى الحانات لقد أحب الحياة ونعم بها ، وتركت أحداثها آثاراً على وجهه . ومن الناس من يكون فى وجوده حياةٌ وعيش للآخرين ، ومن يكون بَخيلا لا فائده تُرجى من ورائه ، ولا خير يُبتغىَ من وجوده :

يالهف نفسى على الشباب ولمْ … أفقد به إذ فقــدته أمَماً[1]

قد كنتُ فى مَنْعةٍ أسرُّ بهـا … أمنعُ ضيمْى ، وأُهْبِطُ العُصُما[2]

وأسحبُ الريْط والبرودَ إلى … أدنىَ تِجارى وأنفض اللِّمَما[3]

لا تغبط المــرءَ أن يُقَال له … أمسى فـلانٌ بعمره حَـكَمَا

إنْ سَرَّه طولُ عيشه فلقد … أضحى على الوجهِ طولُ ما سلما

إنّ من القوم من يُعـاش به … ومِنْهُمُ من ترى به دَسَما[4]

كذلك خلّف لنا تصويراً حيّاً لشيخوخته وما صنع الزمان به ، لحوادث

---

(١) الأمم : الشئ التافه .

(٢) العصم : الوعول .

(٣) الريط : جمع ريطة ؛ الملاءة إذا كانت قطعة واحدة — البرود : جمع برد ؛ كساء أسود مربع تلبسه الأعراب — التجار : بائع الخمر — اللم : جمع لمة : الشعر الذى يجاور شحمة الأذن ؛ أى يعبث بشعر رأسه فخوراً .

(٤) الدسم : يراد به هنا البخل .

تأتيه من حيث لا يتوقع ، وترميه وهو مسالم ، هدّتة الأيام وهو يلاحق آمالا كباراً ، يحلم بها ويأمل في تحقيقها ، ثم أنفق عمره ينتظرها ، والناس ينكرون شيخوخته ، ويسألونه عن صِباه الذاهب ، والدهر يُفنى عمره ، وما يُفنى من الدهر شيئاً ، ويرميه بسلاح لا يراه فيتقيه ، وينال منه بقوّة غير منظورة لا يستطيع لها دفعاً ، وبلغت منه الشيخوخة قدْراً لا يستطيع معه القيام إلاّ مستعيناً بيديه وعصاه ، فلما تجاوز التسعين من عمره ، أصبح أكثر تحرراً من آماله ، ورضا بواقعه :

١ رمتني بناتُ الدهر من حيث لا أَرَى ... فكيف بمن يُرْمَى وليس بِرامِ

٢ وأهلكني تأميلُ ما لستُ مدركا ... وتأميلُ عامٍ بعد ذاك وعامِ

٣ إذا ما رآني الناسُ قالوا : ألم تكن ... جليداً حديثَ السنِّ غيرَ كَهَامِ (١)

٤ فأَفْنَيَ وما أُفْنِي من الدَّهر ليلةً ... فلم يُغْنِ ما أَفنيتُ سِلْكَ نِظامِ

٥ فلو أنَّني أُرمَى بِنَبْلٍ رأيتُها ... ولكنني أُرْمَى بغير سِهَامِ

٦ على الرَّاحتَيْن مرَّةً وعلى العصا ... أَنُوءُ ثلاثاً بعدهنَّ قيامي

٧ كأنِّي وقد جاوزتُ تسعين حِجَّةً ... خلعتُ بها عنِّ عذار لجامي

والقصيدة الحادية عشرة من ديوان عمرو بن قميئة ذات أهمية قصوى فلأوّل مرّة يقدم لنا شاعر جاهلي قصيدة كاملة ذات وحدة ، موضوعها الغزل ، والمرأة فيها محور الحديث . وحتى المقدمة ، وهي التي تأتي عند عمرو أحياناً ،

---

(١) الرجل الكهام : الثقيل المسن الذي لا غناء عنده .

وعند غيره فى الأعم الأغلب ، مقطوعة الصلة بما بعدها ، لا يربطها به غير خيط شعورى رقيق ، هى فى هذه القصيدة جزء من الغزل نفسه وليست تمهيداً له .

لقد رحلت « أمامة » ، ولم يبق له إلاّ أن يسأل : أين ذهبتْ ؟ وأن يقنع منها بالخيال ، وأن يلقاها فى أحلامه ، خيالات ورُؤًى تأتيه مع المساء ، وتلحّ عليه طوال الليل ، ثم يذهب بها بياض الفجر . كيف أصبح واقعه وَهْما ؟ لو جاءت لجادت عليه ، وأحالت أوهامه واقعاً . ولقد فزع قلبه عند ما أدرك أنّها راحلة ، فلمّا أعدّ قائد الرحلة الجمال ، ومضوا مع الصباح الباكر على نوق قويّة ، فوقها هوادج مترفة ، جُدِّدت أطرافها . ونأى عنه الظعن غلبه الدمع ، ثم انهمر غزيراً . وبعيداً ، فى السهل المنبسط ، تبدو الجمال مسرعة يحثّها الحاديان ، بُدِّلتْ من الظلّ هجيراً ، ومن البيوت المزيَّنة بالستائر هوادج ورحالا :

نأتكَ أُمامةُ إلاّ سؤالا وإلاّ خيالاً يوافى خيالاً
يُوافى مع الليل ميعادُها ويأبى مع الصبح إلاّ زيالا
فذلكِ تُبدِّل من وُدِّها ولو شهدتْ لم تُوان النَّوالا
وقد رِيع قلبى إذ أعلنوا وقيل أجدَّ الخليطُ احتمالاَ(١)
وحثَّ بها الحاديان النَّجاءَ مع الصبحِ استثاروا الجمالا(٢)
بَوازِل تُحدَى بأحداجها ويحذين بعد نِعالِ النِّعالا(٣)

---

(١) أجد : حان ـ الخليط : الركب ـ احتمالا : رحيلا .
(٢) النجاء : السرعة .
(٣) بوازل : جمع بازل ، البعير بزل نابه ودخل فى السنة التاسعة ـ الأحداج : جمع حدج (بكسر الحاء وسكون الدال) : مركب للنساء كالمحفة .

فلما نأوْا سبقت عَـبْرتى وأذْرتْها بعد سَجْلٍ سِجالا(١)
تراها إذا احْتثّهـا الحاديا ن بالخبْت يُرْقِلن سَيْراعجالا(٢)
فبالظلّ بُدِّلْن بعـد الهجير وبعد الحجالِ أَلِفن الرّحالا(٣)

وينتقل فى بناء منطقى للأحداث لوصف صاحبته « خَوْلة » ، إنها معهن ، زينة النساء ، وأجمل الناس طرّا ، لها عيون سوداء ، شديدة السواد كعينى غزال فى روضة ، يتغذّى بالعشب الأخضر ، وشجر الأرطى الطويل ، مُعتادة السواك ، بيضاء الأسنان ، تخالها « السيال » لشدة بياضها واستوائها ، ولـكنها ليست سيالا . وفمها رطب بارد ، نظيف حلو ، كما لو كان آخر ما شربته قبل نومها خمرا ، فإذا قبّلته وجدت له طعماً عذباً لذيذاً ، وشعرها طويل كما لو كان حبالا موصولة . جميلة الوجه ، يحار فيه الناظرون فيخالونه هلالا ، ذات كفل ضخم كمجتمع الرمل المبتل ، وكف بيضاء رَخْصة . لقد ذهبت ولم تهادنى بزمام نعل أو ما يساويه :

وفيهنّ خـولةُ زينُ النِّساءِ زادتْ على الناس طُرًّا جَمالا
لهـا عينُ حوراءَ فى روضةٍ وتقرو مع النبْت أرطى طوالا(٤)
وتجْرى السـواك على باردٍ يُخالُ السَّيالَ وليس السَّيالا(٥)
كأنّ المُدام بُعيـد المنامِ عليها ، وتسقيك عذْباً زُلالا

(١) السجل : الدلو الـكبير المملوء ماء .
(٢) الخبت : المتسع من بطون الأرض ــ الرقل : ضرب من السير السريع .
(٣) الحجال : جمع حجلة ؛ موضع يزين بالثياب والستور للعروس .
(٤) الأرطى : شجر ذو ثمر تأكله الحيوانات .
(٥) السيال : ما طال من شجر السدر (بضم الميم) .

كأن الذوائب في فرعها حِبالٌ تُوصَّل فيها حبالا[1]

ووجهٌ يحــار له الناظرون يخالونهم قد أهلُّوا هــلالا

إلى كفَلٍ مثل دِعْص النَّقا وكفٍّ تُقلِّب بيضاً طِفالا[2]

فبانتْ وما نلتُ من وُدِّهـا قِبالا ولا ما يساوي قبالا[3]

ولـكنه لا يقف بالقصيدة عند هذا الموقف من تجافيها له ، وإنما يبدأ في عتابها وتقويم نفسه ، فيسائلها : كيف تقطعين حبل الحب من ماجد كريم لا يريد أن يسلاكِ ، أو يتراجع في حبّكِ ، تقرّب منكِ ، ورغب في نوالكِ ، فأطعته ثم أخلفت ما وعدْتِ ، وكان وعْدُكِ خدعة وضلالا . إنني فتى ماجد ، كسيْفٍ طيّب المعدن ، جديد لامع ، بريء من العيْب ، فارس لا يشقّ لي غبار ، أقودُ الفرسان وأصرعُ بهم فرساناً ، ولا أحجم عن النزال عند اللقاء إذا وجدت من يرغب فيه ، وفرساننا كرحى الموت مستعرة متقدة ، والراجلون منّا يهجمون على لابسي الدروع ، ويسوقونهم أمامهم في سهولة ويسر ، سوق النُّوق العطوف أولادها الرّضع ، فإذا اشتدّ أوار المعركة ، غطّتْ السيوفُ رقاب الأعداء ، وكست رقابُ الأعداء السيوف ، بينما فوارسنا على الخيل الراجلين منّا . ذو مروءة يمنعني سابق فروسيتي وشجاعتي ونبلي من قبول الضيم ، فإذا تنافرنا علا صوتُنا غيرَنا لما لنا من الشرف والعظمة ، وما في قولنا من المنطق والحـكمة ، وما نحن عليه من سجايا وفضائل . لقد جبتُ دروب الصحراء خلال هاجرة هي الجحيم حرارة ، استكان فيهاحتي الجندب الأسود ،

---

(١) الذوائب : الضفائر .

(٢) الدعص : كثيب مستدير من الرمل .

(٣) القبال : زمام النعل .

وفى ليالٍ مزّقتُ ظلامها وحيدا دون عون وغيرى يخاف لو عبرها أن يُصاب بالجنون :

وكيف تُبينين حبلَ الصفـــا ء من ماجدٍ لا يريد اعتزالا
أراد النّـــوالَ فمنّيتــــه وأضحى الذى قُلتِ فيه ضلالا
فتى يبتنى المجدَ مثـل الحسا مِ أخلصه القيْن يوما صقالا[1]
يقودُ الـكُماةَ ليلقى الـكماة يُنـازلهم إنْ أرادوا النّزالا
تُشَبّه فرسانهم فى اللّقــــاء إذا ما رحى الموت دارت حِيالا
ونمشى رِجالا إلى الدّارعين كأعناقِ خوْرٍ تُزَجّى فِصالا[2]
وتـكسو القواطعُ هام الرجال وتحمى الفـواس منّا الرجالا
ويأبى لِىَ الضيْمُ ما قد مضَى وعند الخصام فنعلو جـــدالا
بقوْل يذلُّ له الرّاضئون ونَفْضُلهم إنْ أرادوا فضـالا
وهاجرةٍ كأوَارُ الجحـــيم قطعت،إذا الجندبُ الجوْنُ قالا[3]
وليـــلِ تعسّفتُ دَيْجوره يخاف به المُدْلجون الخبالا

وكابكى عمروُ شبابه ، ووصف شيخوخته وتغزّل، تفاعل مع الطبيعة حوله ،

---

(١) القين : الحداد .

(٢) الدارعون : لابسو الدروع ـــ أعناق : جمع عنق ؛ وهو الجيد ــ خور : جمع خوارة ، وهى النوق الغزيرة اللبن ــ تزجى : تسوق ــ الفصال : جمع فصيل ؛ ولد الناقة .

(٣) الجون : الأسود ــ قال : نام نصف النهار ، والقائلة الظهيرة .

فوصف لنا المطر فى أبيات قليلة لا تتجاوز الخمسة ، من قصيدة عدَّتها تسعة عشر بيتاً ، وتلى المقدمة الطللية فى الترتيب . يصف فيها السحاب المتجمّع ، والرعد القاصف ، وقد تحول إلى غيث سقى منازل الحبيبة ، وكان سقوطه عند الغروب ، فاختلطتْ صفرة الشمس الذاهبة بحمرة البرْق الملتّهبة ، فأكسبته منظراً جميلا ، وساقته رياح الجنوب ، وكادت تنحرف به عن مواقعه ، وما إنْ جاء الضحى حتى تحوّل المطر إلى قنوات عريضة ، تفيض بمياه غزيرة ، وقد سقت هذه الأمطار امرأ القيس بن عمرة[1] وقومه ، والإشارة إليهم عمل تقتضيه مكارم الأخلاق :

فسقى منازلها وحِلّتها
قَرِدُ الرَّبابِ لصوته زجَلُ[2]
أبدى محاسنه لناظره
ذات العشاء مُهلَّبٌ خَضِلُ[3]
مُتَحَلّبٌ تهوَى الجنوب به
فتكاد تعدِلُهُ وتَنجفِلُ
وضعتْ لدى الأصناع ضاحية
فَوْهى السُّيوب وحُطّت العِجَل[4]

(١) غير امرئ القيس موضوع دراستنا، وليس بين يدى مايعين على تحقيق شخصيته
(٢) القرد : المنعقد المتلبد ـ الرباب : السحاب الأبيض ـ الزجل : صوت السحاب .
(٣) مهلب : بارد ـ خضل : يلمع فيه قوس قزح .
(٤) الأصناع : اسم مكان ـ ضاحية : ظاهرة ـ السيوب : جمة سيب ؛ مجارى الماء .

فَسقَى امرأ القيس بن عَمْرة إنَّ

الأكرمين لذكرهم نَبَل

لم يصف عمرو بن قميئة الحصان فى أىّ من شعره ، وهى ظاهرة ملفتة تميّز بها وافترق عن معاصره أبى داود ، ورفيقه فى الرحلة إلى بيزنطة امرئ القيس ، ووصف الجمل بدلا منه فى أبيات قليلة ؛ فإذا نزلت الهموم بساحته أقرَاها جملا سريعاً ضخماً قوياً ، فَطَر نابه واكتمل خَلْقه ، فهو فى العام التاسع من حياته ، يمتطيه إلى حيث ينسى الهمّ أو ينأى عنه ، على جمل مرقال ، يندفع بين الإبل كحجر قُذِف به من مِقْلاع ، لا يضنيه السير مهما طالت الرحلة وتوالت ، يعتلى الفلوات ، ويطوى الوديان ، إذا اخترق القافلة أفسحت له بقية مطاياها . وكأنه حين يزجره بصوته ، يحثّ حيواناً أخذ من الفرس سرعته وانطلاقه ، ومن حمار الوحش قوته وبسالته ، وفى طيّه الأرض وصراعه معها صلب قوى ، يذكّره بحبل شديد الفتل من حبال « أندرين » .

وكنتُ إذا الهموم تضيَّفتنى قريتُ الهمَّ أهوج دوسريّا(١)

بُوَيْزلَ عامه مِرْدَى قِذافٍ على التأويب لا يشكو الونيّا(٢)

(١) الأهوج : السريع ـ الدوسرى : الجمل الضخم .

* أخذ هذا المعنى فيما بعد طرفة بن العبد :

وإنى لأمضى الهـم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتـدى

(٢) بويزل : تصغير بازل؛ وهو البعير بزل نابه بأن دخل فى السنة التاسعة ـ التأويب : السير جميع النهار ، أو السير فى الليل ـ الونى : الضعف .

يَشيح على الفَلاة فيعتليهـــا وأذرع ما صدعتُ به المطيّا[١]

كأنّى حين أزجُرُه بصوتى زجرتُ به مدِلاًّ أخدريا[٢]

أطال الشدّ والتقريب حتّى ذكرتُ به مُمَرًّا أندريّا[٣]

وتلا هذا الوصف لجمله ، صورة فريدة لمحاولة صيْد ، أقول فريدة لأن صاحبها ليس غنياً فارساً يصطاد رياضة ، وإنما راجل فقير يترصد القطعان ارتزاقاً ، وفيما أعلم ليس بين شعراء الجاهلية من قدّم لنا هذه الصورة . وبين وصف الجمل وتصوير الصيد سقط بيت من الشعر ، اختلط المعنى بسقوطه ، وغمّ توضيحه على كثيرين . وصورة عمرو هنا متماسكة ، لا يعتورها اضطراب أو تفكّك ، وقدّمنا آخر بيت منها على سابقه ليكون المعنى أكثر وضوحا :

إن حماراً وحشياً كان يقود عانة ؛ ويتخذ منها مقاماً قصيّاً ، ساقها إلى روضة ، وأمضت بها شهر ربيع ، فسمنتْ وبُدّلتْ جلوداً ، ونبت لهـا شعر جديد ، وهو يحرسها ، يرقب الأفق بعيداً ليتبين الأشباح القادمة ، من أعداء صيادين ، أو قطعان أخرى مزاحمة ، ويصعد هذا الجبل وتلك القمّة ،فإذا وجد قطعاناً أخرى من الوحش غريبة عن قطيعه هاجمها ، ودخل معها فى صراع مرير . وإذا أحس أن حُمُرَ القطيع ونعاجه تسربت مِن حوله ، وأن المـكان

---

(١) الفلاة : الأرض لا ماء فيها ـ أذرع :أوسع ـصدع : شق ،أى شق بقية المطايا

(٢) الأخدر : يقال إنه فحل من الخيل أفلت فضرب فى الحمر .

(٣) ممر : حبل شديد الفتل ـ أندرى : منسوب إلى أندرين قرية من قرى الشام

جفّ ماؤه ، وافتقد عشبه ، أرن بصوت قوىّ حتى تجتمع الأبقار ، ثم ساقها إلى منهل عنده طِمْل يمانىّ ، صعلوك فاحش خبيث ، يُهِلّ للحم الطرىّ ، قابض على قوسه متمكن منها ، وبين يديه سهام متخيرة ، شدّ عليها حديداً أزرق ، فلما رآها تروّى قليلا ثم اتخذ منها مكاناً خفياً على حين لم ير القطيع ما يريبه فأقبل على الماء آمناً عطشاً ، فأرسل الطمل اليمانى فى المقتل الظاهر من بقرة سهماً كأنه سمّ يثربىّ ، لكنه سقط مختلطاً بالدم ، وتكسرت القدح شظايا ، فعضّ الصائد أنامله مغيظاً ، وعاد إلى بيته خسران أسيفا ، لهفاً مصاباً ، يلتهب غيظاً ، لينبىء زوجته بما حدث له ، لقد كانت واثقة وبنيها أنه لن يعود إليهم خاوى الوفاض ، وإنما سيأتيهم بلحم فى الصباح أو المساء ، أما وقد عاد لا يحمل غير الحسرة فيبدو مهيض الجناح ، لو لطمها مرة لردت عليه بلطمتين :

تمـهّل عانةً قـد ذبّ عنهـا ... يـكون مصـامه منهـا قصيّـا(١)

بها فى روضةٍ شهرى ربيـعٍ ... فسـاف لهـا أديمـا أدلصيّـا(٢)

مُشيحاً هل يرىَ شبحاً قريباً ... ويُوفِى دونها العـلم العليّا

إذا لاقى بظاهـرةٍ دحيقاً ... أمرّ عليهما يوماً قَسِـيّا(٣)

---

(١) تمهل : تقدم ــ عانة : قطيع من حمر الوحش ــ مصامه : مقامه .

* يغلب على ظنى أن بيتا قبل هذا البيت قد سقط من القصيدة ، ويعود عليه الضمير فى « تمهل » ، وبغير هذا الظن لا يستقيم المعنى إلا على تأويل بعيد .

(٢) ساف : شم ــ الأديم : الجلد ــ أدلصى : أملس .

(٣) الظاهرة : ما ارتفع من الأرض ــ الدحيق : البعير المطرود .

فلمّا قلصتْ عنـه البقايا وأعوز من مراتعـه اللَّوِيّا[1]
أرنّ فصكّها صَخِبُ دَؤولٌ يَعبُّ على مناكبها الصَّبّيا[2]
فأوردها على طِمْلٍ يمانٍ يُهِلُّ إذا رأى لحمـاً طريّا[3]
له شِرْيانةٌ شغلتْ يديْهِ وكان على تقلُّدِها قويّا[4]
وزرقٌ قد تنخَّلَها لِقَضْبٍ يَشُدُّ على مناصبها النّضيّا[5]
تروّى بُرْهـةً لمـا رآها تبوّأ مَقْعـدا منها خَفِيّا[6]
فلمّا لم يَرَيْنَ كثير ذُعْرٍ وَرَدْن صَواديًا وِرْداً كَمِيّا[7]
فأرسلَ والمَقَاتِلُ مُعْوِراتٌ كما لاقَتْ زُعافاً يَـثْربيّا[8]
فخـرّ النّصلُ مُنْقَعِضاً رَثيماً وطار القـدْح أشتاتاً شَظِيّا[9]
وعضّ على أنامـله لهيفاً ولاقى يومه أسـفاً وغيّا
وراح بِحرّةٍ لهفـاً مُصاباً يُنَبِّئه عرْسَـهُ أمراً جليّا

---

(١) قلصت : ذهبت ـ المراتع : جمع مرتع ؛ المرعى ـ اللوى : النبت الذى قد يبس .
(٢) أرن : صوت ـ الدؤول : من الدألان ؛ وهو مشى فيه تقارب .
(٣) الطمل : الصعلوك الخبيث .
(٤) الشريانة : قوس تعمل من شجر الشريان .
(٥) الزرق : الأسنة ـ لقضب : لقطع ـ مناصبها : مقابضها ـ النضيا : أنضب القوس شد وترها لتصوت ، والنضى من السهام مافسد لكثرة مارمى به .
(٦) ورد البيت فى الديوان هكذا :
تردى برأة لما رآها تبوأ مقعداً منها خفياً
وأصلحناه ليستقيم المعنى .
(٨) صوادى : عطاشا ـ الكمى : الشجاع .
(٨) زعافا يثربيا : سم صنع فى يثرب .
(٩) القدح : السهم قبل أن يراش ويركب نصله .

وكانوا واثقـــين إذا أتاهم بلحم إنْ صباحاً أو مُسِّيا
فلو لُطِمتْ هناك بذات خَمْسٍ لأُوتِيَ عنـدها حَتْنَيْنِ سَيَّا[1]

أولئك هم الشعراء الثلاثة الذين سبقوا امرأ القيس والتقى بهم ، ثم احتذى طريقهم . كان الأول ، زهير بن جناب ، نديم جـدِّه وأبيه ، وزعيم قومه فى ذلك الجانب من الأرض ، وعمّر إلى ما بعد موت امرىء القيس ، فمن الطبيعى أن يلقاه الفتى الشاعر فى مطلع حياته ينغم بالشعر ، وأن يتحدث إليه ويسمع منه ، يحفظ قوله ويعى تجاربه ، وليس أكثر حرصاً من الشيوخ على استرجاع ماضيهم ، والتحدث بتجاربهم إلى الناشئين ومن هم فى سنّ الشباب ؛ ولا نتجاوز ذلك إلى معرفة ما أخذ منـه فى مجال القول ، لأنّ ما وصلنا من شعر زهير ، شابا فتيًّا أو شيخا محطَّما ، قليل لا يتجاوز قصيدة كاملة ، وبضعة أبيات متناثرة هنا وهناك .

ولقاؤه مع أبى دواد ، ثانى الثلاثة ، محتمل ، وإن كنا لا نملك عليه دليلا تاريخيا غير إشارة النقّاد القدامى إلى أنّ امرأ القيس كان راويته ، ويتوكأ عليه . ويرجح هذا اللقاء استنتاجا أنّ أبا دواد كان على خيل المنذر ، وأن المنذر أصهر فى بيت حجر آكل المرار مرّتين ؛ تزوّج هنداً بنت الحارث ابن عمرو المقصور ، فلما كَبِرَتْ هند عند المنذر أعجبته ابنة أخيها أُمامة بنت

(١) الحتن : المثل .

* هذا البيت يأتى قبل سابقه فى الديوان، وأخرناه لأن التأخير أكثر مناسبة للمعنى .

سلمة بن الحارث ، فطلّق هنداً وتزوّج أُمامة ، فأصبحت فى بلاط الحيرة عمة امرىء القيس وبنت عمّه ، وكانت الحيرة تسبق مَنْ حولها مِنْ القبائل تقدماً وحضارة ، فلا غرو أن تصبح مقصد الشعراء ، يهبطونها لينعموا بذلك كله ، يعينهم عليه أن أهلها عرب ، ولغتها عربيّة ، وأتصوّر أن امرأ القيس ، على الأقل فى فترة من شبابه ، كان واحدا من هؤلاء . وإذا كانت الكثرة الغالبة تنزل الحيرة أملاً فى أيام جميلة تسعد بها ، أو تكسُّبا عند ملكها ، فامرؤ القيس كان يهبطها أميرا مترفاً ، ربما يبحث عن جديد من اللّذة يفتقده فى نجد ، ولكن قبل ذلك وفوقه ليصل رحماً و يَبَرَّ أهلا ، ويعلى من شأن هند وأمامة هناك ، زائرا وسائلا ومهادياً ، وليس ما يمنع ، إنْ لم يوجب ، أنْ يمتطى وهو الفارس ، ما يحب من خيل المنذر وأن يتعرف بالقائم عليها . ويعزّز رأيى أن جانباً كبيرا من شعر امرىء القيس ، وبخاصة ما اتصل منه بالخيل ، يلتقى فيه مع أبى دواد أسلوبا وتصويراً .

(٧) وكان عمرو بن قميئة أوضح الثلاثة فى لقائه مع امرىء القيس ، فقد عمل فى بلاط أبيه وصحبه فى رحلته إلى بلاد الروم ، ولكنه أقلّ وضوحاً كمؤثِّر فى اتجاهات امرىء القيس ، لأن شعر عمرو يعبِّر عن مشاعر إنسان بسيط فقير ، ملتصق بالحياة الدنيا ، مما يرجِّح لدىّ أنه كان خادم حجر ولم يكن حاجبه . فإذا وصف معاصروه الذين عرضنا لهم الفرس وصف هو الجمل ، وإذا صوّروا الصيد رياضة وتسلية ، صوّره معاناة من أجل الخبز ، وإذا كان صيد أولئك على الخيل ، وقنصهم بالكلاب ، كان صيَّاده صعلوكا فقيرا ، يرقب

الحُمُر راجلا ، ويترصّدها حريصاً ، سهامه كليلة ، وأسنّتها صدئة ، ورميه طائش ، وصغاره جوعى فى المنزل ينتظرون الطعام .

وثمّة شاعر آخر من إياد ، كان معاصرا لامرىء القيس وأقدم منه ، وليس بين يدىّ ما يدل على أنهما التقيا ، رغم أن الشاعر الإيادى عاش فى الحيرة ، وليس فى إنتاجهما الشعرى ما يدعم فرضا ، أو يرجّح جانب الاحتمال . هذا الشاعر هو لَقِيط بن مَعْمَر[1] ، وينسب فى إياد ، وكانت أكثر نزار عددا ، وأحسنهم وجوهاً ، وأقواهم أجساماً ، وأشدّهم امتناعا ، وكانوا لقاحا لا يؤدّون خراجا[2] ، وهم أول معدّىّ خرج من تهامة ، فنزلوا السواد ، وغلبوا على بين البحرين إلى سِنْداد والخوَرْنق[3] ، وبلغ من قوّتهم أنّهم أغاروا على أموال لكسرى فانتهبوها ، وأخذوا بعض نسائه ، فجهّز إليهم الجيوش ، فهزموهم مرّة بعد مرّة ، ثم ارتحلوا حتى نزلوا الجزيرة ، فوجه إليهم كسرى ستين ألفا فى السلاح ، وكان لقيط فى الحيرة ، يعمل فى بلاط المنذر فى رواية ، أو فى ديوان كسرى فى ثانية ، وأخرى ثالثة تقول إنه كان هناك أسيرا ، وأميل إلى أنه كان ينزل الحيرة كبقيّة العرب مستمْتِعاً أو مسترْفِدا . على أىّ حال أحسّ لقيط بما كان يدبّر لقومه ، فكتب إليهم منذرا ومحذّرا :

---

(١) فى عدد من المصادر الأدبية يعمر (بفتح الياء ، وسكون العين ، وفتح الميم) .

(٢) لقاح : لم يدينوا للملوك ، ولم يملكهم أحد ، ولم يصبهم فى الجاهلية سباء .

(٣) سنداد : نهر فيما بين الحيرة إلى الأبلة ــ الخورنق : قصر كان بظهر الحيرة .

سـلام فى الصحيفة من لقيـط

إلى مَن بالجـزيرة من إياد

بأنَّ الليْث كِسْرَى قد أتاكُمْ

فلا يَشْغلكُمْ سوقُ النِّقادِ[1]

أتاكم منهُمُ ستُّون ألْفاً

يزجُّون الكتائب كالجراد[2]

على حَنَق أتيْنكُمُ ، فهـذا

أوان هَلاَكِكُمْ كهلاك عاد

فلما بلغ كتاب لقيط إيادا استعدوا لمحاربة جنود كسرى ، ثم التقوا فاقتتلوا قتالا شديدا ، أصيب فيه من الفريقين ، ورجعت عنهم الخيل ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فلحقتْ فرقة بالشام ، وفرقة رجعت إلى السواد ، وأخرى أقامت بالجزيرة .

كان لقيط إذا معاصرا لكسرى أنوشروان ، فإذا عرفنا أنَّ كسرى أنوشروان تولى الملك بين ٥٣١م و ٥٧٩م ، وأن لقيطا كتب شعره المتصل بحروب قومه مع فارس فى سنّ واعية تجاوزت معية الصبا ، أمكن أن نحدِّد مجيئه إلى الحياة فى فترة تعود إلى أول القرن السادس الميلادى على وجه التقريب .

---

(١) النقاد : صغار الغنم ،أوهى جنس منها قصار الأرجل قباح الوجوه وتكون بالبحرين
(٢) يزجون : يرمون .

كان لقيط معاصرا لأبى دواد ، وكلاهما من قبيلة إياد ، ولما كان أبو دواد أكبر سناً ، فقد جعلت إياد من لقيط شاعرها الثانى فى مجال التباهى والافتخار . ويضمُّ ديوان لقيط الذى وصلنا عددا قليلا من قصائد ذات أهمية ، وما يزال مخطوطا حتى الآن ضمن مجموع يحتوى على دواوين عمرو بن قميئة ، وعلقمة الفحل ، وأوس بن حجر وغيرهم ، وقصيدة واحدة منه ، طويلة تبلغ عدة أبياتها خمسة وخمسين تكفى لكى تضعه مع شعراء الطبقة الأولى على قدم المساواة ، أرسلها إلى قومه عقب الأبيات التى أوردناها قبلا ، حين تحرَّك كسرى بجيشه نحو العراق ، وحفظها لنا ابن الشجرى كاملة ، وجعلها أولى مختاراته ، واكتفى منها صاحب الأغانى بثمانية عشر بيتا ، وهى أقدم قصيدة جاهلية مطوّلة وصلتنا ، وتضم الخصائص الفنية للشعر العربى فى أوج قمته ، من مقدمة وتصريع ، واستواء لفظ ووضوح معنى ، وتقدم الدليل كاملا على أن اللغة الأدبية كانت تفرض سلطانها على المثقفين فى شتى أنحاء الجزيرة العربية ، لأن قبيلة إياد كانت تسكن أقصى الشمال الشرقى منها[1] .

شُهرتْ مطوّلة لقيط باسم القصيدة « العينيّة » ، ومقدمتها غزل صريح بعيد عن الأطلال وبكائها ، فيها يتذكر منازل أهله فتشيع فيه هما وحزنا ووجعاً ، لأنه بعيد عنها ، ولأنه متيم بذات الجزع بشابة هيفاء القوام ، مرتْ بذات العذبة ، بيضاء لها عيون بقرة وحشية ، بقرة خذلت رفاقها فى القطيع وأقامت على وليدها ، تحنو عليه ، وتتنقّل به عبر رياض معشوشبة يعيشان عليها :

يادار عمرة من محتلها الجرعا هاجتْ لى الهمّ والأحزان والوجعا[2]

---

(١) انظر مصور توزيع القبائل فى آخر الكتاب .

(٢) الجرع : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل .

تامتْ فؤادى بذات الجزع خزعبةٌ ... مرّت تريد بذات العذبة البيعا(١)

بعقلتى خاذل أدماء طاع لها ... نبْت الرياض تزجى وسطه ذرعا (٢)

وبعد أبيات سبعة من غزل هادىء مطمئن، يصنعه صاحبه التزاماً لمنهج معيّن فى التعبير أكثر مما يقوله مستثاراً بامرأة يحبّها ، يتوجّه بالحديث إلى رسوله لقبيلته : اذهب إلى شيوخ قومى ، وأبلغهم رأيى ، وأراه نافعاً إن أطاعونى :

بل أيّها الراكب المزجى مطيّته ... إلى الجزيرة مرتاداً ومنتجعا(٣)

أبلغ إيادا وخلّل فى سراتهم ... إنّى أرى الرأْى إن لم أُعْص قد نفعا(٤)

وانتقل يحذّر قومه الفرقة ، سوف يحزنه أن يعرف أن أمورهم شتى وكلمة العدو المهاجم واحدة ، لقد زحفت عليهم فارس بجموع تستخف بالحصون مسرعة لا يعوقها فى طريقها شىء ، مستعدّة تهيّئ سلاحها وتشحذه ، وإن هُزمتْ إياد فسوف يكون عار الأبد ، فلا مهرب من وقفة تردها إن أرادوا لأنفسهم الحياة :

يالهف نفسِى إن كانتْ أموركم ... شتىّ ، وأبرم أمر الناس فاجتمعا

---

(١) تامت : جعلته متيما ـ ذات الجزع : اسم موضع ـ خزعبة : شابة فتية حسناء ـ ذات العذبة : اسم موضع .

(٢) الخاذل : النفور ـ أدماء : بيضاء ـ تزجى : تسوق برفق ـ الذرع : ابن البقرة الوحشية

(٣) المرتاد : طالب الماء ـ المنتجع : طالب المرعى .

(٤) خلل : امش خلال زعمائهم .

أحرار فارس أبناء الملوك لهم من الجموع جموع تزدهى القلعا[1]
فهم سراع إليكم ، بين ملتقط شوكا،وآخر يجنى الصاب والسلعا[2]
هو الجلاء الذى تبقى مذلته إنْ طار طائركم يوما وإن وقعا
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا،قد ينال الأمنَ مَنْ فزعا

ـكن الأمم فى الحرب ، وفيما هو كالحرب ، فى حاجة إلى زعيم يقودها نحو مواطن النصر ، ولقيط يضع لقومه ، ولغير قومه ، الصفات التى يجب توفرها فى الزعيم الحق ، وفى القائد المحارب : لابد أن يكون واسع الصدر ، خبيراً بفنون الحرب ، إذا أقبلت عليه الدنيا لا يتخلى عن خشونة الجندى ، ولا يركن إلى ترف يميت الرجولة ، ويفتت العزائم ، ويشيع الجبن ، وإذا حاقت به الهزيمة صمد فى موقعه يموت دونه ، وهب فكره لقومه فلا يهتم بمال يثمره ، ولا ثروات يجمعها أو ضياع يقتنيها، وليست له أسرة تشغله أو تستغل نفوذه ، وما يهدم القائد أو الزعيم كمطامح أهله ، ومطامع صحبه ، ومفاسد حاشيته ، كثير العمل ، قليل النوم ، تتوزعه هموم قومه ، وتؤرقه مشاغلهم . يعرف عدوه ، يقوم إمكانياته ، ويتحسس خدعه ، يحسن الإفادة من تجاربه، ويستهدى تجارب غيره ، خبر الأيام حلوها ومرها ، خيرها وشرها ، لين العريكة ، يعرف كيف يتقدم وأين يقف ، متى يسمع لقومه ويطيعهم ، ومتى يجمعهم حوله ويقنعهم بما يريد . قوىّ الشكيمة ، فتىّ جلد ، يصارع المحن ولا يذل أمامها :

وقلدوا أمركم ، لله دركم رحبَ الذراع بأمر الحرب مضطلعا

---

(١) تزدهى : تتهاون بها وتستخف ـ القلعا : جمع قلعة ، وهى الحصن .
(٢) الصاب والسلع : شجران مران .

لا مُترفاً إنْ رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عضّ مكروه به خشعا

وليس يشغله مال يثمّره ... عنكم، ولا ولد يبغي له الرِّفعا

لا يطعم النوم إلاّ رَيثَ، يبعثه ... همٌّ يكاد حشاه يقصم الضلعا

مُسهَّدُ النوم تُعنيه أموركم ... يروم منها إلى الأعداء مُطّلعا

ما انفكّ يحلبُ دَرَّ الدهر أشطُرَه ... يكون مُتّبعاً طوراً ومُتّبَعا

حتى استمرَّتْ على شَزْر مريرته ... مُسْتحكم السنّ، لا قحماً ولا ضرعا

وسبق امرأ القيس شاعران آخران لدينا نتف من أخبارهما، وأكاد أجزمُ بأن شاعر كندة لم يلقهما، لأن ظروفهما وحياتهما الاجتماعية تنأى بهما عن لقائه وتباعد، وهما: الشنفرَى الأزْدى، وتأبّط شرًّا الفَهْمى، كلاهما صعلوك، تعاصرا وتشاركا أحياناً فى غزواتهما، وشعرهما ضائع، وما نُحِلاه كثير، ويمثلان فى الشعر الجاهلى منحى عُرِفا به، وتتبع أصوله وما أثّراه فى من تلاهما خارج عن نطاق هذه الدراسة.

بقى الذين عاصروا امرأ القيس، وأعنى بالمعاصرة أولئك الذين كانوا شعراء حين كان هو شاعراً، جاءوا إلى الحياة معه أو قبله؛ وسبقوه فى رحلة الفناء أو لحقوا به، وأول ما يقع منهم فى الخاطر عبيد بن الأبرص، شاعر بنى أسد، وندّ امرىء القيس فى القول والحرب، ومن دراسة شعره وتتبُّع إشاراته يدرك المرء أنه كان شيخاً محنَّكا حين كان امرؤ القيس فتى غرًّا. وُلِد فى أواخر القرن الخامس الميلادى تقريباً، ويظهر فى قائمة الشعراء الذين

تردّدوا على ملوك الحيرة ، ربما ليسترفدوهم بعض عطائهم ، فقد كان فقيراً بلا ثروة، ويبدو أنه التقى هناك بالنابغة الذبيانى فتوثّقت الصلة بينهما ، وشعره يعكس آثار هذه الرحلات ، ففيه وصف الفرات والترع القريبة من الحيرة ، والدور الذى لعبه فى الصراع بين بنى أسد قومه ، وحجر أميرهم عرضنا له فيما قبل تفصيلا[1] ، ومات عبيد فى سن متقدِّمة ، قبل عام ٥٥٤م ، قتله المنذر بن ماء السماء ، ذبح فوق قبر نديمين للملك ، حين قدم عليه يوم بؤسه ، وتقول الرواية : إن الملك أسف حين رآه ، وقال : هلاّ كان لغيرك يا عبيد ! أنشدنى فربما أعجبنى شِعْرك ! فقال له عبيد : حال الجريض دون القريض[2] .

قال أنشدنى :

أَقْفَرَ من أهــــله مَلْحُوب   فالقُــــطَّبِيَّات فالذَّنُوبُ[3]

وهى أجود شعره، وألحقها التبريزى «بالمعلقات» وجعل ترتيبها الأخيرة ، فأنشده عبيد :

أقفر من أهـله عبيد   فاليوم لايبدى ولا يعيد

وقد طلب عبيد أن يُقتل عندما يبلغ منه السُّكر مبلغه ؛ فقتل ثمِـلا .

والثانى علقمة بن عبدة ، وكان يلقب بالفحل، وقد نازع امرأ القيس إمارة الشعر ؛ ويتفق ابن سـلام الجمحى فى « الطبقات » ، وابن رشيق فى كتاب « العمدة » على أن له ثلاث قصائد لا يفوقهن شعر :

---

(١) انظر ص ٩٦ وما بعدها

(٢) الجريض : غصص الموت ـ القريض : الشعر .

(٣) ملحوب : ماء لبنى أسد ـ القطبيات : اسم جبل ـ الذنوب موضع .

الأولى مطلعها :

ذهبتَ من الهجران فى كل مذهب ... ولم يكُ حقّا كلُّ هـذا التجنُّب
ليالى لا تبلى النصيحة بيننا ... ليالى حلُّوا بالسِّتار فيعرب

وحاكم بها امرأ القيس على نحو ما رأينا[1] ، ويقول النقاد : لولا شهرة الملك الضّليل ، لأخملت قصيدة علقمة شعره .

والثانية مطلعها :

طحا بك قلبٌ فى الحسان طروب ... بُعَيْدَ الشباب عَصْرَ حان مشيب

وقد مدح بها الحارث بن أبى شَمِر الغسانى ، وترضّاه ليفكّ أسارى قومه[2] .

والثالثة مطلعها :

هل ما علمتَ وما استودعت مكتوم ... أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

وتضمنت أحسن وصف للنعامة فى الشعر العربى ، والتشابه الكبير بين شعر الاثنين ، امرىء القيس وعلقمة ، يوحى إلىّ بأن المؤثّرات التى تعرّضا لها فى المجال الثقافى كانت واحدة .

وعاصره أوس بن حجر ، أُسَيْدِىّ من تميم ، ويمثّل معه الطرف المقابل فى الاتجاه الأخلاقى ، كان عاقلا فى شعره ، كثير الوصف لمكارم الأخلاق ،

---

(١) صفحة ١١٥ وما بعدها
(٢) أنظر ص ١٢٦

والحُمُر الوحشية والقوس، وسبق إلى دقيق من المعانى وأمثال كثيرة . وكان أبو عمرو بن العلاء يقول عنه : « فحل مضر ، فلما نشأ النابغة وزهير أخملاه » وبعض المؤرخين يراه أقدم من امرىء القيس ، وهو أول شاعر مضرى تصلنا أخباره ، وقد وُلِد فى البحرين ، وتنقّل فى الجزيرة ، وتردّد على بلاط الحيرة ، والقليـل الذى وصلنا من شـعره يعكس تأثيراً فارسياً ينمّ عن معرفة ، ولو محدودة ، باللغةالفارسية ، حتى أنّ بيتاً واحداً له يضمّ ثلاثة ألفاظ أعجمية ، يقول يصف الناقة :

وقَارفتْ وهى لم تَجَربْ وباع لها   من الفَصافِص بالنُّمِّىِّ سِفسِيرُ

والفصافص فارسية وهى الرّطْبة ، والنمىّ رومية وهى الفلوس ، والسفسير فارسية وهى السمسار .

وتعاصر معه عنترة ، والأعشى ، والنابغـة وطرفة والمتلمّس ، وبشر بن أبى خازم ، وتراجمهم وافرة ، وشخصياتهم يمكن أن تلتمس فى مظانها ، لـكن واحداً من هولاء لم يلتق به ، فحين نبغوا بالشعر . كان امرؤ القيس ضائعاً ثائراً مقاتلا يبحث عن ملك.

شاعر الأطلال

فى صفحات سابقة انتهينا إلى أن امرأ القيس لم يكن مبدع المقدّمات الطللية وأن القليل من الشعر الذى تركه سابقوه يضم مقدمات أيضاً ، وهو حكم يصحّ فى جملته ، ويحتاج تقريره إلى بيان وتفصيل .

كان للشعراء قبل امرىء القيس مقدمات لكنها لم تكن طللية خالصة ، وإنما كانت إلى الغزل أقرب ، أو كانت مزيجاً منهما .

أمّا شاعر كندة فجعل من بكاء الأطلال عنصراً مستقلا ، ميزّها عن الغزل ، وأطال فيها القول ، ونوّع صورها ، فخرج بها عن الرتابة والجمود ، وإن بقى مضمونها متشابها مهما كان الثوب الذى ترتديه ، ونشأة هذه المقدمات إحدى مشكلات الشعر العربى المعقّدة ، ولتصوُّر القضية فى وضوح نحتاج إلى معايشة متأمِّلة مع امرىء القيس ، رفق مقدماته الطللية فى عدد من قصائده .

كل منا تهتزّ نفسه حين يستحضر أطرافاً من حياته الماضية، ويسترجع أحداثاً من شبابه الذاهب ، يعيش فى حاضره لحظات من أمسه الدّابر ، وهو أقرب ما يكون إلى ذلك واستثارة به إذا كانت الرحلة له ضرورة ، لا يقرّ فى مكان إلاّ فارقه ، ولا يحط رحله إلاّ ويشدّه من جديد ، فلا يزال موزّع العاطفة بين مهبط عاش فيه وأنس إليه ، وربطته أواصر الودّ بمَن فيه من بشر وحيوان وجماد ، ومنزل يوشك أن يحلّ به ، ويقيم مع آهليه نفس الصلات ، إن مشاعره تموت وتحيا فى الرحلة الواحدة بعدد ماينزل من الأمكنة ويفارق ،

فإذا عاود السير فى نفس الطريق ، ومرّ بنفس المشاهد ، كانت الإثارة أوقع ، والحنين أدعى .

ولقد كانت حياة العرب فى البادية كذلك ، وشيء شبيه به فى الحاضرة ، فى الأولى انتجاعا وفى الأخرى اتجارا ، وفى كليهما طلب للحرب أو المنفعة ، فلا بدع أن يبدأ امرؤ القيس شعره بتصوير مشاعره تلك ، وأن يبلغ هذا التصوير قمته فى المعلَّقة . إنه يحنّ إلى أمكنة اجتازها من قبل ، مرح فى عرصاتها وقنص فى جبالها ووديانها ، وطاب له أن ينزل مياهها وغدرانها ، وأن يطلب إلى نفسه ، وحيداً أو مع رفاقه ، جماعة أو اثنين ، أن يتمهّلوا فى سيرهم بين « الدخول » و « حومل » ، وبين « توضح » و « المقراة » ، يبكى لحظات هناك وحيداً أو مع صحب له ورفاق ، يبكى حقيقة ، أو يدع لعواطفه تنثال حوله ، تلح عليه وتضنيه ، فيكون له من الحزن والأسى ما هو البكاء أو أشد منه قسوة ، وإن لم تسقط منه عَبْرة . إنه يتأمّل منازل حلّ بها يوماً ، وقد عبثت بها السافيات من جنوب وشمال ، فذهبت بآثارها وتركت بقايا ، محت شيئاً وخلّفت بعضاً ، لا تكاد إحدى الريحين تُلبسها ثوباً من الرمل ، حتى تأتىَ الأخرى فتعرِّيها منه وتُسْفرها من جديد . لقد تقادم المكان وبَعُد به العهد ، وإن بقيت منه دوارس تذكّر به وتدل عليه . ذهب سكانه وخلا من قطّانه ، سكنته الظباء ، وألفته الوحوش ، تأوى إليه ليلا ، وتنتشر فى الوادى نهاراً ، فتتناثر بعرها هنا وهناك ، وله من الفلفل حجمه واستدارته ولونه ، يشير إليها ويدلّ عنها . وتذكّر الذين جمع بينهم الحب أو الرفقة ، وفرّقت بينهم الطريق أو الرحلة ، فأخذ كل سبيله ، كان ذلك من سنوات خلت ! يومها بقى وحده ، متفيئاً ظل أشجار الطَّلْح ، يتابع سير قوافلهم حتى

غابت عن ناظريه ، فلم يَعُد لقاؤهم فى حياته غير ذكرى ، ساعتها هاجه الأسى ، وخنقته العَبْرة ، وفاض دمعه حزناً كمنكبّ على ثمر حنظل يثقبه ليخرج حبه ، فيجرى دمعه مستثاراً لا يستطيع له إمساكا ، ولا لأسبابه دفعا ، ثم يدعو رفاقه ، أو نفسه، أن يتّئدوا فى سيرهم ، ويحبسوا مطاياهم ، ليتملّى تلك المهابط على مهل ، فيدارونه يعزّونه بالصبر ، ويصرفونه عن الجزع ، ويدعونه إلى التجلّد .

لكن امرأ القيس يرى غير ما يرون . إن الدمع يغسل القلب ، ويأسو الجرح ، ويهدهد من ثورة الحنين ، ويحلّ مغالق النفس ، ولقد وجد فيه شفاءه . ثم تساءل : ماذا يجديه أن يقف بتلك الديار ، ذهب أغلبها ، واستعصى على الفناء بعضها ، هل تملك أن تردّ عليه حبيباً ، أو تعيد له ماضياً ، أو تنسيه تاريخاً ؟ .

ليست الأولى فيمن عرف وأحبّ ، وليس المكان هو الوحيد فيما فارق وإليه عاد ، والحياة كلها ألوان من المفارقات ، ومن قبلها ذهبت أم الحويرث وجارتها أمّ الرّباب ، وكان فيهما جمال وترف ، يتطيبان بالمسك على وفرة ، فحيثما ذهبتا انتشر عنهما ، وأشاع رائحته الطيّبة فى كل جانب ، كنسيم الصَّبا مرّ ببستان ، بستان غاص بزهور القرنفل فحمل معه كثيراً من روائحها الزكية . مرّت بذاكرته تلك الأحداث كلها والأسى يحرّك المشاعر ، والحنين يثير الشجن ، ومعهما بلغ إحساسه بالحزن غايته ، فجرى دمعه قوياً غزيراً ، أغرق نحره ، وبلّ محمل سيفه :

١ قِفا نَبْكِ مِن ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ ‏ بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخول فحَوْمَلِ (١)

٢ فتوضحَ فالمِقْراة لم يَعْفُ رَسْمها ‏ لِمَا نسجتْه مِن جنوبٍ وشَمْألِ (٢)

٣ ترى بعرَ الآرامِ فى عَرَصاتِها ‏ وقيعانِها كأنَّه حبُّ فُلْفُلِ (٣)

٤ كأنى غداةَ البَين يَوْم تحمَّلوا ‏ لدى سَمُرات الحىِّ ناقفُ حَنْظَلِ (٤)

٥ وقوفاً بها صحْبِي علىَّ مَطِيَّهم ‏ يقولون : لاتهلكْ أسىً وتجمَّلِ (٥)

٦ وإن شفائى عَبْرَة مُهراقة ‏ وهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ (٦)

٧ كدأبك من أمِّ الحويرث قبلها ‏ وجارتِها أمِّ الرَّباب بمأسلِ (٧)

٨ إذا قامتا تضوَّع المسك منهما ‏ نسيم الصبا جاءت برَيّا القرنفلِ (٨)

٩ ففاضت دموع العين منى صبابةً ‏ على النحر ، حتى بلَّ دمعىَ محملى (٩)

فى قصيدة ثانيــة يُحيي الأطلال ثم يأسى لها ، كيف يواتيها أن تنعم وقد تفرَّق آهلوها وذهبوا ، فتغيَّرت بعدهم عما كانت عليــه ، إذا كانت

---

(١) السقط : منقطع الرمل حيث يستدق من طرفه ـ اللوى : الرمل المعوج الملتوى ـ الدخول وتوضح : أسماء أمكنة .

(٢) توضح والمقراة : أسماء أمكنة ـ لم يعف : لم يمح ـ الرسم : آثار الديار.

(٣) الآرام : جمع رئم ؛ وهو الظبي الخالص البياض ـ العرصات : جمع عرصة ؛ وهى ساحة الدار — القيعان : جمع قاع ؛ وهو المستوى من الأرض .

(٤) سمرات : جمع سمرة ، وهى شجرة الطلح ـ نقف الحنظل : شقه عن حبه .

(٥) المطى : جمع مطية ؛ وهى الناقة ، وتستخدم جوازا فى كل ما يمتطى .

(٦) العبرة : الدمعة ـ مهراقة : مراقة ،مصبوبة ـ الرسم : الأثر ،ورسم الدار ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض ـ دارس : درس الرسم عفا .

(٧) كـدأبك : كعادتك ـ مأسل : اسم موضع .

(٨) تضوع : تحرك .

(٩) الصبابة : رقة الشوق ـ النحر : موضع القلادة من الصـدر ـ المحمل : الذى يحمل به السيف .

الأطلال آسية للوداع ، فالإنسان وميزته الإحساس أشد بها تأثراً ، فهو يتحدث عن الجماد ليجد للحديث عن نفسه سبيلا ، ويشفق عليه ليمهد الطريق أمام مشاعره تتدفق حائرة متقلبة ، تتأرجح بين التماسك والانهيار ، بين الاعتزاز والتذلل : دعا للطلل بأن ينعم ، ثم تراجع فى دعائه ، وجده بقايا دارسة وكان بالأمس دياراً عامرة ، ولا يتأتى النعيم إلا لسعيد ضمن الخلود ، قلت همومه ، وأمن الفزع . إن السعادة ، أية سعادة ، تبدأ حيث ينتهى الخوف ، وكان آخر عهده بها من أعوام ثلاثة خلت ! ، وذكر ديار سلمى ، عفّتْ دوارسها لإلحاح المطر عليها ، ويخيّل إليه ، رغم ذلك كله ، أنها لا تزال وحدها هناك مقيمة ، تتأمل ماحولها من أولاد الظباء ومن بيض النعام ، على العهد الذى أخذته معه ، وكان يُخيل إليها يومها ، تفيض أملا وتُشِعُّ اعتزازاً ، أن الحال لن يتغير . ما كان أجملها من ذكريات وسلمى تبدو فى أتم حسنها ، وأكمل زينتها ، ولقد زعمتْ « بسباسة » أنى كبرت ، وكذبت ، فإنى لأذهب بفؤاد العروس ، وأسرق قلبها من زوجها ، وأملأ وجدان عروسى وحياتها ، فلا تستجيب لنظرة من غيرى :

أَلَا عِمْ صباحاً أيها الطَّلَل البالى ... وهل يَعِمَنْ مَن كان فى العُصُر الخالى (١)

وهــل يَعِمَنْ إلاّ سعيــدٌ مخلَّدٌ ... قليلُ الهموم ما يبيتُ بأوجال (٢)

وهل يَعِمنْ من كان أحْدثُ عهده ... ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحوال (٣)

(١) عم : دعاء للطلل بالنعيم .
(٢) الأوجال : جمع وجل ؛ وهو الفزع .
(٣) الأحوال : الأعوام .

دِيارٌ لسلمىَ عافيات بذى خال   ألحَّ عليها كلُّ أسْحَمَ هَطَّالِ[1]

وتحسَبُ سلمى لاتزال ترى طَلاً   من الوحش أو بيضا بميثَاء مِحْلال[2]

وتحسب سلمى لاتزالُ كعهدنا   بوادى الخزَامى أو على رسٍّ أوْعال[3]

ليالىَ سلمى إذ تُريكَ مُنصَّباً   وجيداً كجيد الرِّئم ليس بمِعْطال[4]

ألاَ زعمتْ بَسْباسةُ اليوم أنني   كَبرتُ وألاّ يُحْسِن اللهوَ أمثالى

كذبْتِ ، لقد أُصْبى على المرء عِرْسَهُ   وأمْنعُ عِرْسى أن يُزَنَّ بها الخالى[5]

فى مقدمة ثالثة يدعو رفاقه ، أو نفسه ، إلى المرور بمنازل زوجه ، يرضى رغائب قلبه المعذَّب ، وإنّ لحظات قليلة ينتظره فيها رفاقه ، ليبقى معها ، تنفعه عندها ، ترضيها وينعم هو ، فقد تعوّد أن يجدها ، كلّما جاء طارقاً ، طيِّبة الرائحة بلا تطيُّب ، لا تزدريها العين لأنها دميمة ، ولا تشق على الناظر لأنها جافية الخلْق ، ثم داخله الشكّ فيما ليس بين يديه ماديًّا ملموساً : أتراها على العهد مقيمة وأنا غائب عنها ؟ هل أبقتْ على ما بيننا من مودَّة ، أم اتبعت قول المخبِّب المفسد وأطاعتْه فىّ ، سوف ينأى عنها حِقْبة فيختبر وصلها أو هجرها ، ويكون من أمرها على بيِّنة . ولكنى خبير بأهواء النساء عليم ، أكاد أتصوّرها ، تقول لى : إذا بَخِلتُ عليك بالوصال ساءك . وإن كشفتُ لك

---

(١) الأسحم : السحاب الأسود ـ الهطال : المطر الدائم .

(٢) الطلا : ولد الظبية والبقرة ـ الميثاء : ميل الوادى ، أو الطريق إلى الماء ـ المحلال : الذى يحله الناس كثيراً

(٣) الرس : البئر ـ أوعال : اسم مكان هنا فيما يبدو .

(٤) المنصب : الثغر المستوى ـ ليس بمعطال : ليس خالياً من الحلى .

(٥) يزن : يتهم ـ الخالى : الذى لا زوج له .

عن حبيّ أصبح لك عادة ، إني أعرفها تماما ، هي لا تصلني كلّ الوصل ، ولا تقطعه كلّ القطع ، وبذلك يبقى دائماً حبّا متجدِّدا حاراً قوياً عنيفاً كأنه ابن ساعته .

ثم التفت إلى قافلة من النسوة ، تسلك طريقاً عبر أرض غليظة ذات جبال داخل هوادج مترفة ،عليهن ألوان من الثياب جميلةالوشي ، غالية الثمن ، متعَدِّدة الألوان ، أنطاكيَّة الصنع ، هنَّ فيها كنخلة حُمّلتْ بثمرها ، بعضه أحمر وبعضه أصفر ، أو كجنّة من جنان يثرب غُصَّت بزهور مختلفة الألوان . ضعْن وراء الأفق ، ولم يبق معه منهنَّ إلاّ ذكرياته ، وكان فراقهن عسيراً عليه ، ومُبكياً له ، توزعتهنَّ الطرق ، فريقاً منهن سلَكَ بطن الوادى ، وآخر اختار طريق الجبل ، وقد يلتقيان مرّة أخرى ، وقد يفترقان إلى الأبد . وداع مُؤثِّر حزين ، كوداع الحجاج عند تفرّقهم بعد رميهم الجمار ، آخر ما يصنعون من طقوس الحج فى الجاهلية ، وعندما لقّنْه هذه الخواطر ، وبلغ هذا القدر من التأمُّل ، تدفقت عيناه دموعاً غزاراً مسرعة ، فكانا كدلوين عظيمين يفترفان من جدول ، ويصبان فى أرض واسعة ، فتجرى مياههما كنهر يفيض فى منحدر :

خليليَّ مُرَّا بِى على أمّ جُندَبِ
نُقَضِّ لُباناتِ الفؤاد المعذَّبِ (١)
فإنّكما إنْ تنظرانِيَ ساعةً
من الدهر يَنْفعنِي لدىَ أمّ جندب

(١) اللبانات : جمع لبانة ؛ وهى الحاجة .

ألم تريانى كلّما جئتُ طــارقاً

وجدتُ بها طيباً ، وإنْ لم تطيَّب

عقيلةُ أترابٍ لهـا ، لادميمــــةٌ

ولا ذاتُ خلقٍ إنْ تأمّلتَ جأنبِ (١)

ألاَ ليت شعرى كيف حادثُ وَصْلها

وكيف تراعى وُصْــــلَةَ المتغيِّب

أدامتْ على ما بيننـا من مودَّةٍ

أُمَيْمة ، أم صارت لقوْلِ المُخبِّبِ (٢)

فإنْ تَنْأ عنها حِقْبــةً لا تُلاقِها

فإنّك ممــا أحْدثْتَ بالمجــــرِّب

وقالتْ : متى يُبْخَلَ عليكَ ويُعْتَلَلْ

يَسُؤْكَ ، وإنْ يُكْشَفْ غرامُكَ تَدْرَبِ (٣)

تبصَّرْ خليـلِى هل ترَى من ظعائنٍ

سَوالِكَ نَقْباً بين حَزْمَىْ شَعَبْعَبِ (٤)

---

(١) عقيلة أتراب : أى خير أترابها ـ الجأنب : الغليظة اللحم القصيرة .

(٢) المخبب : الرجل الخادع المفسد .

(٣) تدرب : تعتاد .

(٤) الظعائن : جمع ظعينة ؛ وهى النساء فى الهوادج ـ النقب : الطريق فى الجبل ـ شعبعب : اسم ماء .

عَلَوْنَ بأنطاكيَّةٍ فوق عِقْمَةٍ
كجِرْمة نخْلٍ ، أو كجنَّةِ يَثْرب[1]

فريقان : منهم جازعٌ بَطْن نخْلةٍ
وآخرُ منهم قاطِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ[2]

فلِلّهِ عَيْنـا من رأى من تفـرُّقٍ
أشتَّ وأنأى من فـراق المحصَّبِ[3]

فعيناكَ غَرْبا جـدْولٍ في مفاضةٍ
كمَرِّ الخليج في صفيحٍ مُصَوَّبِ[4]

أما في الرابعة فقد بعد قوم صاحبته ، فاشتد شوقه ، وتضاعف حزنه ، وعلى غير العادة ينسبها هذه المرة ، فهي كنانيّـة القبيلة ، يَعْمُريّـة الحيّ ، تعيش في غسّان ، فلما تحمّلوا حزن عليهم ، ورافقهم بعينه حتى غابوا وراء الأنهار من جَنْب تَيْـمر ، هوادجهن عالية مختلفة الألوان ، تحثُّ السيْر ، فتبـدو من بعيد حدائق دوم يتحرك ، أو سفيناً تدفعه الرياح ، أو نخيـلا باسقات رَيَّى

(١) عقمة : ضرب من الوشي – جرمة نخل : ما يصرم من البلح .
(٢) النجد : الطريق في الجبل – كبكب : اسم جبل .
* هذا البيت يأتي في ديوان امرئ القيس بعد تاليه ، وقدمناه ليستقيم المعنى ، ويصبح أكثر تماسكا ، ويخيل إلى أني عدت به إلى مكانه الحقيقي .
(٣) المحصب : موضع رمى الجمار بمنى .
(٤) الغرب : الدلو الكبير ممتلئ ماء – المفاضة : الأرض الواسعة – الجدول : النهر الصغير – الخليج : فرع النهر – الصفيح : الحجارة الواسعة تجعل على جانبي الجدول لئلا يتهدم – المصوب : المنحدر .

تغمر أسافلها المياه ، من نخيل ابن يامن فى هجر ، بعد المشقّر ودون الصفا ، مرتفعة عالية تمايل عروقها ، مزدهرة يانعة اخضرّ سعفها وغَزُر ، واستوى رطبها وتلوّن ، فأهله يحملونه بسيوفهم ، ويحرسونه ضنًّا به ، ورغبة فيه ، فاعتم زهوه ، واستوى ثمره ، وتدلى حمله ، وأرضى نتاجه بنى الزهراء ، وطافت به جَيْلان ، عمال اتّخذهم كسرى يطوفون البحرين وما حولها ، يصرمون له ما نضج من نخيلها ، وعبر ذلك الجمال الممتدّ يحار الإنسان عيناً وإحساساً وميلا . لكن هذه الظعائن الجميلة الموشاة لا تشبه الدوم وحده ، ولا النخيل فحسب ، إنما تشبه أيضاً تماثيل بديعة ، على قوائم مرمرية ، أو صور مزخرفة على جدر مطلية ، فى سقف كنيسة . ظعائن فى داخلها غرائر منعّمات مصونات يتحلين بالياقوت والذهب ، وقد صِيغ على هيئة ظهر جرادة . طيبات الرائحة ، كما لو كان ثمة مجمرة لملك حميرى ، رُمِيتْ بمسك أزفر مفروك ، فانتشرت رائحته قوية عطرة ، زادها طيباً ما أضيف إليه من زكىّ العود والبان والطيب والبخور . أولئك النسوة ذهبْن بقلبه واستولين عليه ، وكانت سليمى تدّعيه ثم انقطع ما بينه وبينها من حبل الوصال ، وكان لها فيما خلا من الدهر خليلا ، يسترق النظر إلى خبائها رغم أسفاره الصفاق ، فإذا رآها ريعَ قلبه وخفق ، كما يرتاع الثمل ينظر إلى الخمر رهبةً منها وحبًّا فيها ، يستعظمها ويحرص على التّلذُّذ بها ، كانت فاترة إذا تحرّكتْ لأمر تمايلتْ نشوى ، تدارى قلبها لتشعد ، وتحمل على نفسها لتماسك ، وتتكلف الجلَد لكى لا تنهار ، ولقد تغيَّر ودّها ، ولئن فعلتْ فمالتْ بهواها إلى غيره ، مال هو أيضاً بحبه إلى امرأة أخرى :

سمالكَ شوق بعــــد ما كان أقصرا

وحلّتْ سُلَيْمى بطنَ قوٍّ فعَرْعَرا(1)

كِنَانِيَّةٌ بانتْ وفى الصَّــدْرِ وُدُّها

مُجاورةً غسَّــانَ والحىَّ يَعْمُــرَا(2)

بِعَيْنَىَّ ظُعْنُ الحىِّ لمَّا تحمَّــلوا

لدَى جانبِ الأفْلاجِ من جَنْبِ تَيْمَرَا(3)

فَشَبَّهتُهُمْ فى الآلِ لمَّــا تكمَّشوا

حدائقَ دوْمٍ أو سَــفِيناً مُقَيَّرَا(4)

أو المُكْرعاتِ مِن نخيــلِ ابنِ يامِنٍ

دُوَيْنَ الصفا اللَّائى يلين المُشَــقَّرَا(5)

سوامقَ جبَّار أثيثٍ فــروعُهُ

وعالينَ قِنْوَاناً من البُسْــر أحْمَرَا(6)

---

(١) قو وعرعرا : موضعان .

(٢) بانت : ذهبت .

(٣) الأفلاج : جمع فلج ؛ وهو النهر ــ تيمر : موضع .

(٤) مقيرا : مطلياً .

(٥) المكرعات : النخيل المغروسات فى الماء ــ الصفا والمشقر : قصران بناحية اليمامة

(٦) سوامق : مرتفعات ــ الأثيث : الغزير ــ قنوان : جمع قنو ؛ وهو العذق . البسر : البلح .

حمته بنـــــو الزبداء من آل يامِنٍ
بأســـــيافِهِمْ حتَّى أقرَّ وأوْقرا (١)

وأرضى بنى الربداء واعتمَّ زَهْـــوُهُ
وأكمامُـهُ حتى إذا ما تهصَّرَا (٢)

أطافتْ به جِيلانُ عنـــــد قِطاعِهِ
تردَّدَ فيـــه العيْنُ حتى تحَيَّرَا (٣)

كأنَّ دُمى سقفٍ على ظهـــر مَرْمَرٍ
كَسَا مُزْبِدَ السَّـاجُومِ وَشْـياً مُصَوَّرَا (٤)

غرائِرُ فى كِنٍّ وَصَـــوْنٍ وَنِعْـمَـةٍ
يُحَلَّيْنَ ياقوتاً وشَـــــذْرا مُفَـقَّرا (٥)

---

(١) أقر : كمل حمله .

(٢) اعتم : كمل وتم ــ الزهو : الأحمر والأصفر من البلح ــ الأكمام : هنا معناها أقماع البلح ــ تهصر : تدلى وتثنى .

(٣) جيلان : قوم اتخذهم كسرى عمالا بجانب البحرين ليصرموا له النخل .

(٤) المزبد : ذو الزبد ــ الساجوم : الصبغ .

* غم معنى هذا البيت على شراح ديوان امرىء القيس القدامى ، فلم يفسره الأصمعى ، واكتفى أبو حاتم السجستانى بتفسير بعض ألفاظه . وبعد تأمل بدا لى أن امرأ القيس يتحدث عن سقف كنيسة غاص بالتماثيل والصور التى تقام أو ترسم عادة فى سطحها ، مما يتطلبه معمار الكنائس ، وهو فن قديم نشأ معها ولها .

(٥) غرائر : غوافل عن الدهر ــ الكن : ما يكتنى به عن الحر والبرد ــ الشذر : قطع الذهب ــ المفقر : المصنوع على هيئة ظهر جرادة .

وريحَ سَناً في حُقةٍ حِمْيَرِيةٍ
تُخَصُّ بِمَفْروكٍ من المسْكِ أذْفرا[1]

وباناً وأُلْوِيًّا من الهِنْدِ ذَاكياً
ورنْدًا ولُبْنِي والْكِباءَ المُقَتَّرَا[2]

غَلِقْنَ بِرَهْنٍ مِن حبيب به ادَّعَتْ
سُلَيْمى فأمسَى حَبْلُها قد تَبتَّرَا[3]

وكان لها في سالف الدَّهر خلّة
يُسَارِقُ بالطّرفِ الْخِباءَ المُستّرَا[4]

إذا نال منها نَظْرةً رِيعَ قَلْبُهُ
كما ذَعَرَتْ كأسُ الصَّبُوح المخمَّرَا[5]

نزيفٌ إذا قامتْ لوجْهٍ تمايَلتْ
تُرَاشِي الفؤادَ الرَّخْص ألاَّ تَخَتَّرا[6]

---

(١) السنا : ضرب من الطيب ـ حقة : بجرة ـ المسك المفروك : مافتقت نافجته فانتشرت رائحته وقويت ـ أذفر : قوى الرائحة .

(٢) الألوى : أجود العود وأطيبه ـ الرند : شجر طيب الرائحة ـ واللبنى : ضرب من الطيب ـ الكباء : كل ما يتبخر به ـ المقتر : المدخن عند مباشرة النار له .

(٣) تبتر : تقطع .

(٤) خلة : خليلا ـ المستر : الكثير الأستار .

(٥) المخمر : الثمل .

(٦) النزيف : السكران ـ تراشى : تعطيه رشوة ، تداريه وتخاتله ـ التختر : الفتور والكسل .

أأسماء أَمسَى وُدُّها قد تَغــــيَّرا
ســنُبْدِلُ إنْ أبْدلتْ بالوُدِّ آخَرَا

فى القصيدة الخامسة بدأها بتعداد الأمكنة التى مرَّ بها وهى كثيرة : البكران ، وعارمة ، وبُرْقة ، وغوْل ، وحِلّيت ، ونَفْء ، ومِنعِج ، وعاقل ، والجُبّ . ورسم صورة لنفسه وقد انتحى بها مكاناً قصيا ، رداؤه فوق رأسه يتقى به الشمس ، جالساً يعد الحصى ، يتلهى به عن الذكريات ، عبراته مُتزاحمة لا تنفد ، وهمومه مُتدافعة لا تتوقف ، يستوى فى ذلك ليله ونهاره ، فهى تلاحقه فى كليهما ، يواجهها وحيدا يطلب العون . وهو على ناقته ، رفيق سيفه ونُمرُقه وردفه ، تسرع به كحمار وحشىّ ، يحث الخطا إلى أماكن مخصبة خبير بها ، يرعى شجرها ويصلح عليها ، ومعه أُتُن بيضاوات الأعجاز ، حوائل غير حوامل ، فيصيح بها ، يهيج عليها من حين لآخر ، يضربها ويصرِّفها كإبل يقوم عليها أجير ، يجمعها بعنف ، ويعبث بها فى حدة ، ويفحش معها دون رفق ، وهى معـــه كضرائر النساء ، مختلفات الكلمة ، موزعات الهوى ، لا تملك لأذاه دفعاً .

والحمار وأُتنه فى خصب من الأرض يأكلن بُهْمى ، نبت له شوك تكلف به الحمر وتصلح عليه ، بُهمى شديدة الخضرة ، تضرب إلى السواد لكثرة ما ارتوتْ ، وعليها أصبحت الأتن سمينة شبعى ، ظمآنة دائماً إلى الماء ، حتى فى الغداة الباردة . فإذا عطشت أوردها الحمار ماء خالياً لا أنيس به ، طلباً للأمن وحذرا من الصيّادين ، فإذا انطلقتْ سحقتْ الحصا سحْقاً ، لصلابة حوافرها ، حوافر ملساء شديدة قويّة ، لسيقان ليست بقصار ولا معرة ، ذهب

ما حولها من الشعر ، وكأن أعالى أذنابها وما يتفرّع من شعرها حمائل جفون سيف موشاة :

غشـــيتُ ديار الحىِّ بالبَـــكَرات ِ

فعارمةٍ ، فــبُرْقة العِـــيَرَاتِ[1]

فَغَــوْل ، فحلّيتٍ ، فَنَفْء ، فَمَنعِـج

إلى عاقــلٍ ، فالجُــبُّ ذى الأمراتِ[2]

ظَلِلتُ ردائى فوق رأسى قاعـــــداً

أعدُّ الحصَى ما تنقضِى عـــبراتى[3]

أعنِّى على التِّهـــمام والذِّكَرات

يَبِتْن على ذى الهمِّ معْتــكرات[4]

بلـــيْل التِّمام أو وُصلْن بمثْـــله

مُقايَســـةً أيّامُهــا نَــكِرات[5]

كأنى ورِدْفِى والقِـــرابَ ونُمْرُقِى

على ظهْر عـــيْر واردِ الخَـبَرات[6]

---

(١) البكرات وعارمة وبرقة : أسماء أمكنة .

(٢) الكلمات فى البيت كلها أسماء مواضع .

(٣) العبرات : الدموع .

(٤) التهمام : مقاساة الهموم ــ معتكرات : دائمات .

(٥) ليل التمام : أطول الليل ــ نكرات : شديدات .

(٦) القراب : غمد السيف ــ النمرق : الوسادة ــ الخبرات : جمع خبرة ، قاع يحبس الماء وينبت السدر .

أرنّ على حُقْبٍ حِيالٍ طروقةٍ
كذَوْد الأجير الأربع الأشِرَات[1]

عنيفٍ بتجْميع الضَّرائر فاحشٍ
شتيم كذَلْق الزُّجِّ ذى ذَمَرَات[2]

ويأكلْن بهمَى جعْدة حبشيّة
ويشربْن بُرْدَ الماء فى السَّبَرَاتِ[3]

فأوردها ماءً قليلاً أنيسُهُ
يحاذرْن عمرا صاحب القُتُرات[4]

تلتُّ الحصَى لتًّا بسُمْرٍ رَزينة
موارِنَ لا كُزْمٍ ولا معِرَات[5]

ويُرْخين أذْناباً كأنّ فروعها
عُرا خِلَلٍ مَشْهُورة ضَفِرات[6]

---

(١) أرن : صاح ـ حقب : جمع حقباء : البيضاء العجز ، حيال : جمع حائل ، وهى التى لم تحمل ـ الطروقة : التى يضربها الفحل ـ الأشرات : جمع أشرة ، المتبطرات .

(٢) ذاق الزج : حد الرمح ـ ذى ذمرات : يذمرهن ويزجرهن مرة بعد مرة .

(٣) البهمى : نبت له شوك تكلف به الحمير ـ حبشية : شديدة الخضرة تضرب إلى السواد ـ السبرات : جمع سبرة ، الغداة الباردة .

(٤) عمرو : رجل صائد من أرمى العرب ـ القترات جمع قترة ، وهو مكان الصائد الذى يختفى فيه .

(٥) موارن : جمع مرانة ، الشدة مع الملاسة ـ كزم : قصار متقبضة ـ المعرات: التى ذهب ما حولها من الشعر .

(٦) عرا خلل : حمائل جفون السيف .
الرواية هنا ضفرات ، أى مضفورة ، وثمة رواية أخرى صفرات أى خاليه من النصال.

فإذا مضينا معه إلى مقدمة القصيدة السادسة وجدناه يتساءل : لمن الطلل دارسا خفيت آثاره ، فلا يرى منه إلا ما يرى من حروف كتبت فى عسيب يمانى إنى أعرفه ويثير أحزانى ، هنا كانت هند ، وصويحباتها ، الرباب وفرتنى، ينزلن هـذا الوادى من « بدلان » ، كانت ليالىَ أستجيب فيها لهواى ، وعيـون صاحبـاتى دائمات النظر إلىّ فى سكون ، كلفات بى ، لا يرسلن أبصارهن إلى غيرى . ولئن أصابنى الدهر بمكروه ، فما أكثر الأمور المبهمة لا يهتدى لها ، كشفتُ حقيقتها وأبنتُ صوابها ، حين يشكل الأمر على الجبان فيغبرّ وجهه حيرة وغماً .

وفى حِدَّة الـكرب ألوذ بالموسيقى ، فربَّ جارية مغنية منعمة جعلتها تضرب بالعود ، عود رقيق رفيع الصوت فيه بحّة ، إذا حرّكت يديها عليه ، وتناثرت أنغامه ، كانت فى رقتها وجمالها أكثر تأثيراً وأعلا صوتاً من هذا الجيش على كثرته وضجيجه .

ورب غارة شهدتها على فرس ضامر لين العطف ، سريع العـدو ، حثيث الركض ، اذا قدته تثنى لِلينه ، كعرق بنت الرُّخَامَى ريّان منتعشا تنزّلَ عليه المطر ، فراح يهتز ويتمايل مع قطراته الساقطة .

كل شىء ذاهب فى هذه الدنيا ، يأتى ويمضى ثم يفنى ، فتزوَّد من متعها ما استطعت ، من خمورها ونسائها ، نساء بيض كالآرام ، أو سمروات كالدُّمى ، طوال الأعناق ، ضامرات الخصور ، من المحصنات العفيفات ، أو من المتبرجات المثيرات يعترضن الرجال بزينتهن :

لمن طلَلٌ أبصرته فشجانى

كخطّ زَبورٍ فى عيسبٍ يمانى

ديارٌ لهندٍ والرَّباب وفرْتَنَى

ليالينا بالنّعف من بدلان(1)

ليالِيَ يدعونى الهوى فأجيبُه

وأعيُنُ مَن أهْوَى إلىّ رَوان(2)

فإنْ أُمْسِ مَكْروباً فيارُبَّ بُهْمةٍ

كَشفتُ إذا ما اسودَّ وجهُ الجبان(3)

وإنْ أُمس مكروباً فياربّ قَيْنَةٍ

مُنَعَّمةٍ أَعْمَلْتُها بِكِران(4)

لها مِزْهَرٌ يعلو الخميسَ بِصوْته

أَجَشُّ إذا ما حرّكَتْه اليدان(5)

وإنْ أُمس مكروباً فياربّ غارةٍ

شهِدْتُ على أَقَبَّ ، رِخْوِ اللبانِ(6)

---

(١) النعف : ما انحدر من الجبل وارتفع عن الوادى ــ بدلان : اسم موضع .
(٢) روان : جمع رانية ، ورنا أدام النظر .
(٣) بهمة : مبهم من الأمر .
(٤) القينة : الجارية الضاربة بالعود المغنية ، وقد تطلق على الأمة ــ الكران : العود الذى يضرب به .
(٥) الخميس : الجيش ــ أجش : فيه بحة .
(٦) الأقب : الضامر البطن من الخيل ــ رخواللبان : لين المعطف .

على رَبِذٍ يزدادُ عفْوًا إذا جرى
مِسَحٍّ حَثيثِ الرَّكْضِ والذَّأَلاَنِ [1]

ويَخْذِي على صُمٍّ صِلابٍ مَلاطِسٍ
شديداتِ عَقْدٍ ، ليِّناتٍ مِتانِ [2]

وغَيْثٍ مِن الوَسْمِىِّ حُوٍّ تِلاعُهُ
تَبطَّنْتُه بِشَيْظَمٍ الصَّلَتانِ [3]

مِكَرٍّ مِفَرٍّ ، مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معًا
كَتَيْسِ ظِباءِ الُحلَّبِ العَدَوانِ [4]

إذا ما جَنَبْناهُ تأوَّدَ مَتْنُهُ
كعِرْقِ الرُّخامى اهْتزَّ فى الهَطَلانِ [5]

تَمَتَّعْ من الدنيا فإنَّك فانِ
من النَّشواتِ والنساءِ الِحسانِ [6]

---

(١) ربذ : الذى يرفع قوائمه ويضعها فى سرعة ـ العفو : الجرى على غير مشقة وتكلف ـ الذألان : سرعة السير .

(٢) يخدى : يسير سريعا ـ الصم : الحوافر ـ ملاطس : مكسرات للحجارة .

(٣) الحوة : لون يضرب إلى السواد ـ التلاع : نبات ـ الشيظم : الطويل ـ الصلتان : القصير الشعر .

(٤) التيس : الفحل ـ الحلب : نبات ترعاه الظباء ـ العدوان : الشديد العدو .

(٥) جنبناه : جنب الفرس قاده دون أن يركبه ـ تأود : تثنى ـ الرخامى : نبت له عروق ناعمة تنبت على وجه الأرض .

(٦) النشوات : جمع نشوة ، وهى السكر .

من البيض كالآرام ، والأُدْم كالدُّمَى
حَواصِنُهـــا ، والمُبْرِقات الرّوانى (١)

فى القصيدة السابعة أحسّ بالضياع لأنّ قلبه غير قادر على صبْر الأحرار ، ولا نازع عما هو عليه من الجزع ؛ فيتيح له هدوءاً واستقراراً . ومقهور القلب والفكر أخذ يسلى نفسه ؛ إن الدّهر حُوَّل قُلَّب ، يتغيّر بتعاقب لياليه وأيامه ، لا يدوم على حال ولا يُبقى على قرار ، والليالى الدافئة التى نعم بها فى سالف أيامه ، بين قبيلة طيّىء ، بأرضها المُطْلِحة من « مُحَجَّر » ، أحبّ إليه من لياليه القارة الحاضرة .

وما دام الحاضر قد شقّ عليه ، فلا بأس أن يستدرج نفسه إلى الماضى ، يستردّ منه ذكرياته ، ويتحدث عن لياليه مع هِرّ وفَرْتَنَى ، فما أكثر ماشرب الخمر المعتّقة عندهما فى الصباح المبكّر ، منذ كان وليداً فتياً ، وذهبتْ هر بشبابه ، وكان إذا قبّلها وجد فاها طيّب الرائحة ، ورُضابها لذيذ الطعم كخمر مستوردة . عيونهما جميلة حالمة فاترة ، كنعجتين من نعاج « تبالة » ، تحنوان على ولديهما ، تتأمّلانهما حبًّا ، وترقبانهما حرصاً ، وهما فى تناسق قوامهما كبعض تماثيل دُمى هَـكِر ، وروائحهما طيّبة ، منعّمات ينتشر المسك عند أقل حركة منهما ، كما لو كانت نسيم الصَّبا هبّتْ تحمل أريج بخور طيّب :

لَعَمْرُكَ ما قلبى إلى أهله بِحُرّْ ولا مُقْصِراً يوما فيأتينى بِقُرّْ (٢)

---

(١) الأدم : اللائى يضربن إلى السمرة ــ الحواصن : العفيفات ــ المبرقات : اللائى يبرقن للرجال ، ويبرزن حليهن ومحاسنهن ــ الروانى : الدائمات النظر .
(٢) القر : الاستقرار .

أَلاَ إنَّما الدَّهرُ ليـال وأَعْصُرٌ وليس على شيء قويم بِمُسْتَمِرْ
ليالٍ بذاتِ الطّلْح عند مُحَجَّرٍ أحبُّ إلينا من ليالٍ على أُقُرْ (١)
أُغادي الصّبوحَ عند هِرٍّ وفَرْتَنَى وليداً، وهل أفنى شبابي غيرُ هِرّ (٢)
إذا ذُقتُ فاها قلتُ: طعم مُدامةٍ معتّقةٍ ، مما يجيء التُّجُرْ (٣)
هما نعجتان من نعاج تبالةٍ لدى جُؤْذُريْن، أو كبعض دُمى هَكِرْ (٤)
إذا قامتا تضوّع المِسْكُ منهما نسيمَ الصَّباجاءتْ بِرِيجٍ من القُطُرْ (٥)

فى القصيدة الثامنة وجد الديار تغيرت فلم يستطع أن يهتدى إليها بدءا ، فتساءل لمن هى ؟ ثم أعطى لها تحديداً جغرافياً دقيقاً ، يتمثل فى عدد من أسماء الأمكنة التى عاش بها يوما ، فهى بين سُحام وعمايتين ، وذى أقدام ، وصفا الأطيط ، وصاحتين ، وغاضر ، أماكن فارقها آهلوها ، فأصبحت منزلا للنعاج والآرام . إنها ديار هند والرباب وفرتنى ولميس ، كنا هنا قبل أن تباعد بيننا نوازل الدهر ، اعطفا معى يارفيقىّ على أطلال أمسي الذاهبة نبكيها ، كما بكى ابن خذام قبلى أطلاله . إنها ذكريات تعيش فى أعماق حية متحركة ، وأكاد ألمح قوافلهن ترتفع عليها الهوادج ،مختلفة الألوان كنخل حان صرامه،

---

(١) ذات الطلح : أرض فيها شجر الطلح ـ محجر : موضع ببلاد طيء .
(٢) هر وفرتنى : جاريتان ـ الصبوح : شرب الغداة ، وعكسه الغبوق شرب العشى .
(٣) المدامة : الخمر المعتقة ـ التجر : جمع تاجر ، تجار الخمر .
(٤) تبالة : اسم مدينة انظر هامش رقم ١ ، ص ١١٣ من هذا الكتاب .
جؤذرين : ولد البقرة الوحشية ـ هكر : مدينة فى اليمن .
(٥) القطر : عود البخور .

فيهن نساء بيض الوجوه ، نواعم الأجسام ، آسرات العيون ، يكثرن من التطيّب بالعبير . ويجوس خلال الديار ، حائر الفكر ، موزع القلب ، تختلط فى مشاعره مباهج الأمس مع حرمان اليوم ، وتتداخل ذكريات الماضى مع أشواق الحاضر ، وهو بها ثمل وضائع ، كنشوان احتسى خمراً فى صباح مبكر ، خمراً معتقة ، كرومها فى « شبام » ، أو عصرت فى « عانة » ولونها كدم الغزال ، فهى من أطيب أنواع الخمر ، ما يكاد يحتسيها الشارب حتى يذهب عقله ، وينعقد لسانه ، فيخلط فى كلامه ، كأنه مصاب فى بدنه :

لِمَنِ الديارُ غَشِيتُها بِسُحامِ
فَعَمايَتَيْن فَهَضْبِ ذى أقْدام[1]

فصفَا الأَطيطِ فَصاحَتَيْن فَغاضِرٍ
تمشى النِّعاج بها مع الأرآم[2]

ديارٌ لهند والرَّبابِ وفَرْتَنَى
ولَميسَ قبل حوادثِ الأيّام

عُوجا على الطَّلَلِ المُحِيل لعلّنا
نبكى الدِّيار كما بكى ابنُ خِذام[3]

---

(١) سحام : اسم موضع ـ عمايتان : جبلان ـ الهضب : جمع هضبة ، قطعة مرتفعة من الجبل ـ ذو أقدام : جبل .

(٢) صفا الأطيط وصاحتان وغاضر : كلها مواضع .

(٣) المحيل : الذى أتى عليه حول فتغير .

أَوَ ما تَرَى أَظْعانَهُنَّ بواكِراً ... كالنخل من شَوْكانَ حين صِرام[1]

حُورٌ تُعلَّل بالعبير جُلودَها ... بيضُ الوجوهِ ، نواعمُ الأجسام

فَظللتُ فى دِمَن الديار كأننى ... نشوانُ باكَرَهُ صَبُوحُ مُدامِ

أُنُفٌ كلوْن دمِ الغزالِ معتَّقٌ ... مِنْ خمْرِ عانَةَ أو كُرُومِ شِبام[2]

وكأن شاربَها ، أصاب لسانَهُ ... مُومٌ ، يُخالِطُ جسمَهُ بسقام[3]

فى القصيدة التاسعة حيَّا الربع ، ورجاه أن يتكلم ، وأن يكون صادقاً معه فيقصّ له حديث الركبان الذين كانوا ومضوا . حدِّثْنا ، كيف رحلوا يوما ذات ليل ، تبدو ظعائنهم عبر الظلام كنخل غير مثمر ، وفوق الأبل هوادج ضمّتْ نساء على شلت طرية ، تحيط بهن ستائر منمقة مما ينسج فى العراق ، نساء جميلات تطيبْن بمِسك وزَنْبق ، صحبتهم فى رحيلهم بناظرَىَّ حتى حالت بينى وبينهم رمال عالية ، تناثرت عليها أشجار من ألاءٍ وشِبرِق ، يقصدون « العقيق » أو ثنية مُطْرق ، فلما ضاعوا وراءها رحلتُ أنا الآخر على ناقة موثقة الخلق ، كبنيان اليهودى خَيْفَق :

---

(١) شوكان : موضع كثير النخل ـ صرام : صرم الشىء قطعه ، وصرام النخل جنى ثمره

(٢) أنف : مستأنفة أول مافتقت وأخرجت من الدن ـ عانة : قرية بالجزيرة — شبام : قرية .

(٣) موم : علة يهذى فيها .

أَلاَ انعَم صباحاً أيُّها الربْعُ وانطِـــــقِ

وحدِّثْ حديث الركبِ إنْ شئتَ فاصدُقِ

وحدِّثْ بأنْ زالتْ بليلٍ حُمــولهُمْ

كنَخْلٍ من الأعْراضِ غيرِ مُنَبَّقِ(1)

جعلْنَ حَوايا واقتَعَـــــدْن قعائداً

وَحَفَفْنَ مِنْ حوْكِ العــراقِ المنمَّق(2)

وفوْق الحــــــوايا غِزْلَةٌ وجآذرٌ

تَضَمَّخْنَ مِن مسكٍ ذَكيٍّ وَزَنْبَقِ(3)

فأتبَعْتهُمْ طـــــرْفي وقد حال دُونهم

غواربُ رملٍ ذى ألاءٍ وشِبرِقِ(4)

عـــلى إثرِ حيٍّ عامدين لنيَّـــةٍ

فحَــلوا العقيقَ أو ثنيةَ مُطْرقِ(5)

فعزَّيتُ نفسى حـــين بانوا بِجَسْرَةٍ

أمونٍ كبنيان اليهـودىّ خَيْفَــقِ(6)

---

(١) الأعراض : الأودية ـ غير منبق : غير مزه ، لم يخرج ثمره بعد .
(٢) الحوايا : جمع حوية ، مركب من مراكب النساء .
(٣) غزلة : جمع غزال — جآذر : جمع جؤذر ، ولد البقرة الوحشية .
(٤) غوارب : أوائل — الألاء والشبرق : اسما شجر .
(٥) العقيق : اسم مكان — مطرق : اسم واد .
(٦) الجسرة : الناقة — الأمون : القوية ـ خيفق : طويلة .

فى القصيدة العاشرة دعا رفيقيه إلى استعادة ذكريات أحبّائه ، والوقوف بمنازلهم والتعرُّف عليها ، وقد تغيرتْ ودرستْ معالمها . تعاورتها السنون ، وبَعُد بها الزمن ، فتغيرت رسومها وعفت آثارها ، وأصبحت الكتاب خفاء ودقة ، إنهـا تذكّرنى الحىّ بأجمعه ، وتهيج بقايا ألم فى الفؤاد لا أستطيع له كتمانًا ، ومعها تسحّ دموعى ، وتهطل على ردائى ، كما تنساب المياه من قربة الراوية ذات خروق ورقع :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ وعِرْفانِ
ورسمٍ عفـتْ آياتهُ منـذُ أزمانِ

أتتْ حججٌ بَعـدِى عليها فأصبحتْ
كخطِّ زبورٍ فى مصاحف رُهبان

ذكرتُ بهـا الحىَّ الجميـع فهيَّجتْ
عَقابيلَ سُقْمٍ عن ضميرٍ وأشجانِ(١)

فسـحّتْ دموعى فى الرّداء كأنهـا
كُلًى من شَعيبٍ ذات سحٍّ وتهتانِ(٢)

ولدينا ثلاث بقايا لمقدّمات طللية ، اثنتين فى بيتين وواحدة فى ثلاثة أبيات.

---

(١) العقابيل : البقايا ، ولا واحد لها .

(٢) الشعيب : المزادة ، الراوية ، القربة ، وكلاهما رقع تكون فى أصول عراها — التهتان : سيلان الماء ، أو المطر الخفيف .

أقول بقايا لأنها تغاير ما درج عليه امرؤ القيس من مقدمات طويلة ، ذات نظم فنى دقيق ، يفيض حيوية وقوّة وتصويرا .

فالمقدمة التى من ثلاثة أبيات لا يسترجع فيها ذكريات ولا يبكى أحبةً ، إنّما يتجه ورفيقاه إلى الربع ، يناديه فلا يجيبه ، كأنه يكلم أخرس ، لو كانت الدار عامرة كعهده بها ، لوجد عند قطّانها مقيلا فى الهاجرة ، وسكناً فى الليل، لكن أحداً لا يرد عليه ، ولا يكاد يصدق نفسه أنها خاليةُ ، ربّما لا يردّون عليه لأنّهم ينكرونه ، فقدّم لهم ماضيه بين يديه برهاناً : أنا ذلكم الذى رافقكم يوماً فى مرابع « غَوْل » و « ألعس » :

أَلِمَّا على الربع القديم بعَسعسا كأنِّى أُنادى أو أُكلِّمُ أخرسا(١)

فلو أنّ أهلَ الدار فيها كعهدِنا وجدتُ مقيلا عندهم ومُعرّسا(٢)

فلا تُنكرونى إنَّى أنا ذاكمُ ليالىَ حل الحىُّ غوْلا فألعسا(٣)

واللتان من بيتين جاءت إحداهما مطلع قصيدة يهدد فيها بطوناً من بنى أسد ، ويبدؤها منادياً ديار ماوية ، بين الحائب والسَّهب ، والخبتيْن من عاقل . ويُسائلها : لم صمّ صداها فلا تسمع،وعفا رسمها فلا تُرى ، واستعجمتْ فلا تجيب :

---

(١) عسعس : اسم موضع .

(٢) معرسا : التعريس النزول ليلا للاستراحة .

(٣) غول وألعس : موضعان .

يا دار ماوية بالحائل فالسَّهْبِ فالَخبتيْن من عاقل[1]

صَمّ صداها ، وعفا رَسْمُها واستَعْجمتْ عن منطق السائل[2]

وفى الثانية يسائل ماوية أيضاً ، أهى مقيمة على وصاله ، فينزل بديارها ساعة من ليل ليلقاها ، أم اختارت القطيعة فيمضى فى طريقه ، ويتوجه إليها أن تبين عما فى ضميرها ، ففى بيانه راحة لنفسه القلقة ، وقلبه الموزّع ، حتى ولو كان الأمر قطيعة :

أماوىّ ! هــل عندكم من مُعـرَّسٍ

أم الصّرْمُ تختارين بالوصـلِ نيئس[3]

أَبِينى لنــا ، إن الصريمةَ راحــةٌ

من الشــك ذى المخـلوجةِ المتلبِّس[4]

ما بواعث نشأة المقدمات الطللية وأطوارها التى مرّت بها ؟ لم يصل النقد الأدبى المعاصر إلى كلمة فاصلة فى هذه القضية ، لأننا نفتقد الـكثير من العناصر التى تهىء لنا أن نكوّن فيها رأياً علمياً .

---

(١) الحائل ، والسهب ، والخبتان ، وعاقل : أسماء مواضع .

(٢) استعجمت : لم تتكلم ، ولم تجد جواباً .

(٣) المعرس : من التعريس ؛ وهو نزول المسافر ساعة من الليل ليستريح ـ الصرم : القطع والهجر .

(٤) المتلبس : المختلط ، المشكل .

وكان للنقاد العرب القدامى رأى أوضحه ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء » يقول :

« سمعتُ بعض أهل الأدب يذكر أنّ مُقصِّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدّمن والآثار ، فبكىَ وشكا ، وخاطب الرَّبع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين ، إذ كان نازلةُ العمَدِ[1] فى الحلول والظعن على خلاف ماعليه نازلةُ المدَر ، لانتقالهم عن ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميلَ نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام . فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع ، عقّب بإيجاب الحقوق ، فرحل فى شعره ، وشكا النَّصب والسهر ، وسُرَى الليل وحرَّ الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعير » .

وأورد ابن رشيق القيروانى فى كتابه «العمدة» إشارات لعدد من الشعراء وتعليق له عليها ، يفهم منها فى مجموعها رأيه ورأيهم فى نشأة المقدمات . يقول :

(١) نازلة العمد : هم أصحاب الأبنية الرفيعة .

« سُئل ذو الرمة : كيف تفعل إذا انقفل دونك الشعر ؟ فقال : كيف ينقفل دونى وعندى مفاتيحه ، قيل له : وعنه سألناك ، ماهو ؟ قال الخلوة بذكر الأحباب » ويعقّب ابن رشيق على ذلك : « فهذا لأنّه عاشق ، ولعمرى أنّه إذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب ، ووضع رجله فى الرّكاب » . على أنّ ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء ، وإنما كان واصف أطلال ، ونادب أظعان ، وهو الذى أخرجه عن طبقة الفحول .

وقيل لكثيّر عزة : كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر ؟ قال : أطوف فى الرباع المحيلة ، والرياض المعشبة ، فيسهل علىّ أرصنه ، ويسرع إلىّ أحسنه » .

وكلّهم حام حول المعنى ولم يقع عليه ، فليست المقدمة الطللية فى نشأتها عملا مفتعلا تمهّد لما بعدها ، ولا تكلّفاً يمسك به الشاعر ليقدح قريحته فتواتيه إنها ، فيما يبدو ، أقدم عناصر القصيدة الجاهلية ، بقايا نظام ضارب فى القدم ، ضاعت مراحل تدرّجه ويعسر علينا الآن أن ندرك تطوّره ، والزمن الذى مرّ به قبل أن يبلغ صورته الأخيرة التى وصلتنا عليها

درج الكثير من النقّاد ، فى القديم والحديث ، على اعتبار المقدّمة الطللية غزلا ، أو تمهيداً يسبقه ، وأراها نابعة من شىء آخر ، يمكن أن أسميه الحنين إلى الوطن Nostalgia ، ولئن ارتبط الحنين فى عصرنا الحاضر بوطن محدد ثابت تتعلق به مشاعر المواطن ، فقد كان فى حياة الفرد العربى وطناً متجدّداً متغيّراً . كل واد يهبطه يتعلق به وله فيه ذكريات ، كل منزل يألفه

يلتقط منه مشاعر مغايرة ، كل رحلة يقطعها ترهف وجـدانه بجديد من الأحاسيس والحياة والناس ، فـكان الشاعر يعانى تمزُّقا نفسـياً لا يشعر معه بالطمأنينة ، ويجدد تلذُّذاً وعزاء وسلوى فى تذكر أحداث الماضى . كانت حياته كلها رحلة ، وعبرها كان يغيِّر طريقه أكثر من مرة ، وأحيانا دون أن يعرف إلى أين وفِيمَ ؟ .

والشىء الذى يميِّز الشاعر عن غيره قدرته على استرجاع الماضى ، استرجاعه وليس اكتنازه ، فمن الناس من يتمتع بذاكرة قوية ، يعجز معها الزمن عن محو شىء من مخزونها ، لـكن ذاكرة الشاعر هى التى تفيـد من هذه الموهبة ، لأنه قادر على أن يبعث التجربة بحرية ، والقـدرة هنا لا تعنى تذكّره تاريخ حدوثها وكيفيته فحسب ، وإنما تعنى القدرة على استرجاع الحالة الشعورية الخاصة بها .

فالبكاء على الأطلال ثمرة البيئة المتنقلة ، وهذا الجزء من القصيدة العربية يبدو أكثرها ترابطاً وتماسكاً . لأنه يقوم على معان ممسك بعضها برقاب بعض ، وينتهى بعضها إلى بعض ، فالوقوف على الأطلال يدعو إلى تحديدها وتحديدها يستدعى وصف مابه تعرف ، والاستغراق فى تأمّلهـا يقود إلى مقارنتها بالحاضر الذى آلت إليه ، وما فعلت بهـا الرياح والأمطار وتعاور الليل والنهار .

ومن هنا لست أعد المقدمة الطللية وما يتصل بها من ذكر الأحبَّة غزلا ، فليس من الغزل فى شىء أن يقف الإنسان بمكان عاش فيه من قبل ، فحنّ إليه ، ووقف يسترجع ذكريات له تصرّمت ، ويلهب مشاعره بوصال طواه

الزمن ، ويتلهف على أمس قد يعود وقد لا يعود ، ويتأسّى بذكريات كانت جميلة ، يفعل ذلك فى سنّ فتية يحنّ معها إلى المرأة ، ويفعله فى سنّ متقدمة لا تمثل فيها المرأة معه من المعانى ، إلاَّ أمّاً تصنع الرجال ، وامتداداً إنسانياً يلطِّف حدة الحياة ، ورفقة طيّبة تدفع وحشة الطريق ، وليس ذلك من الغزل فى شىء ؛ حسياً مادياً كما عاشه شعراء الجاهلية ، أو عذرياً أفلاطونياً كما عبّر عنه بعض أخلافهم فيما بعد .

وذكريات امرىء القيس وأطلاله وليدة دفع عاطفى ، كان صاحبها يحنّ إلى أمسه فعلا ، ويشتاق إليه ، ويرجوه أن يعود ، وهى عواطف رغم بيئتها المحدودة ، ومن تكرار بعض صورها ، ذات ملامح إنسانية عميقة ، لا نكاد نفهمها حتى نقف عندها ، ولا نكاد نقف عندها حتى نتجاوب معها ، ونفكر فيها ، وتتحول إلى واقع مجسَّم نتصوره ونعايش صاحبه ونلتقى معه ، نفرح له أو نأسو عليه ، لأنه يعبّر عن لون من الفراق كلنا نعيشه فى صورة أو أخرى . فالموت فراق الحياة ، والفقر فراق الغنى ، والشقاء فراق السعادة ، والرحيل فراق الأهل والأحبّة ، والعالم فى حركته اليومية زاخر بألوان من المفارقات . ويضيق المرء ببعض الأسماء ، تثقل على أذنه ، ويضطرب معها لسانه ، فإذا تجاوزها إلى ما هو سهل وموسيقى ونافع ، تخلّت عنه الوحشة التى يحسُّها ، وترسَّبتْ فى وجدانه تجربة الشاعر ، فيمد ذاكرته إلى شعره يغترف منه ، للتعبير عن مشاعره الخاصة وتصويرها ، إذا لم يكن قادراً على إبرازها فى الشكل الذى يريد .

والمرأة فى جانبها النفسى أكثر وضوحاً فى شعر الأطلال منها فى شعر

الغزل عند امرىء القيس ، لأنه فيهـا لا يلاحقها كيانا ماديا يصف دقائقه ، وإنما يعرض لها معنى إنسانياً يأسى لفراقه ، ويحزن لرحيله ، وتمتلىء عينه بالدموع عند تذكر هذه اللحظات ، وقلما يتجاوز ذلك أو يتخلى عنه ، فإذا فعل فلكى يقول عنها أنها طيبة الرائحة ، موشاة الثياب . والحديث عنها فى المقدمة طبيعى يقتضيه صدق الانفعال واكتمال الصورة ، وليس إقحاماً لها فى غير موضع ، ليُقال عنها كلام يمكن أن يقوله الشاعر فى غير هذا المكان .

لقد رأى الشاعر الأطلال ، فأول ما يسترد عنها من ذاكرته أجمل ما كان فيها ، وفى حياة صحراوية قاسية ، ومجتمع بدوى جاف تصبح المرأة أرق وأجمل ما فيه . ومشاهد التحمل آخر ما رأى من مناظر أحبته ، فهو يتبعهم أيان ساروا ، وإلى أين اتجهوا ، ويعقب وصف هذه المشاهد تحديد الأطلال ، ولكنها لا تأتى فى كل المقدمات .

يصدر الشاعر الجاهلى فى بكائه للأطلال ، وتصويره لأحزان الوداع ، عن عاطفة ذات جانب إنسانى عام ، يشارك فيه الناس جميعاً فى كل عصر وبيئة ، لأنه يتصل بأعمق مشاعر الفرد وأصدقها ، من الحب والصداقة والوفاء ، ويرتبط بماضيه وحاضره ، بأمسه ويومه ، بإخفاقه ونجاحه ، والعاطفة فيه جانب جوهرى وأصيل ، وليست زينة تأتى مكملة وتابعة ، وهى — بكاء الأطلال — قبل ذلك وفوقه تعكس ارتباط الإنسان بأهم شيئين : الأرض والحياة !

وهذا الارتباط لا يتجه إليه الشاعر مباشرة ، وإنما يعبر عنه إيحاء مختفياً وراء ستار رقيق أو صفيق من أسماء الأمكنة والمواضع والأشخاص ،

رموز تضيع مع اندماجنا فى تجربة الشاعر ، فيبقى لنا منها ما وراءها وما ترمز إليه ، وتسقط معها الملامح الجغرافية المحدودة ،وتظلّ للتجربة أصالتها وشمولها، يقرؤها الناس فيسعدون بها ويعجبون فى كل مكان ، وعلى كل لسان !

وامرؤ القيس فى مقدماته أوضح ما يكون شاعراً فنّاناً ، وتتجلّى فنيته فيما يتأرجح فيه بين الحزن القاتل وبين الرجاء المؤمّل ، يبكى ويجد فى البكاء شفاءه ، يعتصم بالرّبع ثم لا يعوّل عليه ، ييأس ويلوذ بالصبر ، يعتصم بالصبر ثم يجد ألاّ فائدة فيه ، يسائل الأحجار عساها تتكلم ، ثم يردُّ بأنها صمّ صلاب فما عساها أن تقول. والحيرة والتأرجح انعكاس صادق لعاطفة رهيفة وحسّاسة ، فما من عاطفة تحتوى المعنى فى أبعد أعماقه وأصدقها تلتزم خطاً واحداً فى الحياة ، من التزام الحزن أو العزوف عنه ، من انكباب على اللهو دائماً أو تسريحه أبداً ، وقصارى ما تستطيعه أن يرجح فيها أحد الجانبين، وربّما تشقى بالجانب الذى شالت كفّته ، أكثر مما تسعد بالجانب الذى رجحت موازينه .

وإذا كانت العاطفة فى المقدمات أصلاً تصدر عنه ، وتجعل منها شعراً إنسانياً رفيعاً ، فهى فى الوقت نفسه ، وتلك آية صدق وأصالة ، تعكس فى المادة التى صُوِّرت بها البيئة حولها ، بكل ما فيها من تقاليد ومثل وشجر وحيوان. والشاعر صادق فى ذلك، لا يتكلف فى صناعته ، ولا يغرق فى صوره، ولا يخرج بها عن دائرة التصوّر المقبول إلى الغلوّ المحال ، ولا يفتعلها ينحتها من الخيال ، فمهابط امرىء القيس ومنازله ، مرّ بها وخبرها وتحدث فيها ، فهو لا يتكلم عن أطلال وصفها من بعيد ، ولا يستمدّ معارفه عنها من حكايات القصاص ، أو ثرثرة الحداة . وكان فى ذلك كله دقيقاً ، ذكر الذين أفسحوا له

من قلوبهم مكاناً ، والذين أداروا له ظهورهم إعراضاً ، حتى مباذله فى ميعة الصبا ، حين اقتضى المقام ذكرها وأشار اليها ، وهو فى ذلك كله لم يكن مصوراً يرسم من الذاكرة مطمئناً ، وإنما كان فنّانا يستجيب لدواعى العاطفة منفعلاً .

وكما رأينا تتراوح مقدماته ، فيما وصلنا من شعره ، طولاً وقصراً ، أقلها بيتان وأكثرها سبعة عشر ، وأميل إلى أن المقدمات المسرفة فى القصر بقايا مقدمات ضاعت وليست كاملة . وفى المقدمات يحدّد امرؤ القيس المكان غالباً ، والزمن قليلا ، ولحظة التعرف عليه نادراً ، ويعبّر عن خلوّ الديار بسكنى الوحش لها ، وحش مطمئن يسرح فى الوديان حوله ، ثم يعود إلى منازله مرة أخرى ، ويتحدث عن أثر الرياح فيها ، والنبات الذى عليها ، وإذا تجاوزنا تحديد المكان فإن المشاعر التى تتلوه لا تجرى على نمط واحد ، وصفَ النساء فى هوادجهن ، وحماراً وحشياً يهيج على أُتُنه ، فيعبث بها ، ويقضى منها وطره ، حتى الموسيقى كان لها من مقدماته نصيب ، فذكر قينة مغنيَّة له ، ولم يخصّها بحديثه ، إنما تجاوزها إلى الأنغام نفسها ، فوصف جمالها ورقتها وتأثيرها ، وأنها كانت أعلى صوتاً وأبعد أثراً من جيش كثير العدد ذى ضجيج .

عاشق المرأة

حياة المرأة في المجتمع الجاهلي

ما تزال مكانة المرأة فى المجتمع الجاهلى مهزوزة الصورة ، لم يقدّر لها القلم الذى يجلوها ، والفكر الذى ينير حوالكها ، مع أنها مفتاح أيّة دراسة للغزل فى عصوره الأولى ، ماديًا أو عُذريًّا ، جاهليًّا أو إسلاميًّا ، والأخطاء التى نقع فيها ونحن ندرسها فى الأدب المتّصل بها ، زوجة وأمّا وحبيبة وشاعرة ، تأتى من نقص هذه الدراسة ، والإشارات القليلة المتصلة بها فى المصادر التاريخية تمدك بالدليل ونقيضه ، وتجدها فيها ملكة تحكم ، وكاهنة تتنبأ ، وشاعرة تشدو ، وناقدة تتذوق الشعر وتُفصّل القول فيه ، ونجد من العرب من يُنسب إلى أمّه ويفخر بها كما يفخر الآخرون بالانتساب إلى آبائهم ، فكان عمرو بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ينسب إلى أمه هند ، رغم شهرة أبيه ، وحرّر محمد بن حبيب الراوية رسالة فيمن نُسب إلى أمه من الشعراء ، ونجدها أيضاً مبغوضة تُوأد ؛ والأخبار المتّصلة بالوأد مبتورة عن أسبابها غالباً ، والتعليل الذى أُعطِىَ لها جاء فى عصور متأخّرة نسبياً ، ويعكس ذهنية المؤرخين أكثر مما يصور الواقع فعلاً . ونحن لا نعرف يقيناً ما القبائل التى كانت تمتهن المرأة وتباشر عادة الوأْد ، وهل كانت تصدر فى ذلك عن دوافع دينية أم اجتماعية ، أم كان وراءها الاقتصاد محرّك التاريخ ؟ وأرجح الدافع الأخير ، لأن بعض الروايات تربط الوأْد بالفقر ، أو أن يجىء الولد مُشوّها ، ولا تفرّق فى ذلك بين الولد والبنت ، بل تتخلّص من أى منهما .

مفتاح دراسة الغزل

ويبدو لى أن مكانة المرأة كانت تختلف فى البادية عنها فى الحاضرة ، وفى كليهما بمكانها الطبقى من المجتمع ، وتخضع دائما لتقاليد تتفاوت من قبيلة إلى أخرى ، تبعاً لبُعْد القبيلة عن المؤثرات الخارجية والمراكز الحضارية أو قربْها منها . والمرأة كما يصوِّرها الشعر موطن إعجاب ومناط إجلال ، وحاتم الطائى حين يفخر بكرمه —مثلاً— يتوجه إلى المرأة ظناً منه، أنّها إن رضيتْ عنه كفتْه رضا الناس جميعاً ، وإذا رد على ناقديه اختار المرأة محور الحديث، تسائله ويرد عليها ، وإن لم يكن هناك سؤال ولا جواب :

مَهْلاً نَوارُ ! أقِلِّى اللّوْمَ والعَذَلاَ ... ولا تقولى لشىء فات : ما فَعَلا
ولا تقولى لمالٍ كنتُ مُهْلِكَهُ ... مهْلا ،وإن كنتُ أُعطى الجنّ والخبَلا
يرى البخيلُ سبيلَ المال واحدةً ... إنّ الجواد يرى فى ماله سُبُلا
لا تَعْذِلِينِىَ فى مالٍ وصلتُ به ... رحماً ، وخيرُ سبيلِ المالِ ماوصَلاَ

ويفخر الشاعر بأنه المدافع عن المرأة ، الحامى لشرفها ، ويخصها بالحديث عندما يعدد فضائله ، وأكاد أجزم بأن المرأة كانت وراء ما نلمسه من ضغط الشاعر الجاهلى دائماً على ألوان من الصفات الشخصية تتصل به ، كأنه يريد أن يقول لها دئماً : ها أنذا أراضية عنى ؟ يقول عنترة :

بكَرتْ تُخوِّفنى الحتوفَ كأننى ... أصبحتُ عن عَرَضِ الُحتُوفِ بمعزِل
فأجبْتُها : إنّ المنيّة منهلٌ ... لا بُدّ أنْ أُسقَى بذاك المنهلِ
فاقْنَىْ حَياءكِ ، لا أبَالَكِ ،واعلَمى ... أنّى امرُؤٌ سأموت إن لم أُقتلِ
إنَّ المنيــة لوْ تُمثّل مثّلتْ ... مثلى إذا نزَلوا بضنك المنزِل

وما لدينا من شعر المرأة قليل، ذهبت به عادات المجتمع، كان الشاعر راوية الشاعر، وكانت المرأة راوية المرأة، وما كان لأحدهما أن يكون راوية الآخر فلما انتهت الرواية إلى عصر التدوين، بدأت مكانة المرأة الحرة تتراجع لتفسح مكانها لطبقة الجوارى والإماء، وضاع بذهاب مكانتها شعرها، ولو أن القليل الذى حفظ لنا متناثرا فى كتب الأدب، يعالج كل فنون الشعر، ويعبر عن حاجات المرأة الشعورية، حتى ما اتصل منها بالعاطفة، تقول أم الضحاك المحاربية فى زوج كانت تحبه فطلقها :

يا أيُّها الراكبُ الغادى لطيَّتِهِ
عرِّجْ أُبثُّكَ عن بعضِ الذى أَجِدُ
ما عالجَ الناسُ مِن وجدٍ تضمَّنَهُمْ
إلاَّ ووجدى به فوق الذى وجدوا
حسْبى رِضاه وأَنِّى فى مسرَّته
وَوُدِّه آخر الأيَّامِ أجتهد

ولها أبيات أخرى فى مستوى شعر امرىء القيس، عدم تحرُّج وقلّة حياء. وكانت الخنساء تأتى «عكاظ» شاعرة، تنشد النابغة الذبيانى وتعرض عليه قصائدها، وتكاد تنتزع لواء الشعر من حسَّان بن ثابت. وجاءت السوق عبلة بنت خالد التميمية لاهية، تأخذ بحظها مما كان يُهيَّأ فيه من لهو وشراب، وباعت فى ذلك سمنا وراحلتين لزوجها، وعندما نفد ثمنهما رهنتْ ابن أخيه، وشربت بثمن ذلك كلّه وهربت :

شَرِبتُ بِراحلَتىْ مِحْجَــنٍ   فياوَيْلَتى محجـــــنٌ قاتلى

وبا بن أخيــــه على لذَّةٍ   ولم أحْتَفِــل عَذْلَةَ العــاذلِ

وكانت المرأة العربية تجير الهارب ، وحرب البسوس سببها اعتداء كُلَيب بن ربيعة على ناقة سعد الجرمى ، وكان لائذا بالبسُوس ابنة منقذ البكرية ، خالة جَسَّاس بن مُرّة . وكانت تراقب الرجل زوجاً أو ابناً أو أخاً ، تسأله عن أعماله وتناقش تصرُّفاته ، ولها أن تتَّخِذ لنفسها ثرْوة ، وثرِيّات مكة لعبْنَ دوراً واضحاً فى تنمية تجارتها ، وكانت خديجة زوج النبى عليه السلام ذات قوافل تعمل بين مكة والشام ، وهؤلاء الثرِّيات بحكم مصالحهن — مع استثناء خديجة لتزوّجها من الرسول — قاومن الإسلام ، والتزمن الجانب المناوىء له ، حتى انهيار حركة المقاومة القرشيَّة .

وكان عتاب الشعراء للمرأة رقيقاً هامساً ، لا فُحْش فيه ولا اقتحام ، وينادونها بخير الألقاب ، ومن الشعر نعرف أنها كانت تبدى رأيها فى زوجها وتستشار . ولدينا إشارة إلى أن المرأة فى كندة كانت ذات إعزاز واضح ، فكان يضرب بغلوّ مَهْرها المَثل ، لأنها لا تزوِّج بناتها بأقلّ من مائة من الإبل ، وربّما أمهرت الواحدة منهن ألفا ، وكان الرسول عليه السلام يدعو : « اللهمّ أذهِبْ ملك غسّان ، وضَعْ مُهور كِنْدة » .

واحتلّت المرأة فى شعر امرىء القيس مكانا أهم مما احتلّته عند أى شاعر جاهلى آخر ، وعلى نحو تفرّد به ، فيعرض لها فى ألوان ثلاثة : متذكرا ، ومتأمّلا ، وما جنا . فى الأولى يأسى على أيّامه الخوالى معها ، ويكوّن هذا الجانب جزءا من مقدِّماته الطللية ، ومعها درسناه . وفى الثانية تناولها مخلوقا

جميلا رقيقا ، يصفه ويستغرق وصفه . وفى الثالثة جعلها مناط مغامراته ، مغامرات قد يكون فيها صادقاً أو صانعاً على نحو ما سنرى بعد قليل . والآن ، سوريًّا معه ، نرى كيف صوّر المرأة كمثل أعلى للجمال الإنسانى .

إنها ذات خصر ضامر وسيقان ممتلئة ، لا رهلة ولا مسترخية البطن ، ليست قصيرة ولا مفرطة فى الطول ، ذات نحر مصقول يتلألأ صفاء كأنه المرآة ، بياضها مشوب بصفرة ، إذا نظرْتَ إليها صدّتْ حياء وخجلا ، فيبدو خدّها جميلاً أسيلاً بضّا ، وتتقى الناس بعينيْن حانيتيْن ، هما فى سعتهما وصفائهما وجمالها أشبه بعيْنى بقرة وحشية ، طريّة السنّ من وجرة ، ولها عنق ظبى أبيض ناصع البياض ، ليس بكريه المنظر أو فاحش الطُّول إذا مدَّتْه ، وليس بعاطل من الحلى إذا عرضته ، وشعر طويل فاحم السواد مرسل على ظهرها ، تداخل بعضه فى بعض لغزارته كقِنْو نخلة ، ارتفعتْ ذوائبه إلى أعلى ، تثنَّى بعضه ، وبقِىَ الآخر مرسلاً لم يتثنَّ ، وضاعت ضفائره بين هذا وذاك .

كان خصرها ضامرا ليِّنا يتثنَّى ، تمشى على ساقين كأنهما فى بياضهما ونعومتهما برديتان أشبعتا ريًّا . أما أصابعها فرَخْصة بَضَّة ناعمة ، ليِّنة كبنات « النَّقا » ، دقيقة نقيّة مستوية ، كمساويك صُنِعتْ من شجر الإسْحِل ، وضيئة الوجه ، زهراء مشرقة ، إذا ابتسمتْ ليلا شعّت ثناياها بريقا وضوءا ، وإذا برزتْ فى الظلام أنار وجهها ، وغلبَ الظلمة ، كأنه سراج راهب اعتزل الناس وعكف على العبادة . وهى مترفة لها من الخدم والحشم ما يكفيها مئونة اليقظة المبكِّرة ، فتبقى فى فراشها حتى يفجؤها الضحى ، وبقايا مسك

تتناثر فوقه لكثرة ما تملك منه ، وروائح طيبة تشع حوله لما فى جسدها من طيب .

هى فى آخر صباها ، وأوّل شبابها ، إذا ما خطرت ذهبتْ بلبِّ الحليم ، فصبا إليها وهام بها ، وأدام النظر فيها :

مُهفْهفةٌ بيضاء غيرُ مُفاضةٍ
تَرائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ (١)

كبِكْرِ المُقاناةِ البياضِ بصُفْرةٍ
غذاها نَميرُ الماء غيرُ المُحلَّلِ (٢)

تَصُدُّ وتُبْدِى عن أَسيلٍ وَتتَّقِى
بناظرةٍ مِن وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ (٣)

وجيدٍ كجيدِ الرِّئْم ليس بفاحشٍ
إذا هى نصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ (٤)

---

(١) المهفهفة : اللطيفة الخصر ، الضامرة البطن ـ المفاضة : العظيمة البطن ، المسترخية اللحم ـ الترائب : جمع تريبة ، وهى موضع القلادة من الصدر ـ السجنجل : المرآة ، مأخوذة من الرومية .

(٢) البكر : البيضة الأولى من بيض النعام ، أى خالط بياضها صفرة — النمير : الماء العذب — غير المحال : لم ينزل عليه أحد فيكدر .

(٣) تصد : تعرض — أسيل : خد أسيل ؛ طويل ناعم ممتد — ناظرة : عين ناظرة — وجرة : اسم موضع — مطفل : ذات طفل .

(٤) الجيد : العنق — الرئم : الظبى الخالص البياض — نصته : رفعته — المعطل : المجرد من الحلى .

٥ وفَرْعٍ يزينُ المــتْنَ أسودَ فاحمٍ
أثيثٍ كقنو النّخـــلةِ المُتعَثْـكلِ (١)

٦ غــدائرُهُ مُسْتَشْزِراتٍ إلى العُـــلا
تَضِلُّ المــدارَى فى مُثَنًّى ومُرْسَلِ (٢)

٧ وكَشْحٍ لطيفٍ كالجــديلِ مُخَصَّرٍ
وساقٍ كأنبُوب السَّقِيِّ المُــذَلَّلِ (٣)

٨ ويضْحِى فَتيتُ المسْكِ فوق فِراشِهــا
نؤومُ الضُّحىَ ، لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ (٤)

٩ وتعطو بِرَخْصٍ غــيرِ شَثْنٍ كأنّه
أساريعُ ظَبْيٍ أو مَساويكُ إسْحَلِ (٥)

---

(١) الفرع : الشعر — المتن : الظهر — الفاحم : الشديد السواد — أثيث : غزير — القنو : من النخلة كالعنقود من العنب — المتعثكل : المتداخل .

(٢) الغدائر : جمع غديرة ؛ وهى الخصلة من الشعر — مستشزرات : مرفوعات — المدارى : جمع مدرى ؛ الأمشاط .

(٣) الكشح : الخصر — الجديل : الحبــل المفتول — المخصر : الدقيق الوسط — الأنبوب : البردى — السقى : صفة للنخل — المذلل : ذال بالماء فهو ريان .

(٤) لم تنتطق : لم تلبس المنطقة ؛ وهى إزار له حجزة ـ عن تفضل : أى بعد تفضل ؛ والتفضل لبس الفضال وهو ثوب واحد يلبس عند النوم .

(٥) تعطو : تتناول ـ الرخص : اللين الناعم ـ شثن : غليظ كز ـ أساريع : جمع أسروع ؛ وهو دود البقلى ، تشبه به أنامل النساء ـ ظبى : اسم مكان ـ إسحل : نوع من الشجر ، دقيق الأغصان ، مستويها ، تشبه به الأصابع .

١١ تُضِيءُ الظَّلامَ بالعِشاءِ كأنَّها
منارةُ مُمْسَى راهبٍ مُتَبَتِّلِ[1]

إلى مِثْلِها يَرْنُو الحليمُ صبابةً
إذا ما اسْبَكَرَّتْ بينَ دِرْعٍ ومِجْوَلِ[2]

وامرؤ القيس لا يملّ الحديث عن المرأة ، وإنما يمضى معها واصفاً ومصوِّراً ومدققاً حتى مخدعها ، وقد يعود إلى ما أجمله فيفصِّله ، وإلى ما تركه فيستغرقه ، عوْد يجرّه إلى تكرار المعانى ، وإن كان يكسوها فى الأعم الأغلب ثوباً من البيان جديداً . وماذا يهم ؟ إن الحديث عن الجمال لذيذ وممتع حتى ولو كان معاداً مكروراً .

كان لهوه فى هذه المرة مع آنسة رائعة ، دقيقة التقاسيم ، كأنها تمثال صنعه فنّان على عينه ، وجهها مشرق كالمصباح ، وحلْيُها على جيدها لامع متوهج كجمر مصطلٍ ، أوقده بمرتفع من الأرض لقوم قافلين من سفر ، وكان من شجر الغضى ، تختلف عليه الريح فيشتد لهبه ، وكلّما زاده المصطلى تقليباً ازداد اشتعالا . وأسنانها بيضاء ، ناعمة رخصة البدن ، ليّنة ممتلئة ، امتلاء صحّة وليس سمنة ولا ترهُّلا ، لعوب تذهب بفؤاد الرجل ، وتنسيه ثوبه إذا قام . ويعطى لامتلائها وتماسك جسمها ولينه صورة بدوية جميلة ، إنَّ عجيزتها تشبه رملا مع لينه ليس بمنهال ولا متناثر ، يلعب فوقه وليدان اكتفيا بلين مسّه وسهولته ،

---

(١) ممسى : إمساء ـ متبتل : منقطع عن الناس للعبادة ـ المنارة : السراج .

(٢) يرنو : يديم النظر ـ اسبكرت : امتدت وتم طولها ـ الدرع : ثوب تلبسه الشابات ـ مجول : ثوب تلبسه الصبايا ؛ أى هى شابة بين الصغيرة والكبيرة .

غير منتفخة الجانبين أو الخاصرتين ، ولا ممتدة البطن إذا تحـرّكتْ ، لا تترك الطيب على بدنها طويلا فتقبح رائحته ، وإذا مالت على ضجيعها صنعت ذلك فى لطف ليّن لا فى جفاء وثقل :

ويارُبَّ يومٍ قد لهوْتُ وليـلةٍ
بآنسةٍ كأنّهـا خط تمثـالِ

يُضىءُ الفراشَ وجْهُهـا لِضجيعِها
كمصباحِ زيْتٍ فى قناديلِ ذُبّالِ(١)

كأنّ على لبّاتِهـا جمرَ مُصْطَلٍ
أصاب غَضىً جزْلاً وكُفّ بأجْذالِ(٢)

وهبَّتْ له ريحٌ بمُختلفِ الصُّوَى
صَبًا وشمالٌ فى منـازلِ قفّالِ(٣)

ومِثْلكِ بيضاءِ العوارضِ طَفْـلةٍ
لَعوبٍ تُنَسِّيني إذا قمتُ سِرْبالى(٤)

---

(١) الذبال : صانعو الفتائل .

(٢) لباتها : نحرها — المصطلى : المستدفىء — الغضا : شجر جمره يبقى طويلا — الجزل : ما عظم من الحطب ويبس — الأجذال : أصول الشجر ؛ أى حاق حول الجمر بها .

(٣) الصوى : جمع صوة ، وهى الأكم الصغار — القفال : الراجعون من السفر .

(٤) العوارض : الثغر — طفلة : ناعمة ، رخصة اليدين — السربال : القميص .

كَحِقْفِ النَّقا يمشي الوليدان فوْقـه
بما احْتَسَبا مِن لينِ مسٍّ وتَسْهالِ (١)

لطيفةِ طَيِّ الـكَشْحِ غـيرِ مُفاضَةٍ
إذا انفتَلَتْ مُرْتَجّةً غيرَ مِتْفالِ (٢)

إذا ما الضَجيعُ ابتزّها مِن ثيابها
تَميلُ عليه هونةً غـيرَ مجبال (٣)

وكما وصف المرأة ، أيّـة امرأة ، مخلوقة جميلة ، دون أن يعنى واحدة بعينها ترك لنـا وصفاً لبعض رفيقاته بأسمائهن ، وصف جاريته هِرّ (٤) ، وكيف كانت تصيد الرِّجال ، أفلت منها أبوه ، ووقع هو صريع هواها ، رمته بسهم غداة الرحيل فأصابت منه مقتلا ، وتناثر دمه كقطرات اللؤلؤ ، رقراقاً كالدُّر .

إنها تمشي نشوى ، كثَمِلٍ تقطّعت أنفاسه يطأ كُثباناً من الرّمل ، ملساء مترجرجة ، مشرقة صافية ، فتِيّة السنِّ ، رخصة ناعمة ، ليِّنة كعود بان منفطر ، إذا قامت انتصبتْ على مهلٍ وقارا وجلالا ، وإذا تـكلّمت فقليلا ،

---

(١) الحقف : ما استدار من الرمل — النقا : ما استدار من الرمل أيضاً .

(٢) الـكشح : من الجسم مابين السرة ووسط الظهر — المفاضة : العظيمة البطن — المرتجة : المهتزة لنعمتها — المتفال : التاركة للطيب حتى تقبح رائحتها .

(٣) ابتزها : خلع عنها ثيابها — الهونة : السهلة اللطيفة — المجبال : العظيمة الخلق.

(٤) أنظر الفصل الخاص بسيرة شاعر ص ٧٠ ومابعدها .

وعلى روِيّة ، زهواً واعتزازاً ، وإذا فترت تكشّفت عن أسنان باردة ، فكأنها الخمر تسكر ، أو السحاب يُحيي ، أو ريح الخزامى تعبق بالعطر ، أو العود يفوح ، وفمها فى الفجر الباكر ، مع صياح الديكة ، بارد طيّب الرائحة :

وهِرٌّ تصيد قلوبَ الرجالِ
وأفلتَ منها ابنُ عمرو حُجُرْ

رمتْني بسهمٍ أصاب الفؤادَ
غداةَ الرحيلِ فلم أنتصرْ

فأسبلَ دمعي كفَضِّ الجُمان
أو الدُّرِّ رَقْراقِه المُنْحَدِرْ (١)

وإذْ هى تمشي كمشْي النّزيـ
ـفِ يصرعُه بالكثيبِ البُهُرْ (٢)

بَرَهْرَهَةٌ رُؤْدة رخْصَةٌ
كخُرعوبة البانَةِ المنْفَطِرْ (٣)

فتُورُ القيامِ ، قطيعُ الكلا
مِ ، تفترُّ عن ذى غُروبٍ خَصِرْ (٤)

---

(١) الجمان : اللؤلؤ الصغار يعمل من فضة .
(٢) النزيف : السكران ـ الكثيب : المجتمع من الرمل ـ البهر : الانبهار .
(٣) البرهرهة : الرقيقة الجلد — الرؤدة : الناعمة ـ الرخصة : البضة ـ الخرعوبة : القضيب اللدن — المنفطر : المتشقق .
(٤) الغروب : استواء الأسنان ودقتها ـ خصر : بارد .

كأنَّ المـدامَ ، وصوْبَ الغمامِ
وريحَ الخُزامى ، ونَشْرَ القُطُرْ (١)

يُعَــلُّ بــه بردُ أنيــــابها
إذا طـرَّب الطـائرُ المستحِرْ (٢)

وبعض صاحبات امرىء القيس تعالين عليه ، وصرمن معه حبل ودّهن ، فاتخذ منهن موقف العاشق المتذالل ، يبثّهن هواه وحرقته ، واحتفظت لنا « المعلقة » بموقفه من فاطمة ، بنت العبيد بن ثعلبة ، من عُذرة ، وهى ظاهرة ملفتة للنظر ، أن تكون الوحيدة التى جاء ذكرها فى شعر امرىء القيس متأبّية متعالية متدلّلة ، من عذرة ، موطن الحب العذرى ، ومهبط شعرائه . على أى حالٍ نلمس فى موقف امرىء القيس معها رقّة ولطفا ، يعتب عليها هامساً ، يريدها أن تتدلّل شيئاً ، فبعض الدلال يزين المرأة ويثير الرجل ، لكنه لا يريدها أن تسرف فيه ، لأن الإسرافِ يشيع فى جوانبه اليـأس ، وقد يصرفه عن هواها إلى أخرى ، ويلحّ عليها : إذا كنتِ قد عزمتِ على تركى فاصنعى ذلك فى رفق لا يُؤذى ، ويدعوها أن تتجمل وهى الآمرة ، فلا تقسو إذا نَوت هجراً ، وإلى فراقه إذا رأتْ فى أخلاقه ماتكره ، ثم يراوحها فيهدهد من غلوائها ، لا يغرنّك أنى لك عاشق ، وأن قلبى لك طائع ، مهما تأمريه يجيب ، فثورة المستسلم جامحة ، وتمرّد الضعيف جارف ؛ والحذر يؤتى من مأمنه ، والدموع التى تتخذين منها سهاما لتحطيم قلبى ، لن تبلغى من ورائها

(١) الخزامى : نبت طيب الرائحة ـ القطر : العود الذى يتبخر به .
(٢) يعل به : يسقى به ـ المستحر : المصوت بالسحر .

شيئاً ، إنها تصيب قلباً مزّقته السهام ، وأضناه الحب ، أَلِف الآلام واطمأن إليها ، فلن تزيده على مافيه ألماً :

١ أفاطمَ مهلاً ، بعضَ هذا التدلّل !

وإن كنتِ قد أزمعت صَرْمِى فأَجملى(١)

٢ وإن كنتِ قد ساءتْك منى خليقةٌ

فسُلِّى ثيابى من ثيابك تَنْسُلِ(٢)

٣ أغرّكِ منّى أنّ حبّك قاتِلى

وأنّكِ مهما تأمرِى القلبَ يفعَلِ

٤ وما ذَرفتْ عيناكِ إلّا لتقدحِى

بسَهْميْك فى أعشارِ قلبٍ مُقَتّلِ

وهو يدعو إلى التمتع من الدنيا ، والدنيا فى مذهبه كأس وامرأة ، والمرأة فى ذوقه طيّبة دائما ، بيضاء كالظبية ، أو سمراء كالتمثال ، حصان عفيفة ، أو متبرّجة معترضة :

تمتّع من الدنيا فإنّك فانِ

من النّشوَاتِ والنساءِ الحسانِ

---

(١) أزمعت : انتويت — صرمى : هجرى .
(٢) سلى ثيابى من ثيابك : كناية عن الافتراق .

من البيض كالآرام ، والأدْم كالدُّمَى

حواصِنُهـا ، والمبرِقات الرَّوانى[1]

يبقى جانب المغامرة من غزل امرئ القيس ، وهو شائك الطريق ، دقيق المعالجة ، يتطلب حذرا فى عرضه ، ومعرفه بما يقال ، وما يكتفى فيه بالإشارة والتلميح ، والتوفيق بين ما تقتضيه الأمانة العلمية ، ويفرضه إكمال الصورة ، وبين ما يتطلبه ذوق مجتمعنا المعاصر — أو بعضه على الأقل — وبيئـة تباشر ما قاله امرؤ القيس عملا ، وتراه فى الخيالة مصَّوراً ، ثم ترفض أن تسمعه تحليلا أدبياً ، لأن فيه صراحة واضحة ، وواقعية جافية ، رغم أنه الجانب الذى كان فيه امرؤ القيس أستاذاً مبدعاً ، وشاعراً خالقاً .

تضمَّنت معلَّقة امرئ القيس قصتين من مغامراته ، الأولى كانت مع عُنيزة ، ابنة عمه شُرَحبيل ، فيما تقول الرواية ، وأنه احتال لرؤيتها فى قصة عرضنا لها من قبل[2] ، قبلناها جملة ورفضنا ما وُشِّيتْ به من أفاويه . وكانت يوم « دارة جُلجُل » ، فيه عقر لصويحباته ناقتـه ، ناقة قويّة ، مُوثقة الخلْق ، ووزِّعتْ رحالها على نوق كثيرة ، عند ما عادوا إلى الرحلة . كان لحمها وفيراً ، طعِمْنَ منه هنيئاً ، بلا مراسم ولا تقاليد ، يتقاذفْن اللحم أو يتهادينه ، مرحاً ولكثرته ، وكان ما أعطت من شحم أبيض ناصعاً ملفوفاً كهدَّاب الحرير

(١) الأدم : اللاتى يضربن إلى السمرة — الحواصن : جمع حصان أو حاصن ؛ العفائف — المبرقات : اللواتى يبرزن محاسنهن للرجال — الروانى : الدائمات النظر .

(٢) أنظر ص ٨١ وما بعدها من هذا الكتاب .

المقتول ، وتقاسمت الفتيات أحماله ، وبقي هو ، وكان من حظه أن يركب في هودج عنيزة ، فتحرش بها ، وضاقت به ، تهدده أن تنزل فتمشي راجلة ، فلا يخاف تهديدها ولا يهدأ ، يميل بهما الغبيط من عنف ما يتحرك ، فتأمره بالنزول فَيُجيبها في هدوء بارد ، وفي عناد من واتتْـه الفرصة لا يريد لها ضياعا ، واستهتار من اطمأنّت نفسه لا يخاف غيره ، ولا يحسّ من ضميره وازعاً : هوِّني عليكِ ، دَعِي الناقة تسير ، وأرخي زمامها ، ولا تحرميني من حديثك وقبلاتك ، ثم يخرج من هذا الغرض إلى غزل صريح فاجر ، عُرِفَ به واستنّه لمن جاءوا بعده ، يتعهَّر فيه ولا يتستر ، لا يتعفف عن وصف ، ولا يكتفي بإيماء ، يقصّ عليها من مغامراته الفاضحة ، وتجاربه العديدة مع النساء ، نساء يختلفن سناً ووضعاً ، ورأيهنّ فيه ، وإعجابهنّ به ، أو هكذا يقول :

ألاَ ربَّ يومٍ لكَ منهنّ صالِحٍ
ولا سيَّما يومٌ بـدارةِ جُلْجُلِ[1]

ويومَ عقرتُ للعـذارَى مطيَّتي
فياعجبـاً مِن رَحْلهـا المُتحمَّلِ[2]

يظلُّ العـذارَى يَرْتمين بلحمها
وشحْمٍ كهُدَّاب الدِّمَقْس المُفَتَّلِ[3]

---

(١) انظر الهامش السابق .

(٢) مطيته : ناقته .

(٣) الدمقس : الحرير الأبيض .

ويوم دخلتُ الخِدْرَ خِـدْر عُنَيْزةٍ
فقالتْ : لك الويلاتُ إنكَ مُرْجِلِي[1]

تقولُ ، وقـد مالَ الغبيطُ بنا معا :
عقرتَ بعيرى ، ياامرأ القيس ، فانْزِلِ[2]

فقلتُ لها : سيرِى ، وأرخِى زِمامَه
ولا تُبعِديِنى مِن جنـاكِ المعلَّلِ

فمثلكِ حُبْـلَى قد طرقْتُ ومرضِعٍ
فألهيْتُها عن ذى تمـائم مُغْيَلِ[3]

إذا مابكى . . . .
. . . . . وشِقٌ عنـدنا لم يُحوَّلِ

ثم يعود فى نفس المعلقة إلى مغامرة جريئة ثانية ، كانت له مع واحدة من صويحباته ، يُـكْنى عنها ولا يذكر اسمهـا ، ويرسم فى صورة متكاملة كيف اقتحم الأهوال إليها ، وتخطّى القوم ، رغم يقظة هؤلاء ، ومنعة بيتها وتربّص أهلها به ، وإصرارهم على قتله لو استطاعوا أن يفعلوه خِفْيـة ، وماهم بقادرين لنباهته وحسبه . وقد بلغ بيتها ، والثريّا تتوسط السماء ، تلمع فيها بين النجوم لمعان لؤلؤة تتوسط خرزاً فى ثوب مُوَشّى ، وكانت صاحبته تأخذ

(١) مرجلى : تاركى أمشى راجلة .
(٢) الغبيط : قتب الهودج .
(٣) ذى تمائم : طفل علقت عليه تميمة ـــ مغيل : الذى يرضع وأمه حبلى .

أُهبتها لتنام ، خلعت ثياب اليوم ، وارتدت ثوب النوم ، فلما فجأها جرى بينهما حديث وحوار ، أقسمتْ له أنَّها استنفدت جهدها فى دفعه ، فلم يبق لها حيلة ، وأنه مغرق فى استهتاره ، فلاسبيل له أن يتعقّل ، وما بَقِىَ أمامها إلاّ أن تطيعه ، فخرجت معه إلى مكان قصىّ من الحىّ حيث لا تراهما العيون ، وقد ارتدت ثوبا طويلا ، تجر وراءها ذيله ، فيمحو كل أثر تخلّفه أقدامهما ، وقد تطيبتْ بمسك ينتشر منهـــا قوياً ، كما لو كان نسيما رقيقاً مرّ بديار عامرة بزهور القرنفل ، فإذا داعبها مالت عليه ، دقيقة الخصر ، ريّانة الساق :

وبيضةِ خِــدْرٍ لا يُرامُ خِبــاؤُها
تمتّعتُ مِن لهوٍ بهــا غـــيرَ مُعجلِ[(١)]

تخطّيتُ أهــــوالاً إليها ومَعشراً
علىَّ حراصاً لو يُسرّون مقتــلى

إذا ما الــثُّريّا فى السماءِ تعرّضتْ
تعرُّضَ أثنــــاءِ الوِشاحِ المفصّلِ[(٢)]

فجئتُ وقــــد نَضَتْ لنومٍ ثيابهـا
لدى السِّـــترِ إلاّ لِبْسةَ المتفضّـلِ[(٣)]

---

(١) بيضة خدر : يريد امرأة كالبيضة فى صفائها ورقتها ، وأضافها إلى الخدر ، أى هى مكنونة غير مبتذلة .

(٢) الوشاح : خرز يعمل من كل لون — المفصل : الذى فصل بالزبرجد .

(٣) نضت : نزعت — المتفضل : الذى يلبس ثوباً واحداً .

٥ فقالتْ : يمينُ اللهِ مالكَ حيلةٌ

وما إنْ أرى عنكَ العَمايةَ تنجلي[(١)]

٦ خرجْتُ بها تمشي تجرُّ وراءنا

على أثرَينا ذيْلَ مِرْطٍ مُرحَّلِ[(٢)]

٧ فلمّا أجزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحَى

بنا بطنُ حِقْفٍ ذي رُكامٍ عَقَنْقَلِ[(٣)]

٨ إذا التفتَتْ نحوي تضوّعَ ريحُها

نسيمَ الصَّبا جاءت بريّا القَرَنْفُلِ[(٤)]

٩ هصرتُ بفَوْدَيْ رأسِها فتمايلتْ

عليَّ ، هضيمَ الكشْحِ ، ريّا المُخَلْخَلِ[(٥)]

ومغامرة أخرى ، أشد تفصيلا ، وأعذب حديثاً ، وأرق وصفاً ، وأكمل تصويراً ، مع امرأة مجهولة ، لانعرف غير اسمها ، ولم يذكر لها الرواة نسباً ، ولا يفصح هو عن شخصها أو ما به تعرف ، وأغلب الظن أن الاسم مجرد رمز لا يعني شيئاً ، ذهب إليها متلصِّصاً ، يتقدم وئيداً خفيفاً ، خطوة وراء أخرى ،

---

(١) العماية . الجهالة ، الاستهتار .

(٢) المرط : إزار يكون من حرير أو من صوف — مرحل : موشى .

(٣) الحقف من الرمل : المعوج ـ ركام : بعضه على بعض ـ عقنقل : منعقد متداخل .

(٤) تضوع : انتشر وتحرك ـ ريا : رائحة .

(٥) هصر . أخذ بالشيء وأماله إليه — فودالرأس : جانباه — الهضيم : الضامر — ريا : ممتلئة .

كحباب الماء يعلو بعضه بعضاً فى يسر وعلى سهولة ، فجأها بعد ما نام أهلها ، فجزعت منه ، واضطربت أمام جرأته ، وقالت له : قاتلك الله ! إنّك فاضحى ، السمّار ما زالوا حلقا ، والناس يقظى ، فيرد عليها مقسما بأغلظ الإيمان ، إنه لن يبرح مكانه ، ولو جاء مَن يُرديه ،ويمثّل به قتيلا ، فإذا اجتثّ من فكرها أنه لن يذهب ، أشاع فى نفسها الطمأنينة ، ليبلغ مجلسهما غايته ، فلاخير فى لقاء حبيبة خائفة ، مضطربة الجوانح ، موزّعة الفكر ، فيقسم لها ثانية ، يمين كاذبٍ فاجر ، إن السمّار تفرقوا ، والناس ناموا ، فما من صوت يُسمع ، ولا حركة تُحس فلما اطمأنّتْ حدّثته وحدّثها ، ، ثم أسمحتْ ، فانقادت بعد صعوبة ، وسهلتْ بعد تمنّع ، وانتقلا إلى ما يحبّان من لهو الحديث ، ورقّ كلامهما ، ثم راضها فذلّتْ ، وأسرفتْ فى الرضا بعد أن أسرفتْ فى التمنّع ، فانتزع هواها ، وخلب فؤادها ، فمالت إليه ، وكرهت زوجها ، وأدرك الزوج بإهمالها له ، وبانصرافها عنه ، فعاد مغبرّا كاسف الحال . فلما عرف ما كان من أمرها ، اختنق غيظاً وغط غطيطاً ، كجمل فتىّ قوىّ شُد من خناقه بحبل ، يريد قتلى وذلك دون قدرته ، فليس فى وسعه أن يقتل من لا يفارق سيفه ، مسنون السهام ، محدّد الأزجّة ، صافية كأنها أنياب غيلان . وهو لا يملك رمحاً يطعن ، ولا سيفاً يُشهر ، ولا نبالا تُرمى ، وحتى لو قتلنى فأزاحنى من طريقه ، لن يسعد معها ، فقد ملكت شغاف قلبها ، كما تستلذّ الناقة المهنوءة بالقطران ، يكاد يُغشى عليها تلذّذاً منه ، فليس أمامه من سبيل كى تحبّه ، وربّما أدّى قتلى إلى قطيعة بينه وبينها حزناً علىّ ، لكنى لست خائفاً ، وليست هى علىّ بمشفقة ، لأنها تعرف من زوجها مالا أعلم ، تعرفه ثرثاراً قوّالا ، يتحدث كثيراً ، ولا يعمل شيئاً :

سموتُ إليها بعـــد ما نام أهلُها

سُمُوَّ حَبابِ المـــاءِ حالاً على حال

فقالت : سباكَ اللهُ إنكَ فاضحى

ألستَ ترى السُّمَّارَ والناسَ أحوالى[(١)]

فقلتُ : يمينَ اللهِ أبرحُ قاعـــداً

ولو قطَّعوا رأسى لديْكِ وأوصالى

حلفتُ لهـا باللهِ حَلْفةَ فاجـــرٍ

لَنَاموا فما إنْ مِن حديثٍ ولاصَالِ[(٢)]

فلمَّا تنازعْنا الحديثَ وأسمحتْ

هَصَرتُ بِغُصنٍ ذى شماريخ ميّالِ[(٣)]

وصِرْنا إلى الحُسنَى، ورقَّ كلامُنا

ورضتُ ، فذلّتْ صعْبةً أىَّ إذلال

فأصبحتُ معشوقاً ، وأصبح بَعْلُها

عليه القَتَامُ ، سيِّءَ الظَّنِّ والبالِ[(٤)]

---

(١) سباك : باعدك وفضحك .

(٢) صال : مصطل بالنار ، يستدفىء .

(٣) هصرت : جذبت ـــ الغصن : أراد به جسمها ـــ ذى شماريخ : أرادبهشعرها.

(٤) القتام : الغبار .

يغطُّ غطيطَ البَكْرِ شُدَّ خناقُهُ

ليَقْتلنى ، والمرءُ ليس بقتالِ(١)

أيقتُلنى والمشْرفِيُّ مُضاجِعِى

ومَسْنُونةٌ زُرقٌ كأنْيابِ أغوالِ(٢)

وليس بذى رُمحٍ فيطعننُى به

وليس بذى سيفٍ ، وليس بنبّال

أيقتُلنى وقد شَغفتُ فؤادها

كاشغفَ المهنوءةَ الرجلُ الطالى(٣)

وقد علمتْ سلمى وإنْ كان بَعْلَها

بأن الفتى يَهْذى وليس بفعّال

ولم تكن المغامرة من جانبه دواما ، يقتحم على صاحباته منازلهن ويضجرُهن ، فيخرجن معه ويسعدن به ، ويضقن منه ويستجبن له ، وإنما كنّ يمضين إليه أيضا ، يرسل فى طلبهن أو يتحسّسن أخباره ، يرغبن فيه أو يأسين لحاله ، وترك لنا صورة لمحاولة كهذه ، دقيقة الوصف ، متماسكة الجوانب .

---

(١) يغط غطيط البكر : يردد صوتاً كصوت المختنق ؛ والبكر الفتى من الإبل ، وهو صعب عند الرياضة ، فيشد من حبل فى خناقه ليراض به .

(٢) المشرفى : سيف نسب إلى قرى فى الشام يقال لها المشارف ـــ الأغوال : جمع غول ؛ وهى السعالى : مخلوق خرافى ، كانت العرب تخافه وتخوف به الأطفال .

(٣) المهنوءة : المطلية بالقطران .

فصاحبته التي كان يحبها خَفِرة حيية ، ذات طفل ترعاه ، موزّعة القلب بينهما ، تخشى إذا تخلّفت عنه أن يسيء بها الظن ، ويسوؤها إذا جاءته أن تدع وليدها يبكى ، فلما أبطأت أرسل فى طلبها ، حين لفّ الظلامُ الحىَّ ، خشية أن يراها أحـــد ، فلبّتْ دعوته ، وأقبلتْ قطوف الخطا ، هيابة السُّرى ، كاعب النهد ، ممتلئة الـكفل ، تمشى مبهورة النفس قلقا وحذرا ، كثمل خالط عقله مع الخمر بقيَّة من نعاس .

ويجرى بينهما حديث شيِّق ، تقول له مرتاعة مذعورة ، وهو يجرّدها من ثيابها ، دقيقة التقاسيم ، طويلة العنق : لو أن أمرا آخر تطلّب أن أفارق بيتى فى هذه الساعة من الليل ، وأدع وليدى وحيدا ، لما أعرته أىّ اهتمام أمّا مشيئتك فلا أستطيع لها دفعا ، وقضيّا الليل قتيلين لا يعرف لهما الناس مصرعا ، تسعده وتدفع عنه الهمّ ، ويمتعها وينأى بها عن الملل ، ثم انقطع بينهما عادىّ الحديث ، وحلَّ مكانه آخر أخفت صوتا ، وأرق همسا ، وأعذب معنى ، ولفتهما الستائر ، فإذا أخذتها هِزَّة الروْع ، أمســكتْ بذراعيه ، ذراعى رجل مقدام :

ومنهنَّ سَوْفِى الخَوْدَ قد بلَّها النَّدَى ... تُراقِبُ مَنْظومَ التَّمـائِمِ مُرْضَعَا[1]

يعزُّ عليهـــا رِيبتى ، ويَسُوءها ... بكاهُ ، فتَثْنِى الجيدَ أَنْ يتضوَّعا[2]

بعثتُ إليهـا والنجوم طوالـعٌ ... حِذاراً عليها أن تقومَ فَتُسْمِعا

---

(١) ساف : شم ؛ والسوف الشم — الخود : المرأة الخفرة الحيية : التمائم : جمع تميمة ؛ وهو العوذ ، ويريد بها قلادة صبيها .

(٢) ريبتى : شكى — يتضوع : يشتد بكاؤه ، ومعناه ألا يتضوعا .

فجاءتْ، قطوفَ المشيِ، هائبة السُّرَى ... يُدافعُ رُكناها كواعبَ أَرْبعا[1]

يُزَجِّيِنهاَ مَشْيَ النَّزِيفِ وقد جرَى ... صُبابُ الكرَى فى مُخِّهِ فتقطَّعا[2]

تقولُ، وقد جرَّدْتُهـا من ثيابها ... كمارُعْتَ مَكْحولَ المدامعِ أَتْلَعَا[3]

أَجِدَّكَ لو شىءٌ أَتانا رسـولُهُ ... سِواكَ، ولكن لم نجدْ لكَ مَدْفعا

فبِتْنَا نصُدُّ الوحش عنّا كأنَّنـا ... قتيلانِ، لم يَعْلمْ لَنَا النّاسُ مصرعا[4]

تجَافَى عن المأثورِ بَيْنِى وبيْنَها ... وتُدْنى عليها السَّابِرِيَّ المُضَلَّعَا[1]

إذا أخذتْهَا هِزَّةُ الرّوْعِ أمْسكتْ ... بِمَنكِبِ مِقْدامٍ عَلَى الهوْلِ أرْوَعَا[2]

ولم يقنع امرؤ القيس بفتيات عصره يطاردهنّ، محصَّنات عفيفات، أو متحرِّرات معترضات، وإنما تردّد على بيوت الريبة والهوى، عند مَن يبعن الهوى لمن شاء. وترك لنا صورتين مختلفتين للونين متباينين. الأولى

---

(١) قطوف المشى: مشيها متقارب — السرى: السير بالليل — ركناها: جنباها — الكواعب: جمع كاعب؛ التى نهد ثديها.

فسر الدكتور أحمد الحوفى «كواعب أربعاً»: «بأنها لم تجىء وحدها، بل كان معها أربع من رفيقاتها الكواعب» (الغزل فى العصر الجاهلى، الطبعة الثانية، ص ٢٤٥). وأرى أن المعنى لا يستقيم مع هذا التفسير، لأن الحديث فى الأبيات التالية له يدور على واحدة، ولأن من تذهب لتلقى عشيقها إنما تؤثر أن تذهب وحيدة لا يراها أحد ويخيل إلى أن امرأ القيس يقصد بكواعب أربع، نهديها الكاعبين، وردفيها الممتلئين. وعلى هذا النحو فهمت البيت وفسرته.

(٢) يزجى: يسوق — النزيف: السكران — صباب الكرى: بقية النعاس.

(٣) مكحول المدامع: ولد الظبية — أتلع: طويل العنق.

(٤) الوحش: الهم.

(١) السابرى: ضرب من الثياب.

(٢) الهزة: الحركة، الارتعاد.

لواحدة كانت كذلك فى شبابها ، فلمّا تقدمتْ بها السنّ ، وذهبتْ بجمالها الأيّام ، انصرفتْ إلى بيت تديره لحسابها .

وقد ذهب امرؤ القيس إلى هذا البيت فى ليلة تلفّها السحب ، فوجد سيّدة جمّاء ، غاب عظم مرفقها وراء لحمها ، تتوسط عددا من الفتيات الجميلات ، أيديهن بضّة ، وأصابعهن رقيقة ، ملساء طويلة ، وأنوفهن قنوى ، قاماتهن مديدة ، وخصورهن لطيفة ، تمّمْنَ خلقة واكتملْن جمالا ، يبعن مع الهوى أمانىّ وأحلاما ، تُضلّ الحليم ، ورغم أنه لم يكره فيهن شيئا ، ولم يكرهن فيه خليقة ، صرف هواه عنهن خشية الهلاك :

وبيتِ عذارى يومَ دَجْنٍ ولجْتُهُ ... يطفْنَ بجمّاءِ المرافقِ مِكْسالِ (١)

سِباطِ البَنانِ والعرانينِ والقَنا ... لِطافِ الخُصورِ فى تمامٍ وإكمالِ (٢)

نواعِمُ يُتْبِعْنَ الهوَى سُبُلَ المُنَى ... يَقُلْن لأهلِ الحِلْمِ ضُلاًّ بتَضْلالِ

صرفتُ الهوى عنهنّ من خشيةِ الرَّدَى ... ولستُ بمَقْلِىٍّ الخِلالِ ولا قالِ (٣)

والصورة الثانية بقايا لوصف وليست كاملة ، وردت فى القصيدة الثلاثين من ديوانه ، مقطوعة الصلة بما قبلها وما بعدها ، وفيها دخل بيتاً ليس له رواق ، يفوح المسك فى أنحائه ، على امرأة بيضاء سمينة ، غارت عظامها وراء لحمها ، إذا جئتها برزت فى قميصها :

---

(١) الدجن : الغيم يملأ السماء — الجماء : من غاب عظم مرفقها لكثرة لحمها .
(٢) سباط البنان : لينات الأصابع — العرانين : الأنوف — القنا : القامات .
(٣) مقلى وقال : مكروه وكاره .

وبيتٍ يفوح المسكُ فى حجراته بعيدٍ من الآفاتِ غيرِ مُرَوَّقِ (١)

دخلتُ على بيضاءَ جُمٍّ عظامُها تعفِّى بذيل الدِّرع إذْ جئتُ مَوْدِقى (٢)

ذلك هو امرؤ القيس فى غزله ، متحفّظاً عفيفاً ، أو مندفعاً صريحاً ، وذوقه فى الجمال هو الذوق الذى ترتضيه الفطرة السليمة فى كل عصر ، ولا أظن حكام مسابقات ملكات الجمال فى العالم اليوم يمكن أن يكون أمامهم من مقاييس للحكم بين المتسابقات أوضح وأدق مما ارتأى امرؤ القيس فى صويحباته ، حقاً أو أمنية ترجّى أن تكون . فهى هيفاء مديدة ، فرعاء رشيقة ، مشرقة الوجه ، فاتنة العين ، آسرة النظرة ، أسيلة الخد ، ذات شعر غزير أسود طويل ، لمياء الشفة ، عذبة الثنايا ، طويلة الجيد ، صقيلة النحر ، كاعبة النهد ، ممتلئة الكفل ، ريّا الروادف والعجز ، ملتفة الفخذ ، بضّة اليد ، دقيقة الأصابع ، ريّانة الساق .

ونساء امرىء القيس لسن طرازاً واحداً فى أخلاقهن : ففاطمة متدللة معزوزة ، وليلى ناسية ناكرة ، وعُنيزة متمنّعة مستجيبة ، وأسماء حُوّل قُلّب ، وسلمى غِرّة نافرة ، وماوية خبيثة ماكرة ، وهرّ لعوب مستجيبة ، ورقاش معترضة باذلة ، وأخريات كثيرات لا يذكر أسماءهن ، فيهن الساخطة المحتجة ، والساذجة العاقلة ، والخائفة المتكبّرة ، ومَن تقصر حبها على رجل ، ومَن تهب نفسها الناس جميعاً . وصوّرها رقيقة الحديث ، هامسة الحوار ، تسعد معه حتى يغشى عليها فما تستطيع قياماً إلا متكئة على ساعده ، وهناك مَن لها قوم يغارون عليها ، ويلاحقون امرأ القيس إذ ألمّ بحيهم ، ولو استطاعوا قتلوه ،

---

(١) ليس مروق : ليس له رواق ؛ سقف فى مقدم البيت أو ستر يمر دون السقف .

(٢) الدرع : قميص المرأة — مودق : مكانى.

ومن لا يمثّل زوجها ثقلا فى البادية ، من العسفاء أو الرقيق أو غمار الناس ، يأتيها امرؤ القيس ولا يقيم لزوجها وزناً ؛ وهناك الحامل والمرضع ، والشابة الفتية ، والصبية المراهقة ، والحرة والجارية ، وبائعة الهوى ليس من حرج فى أن يلم بدارها ، وإنما الحرج كله فيما يصيب المرء بعدها من تهلكة ، جاء ذلك فى شعره ، عرضاً ومتناثراً ، ولكل امرأة صفةلاتتجاوزها ، أما نصيب المرأة الواحدة من مشاعر متباينة حين ترضى أو تغضب ،أو تسر أو تحزن ، وحين تخاص وتفى ،أو تتنكر وتخون . فلا يعرض له . وهو يغفل تماماً الحديث عن عقل المرأة ، وفضائلها النفسية ، وجمالها غير المرئى .

أول ما يبدو للدارس من سؤال ، لِمَ شُغِل امرؤ القيس دون غيره من شعراء عصره بالمرأة ، فوصفها ذكريات وبدناً ، وصوّرها حرة وبغيّاً ، وحدثنا عنها طالباً ومغامراً ؟

الجواب يكمن فى نشأته العائلية ، كان أبوه متزوجاً بأكثر من امرأة ، ولسنا نعرف على التأكيد مكانة أمّه من قلب أبيه ، لكن واقع الحال ينبىء ، إذا أخذنا برواية أنها أخت يزيد بن كبشة(١) ، أنه كان زواجاً قبلياً ، تمليه صلة القرابة ودواعيها ، دون أن ينظر فيه إلى ما هو عماد أى زواج ناجح من توافق فى العواطف والميول ، وامرؤ القيس يصمت عن أمّه تماماً ، لايعرض لها ولا مرّة واحدة ، فهل يسوّغ لى هذا الصمت أن أفترض أنه افتقدها طفلا صغيراً ، فلم يبق لها من ذاكرته أدنى نصيب حين قوى عوده واشتد ساعده ؟ بلى ، ذلك ما أراه . من غير أمّ أمضى امرؤ القيس طفولته ، وشبّ

---

(١) أنظر فصل « سيرة شاعر » من هذا الكتاب .

يتيما ضائعاً ، أبوه فى شغل عنه بملاذه وملكه ، وقاس معه فى تربيته وحسابه،
وفى البيت يفتقد العاطفة الودود ، فشب وقلبه صحراء خالية مجدبة ، يعمرها
الخوف والوحدة ، وشىء واحد يمكن أن يملأ تماماً قلب الرجل الخالى ،
هو قلب المرأة ، وفى نفس الوقت هى أمضى سلاح لقتل الخوف ، واجتثاث
الوحدة ، والمرأة القادرة هى المرأة الفاتنة ، وفتنتها تتمثل فى كمالها خلْقة وتصويراً.
وهذا هو السبب فى أن امرأ القيس قصر شعره ومشاعره على الجانب الحسّى
وحده من جمال حبيباته .

ويمكن أن أضيف إلى ذلك سبباً آخر ، هو أنه لم تكن هناك فرصة له - أو
لغيره - لكى يلقى الحبيبة دواما ، فى غير لحظات اللهو العاجلة ، ليكتشف الجانب
الخفى من فضائلها ، لأن المجتمع الجاهلى رغم أنه لا يعرف الحجاب ، ولا يمنع
الاختلاط ، كانت تحكمه تقاليد تجعل من الرجل جليس نده ، ومن المرأة سميرة
بنت جنسها ، فكان ثمّة فصل بين الجنسين ، تقليداً متعارفا ، فلا يرى الرجل
من جمال المرأة إلا جانبه الخارجى ، وهو جمال رغم ماديته يعكس جانباً كبيراً من
فضائلها النفسية ، لأنه جوهر وتعبير ، وتجسيم لروحها قبل أن يكون دما وأعصابا
ومادة ، والحب الحسى ، كالعشق العذرى ، ينبعث عن عاطفة ، ويعبّر عن
شعور .

تبقى معنا قضيّة الجرأة فى وصف ما اعتاد الناس أن يبقوه سرّا ،
يُشار إليه ولا يُقال ، ويُكنى به ولا يُصرّح . والواقع أن ماجرؤ
امرؤ القيس على تصويره جرت عادة الشعراء على قول الشعر فيه ، منذ كان
هناك شعراء وإحساس ونساء ، إن لم يكن فى أعمارهم الناضجة ففى مطالع شبابهم

إن لم يكن فى مجال الجد ففى ميدان التفكه ، إن لم يكن فى المحافل العامة ففى مجالسهم الخاصة . ويبقى من القضيَّة لماذا انفرد امرؤ القيس من بين شعراء الجاهلية بأن يُروَى عنه هذا الشعر الجرىء ؟

من الواضح أن فى رواية الناس لشعره هذا حتى عصر التدوين ، وبقاءه فى روايات ديوانه المختلفة ، وشارك فى الحفاظ عليها وشرحها علماء من شتى أقطار العالم الإسلامى ، دليلاً على أنه لم يكن يتجافى الأذواق السليمة كل المجافاة ومن الناس من عالج نفس أفكاره ، بألفاظ أكثر مداراة ، وفى أسلوب أقل صراحة ، والنهج الذى اختطه امرؤ القيس لنفسه لم يكن مما يعيب الفرد فى عصره ، والألفاظ التى حملت أفكاره لا تجرح ذوقا ولا تخدش حياء ، وإذا لم يُرو للآخرين من معاصريه شعر فى مثل شعره ، باستثناء الأعشى وأم الضحاك المحاربية فى أبيات لهما قليلة ، فلأن الشعر كان بالنسبة لهم وظيفة اجتماعية ورسالة قبلية ، لابد أن يكونوا على مستواها ، فصالح القبيلة يسبق رغائبهم ، ويأتى الشعر تعبيراً عنه ، وتصويراً لما تراه ، قبل أن يكون تعبيراً عن نوازع الشاعر الفردية ، وأشد أفكاره ذاتيّة يعبّر عنها كواحد من القبيلة هو مثلها الأعلى . أما امرؤ القيس فكان شاعر نفسه ، ينفعل ، ويمضى مع انفعالاته حتى النهاية ، ويعبّر عنها دون أن يتحرّج أو يتأثّم ، لأن الشعر عنده غاية وليس وسيلة ، طريق للتعبير عن مكنون ذاته ، والبوح بدخائل عاطفته وليس مركباً إلى أبّهة اجتماعية يبتغيها . والأعشى وكان الوحيد بين كبار شعراء الجاهلية الذى ناكب امرأ القيس طريقه ، على خجل واستحياء ، لم يكن شاعر قبيلة ، والشعر عنده موهبة يتعيّش منها ، وليس فناً يصوغ فيه ذاته .

ما الفرق بين امرئ القيس والأعشى ؟

لقد قيل أن امرأ القيس كان فاحشاً، وهى واحدة من مسلمات كثيرة نتوارثها ونرددها، دون أن يسائل أىّ منا نفسه، أين هو الفحش فى شعر امرىء القيس؟ ليس فى ديوانه غير بيتين فكرتهما مكشوفة، واختار لها من الكلمات أرقها، فلا ترى فيهما لفظاً نابياً أو تعبيراً جارحا. وقد يتحدّث عن ألوان من الصلات يؤثر الناس فى أيامنا، وفيما قبلها، أن يكون الحديث عنها خاصاً وهمساً، فإذا عبّر عنها بصوت مرتفع ضاقوا به، وإذا صوّر رذائله برموا بها، كأن يراود امرأة لها زوج ومن ورائه، ثم يسرف فى الحديث عنها، كيف أخذ بمجامع قلبها، فأغراها بكرهه، وكيف اقتحم الحىّ إلى أخرى، استلها منه، وذهب بها بعيداً عن القوم، يسمر معها، ويلهو بها.

لكن إقحام العنصر الأخلاقى يخرج بنا إلى قضيّة قال القدامى رأيهم فيها صريحاً واضحاً، حين قرّر على بن عبد العزيز الجرجانى فى كتابه «الوساطة بين المتنبى وخصومه»: «الدين بمعزل عن الشعر، والأمران متباينان» والدين جماع الأخلاق الفاضلة فى العقيدة والسلوك. وكلما كان الفن أخلص فى تعبيره عن حركات الواقع كان أتمّ، وكلما كان أتمّ كان أقوى على استخراج الأخلاق من الأشياء نفسها. وليس يضيرنا فى شىء أن يصوّر فنان عاطفته وما تضمره من كره وحسد، لأن إخلاصه فى تصوير نفسه، إذا كان فناناً عظيماً، يحيل كرهه حباً، ويرده إلى العدل مع نفسه فيلمس ظلمه لها، وليس يضيرنا أن يهبط آخر بالفن فيجعل منه شهيد شبقه وشهواته، لأن الوجدان الفنى، إبّان عمله، سيوحّد عناصر التشتت الداخلى تدفعها الشهوة، ويروّض موجة الشبق العارمة، ويصنع منها على فمه، تلقائياً، أغنية حزينة، فالوجدان

الفنى ليس بحاجة إلى الوجدان الأخلاقى يستمدّ منه العفّة ، إنه ينطوى فى ذاته عليها ، ويعرف متى يجب ألاّ يستعمل من صور التعبير غير الصمت ،وحين يتجاوز هذا الحياء ، ويخرج على الوجدان الفنى ، ويدسّ فى الفن مالا تدعو إليه ضرورة ، أو يسوّغه مبرر ، فإنه يخطىء فنياً وأخلاقياً ، لأنه أخلّ بواجبه كفنان . على أن إدخال الأمور الشهوانية البذيئة فى الفن ، ليس هو الحالة الوحيدة غير الأخلاقية ، وليس أسوأها دائماً ،لأن دسّ الفضيلة على نحو أحمق هو أسوأ الحالات كلها ، لأنه يجعل من الفضيلة نفسها حماقة [1] .

فحسبنا من امرىء القيس أنه كان مع نفسه مخلصاً وصادقاً .

من أى المصادر اغترف امرؤ القيس أفكاره المكشوفة ، وبأى المثل اهتدى ؟ فيما يبدو لى جاءته من الجو الذى عاش فيه وتنسّم أخلاقياته ،والبحث عن أسباب أخرى وراء بيئته القريبة ، لتبرير جرأته على عادات عصره ، تجاوز لما هو قائم بالفعل ، وتعلق بما هو متخيل وبعيد . ويأتى الخطأ فى التعليل من تصوّر أن العفة فى السلوك ، والتحرُّج فى القول ، صفة لازمة عند العرب جميعاً ، تمنع أن يوجد بينهم شاعر يشْهَر بهذا اللون من الصراحة ، فإذا وُجِدَ فلا بدَّ من التماس دوافع لمنحاه خارج الحياة العربية نفسها ،على حين أن ماحول امرىء القيس يدفعه إلى الصراحة الجريئة ، والتمرّد على ماهو متعارف عليه من حدود القول . كان فى بيته محروم العاطفة ، وكان فى شخصه مهزوز الفحولة غير موفق فى صلاته العاطفية ، ونتاج ذلك كله إسراف فى إرواء ظمئه ،

---

(١) بندتوكروتشه ،المجمل فى فلسفة الفن ،ترجمة الدكتور سامى الدروبى ، ص ١٧١ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٧ .

وإسراف فى التحدث عنه ، ومن حين لآخر يمثل دور «دون جوان» فالنساء جميعاً يطلبنه ، وهن به كلفات ، وإليه روان ، لا تمتد أبصارهن إلى غيره . وكان جده الحارث مزدكياً ، سمحت له أخلاقه أن يُعرَف بين قومه بمذهب يدعو إلى أن يكون المال والنساء على المشاع ، وثارت بنو أسد على أبيه حجر لأنه يغير على نسائهم ، وكان مهلهل عدىّ بن ربيعة ، خاله أو شقيق زوج أبيه ، الخطوة الأولى فى الطريق الذى ساره امرؤ القيس ، ولم تكن حياته تفترق فى شىء ، فلسفة وسلوكا ، عما ارتضاه لنفسه شاعر كندة ، من التزوّد بأوفى نصيب من مباهج الحياة ، والعكوف على ملذات الشراب والنساء .

مع الطبيعة المتحركة

الصبغة شعر امرئ القيس

① طبيعة متحركة تستنفد الطبيعة من شعر أمرىء القيس نصف ديوانه ، على حين لا يشغل
② الغزل منه ، وبه شعر ، غير ربعه ، وبقيته تعكس هموم الشاعر ، شاباً ضائعاً ، أو طالب ثأر مقاتلا ، وعبر حياته جاب الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، لاهياً أو طريداً ، نخبر مسالكها وشعابها ، وجبالها ووديانها ، وعاش تلفه رياحها وسحبها وأمطارها ، واصطاد حيوانها وطائرها ، وتروّح على غدرانها وفى جنانها ، ووجد عندها ما افتقده فى أسرته ، وتجاوبت معه على نحو لم يدركه فى مغامراته ، وفتحت له قلبها ، فهام بها وانفعل بأسرارها ، وأثرى الأدب العربى بجميل أفكاره ، وروائع صوره ، وكأمير فارس كان الفرس أول ما استحوذ على إعجابه منها :

صوّره فى عدة مواضع من شعره ، وصفه فى المعلّقة ، خصّ سرعته بجانب متفرّد ، وخلقته بجانب آخر ، فى الجانب الأول قال إنه يغدو به بكرة مرحاً نشيطاً ، سريع العدو ، إذا أدرك قطيعاً من الأوابد كان كالقيد لها ، لا تستطيع منه إفلاتاً ، لأنه يسبقها فيمنعها من الفوْت ، وهو ضخم شديد الحركة ، مِكَرّ لا يسبق ، مِفَرّ لا يلحق ، مقبل حين تريد إقباله فلا يصد ، مدبر إذا رغبتَ فى إدباره فلا يرد ، يفر ويكر فى نفس الوقت ، ويقبل ويدبر فى آن واحد ، كأنه فى سرعته وصلابته جلمود صخرى هوى به السيل من قمة جبل مرتفع ، وظهره أملسُ مكتنز اللحم ممتلىء ، ينزلق اللبد عن أوسط ظهره ، انزلاق الهابط على صخرة ملساء ، يصبّ العدو صبّاً ، ويأتى بأفانين منه ، حين

يدرك غيره من الجياد السابحات الوَنَى ، والكلال ، فتثير الغبار فى الأرض الصلبة بحوافرها إعياء ، ضامر ذابل كثير الجيشان ، حتى لتخال تكسّر صوته إذا حمى جيشان الماء فى قدر يغلى على النار ، لا يهدأ ولا يتوقف ، يُردى راكبه عن ظهره إذا كان غلاماً ناشئاً خفيفاً غير فارس ، ويرمى بأثوابه إذا كان فارساً حاذقاً ماهراً ، وهو فى سرعة عدوه وشدّة انسيابه ، أشبه بلعبة الخذروف يلهو بها الصبيان ، خذروف لُعِبَ به كثيراً ، حتى خفّ ودقّ وتقطع خيطه فوصل :

١ وقد أغتدِى والطيرُ فى وُكُناتِها ⁂ بمنجردٍ قيْدِ الأوابدِ هَيْكلِ (١)

٢ مِكَرٍّ مِفَرٍّ ، مُقبلٍ مُدبرٍ معاً ⁂ كجُلمودِ صخْرٍ حطّه السيلُ مِن عَلِ (٢)

٣ كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبدُ عن حالِ متنه ⁂ كما زَلّتِ الصفواءُ بالمُتَنزّلِ (٣)

٤ على الذَّبْلِ جيّاشٍ كأنّ اهتزامَهُ ⁂ إذا جاش فيه حَمْيُه غَلْيُ مِرْجَلِ (٤)

٥ مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الونَى ⁂ أثرْنَ الغُبارَ بالكديدِ المُرَكَّلِ (٥)

٦ يُطيرُ الغلامَ الخِفَّ عن صَهَواتِهِ ⁂ ويُلوِى بأثوابِ العنيفِ المُثَقّلِ (٦)

---

(١) وكناتها : جمع وكنة ، وهى عش الطائر — منجرد : فرس قصير الشعر — هيكل : ضخم .

(٢) جلمود : صلب .

(٣) كميت : أحمر مائل إلى السواد — حال متنه : موضع ظهره — الصفواء : الصخرة الملساء .

(٤) الذبل : الضمور — جياش مضطرب — اهتزامه : صوته — حميه : غليه — المرجل : القدرة الكبيرة .

(٥) مسح : عداء — السابحات : الخيل تبسط يديها فى جريها — الونى : البطء والفتور — الكديد : الأرض الصلبة المطمئنة — المركل : الذى يركل بالرجل مرة بعد مرة .

(٦) الصهوات : جمع صهوة ؛ وهى مقعد الفارس من ظهر الفرس — يلوى : يرمى يميناً وشمالا .

٧ دَرِيرٍ كخُذْروفِ الوليدِ أمَرَّهُ   تتابعُ كفَّيْه بخيطٍ موَصَّلِ (١)

وبعد أن أنهى هـذه الصورة التفصيلية ، ذات الألوان المتعدّدة ، لسرعة فرسه ، أخـذ يصف لنا تكوينه الخلْقى : هو ضامر كالظبى ، صلب الساقين قصيرهما ، طويل الفخذين كالنعامة ، يجرى رخيّا كالذئب، ويثب قريبا كالثعلب ، عظيم الأضلاع ممتلئ الجنبين ، إذا تأملته مستدبرا رأيت ذيله يسدّ الانفراج الذى بين قائمتيه ، ذيلا فويق الأرض ليس بطويل ولا قصير . أملس الظهر إذا نُزِع عنه سرجه بدا ظهره لامعا كأنه فى صفائه وملاسته مداك عروس أو صلاية حنظل ، جميل المنظر ، رشيق البدن ، متأهب دواما ، يمضى النهار فى شغل به ، فإذا كان المساء يمعن فيه النظر إعجاباً ، يتمثل محاسنه فى نفسه جملة ، ولـكن هذه المحاسن لجلالها وكثرتها لا تتيح له بلوغ ما يصبو إليه ، فتبقى عينه زائغة بين أعلاه وأسفله :

له أَيْطلاَ ظَبْيٍ ، وساقا نعامةٍ   وإرخاءُ سِرْحانٍ ،وتقريبُ تَتْفُلِ (٢)

ضليعٍ إذا استدبرْتَهُ سدّ فرجَهُ   بضافٍ فُوَيقَ الأرض، ليس بأعْزَلِ (٣)

٢ كأنّ على الـكَتْفيْن منه إذا انْتَحَى   مداكُ عروسٍ أو صلايةُ حنظلِ (٤)

٤ وباتَ عليـه سَرْجُه ولِجامُه   وبات بعينى قائماً غـيرَ مُرْسَلِ (٥)

---

(١) درير : سريع — الخذروف : حصاة مثقوبة يجعل فيها الصبيان خيطاً ، فيسمع لسرعة دورانها صوت ودوى — أمره : أحكم فتله .

(٢) أيطلا ظبى : خاصرتا غزال — إرخاء سرحان : عدو ذئب — تتفل : ولد الثعلب .

(٣) ضليع : عظيم الأضلاع — ضاف : ذيل سابغ — أعزل : مائل ذنبه فى ناحية وكانت العرب تتشاءم من ذلك .

(٤) المداك : الحجر يسحق عليه الطيب — الصلاية : الحجر الأملس يسحق فيه الحنظل .

(٥) غير مرسل : غير مهمل .

٥ ورُحْنا وراحَ الطرْفُ ينفضُ رأسَهُ   متى ما ترَقَّ العينُ فيه تَسَهَّلِ[١]

وعاد إلى وصف الحصان على نحو مفصّل شيئاً ، فى قصيدته التى بارى بها علقمة بن عبدة ، الملقب بالفحل ، واحتكما إلى زوجه أمّ جندب ، على نحو ما أشرنا إليه من قبل[٢] ، يقول :

إنه غلّس قبل خروج الطيور من أوكارها ، فى ليل كثير المطر ، تسيل منه المذانب ، بفرس منجرد ، سريع العدو ، يصبح كالقيد للأوابد إذا لقيها ، أَضْمرتْه ملاحقة الهوادى من الوحش ، واتباعه لها كل شوط بعيد ، سريع بعد فتور ، وكأن أعلاه ، ضامراً ومسرعاً ، أعظم الشجر فى أعلى الأماكن ، إشرافا وارتفاعا وعظَم خِلْقة ، يبـــارى الخنوف فى سرعته ونشاطه ، صلب أملس ضامر كأنّه عود مشجب ، له خاصرتا ظبى ، وساقا نعامة ، وظهر عَيْر[٣] واقف على مرقب ، وحوافره صُمّ صِلاب مُلسٌ ، كحجارة يتخللها الماء ، وعلاها الطحلب فاصفرتْ واملاسَّتْ وصلبتْ . وكفله مثل كثيب من الرّمل لبّده الندى ، وكتفه فى سعته وارتفاعه مثل قتب الهودج وهو مشرف ، وعيناه مجلوتان أبدا ، نظيفتان كمرآة سيّدة تُعنى بهندامها ، تديرها لترى هل استقرّ النصيف المنقّب فى مكانه من محجرها أم لا ، وأذناه دقيقتان محدّدتان كأذنى بقرة وحشية ذعرتْ فنصبتْ أذنيها ، شاهدتا عتقه وكرمه ، طويل العنق مُشرف ، كأنّ عنانه منجردا فى رأس جذع مشذّب

---

(١) الطرف : الفرس السريع .

(٢) أنظر ص ٨٩ .

(٣) العير : حمار الوحش .

أسود الذيل ، ريّانُ الذنب ، شعره غزير كأنه قنو نخلة مثمرة من سُمَيْحة ، فإذا جرى طَلَقَيْن ابتل جانبه من العرق ، وسمعتَ له خفقا ، تقولُ هزيز الريح مرّتْ بشجر الأثأب :

وقد أغتدى والطيرُ فى وُكُناتِها ... وماءُ النَّدَى يجرِى على كلّ مِذنَبِ[(1)]

بِمُنْجَرِدٍ قيدِ الأوابدِ لاَحَهُ ... طِرادُ الهوادِى كلَّ شأوٍ مُغرِّبِ[(2)]

عَلَى الأيْنِ جيَّاشٍ كأنّ سراتَهُ ... عَلَى الضُّمْرِ والتعداءِ سَرْحَةُ مَرْقَبِ[(3)]

يُبارِى الخَنوفَ المستقِلّ زَمَاعُه ... ترى شَخْصه كأنه عُودُ مِشْجَبِ[(4)]

له أيْطَلا ظبْيٍ ، وساقا نعامةٍ ... وصَهْوَةُ عَيْرٍ قائمٍ فوق مَرْقَبِ[(5)]

ويخطو عَلَى صُمٍّ صِلابٍ كأنها ... حجارةُ غَيْلٍ وارِسات بطُحْلَبِ[(6)]

له كَفَلٌ كالدِّعْص لَبَّدهُ النّدَى ... إلى حارِكٍ مثْلِ الغبيطِ المُذَأَّبِ[(7)]

وعينٌ كمرآةِ الصَّناعِ تُديرُها ... لمحْجِرِها من النَّصيفِ المنقَّبِ[(8)]

---

(١) المذنب : مسيل الماء إلى الروضة .

(٢) لاحه : أضمره — الهوادى : المتقدمة في قطيع الوحش — الشأو : الطلق — المغرب : البعيد .

(٣) الأين : الفتور — سراته : أعلاه — سرحة : ماعظم من الشجر وطال — المرقب : كل ما أشرف من الأرض .

(٤) الخنوف : الذى يرى بيدية فى السير ؛ وصف للحمار الوحشى — الزماع : المراد به هنا شعر الظلف .

(٥) صهوة : ظهر .

(٦) الصم : الحوافر — الغيل الماء الجارى — الوارسات : المصفرات .

(٧) الكفل : العجز — الدعص : الكثيب الصغير من الرمل — حارك : ملتقى الكتف — الغبيط : قتب الهودج — المذأب : الموسع

(٨) الصناع : الحاذقة بالعمل — المحجر : ما استدار حول العين — النصيف : الخمار — المنقب : المتقنع به .

له أذنانِ تَعرفُ العِتْقَ فيهما كسامِعَتَىْ مَذعُورةٍ وسْط رَبْرب(١)
ومُسْتَفْلِكُ الذِّفْرَى كأنّ عِنانَه ومَثْناتَهَ فى رأْس جِذْعٍ مُشَذَّبِ(٢)
وأَسْحَم ريّانُ العسيبِ كأنّه عَثَاكِيلِ قِنْوٍ مِن سُمَيْحَة مُرْطبِ(٣)
إذا ما جرَى شأويْن وابتلَّ عِطْفُهُ تقول هَزِيزُ الرِّيح مرّتْ بأثأبِ(٤)

فيما سبق كان امرؤ القيس يلاحق حصانه واصفا كيفما اتفق ، دون نهج محدد ، أو ترتيب تحكمه قاعدة ، أما فى قصيدته التى مطلعها :

أحارِ بنَ عمرٍو كأنّى خَمِرْ ويعدو على المرءِ ما يأْتَمِرْ

فأعطانا وصفاً رائعاً ، فى بناء متكامل ، من صور بصرية مرتبطة عن الطريق التتالى أو المزج . اختار الوجه أولا ، لأنه أول ما يطالع الناظر من الفرس ، فرس سريعة خفيفة كالجرادة ، تغاثر شعر ناصيتها كأنه سعف نخلة تفرّق، وحافرها ، أسفل رِجْلها ، كقَدحِ صبىّ رُكِّبتْ فيه ساق صلبة،وماخلف رسغها من شعر كخوافى العُقاب رقة ولينا ، إذا اقشعرّت انتفش ثم فاء إلى موضعه . ملتصقة المفاصل ، ليست برهلة ، متفرّقة لحم الحماتين ، ملساء العجز ، كصخرة جرى عليها السيل فأزال ما بها من غبار ، وذنب طويل سابغ كذيل فستان العروس ، يسد مابين ساقيها ، مكتنزة المتنيين قليلا ، كساعدى نمر بارك غلظا وصلابة ، وعُذَرها غزيرةمنتشرة كذوائب النساء عبثت بها الريح فى يوم

(١) الربرب : القطيع من البقر .
(٢) المستفلك : المستدير كالفلكة — الذفرى : عظم ناتئ خلف الأذن — المثناة : الحبل المشدود فى رأسه .
(٣) أسحم : ذيل أسود ـ ريان : ممتلىء ـ العسيب : عظم الذنب ـ عثاكيل : شماريخ ـ قنو : عذق النخلة ـ سميحة : اسم بئر .
(٤) الشأو : الطلق ـ الأثأب : شجر يشبه الأثل .

بارد . وعنق كشجرة اللبان طولا ، شقراء كلهيب نار أضرمها غوىّ ، وجبهة متسعة كظهر ترس صنعه فنان حاذق ، ذات منخر متسع كجحر ضبّ ، يتيح لها أن تتنفس مستريحة ، وعينها مكتنزة صُلْبة ضخمة كأنَّما شُقَّت مآقيها من آخر العين .

وبعد أن وصفها تفصيلا أخذ يصفها كُلاًّ ، وكما وُفق فى الأولى كان رائعاً فى الثانية ، فإذا أقبلت كانت رقيقة المقدم ، مستديرة المؤخر ، ملساء ليّنة ، ناعمة رطبة ، كقَرْعَة غُمست فى غدير . وإن أدبرت فهى صخرة مدوّرة ، صُلْبة مجتمعة ملساء ، وإنْ أعرضتْ بدتْ مستوية الخلقة ، قليلة اللحم كجرادة ، غير أنّها تزيد عليها ذنباً طويلا ، تثب كالظبى أو تسح كالمطر ، ملوّنة السير ، تعدو أحياناً وتخطو أخرى ، فإذا أسرعت اندفعت كظبية أخطأها صيّاد ماهر ، فانطلقت بكل قواها تلتمس النجاة ، قوية مهيّأة إذا وقع بها السوط جالت وأسرعت ، وصبّتْ عدوها كسحاب ينهمر بردا :

وأركبُ فى الرَّوْع خَيْفانَةً ... كسا وجهَها سعفٌ مُنْتَشِرْ (١)
لهـا حافرٌ مثل قَعْبِ الوليـ ... ـدِ رُكِّبَ فيه وَظيفٌ عَجِرْ (٢)
لها ثُنَنٌ كخوافى العقا ... بِ سودٌ يفِئْنَ إذا تَزْبئِرْ (٣)
وساقان كعْـباهُما أصْمَعَا ... نِ لَحْمُ حَماتَيْهما مُنْبَتِرْ (٤)

(١) الخيفانة : الجرادة ؛ وبها شبه الفرس السريعة الخفيفة ـ كسا وجهها سعف منتشر : أراد الناصية ، والمنتشر : المتفرق .

(٢) القعب . القدح الصغير ـ الوظيف : فى الرجل ما بين الرسغ إلى الركبة ، أو ما بين الرسغ إلى العرقوب ـ العجر : الذى كأن فيه عقداً لصلابته .

(١) الثنن : جمع ثنة ؛ وهى الشعرات التى خلف الرسغ ـ الخوافى : ما بعد القوادم من ريش الجناح ـ تزبئر : تقشعر .

(٢) الكعب : المفصل ـ أصمعان : صغيران ، وأراد لصوقهما ـ الحماتان : اللحمتان الغليظتان اللتان فوق الكعبين ـ منبتر : بائن متفرق .

لهـا عَجُــزٌ كصفاةِ المَسِيـلِ أبرزَ عنها جُحَافٌ مُضِرّْ(١)
لهـا ذَنَبٌ مِثْـل ذَيْل العروسِ تسُدّ به فرجَها مِن دُبُرْ
لهـا مَتْنَتانِ خَظَـاتَا كَـمَا أكبَّ على ساعديْهِ النَّمِرْ(٢)
لهـا عُذَرٌ كقرون النسـا ءِ رُكِّبْن في يوم ريحٍ وصِرّْ(٣)
وسالفةٌ كسَحوقِ اللُّبـانِ أضرمَ فيـــه الغويُّ السُّعُرْ(٤)
لها جبهةٌ كسراةِ الْمِجَــنِّ حَذَّقَهُ الصانعُ المقْتدِرِ(٥)
لها مَنْخِرٌ كوِجارِ السـباعِ فمنه تُريحُ إذا تَنْبَهِـرْ(٦)
وعينٌ لها حَـدْرَةٌ بَدرةٌ شُقَّتْ مآقِيهـا مِنْ أُخُرْ(٧)

* * *

إذا أقبلتْ قلـتَ دُبَّـاءةٌ من الخُضْرِ مغموسةٌ في الغُدُرْ(٨)
وإنْ أَدبرتْ قلتَ أُثْفِيَّةٌ مُلَمْلَمَــةٌ ليس فيها أُثُرْ(٩)
وإنْ أعرضتْ قلتَ سُرْعُوفَةٌ لها ذنبٌ خَلْفَها مُسبَطِرّْ(١٠)

---

(١) الصفاة: الصخرة ــ المسيل: السيل ــ الجحاف: السيل يجرى ويجمع كل شيء فى طريقه.
(٢) خظاتان: مكتنزتان قليلا.
(٣) العذر: شعرات قدام القربوس، وهو آخر العرف ــ قرون النساء: ذوائبها.
(٤) السالفة: هنا العنق ــ السحوق: الطويلة ــ الغوى: الغاوى ــ السعر: جمع سعير، وهو شدة الوقود.
(٥) سراة المجن: ظهر الترس.
(٦) الوجار: جحر ضب ــ تريح: تخرج الريح أى تتنفس ــ تنبهر: يتتابع نفسها.
(٧) حدرة بدرة: مكتنزة صلبة ضخمة.
(٨) الدباءة: القرعة.
(٩) الأثفية: الصخرة المدورة ــ ململمة: مجتمعة.
(١٠) السرعوفة: الجرادة ــ المسبطر: الممتد الطويل.

لهـا وثباتٌ كـوثبِ الظّباء فوادٍ خطاءٌ ووادٍ مَطِرْ[1]

وتعدو كعَدْوِ نجـاةِ الظبا ء أخطأها الحاذقُ المقْتَدِرْ[2]

وللسوط فيهـــا مجـالٌ كما تنزَّلَ ذو بَرَدٍ مُنْهَمِرْ

وحصان امرىء القيس الذى يصفه حصان صيد ومتعة ، وترف وجاه ، وما من مرّة عرض فيها لفرس الحرب إلا ضاقت عليه سبل القول ، ونضبت مشاعره ، وتوقف فى فمه القول . وصف فرس الحرب فى أبيات ثلاثة كان فيها مُستثاراً بذكريات أمسه ، فى مقدمة طللية ، ثم طوى وصفه مستعجلا هاربا ليحدثنا عن ذكرياته على فرس صيد فى أبيات ثلاثة أخرى . وعرضنا لها من قبل فى حديثنا عن المقدمات الطللية[3] .

ثم عرض لفرس الحرب مرة ثانية، وفى ثلاثة أبيات أيضاً ، جاءت عرضا عبر نوبة آسية ، يقارن فيها بين أمس عزيز ، وحاضر مهم ، ويكره أن ينتهى به الحال على هذا النحو ، كأنه لم يشارك فى حروب قومه، على فرس ضخم قوى القوائم، نشيط سريع فى إقباله وإدباره ، سليم المقدم ، مشرف الـكَفَل ، صلب الحوافر لا يهاب الجرى ، كأن مكان الردف منه موخَّر فرخ نعامة :

ولم أشهـدِ الخيلَ المغـيرة بالضّحا على هيكلٍ نَهْـدِ الُجزارَةِ جوّالِ[4]

---

(١) الخطاء : جمع خطوة ــ مطر : أى تمطر فيه العدو .

(٢) نجاة الظباء : يقال فرس نجاة وناقة نجاة ؛ إذا كانت ناجية سريعة العدو .

(٣) الأبيات فى صفحتى ٢٤٩ و ٢٥٠

(٤) الجزارة : القوائم .

سليمِ الشَّظَى، عَبْلِ الشَّوَى، شَنِجِ النَّسَا　　له حَجَبَاتٌ مُشْرِفاتٌ على الفالِ (١)

وصُمٌّ صِلابٌ ما يَقِينَ من الوَجَى　　كأنّ مكان الرِّدْفِ منه على رالِ (٢)

ومن الحرب إلى فرس الصيد، فأبان كيف غدا به مبكرا، والطيور لمّا تزل في أعشاشها، في وادٍ معشوشب خال، توالت عليه الأمطار، فأزهرت أرضه وحمته رماح قومه فلا يستطيع أحد اقتحامه، قطعه على فرس صُلْبة الخلْق، كُمَيْت اللون، أترز الجرى لحمها، فكأنها هراوة حائك:

وقد أغتدِى والطيْرُ فى وُكُناتِها　　لغيْثٍ من الوسْمِيِّ رائده خالِ (٣)

تحاماهُ أطرافُ الرماحِ تحامياً　　وجاد عليه كلُّ أسْحَمَ هَطَّالِ (٤)

بعِجْلِزَةٍ قد أترزَ الجرىُ لَحْمها　　كُمَيْتٍ كأنّها هِراوَةُ مِنْوالِ (٥)

فى هذه المرّة بدأ بوصف فرس الصيد، على غير العادة، فى نفس الظروف التى وصفه فيها قبلا، أسوان يجترّ ذكرياته، مهيض الجناح يعيش فى أمجاده الذاهبة، وجاء وصفه من ثلاثة أبيات أيضاً: يقول؛ هبطت واديا طال عشبه وتلوّنت أزهاره، وتعاورته أمطار مرعدة، على فرس ضخم يعطيك دون سؤاله أفانين من الجرى، غير مبطىء ولا ضنين:

وغيثٍ كألوانِ الفَنا قد هبطْتُهُ　　تعاورَ فيه كلُّ أوْطفَ حنّانِ

---

(١) الشظا : عظم صغير فى يد الفرس ـــ الشوى : القوائم ـــ النسا : عرق ـــ الحجبات رءوس الأوراك ـــ الفال : الفائل ؛ عرق عن يمين أصل الذنب ويساره .

(٢) الصم : يريد الحوافر ـــ الوجى : المشى ـــ الرأل : فرخ النعامة .

(٣) الغيث : هنا يراد به البقل والنبت ـــ الوسمى : أول المطر .

(٤) تحاماه : تحميه ـــ أسحم : أسود .

(٥) عجلزة : فرس صلبة اللحم ـــ أترز : أيبس ـ كميت : لونها بين السواد والحمرة .

على هيكلٍ يُعطيكَ قبل سؤالِهِ   أفانينَ جرْيٍ غيرَ كزٍّ ولا وانِ (١)
كتَيْسِ الظِباءِ الأعْفرِ انْضرجتْ له   عُقابٌ تَدلّتْ من شَماريخِ ثَهْلانِ (٢)

وكما وصف الحصان أداة صيد ، وسلاح حرب ، وصفه مطيّة سفر ، فعلى ظهر فرس مرتفع ، متغيِّر اللون ضامر ، قطع كهفاً مقفراً مُضِلاً كجوف حمار وحشيّ ، يدافع المطايا كلّما دنتْ منه ، وقربتْ إليه ، ويتسرب بين الأبل حوله يميناً وشمالا ، كغصن ناعم يتثنى بين أغصان مشدودة :

وخَرْقٍ كجوفِ العَيْرِ قفرٍ مَضِلَّةٍ   قطعتُ بسامٍ ساهِمِ الوجهِ حُسّانِ (٣)
يُدافِعُ أعطافَ المطايا بركْنِهِ   كما مال غصنٌ ناعمٌ بين أغصانِ (٤)

لم يصف أحد من سابقي امرىء القيس الحصان إلاّ أبو دواد ، لأن عمرو ابن قميئة أمضى حياته فقيراً ، رأى الحصان كثيراً ، ولعله امتطاه أحيانا ، لكنّه لم ينفعل به ، ولم يجذب انتباهه ، وكان صادقا مع نفسه إنسانا وفناناً ، فابتعد عنه ، وقنع بالناقة يصفها ، ويبثها حنينه وأشواقه (٥) . وليس ثمة شك فى أن امرأ القيس اتكأ فى وصفه للحصان على أبى دواد ، وأفاد من معلوماته الواسعة ، والتقيا فى الأوصاف العامة ، وردّا بعض النتائج إلى أسبابها ففرس كل منهما ضامر لأنه يجرى طويلا ، يلاحق الصيد أو يطوى الوهاد ، فالترهّل والارتخاء مردهما إلى قلّة الحركة عند الحيوان والإنسان على السواء . ويلتقيان أيضاً ، والإبداع للسابق منهما ، فى وصف جزئيات الحصان أولا

(١) كز : ضنين – الوانى : الفاتر المبطىء .
(٢) التيس : الفحل من البقر الوحشى – انضرجت : انقضت – شماريخ : أعالى .
(٣) بسام : بفرس مشرف مرتفع .
(٤) الأعطاف : الجوانب – ركنه : منكبه .
(٥) انظر فصل « امرؤ القيس وسابقوه » .

تفصيلا ، ثم تقديمه كلا بعد ذلك ، وجزئيات امرىء القيس وكلياته عرضنا لها فيما مرّ(١) ، وجزئيات أبي داود وكلياتها تبدو أوضح ما تكون في قطعة من أبيات ثمانية ، وربما كانت بقايا قصيدة :

ومُحَجَّلٍ خُضِبَتْ قوائِمُـهُ وِتْراً ، وليس لشفعها خَضْبُ
إحـدى اليدين بهـا طَلاَقَتُهَا والغابراتُ نَواصِعٌ غُرْبُ(٢)
والمرْفقانِ له بمـا احْتَملا كدعائمٍ عُرِضَتْ لهـا الخُشُبُ
وحماتُهُ في السـاقِ آرِزَةٌ وصَلاتُهما الرَّبلاتُ والكَعْبُ(٣)
ونأتْ من الشمْراخِ رُثْمتُهُ قَدْرَ الرواجبِ بينها رَتْبُ(٤)
كالسِّيدِ ما استقبلتـه وإذا وَلَّى تقول : مُلَمْلَمٌ ضَرِبُ(٥)
لأمٌ إذا استعرضْتَهُ ومشى متتابعاً ما خانَهُ عَقْبُ(٦)
يمشي كمَشْيِ نعامةٍ تَبِعَتْ أُخرى إذا هي راعها خَطْبُ

وفيما عدا ذلك كلاهما يصدر عن نفس مستقلة ، وعبقرية متفرِّدة ، فأبو دواد يقوم على خيل المنذر موظفاً مسئولا ، يعرف من أمرها كل شيء ،

(١) انظر ص ٣٠٦

(٢) الطلاقة : المطلقة هي القائمة من الفرس ليس فيها بياض ـ الغابرات : الباقيات .

(٣) الحماة : اللحم المجتمع في وسط الساقين من ظاهرها ـ آرزة : شديدة مجتمع بعضها إلى بعض ـ الربلات : الأفخاذ .

(٤) الشمراخ : الغرة في الفرس إذا دقت في الجبهة وعلى قصبة الأنف ـ الرثمة : كل بياض أصاب الجحفلة العليا أو أكثر ـ الرواجب : قصب الأصابع ـ الرتب : مقدار الفرق بين الخنصر والبنصر .

(٥) ململم : مجتمع الخلق ـ ضرب : خفيف اللحم .

(٦) اللأم : الشديد ـ عقب : جرى بعد جرى .

ويضمّن شعره الكثير من تجاربه فى هذا الموقع، فيصف الخيل جمعتْ فى مكان مطمئن ليُقَصّ شعرها، وأصبح هو المتحكِّم فى مصائرها، استرخى بعضها فما يستجيب لصوت، ونأى بعضها الآخر فما يجتمع على نداء، وتمدّدتْ أفراسها حبالى، بعضها على وشك أن يلد، وبعضها الآخر يلد فعلا، تُلقى بأولادها ملفوفة فى جلد رقيق كأنه زهر الشقائق، وكلها يُعنى بطعامها، حبالى أو مرضعات:

قد بِتُّ ربَّ الخيل يوم أَقُصُّها ... بمجامعِ الفيفاءِ يُلقِينَ الحصى
يُذْرِينَ جَنْدل حائرٍ لجنوبها ... فكأنَّما تُذْكِى سنابِكُها حُبَى (١)
ولقد صَمَمْنَ فما يُجِبْنَ مُويِّها ... ولقد نَخِلْنَ مِن القيادِ على الوجَى (٢)
فى كل منزلةٍ وكل مُعَرَّسٍ ... سَخْلٌ تَنَاجَلَهُ الزّجاجُ من الصَّلا (٣)
مُهْرٌ يُؤَبِّن هالكاً أو مُهْرةٌ ... كالفَلْقِ سُلَّ مِنَ القرابِ، قد انتحى (٤)
وكأنَّ أسلاءَ الجيادِ شقائقٌ ... أو عُتْرُفانٌ قد تحشَّشَ للبلى (٥)
بكرتْ بأيديهم توجسُ حُرَّةٌ ... نُفَسَاءُ شاخِصَةٌ تَلَفَّعُ بالسَّلى
يقفونها بالزاد وهى أثيرةٌ ... معصوبة الحِقوَيْنِ مِن حَذَرِ الخوى (٦)

---

(١) يذرين: يطرن — الحائر: المكان المطمئن.

(٢) المؤيه: الذى يصوت بالخيل.

(١) معرس: منزل إقامة — الصلا: استرخاء الصلوين وهما على جانبى الذنب لقرب نتاج الفرس.

(٢) الفلق: الكسرة من الشىء، ومن معانيه السهم.

(٣) الأسلاء: جمع سلى، الجلد الرقيق الذى يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفا.

(٤) الخوى: خلو بطن الفرس عند ما تلد.

ويصف غذاء فرسه فى اصطبله ، وقد حبست عليه الأبل الشتاء كله ، يشرب من ألبانها ، فهو جار لها من أن يغار عليها ، لأن صاحبه يقاتل عليه من يريدها ، ويلحق من أغار عليها فيردها .

دافعَ المحلَ والشتاءَ ويبْسَ الـ ـعودِ عنه قَناعِسٌ أظْـآرُ[1]
رَهِلاتٌ ضَرَّاتـهنَّ مَهَـارِيـ ـسُ جـلادٌ إذا شَتَوْن غِزار[2]
فقصرْنَ الشتـاءَ بعـدُ عليـه وهو للذوْدِ أنْ يُقَسَّمنَ جار

وفرس أبى دواد سليم البدن معافى ، برىء من الأمراض والعلات ، لم يصبه منها ما يوجب عرضه على الطبيب البيطرى ليعالجه :

أَيِّدُ القُصْرَيَيْنِ ما قِيدَ يوماً فيُعَنَّى بِصَرْعِـــه بِبْيطـارُ

أما امرؤ القيس فأمير ، عالج بعض ما عالج أستاذه من أوصاف الخيل ، وفاقه فى التصوير ، لايقدم الفكرة فى صورة بسيطة ساذجة ، كما يقدمها أبو دواد فى الأعمّ الأغلب ، وإنما يكسوها أطارف من التشبيه والاستعارة ، ويزيد عليه إطناباً فى الحديث عنها واستغراق جوانبها ، وهو لاينزل حيث يرى فرسه ماذا يأكل ، ولا ما يُصنع به إذا مرض ، فلذلك من يقوم به ، وإنما يقدمه لنا صحيحاً نشيطاً ، مهيأ للرحلة دواماً ، مستجيباً للعدْو فى أية لحظة من ساعات الليل أو النهار .

وكما وصف امرؤ القيس الحصان وصف الناقة ، وإذا كان الأول أداة

---

(١) قناعس : نوق طويلة سنمة — آظآر : ذوات ولد .
(٢) المهاريس من الأبل : الشداد .

لهوه ومظهر عزه ، فإن الثانية وسيلة الانتقال فى الصحراء ، حيث تصعب الأرض ، ويغزر الرمل ، وتنعدم المياه ، ويقل العشب ، وتكثر الأحمال ، ويثقل المتاع .

وقصائد شبابه تخلو من ذكر الناقة تماما ، ولا يأتى لها على ذكر فى المعلقة ، وأول إشارة لها نجدها فى قصيدته التى مطلعها :

خليلىَّ مُرَّا بى على أمّ جُندَبِ   نُقضِّ لُبانات الفؤادِ المعذَّبِ

وقالها حين كان لاجئاً فى بنى طيِّء ، وبها بارى علقمة بن عبدة ، على نحو ما أشرنا إليه من قبل[1] . ويبدو كنادم على ذكره لها ، لا يكاد يتحدث عنها فى بيت ، ويشبِّهها بحمار وحشى ، حتى يدعها ويمضى يصف الحمار ويسرف فى وصفه . ولا يأتى ذكره لها إلاّ بعد همّ ، فهو إذا بَعُد عمن يهوى سلا عنه ، وأرضى قلبه ، ووجد العزاء فى رحلة على ناقة بيضاء طويلة ، حملته ورحاله ، وكأنها فى سرعتها حمار وحشى ، لم يبيضّ منه سوى خاصرتيه ، يرفع صوته بالأسحار ، يطرب نفسه حين يرعى ، يتهادى نشوان ، كسكران يتمايل ثملاً ، يغنى ليطرب رفاقه المتنادمين ، حمار من « عَماية » يعيش فى أرض معشوشبة ، إذا شرب تساقط من فيه بقايا ما أكل من عشب ، وأخصب ما تكون أرض « عماية » حيث ينحنى الوادى ، هناك يطول نبتها حتى يساوى أشجار السدر ، لأنها ممرّ جيوش ، غانمين وخيَّب ، فلا ينزلها أحد ليرعاها خوفاً ، فذلك أوفر لخصبها ، وأتمّ لكلئها :

وإنكَ لم تقطعْ لبانةَ عاشقٍ   بمثلِ غدوٍّ أو رواحٍ مؤوّبِ[2]

---

(١) انظر ص ٨٩

(٢) لبانة : حاجة — المؤوب من يسير النهار كله .

بأدماءَ حُرْجُوجٍ كأنّ قُتُودَها ... على أبلقِ الكَشْحين ليس بمُغْرَبِ (١)

يُغرِّدُ بالأسحارِ فى كل سُدْفةٍ ... تَغرُّدَ مَيَّاحِ النّدامَى المُطرِّبِ (٢)

أَقَبُّ رَباعٌ مِن حَمِيرِ عَمايةٍ ... يَمُجُّ لُعاعَ البقلِ فى كل مَشْرَبِ (٣)

بِمَحْنِيّةٍ قد آزرَ الضالُ نَبْتَها ... مَجَرَّ جيوشٍ غانمين وخُيَّبِ (٤)

والمرة الثانية يتسلّى عن هموم حُبّه بالرحلة على ناقة شديدة سريعة ، لا يضنيها حرّ الهاجرة ، حين ينتصف النهار وتتوسط الشمس السماء ، وتعيا الأيل ويفتر سيرها ، تطوى ما انخفض من الأرض واطمأن ، وتعلو ما ارتفع منها وصلب ، وكأنها يلفها السراب وقت الظهيرة اكتست ملاء أبيض منشوراً .

واسعة الصدر ، تباعد ما بين عضديها فاكتمل خلقها ، تعدو مسرعة كأن هرًّا قد ربط إلى حزامها ، فهو يخدشها وينفرها ، وتطايرُ الحصى بأخفافها ، دون أن يؤثّر فيما يصيبه من ساقها ، أو يذهب بشعره ، ويتناثر الحصى من خلفها وأمامها ، ترمى به رجلها فى كل جهة ، وعلى غير نظام ، كأنه رمى أعسر ، وصوت الحجارة حين ترمى بها وتقع ، كصوت دراهم رديئة ، ينقدها صيرف من « عبقر » :

فدعْ ذا وسلِّ الهمَّ عنكَ بجسْرةٍ ... ذَمولٍ إذا صام النهارُ وهجَّرا (٥)

---

(١) الأدماء : الناقة البيضاء — الحرجوج : الطويلة — القتود : أداة الرحل — أبلق : أبيض — مغرب : أبيض الوجه والأشفار وهو عيب .

(٢) السدفة : بقايا ظلام الليل — المياح : الذى يميح فى جانبيه ، يميل شدة ونشاطا .

(٣) أقب : ضامر البطن — رباع : ألقى رباعيته — عماية : جبل بناحية نجد .

(٤) المحنية : حيث ينحنى الوادى — آزر : ساوى — الضال : شجرة السدر .

(٥) الجسرة : الناقة النشيطة — الذمول : ذات السير السريع — صام النهار : قام واعتدل .

تُقطّعُ غيطاناً كأنّ متونَها إذا أُظْهِرتْ تُكْسَى ملاءً مُنَشَّرا(١)

بعيدةُ بين المنكبَيْنِ كأنّها ترى عند مَجْرَى الضّفرِ هِرّاً مُشَجَّرا(٢)

تُطايرُ ظُرّانَ الحصى بمناسمٍ صِلابِ العُجَى ملثومُها غيرُ أمْعَرا(٣)

كأنّ الحصى من خلفِها وأمامِها إذا نجلته رِجْلُها خذْفُ أعْسَرا(٤)

كأنّ صليلَ المرْوِ حين تطيرُه صليلُ زيوفٍ يُنْتَقدْنَ بعَبْقَرا(٥)

أما فى القصيدة التى مطلعها :

غشيتُ ديارَ الحيِّ بالبَكَراتِ . فعارمةٍ ، فبُرْقةِ العيَرَاتِ

فيذكر الناقة فى البدء عرضاً ، يقول إنه عليها ، تسرع به كحمار وحشى ثم يدعها إلى الحمار نفسه ، يصفه مع أتنه فى أبيات ستة عرضنا لها من قبل(٦) ، يعود بعدها إلى الناقة من جديد ، يمدحها ويذمها فى بيتين اثنين ، كانت ناقة طيبة ، متماسكة كألواح تابوت موتى النصارى ، وما زال يحثها ويزجرها على طريق بيِّن متشعب ، حتى تركها رذيّة عييّة ، ورغم حمله عليها فى السير ، واستخدامها فى السفر البعيد ، لمّا تزل فيها بقية وحدة ! :

---

(١) الغيطان : ما انخفض من الأرض — المتون : ما ارتفع منها — أظهرت : دخلت فى الظهيرة .

(٢) الضفر : حبل مفتول يشد به البطان — المشجر : المربوط إليها .

(٣) الظران : جمع ظرر ، وهو الطويل من الحصى — المناسم : جمع منسم ، وهو الخف — العجى : جمع عجية أوعجاية ، وهوعصب صغير فى اليدين والرجلين — غيرأمعر : ما يصيب أرجلها من الحجارة لا يؤثر فيها ولا يذهب بشعرها .

(٤) نجلته : فرقته — الخذف : الرمى .

(٥) المرو : الحجار — الزيوف : الرديئة — عبقر : موضع باليمن كانت دراهمه زيوفا .

(٦) انظر ٢٤٥ وما بعدها .

وعَنْسٍ كألواحِ الإرانِ نسأْتُها   على لأحب كالبُرْد ذى الحِبَرات[١]

فغادرْتُها مِن بعد بُدْنٍ رَذِيَّةً   تَغالَى على عوجٍ لها كَدِناتِ[٢]

وقد أسرف الدكتور سيد نوفل فى التأويل حين ارتأى « أن امرأ القيس لتوضيح معنى الهزال فى ناقته ، استعار معانى الفناء من ألواح سرير الموتى ، ومعانى التفرقة بين ما كانت عليه الناقة فى شبابها ، وما هى عليه فى هزالها ، من الخطوط المتميزة فى الثوب »[٣] . لأن الإران تابوت من خشب صلب يشد بعضه بعضاً ، وبه يشبه العرب الناقة القوية ، لا الهزيلة ، يقول طرفة ، وهو خير من وصف الناقة :

أمونٍ كألواح الإران نسأْتُها   على لاحبٍ كأنهُ ظهرُ بُرْجُدِ[٤]

والخطوط المتميزة فى البرد الموشى ، التى جاءت فى شعر امرىء القيس ، كانت لتوضيح صورة الطريق التى عبرها ، صنعتها القوافل بأخفافها ، تتلوى عبر وديان تختلف ألوانها ، ومن التكلف البالغ أنْ نفهم أنَّ امرأ القيس رمز به للتفرقة بين حالى الناقة سمينة قوية ، وهزيلة متداعية .

فى القصيدة التاسعة من الديوان كان نصيب الناقة بيتاً واحداً ، يقول فيه

---

(١) العنس : الناقةالطيبة الشديدة — الإران : تابوت موتىالنصارى — لاحب : طريق بين — ذى الحبرات : ذى الوشى والتزيين .

(٢) بدن : سمينة — رذية : معيية — تغالى : تنكمش فى السير — العوج : قوائمها المعوجة— كدنات : شديدة صلبة .

(٣) سيد نوفل : شعر الطبيعة فى الأدب العربى ، ص٣٣ ، القاهرة ١٩٤٥ .

(٤) أمون : موثقة الخلق — نسأتها : حملتها على السير — البرجد : كساء فيه خطوط .

إنه قطع أرضاً واسعة تتحرّقها الرياح على ظهر ناقة قوية ، ليّنة المشى سهلة ، مذعان مطاوعة :

وخَرْق بعيــــد قد قطعتُ نِياطَهُ
على ذاتِ لَوْثٍ سَهْوَةِ المَشْيِ مِذْعانِ

ثم حظيت بخمسة أبيات كاملة من القصيدة الخامسة عشرة ، فيها أخذ يحث ناقته الجادة على السير ، فأسرعت فى خطو متقارب كنعامة ، خلال ظهيرة متوهجة ، طويلة العنق ، مشرفة الرأس ، دامية الخف ، قوية نشيطة ، رغم ما تلقى من عنت ومشقة ، تتمايل فى كل جهة لشدة سيرها ، تــكاد تصرعه ، وهيهات ! وهو على ظهرها تطوى الأرض طيًّا ، بدت له « بدراً » موصولة « بكُتَيْفة » ، و « أرمام » بعض من « عاقل » ، رآها مواضع متصلة على تباعد ما بينها ، فدعا لها بالخير والسلام جزاء ما أسرعت :

ومُجِدَّةٍ نسَّأْتُها فتـكَمَّشَتْ رتْكَ النعامةِ فى طريق حامِ[(1)]
تَخْدِى على العِلاَّتِ سامٍ رأسُها روْعاء مَنْسِمُهـــا رَثِيمٌ دامِ[(2)]
جالتْ لتصْرَعَنى فقلتُ لها اقْصِرى إنِّى امرُؤٌ صَرْعِى عليك حَرامُ
وكأنّما بَدْرٌ وَصِيلُ كُتَيْفَةٍ وكأنّما مِنْ عاقلٍ أَرْمامُ*[(3)]

---

(١) نسأتها : حملتها على السير — تكمشت : أسرعت — رتك النعامة : تقارب خطوها فى سرعة .

(٢) تخدى على العلات : تسرع على ما بها من مشقة — روعاء : تفزع من كل شىء — المنسم : باطن خف البعير — الرثيم : الذى رثمته الحجارة ، أى جرحته فهو يسيل دما .

(٣) بدر وكتيفة وعاقل وأرمام : أسماء أمكنة .

* هذا البيت يأتى فى الديوان بعد تاليه ، وقدمناه ليكون بناء الأبيات أكثر توافقا .

فَجُزِيتِ خيرَ جزاءِ ناقةِ واحدٍ ورجعْتِ سالمةَ القَرَا بِسَلاَمِ (١)

وعاد يعزّى نفسه عن ذهاب الأحبة بالابتعاد عن منازلهم على ناقة قوية متينة ، طويلة كبنيان اليهودى ، إذا زجرتها استجابت وأسرعت ، امتد عنقها كأنه عَذْق من غراس ابن معنق ، تُتابع سيرها ليّنة هيّنة ، كسحاب متفرق يدفع بعضه بعضاً ، لا تتوقف فى عدوها ، كأنّ إلى جنبها هرّا تجرّه ، يخدشها عبر الطريق ، وعند كل منحنى ، سريعة يرى نفسه فوقها ، وقرابه ونمرقه ، كأنه يمتطى ظليما من النعام ، فزعاً نافراً ، ذا زوائد فى رجليه ، يروح من أرض لأرض بعيدة ، لأنه ذكر حفرة له ، فيها صغاره ، وبقايا بيض فلّق ، وبيض يوشك أن يفقس ، يطوّف بآفاق البلاد ، ويذهب بعيداً ، تسحقه ريحا الصبا سحقاً :

فعزّيتُ نفسى حين بانوا بجسْرةٍ أمونٍ كبنيانِ اليهودىّ ، خَيْفَقِ (٢)
إذا زُجرتْ ألفيتهَا مشمَعِلَّةً تُنيفُ بِعذْقٍ مِن غراسِ ابن مُعْنق (٣)
تروح إذا راحت رواح جَهامةٍ بإثْر جهامٍ رائحٍ متفرِّقِ (٤)
كأنّ بها هرًّا جَنِيباً تَجرُّه بكل طريقٍ صادفتْهُ ومأْزِقِ (٥)

***

(١) القرا : الظهر .

(٢) جسرة : ناقة ـ خيفق : طويلة .

(٣) مشمعلة : سريعة — تنيف : تشرف .

(٤) جهامة : سحابة .

(٥) المأزق : الطريق الضيق .

كأنّى ورحْلى والقرابَ ونُمْرُقى على يَرْفَئِىّ ذى زوائدَ نَقْنَقِ (١)
تروّحَ مِن أرضٍ لأرضٍ نَطِيَّةٍ لِذِكْرةِ قَيْضٍ حول بَيْضٍ مُفلَّقِ (٢)
يجولُ بآفاقِ البــلادِ مغرِّباً وتسحقهُ ريحُ الصَّبا كلَّ مَسْحَقِ (٣)

وعلى نفس النهج يتسلّى عن تذكّر حبيبة ملتفّة الغدائر ، بيضاء الأسنان ، بناقة خفيفة سريعة ، تميزت هذه المرة بأنها حائل لم تلقح ولم تحمل ، تظاهر عليها الشحم من كل جانب ، ليست بَـكرة ، ولا ذات ضغن فتنزع إلى موطنهـا دائماً ، ويحتاج حاديها إلى أن يشدّها دوما ، مستجيبة تعطى ما عندها من السير فى سهولة ، وكأنّه عليها ورحله وقرابه ونمرقه ، ومن حولها تتناثر الأحجار الصغار ، وتتكسر فيكون لها وميض ، على ظليم من النعام ترك عرْسه وبيضهما بمنعرج الوعساء ، فإذا آب إليها فى آخر النهار يعودها ، خشيته وهربت منه . ثم يسائل امرؤ القيس نفسه : أيهما أكثر شبهاً بناقتى ، ذلك الظليم من النعام ، أم هذا الحمار من الوحش ؟ .

وهـكذا يمضى فى حديثه ، من الناقة إلى النعامة ، ومن النعامة إلى حمار الوحش ، يفصّل من أمره وحاله وخلْقه وجسمه ، هو حمار أبيض ، يطارد أتنا ذوات صغار كثيرة ، أضمره العدو ، خميص البطن ، مرتفع المتن ، على حاجبه خدش من بقايا ضرب ، وبصدره آثار عضّ انحص عنها الشعر ، وكأن ظهره ، بما فى وسطه من خطة تخالف سائر لونه ، جعاب السهام يجرى بينها الذهب ، وهى فى « قو » تأكل نبتاً وبقلا غضاً ، رُعِىَ من قبل ثم أخلف ثانية ، سمنت

(١) القراب : الوعاء يتخذ من أديم — يرفئى : ظليم ، وهو الذكر من النعام ـ النقنقة . صوته .
(٢) نطية : بعيدة — القيض : فالق البيض وقشوره .
(٣) مغربا : بعيدا ـ تسحقه : تذهب به بعيدا .

عليه ، وتناثر شعرها فكأنه نسيل حرير أخضر، أو خوص نخل أطارته الرياح، ظل يرعاها فى الصيف بأعلى حائل ، حتى إذا جاء الربيع ولم يَسُغ لهـا حلىّ وقصيص ، تركت المكان إلى آخر ، ترعى الكلأُ الغض ، وتستغنى به عن شرب الماء ، لولا أن الهاجرة اشتدت على صغارها فصاتت تطلب الماء ، فصاح بها الفحل يناديها ، فأَقبلت عليه أتان، طويلة الأرساغ ؛ غير حامل ، فأوردها آخر الليل ماء غزيراً ممتداً ، غطته طحالب خضراء ، فشربن على حذر ، وهنّ خوائف ، ترتعد منهن الكلى والفرائص ، ثم أصدرها عشيّة فسلك بها طريقاً مرتفعاً ، يقوم عليها شديد البأس ، خفيف الخطو ، كقلاء الوليد ، وخلفهن سار جحش ، وجحش آخر سقط عند رجوعهن فاندقت عنقه :

فهل يُسلِّينَ الهمَّ عنكِ شِمِلَّةٌ مُداخَلَةٌ صمُّ العظامِ أصوص (١)

تظاهرَ فيها النيُّ لا هى بكرةٌ ولا ذاتُ ضِغْنٍ فى الزّمام قَمُوصُ (٢)

أؤوب نعوبٌ لا يُواكِلُ نَهزُها إذا قيل سيرُ المدلجينَ نَصيصُ (٣)

كأنِّى ورحْلى والقرابَ ونُمرُقى إذا شُبَّ للمرْوِ الصغارِ وبيصُ (٤)

على نِقْنِقٍ هَيْقٍ له ولعرسه بمُنعرج الوعساءِ بَيْضٌ رَصيصُ (٥)

---

(١) الضمير فى عنك يعود إلى صاحبته ، وشملة : الناقة الخفيفة — الأصوص : الناقة الحائل التى لم تلقح ولم تحمل .

(٢) النى : الشحم — البكرة : الفتية من النوق — لا ذات ضغن : لا تنزع إلى موطنها — القموص : التأخر .

(٣) النعوب : المسرعة كأن لها صوتاً تخرجه — لا يواكل : لايتراخى — نهزها : جذبها — المدلجين : جمع مدلج ؛ السائرون أول الليل ـ نصيص : نص كل شيء منتهاه .

(٤) المرو : الحجارة ـ وبيص : بريق .

(٥) نقنق : الذكر من النعام ـ منعرج : منقطع ـ الوعساء : أرض ذات رمل .

إذا راحَ للأُدْحيِّ أوباً يفُنُّها تحاذرُ من إدْراكِه وتحيص(١)
أذلك أم جونٌ يُطارد آتُناً حملْن فأربَى حملِهنّ دُرُوصُ(٢)
طواه اضطّمارُ الشدِّ والبطنُ شازِبٌ معالىً على المتنيْنِ فهو خميصُ(٣)
بحاجبه كدحٌ من الضّرْبِ جالبٌ وحارِكُهُ من الكِدام حَصيصُ(٤)
كأنَّ سراتَه وجُدّةَ ظهرهِ كنائنُ يجْرى بيْنهنّ دَليصُ(٥)
ويأْكُلن من قوٍّ لُعاعاً وربّةً تجبّر بعْد الأكْلِ فهو نميصُ(٦)
يُطير عِفاء من نسيلٍ كأنّهُ سُدوسٌ أطارتْهُ الرياحُ وخُوصُ(٧)
تصيّفها حتى إذا لمْ يَسغْ لها حَلِيٌّ بأعلى حائلٍ وقَصِيصُ(٨)

---

(١) الأوب : الرجوع ــ الأدحى : الموضع الذى فيه بيض النعام ــ يفنها : يعودها ــ تحيص : تهرب .

(٢) الجون : الحمار فى لونه بياض ــ الأتن : إناث البقر الوحشى ــ دروص : صغار .

(٣) الاضطمار : الضمر ــ الشد : العدو ــ شازب : ضامر ــ معالى : مرفوعا ــ خميص : ضامر .

(٤) الكدح : الأثر ــ جالب : جرح جالب عليه قشرة ــ الحارك : مابين كتفى الحمار ــ الكدام : العض ــ حصيص : انحص شعره .

(٥) سراته : ظهره ــ جدة ظهره : الخط الذى فى وسط ظهره ــ كنائن : جمع كنانة وهى جعبة السهام ــ دليص : ذهب له بريق .

(٦) قو : اسم موضع ــ اللعاع : القليل الرقيق من النبت والبقل ــ الربة : نبت نميص : صغير .

(٧) العفاء : الخفيف ــ النسيل : ماسقط من الشعر ــ السدوس : الطيلسان ــ الخوص : ورق النخل .

(٨) حلى : نبت ــ حائل : اسم موضع ــ قصيص : شجر .

تَغالَبْن فيه الجزْءَ لولا هواجرٌ   جنادبها صَرْعَى لهنَّ فَصيصُ(١)

أَرنَّ عليها قاربًا وانتحت له   طُوالةُ أرساغِ اليدينِ نَحُوصُ(٢)

فأوْردها من آخرِ الليلِ مَشْرَبًا   بلائقَ خُضْراً ماؤهنَّ قليصُ(٣)

فيشربْن أنفاساً وهن خوائفٌ   وتُرعدُ منهنّ الكُلَى والفرِيصُ(٤)

وأصْدَرها تعلو النِّجادَ عشيّةً   أقبُّ كمِقْلاءِ الوليدِ شَخِيصُ(٥)

فجَحْشٌ على أدْبارِهنَّ مُخَلَّفٌ   وجحشٌ لدى مَكَرِّهنَّ وقيصُ(٦)

---

(١) الجزء : أن تأكل الرطب وهو الكلأ في أيام الربيع فتستغنى به عن شرب الماء ـ الهواجر : جمع هاجرة ؛ وهى شدة الحر فى أنصاف النهار ـ الجنادب : جمع جندب ، ذكر الجراد ـ فصيص : صوت .

(٢) أرن : نهق ـ قاربا : معناها هنا داعيا إلى الماء ـ انتحت له : قصدته ـ نحوص : لم تحمل بعد .

(٣) بلائق : جمع بلشوق (بضم الباء وسكون اللام) ، وهى المياه المستنقعة أو المنبسطة على الأرض ـ قليص : قلص الماء إذا كثر وارتفع وجم .

(٤) الفريص : جمع فريصة ؛ اللحمة التى تلى الأبط ، وهو أول ما يرعد من الدابة .

(٥) أصدرها : الإصدار عكس الورود ، عاد بها من الشرب ـ النجاد : الطريق المرتفع ـ أقب : ضامر البطن ـ المقلاء : العود الذى يضرب به الغلام القلة ، وهى لعبة لصبية الأعراب ـ شخيص : مرتفع .

(٦) مكرهن : رجوعهن ـ وقيص : سقط فاندقت عنقه .

(*) بعد البيت الأخير يوجد فى الديوان البيت التالى :

وأصدرها بادى النواجذ قارح   أقب ككر الأندرى محيص

وأراه فى غير مكانه ، ولأنه آخر بيت فى القصيدة يبدو لى أن ألصق بها إلصاقا ، لأنه لا يزيد عن المعنى الوارد فى البيت الذى قبل الأخير هنا شيئا .

اتخذ امرؤ القيس ، كما رأينا ، من الناقة معبرا ليصف لنا النعامة ، أو الحمار الوحشى ، واتخذ الفرس مطية ينقلنا بها إلى عالم الصيد ، بوسائله وحيوانه ومغامراته ، وما يدور فيه من صراع بين الإنسان والحيوان ، أو بين الحيوان والحيوان وقد يعاوده الحنين إلى الحديث عن الفرس ، فيضمّن كلامه عن الصيد بعضا من شمائله وخصائصه ، على نحو ما سنرى .

وتضم « معلّقته » وهى أول قصيدة فى ديوانه ، وصفا موجزاً لواحدة من رحلات صيده ، يصف فيها قطيعاً من بقر الوحش اعترض طريقه ، تمشى إناثه مطمئنّة ، على مهمل وفى تناسق ، ويلفّها هدوء خاشع ، كأنهن عذراوات حسان يطفن « بدوار » ، صنم كان يعبد فى الجاهلية ، وقد سبق فرسه سرب البقر ، ثم ردّها على أعقابها فدارت حيارى ، وتناثرت كقلادة من جزَع ، قلادة ثمينة يلبسها صبىّ كريم على أهله عمومة وأخوالا ، وقد أدرك الفرس أوائل الوحش ، وبقيت أواخرها هادئة لم تتفرق ، كأنها لسرعة فرسه لم تشعر بما أصاب هواديها ، فماذعرت ولا تفرّقت ، وقد تبع ثورا ونعجة فأدركهما فى طلْق واحد ، ولم يعرق لفرسه بدن فيغسل ، ولطّخ صدرَه دمُ الوحش الذى صاده ، كأنه عصارة حنّاء صُبغ بها شيب ، وبدأ الطهاة يعالجون لحم ما صاد ، منهم مَن يشوى ، ومنهم من يطبخ فى القدر يتعجّل إنضاج لحمه :

فعنَّ لنَا سِرْبٌ كأن نِعاجَهُ ... عَذارَى دُوارٍ فى مُلاءٍ مُذَيَّلِ (١)

فأدْبرنَ كالجزْع المفصَّل بينَه ... بجيدِ مُعَمٍّ فى العشيرةِ مُخْوَلِ (٢)

(١) عن : عرض ــ سرب : قطيع ــ نعاج : جمع نعجة ، إناث الحمر الوحشية ــ دوار : صنم من أصنام الجاهلية ــ الملاء : الملاحف ــ مذيل : طويل الذيل مهدب .

(٢) المفصل : الذى فصل بينه باللؤلؤ ــ جيد : عنق .

فألحقنا بالهاديات ودُونَه جواحرُها فى صرَّةٍ لم تزَيَّلِ (١)

فعادَى عِداءً بينَ ثورٍ ونعْجةٍ دِرَاكاً ولم ينْضح بماءٍ فيُغسَلِ (٢)

كأنّ دماء الهاديات بنحْرِهِ عُصارةُ حِنَّاءٍ بِشَيْبٍ مُرجَّلِ

فظلَّ طُهاةُ اللحمِ مِن بيْنِ مُنضجٍ صَفيفَ شِواءٍ أو قَديرٍ معجَّلِ (٣)

لكن وصفه الذى نعرض له الآن ، أجمل بيانا ، وأدق تفصيلا ، فقد خرج للصيد مبكّرا على فرس ضامرة قويّة ، فذعر بها قطيعا من بقر الوحش ، بيضاوات الجلود ، موشيات الكوارع ، مثْل خالٍ من برود اليمن ، فلما أحستْ به البقر أجهدت العدو فى « جَمَزَى » ، كأنها خيل عليها أجلال بيض ، ثم لاذت بالفحل يحميها ، فحل مُسِنّ ، أخنس الأنف ، ممتدّ الظهر ، طويل القرن ، جعلته مما يلى الصائد ليذبّ عنها ، بينما ركّز الصائد عينه على ثور ونعجة من سمانِ القطيع ، يلاحقهما فى طَلْق واحد ، تبذل الفرس من سرعتها ، ويعطى هو من فنّه ، حتى لا يفلت الوحش منهما ، وكانت الفرس فى عدوها سريعة منقضّة كأنها عُقاب صيود .

وامرؤ القيس لا يقنع من العقاب بلفظها ، وبما يوحى به من سرعة وانقضاض ، وإنما يرسم لنا صورة واضحة لحركتها وطباعها وهدفها وإنسانيتها ، إنْ صحّ هذا التعبير ، وللأرض التى تجعل منها ساحة لنشاطها ، ووكرها الذى تتّخذه سكنا .

---

(١) الهاديات . المتقدمات من البقر ــ الجواحر : ما تخلف منها ــ والصرة : الجماعة ــ لم تزيل : لم تفرق .

(٢) دراكا : مداركة .

(٣) قدير : ما يطبخ فى القدر .

بلى ، إن فرسه فى عدوها صورة من عُقاب فتخاء الجناحين ، تبسطهما وتقبضهما فى يسر ، ذات أفراخ صغار تطعمها ، فلا تملّ الطيران من أجلها ، بحثا عن صيد جديد ، وهى عقاب حديدة البصر ، تنقضّ على أرانب « الشَّرَبَّة » ضحوة ، بعد أن أدركت خطرها ثعالب « أُورال » فاختفت خوفا ، ويزدحم وكرها بقلوب الطير التى جاءت بها إلى أفراخها فالتهمتها ، قلوب مضى على بعضها حين من الدهر فيبست وجفّت ، وأخرى قريبة عهد لمّا تزل رطبة ليّنة ، وهذا الخليط من بقايا القلوب يابسة ولينة كالعنّاب رطبا ، وحشف التمر قديما ويابسا ، صورة دقيقة بديعة ، كان بَشّار بن بُرْد يغار منها ، ويقول : ما قرَّ لى لى قرار منذ سمعتها ، حتى صنعتُ مثلها[1] . وقد سبق رحلة الصيد حديث عن فرس فى بيت واحد ، كان كالتمهيد لها :

ذعرْتُ بها سِرْباً نَقِيًّا جُلودُه ... وأَكْرُعُهُ وشْيُ البُرودِ مِن الخالِ[2]

كأنَّ الصُّوارَ إذ تجهّد عدْوَهُ ... على جَمَزَى خيلٌ تجولُ بأَجلال[3]

فجال الصُّوَارُ واتّقيْنَ بقَرْهَبٍ ... طويلِ القرا والرّوْقِ أخْنَسَ ذَيّالِ[4]

فعادى عِداءً بيْنَ ثوْرٍ ونَعْجَةٍ ... وكان عِداءُ الوحْشِ منّى على بالِ[5]

---

(١) بيت بشار الذى يشير إليه :

كأن مثار النقع فوق رؤوسهم ... وأسيافنا ، ليل تهاوى كواكبه

(٢) الخال : ضرب من برود اليمن .

(٣) الصوار : قطيع بقر الوحش — جمزى : هنا اسم موضع .

(٤) قرهب : فحل من البقر مسن — الأخنس : القصير الأنف ـ القرا : الظهر — الروق : القرن ـ أخنس : قصير المشافر ـ الذيال : السابغ الذنب .

(٥) على بال : موضع اهتمام منى .

كأنى بفتخاءِ الجناحَيْنِ لِقْوَةٍ صَيُودٍ من العِقْبان طأطأت شِملالِ (١)

تخطَّفُ خِزّانَ الشَّرَبَّةِ بالضُّحَا وقد جَحَرتْ منها ثعالبُ أوْرالِ (٢)

كأن قلوبَ الطيْرِ رَطْباً ويابساً لدى وكْرِها العُنّابُ والحشَفُ البالِي (٣)

وهو فى صيده لا يقف عند نوع معين من الوحش ، وإنما يلاحق ألواناً متعدّدة منه ، بعضها بقر أبيض الجلود ، أنس شيئاً فهو أقل خوفا ، وبعضها الآخر أتُن بيدانية لا تقرب الناس ، ذات ولد تخشى عليه فهى مذعورة أبداً ، وفى يومه هذا لقى نعاجا يرتعين خميلة ، يتبخترن فيها كعذراوات فى أردية بيضاء مهدبة ، فتنادى الصيادون ، وشدّ كل واحد عذار فرسه مجلا ؛ وعدت البقر ، وأدرك الرفاق أن امرأ القيس لها وحده ، فنادَوْه : سبقنك فاعجل بهنّ . فتقدَّم إليها ومعه غلامه على ظهر فرس قوى مجدول الظهر ، فى صلبه ويديه انحناء ، وجَهدَ الغلام ليكون على مستوى عدو سيِّده ، بينما اندفع فحل القطيع كمطر منهمر عشيّة ، وتبعته النعاج ، موليّات يخرجن من أرض ندية خصبة ، والفرس يلاحقها ، والفارس من فوقه يلهبه بساقه ، ويدرّه بسوطه ، ويزجره بصوته ، فيندفع أهوج مجنوناً سريعاً كخذروف الوليد ، يبلغ صيده فى طاق واحد غير متعب . كان وطيس المعركة ساخناً ، حتى أن الفيران فى منخفض الوادى أحسَّتْ بها ، ظنّتْها مطراً ينهمر ، يوشك أن يغرق

---

(١) الفتخاء : اللينة الجناحين ــ اللقوة : السريعة من العقبان ــ طأطأت : دانيت و خفضت ــ الشملال : الخفيفة السريعة .

(٢) خزان : جمع خزز (بضم الخاء) ؛ وهو ذكر الأرانب ــ الشربة : اسم موضع ــ جحرت : اختفت ــ أورال : اسم موضع .

(٣) العناب : ثمر الكرز ، أو هو فى شكله ــ الحشف البالى : رديء التمر ويابسه .

جحورها ، فتركها مسرعة تخطّ لها طريقاً على جدد الصحراء ، حيث الأرض مستوية وصلبة .

وعند ما بلغ هذا القدر من التمهيد ، بدأ يرسم صورة أخاذة ، نابضة بالحياة والحركة ، بين الفرس و بين ثور ونعجة ومعهما شَبُوب ، هو فحل القطيع وأسنه والذاب عنه ، ابيضّ جلده كصحيفة ، لحقها الفرس ، وأراد أن يصرعها جميعاً فى شأو واحد ، بينما بقية الثيران تضرب فى الرمل ، تلاحقها رماح مشدودة فيُسْمع لها غماغم ، صُرع بعضها فانكبّ على وجهه ، واتقاها بعضها الآخر بقرونه ، قرون حديدية كأنها حدّ المخرز .

فلما فصلتْ المعركة أمر الفتيان بالنزول ، ودعاهم إلى نصب الخباء ، جعلوا دروعهم أوتاده ، وسيوفهم عُمُده ، وحبال إبلهم أطنابه ، وفضل أثوابهم ستاره ، حتى إذا أُقيم دخلوه ، وأسند كلٌّ ظهره متعباً إلى رحل جديد منمّق صُنع فى الحيرة ، وحوله أُسند الوحش ميتاً ، تبدو عيونه ، انقلبت فبدا فيها البياض والسواد ، خرزا لمّا يُثقّب . ثم أكلوا من لحمها شواء نصف منضج ، وفى أعراف الخيل مسحوا أكفّهم ، وكان اللحم كثيراً ، فحملوا بقيّته معهم ، ووُضع جانب منه فى الحقائب ، وجُعل الجانب الآخر فى خرجة تحتهم على الخيل تضيق بما فيها ، كما لو كانوا عائدين من « جُوَاثَى » ، حيث التمر كثير وجميل ، ويحمل منه الناس ما طاب لهم ، بينما الفرس نشط كتيس من الظباء ، يعيش على نبت الرمل ، فهو ينفض رأسه ، ضيقاً بريح عرقه وتأذّياً منه :

فيوماً على سِرْبٍ نقيٍّ جُلُودُه ويوماً على بَيْدانةٍ أمِّ تَوْلبِ(١)
فبيْنا نِعاجٌ يرْتعِينَ خميلةً كمشْيِ العذارَى فى المُلاءِ المهدَّبِ(٢)
فكان تَنادِينا وعَقْدَ عِذارِه وقال صِحابِى قد شأوْنَكَ فاطْلُبِ(٣)
فلأْياً بلأْيٍ ما حملْنا وليدَنا على ظَهْرِ مَحْبُوكِ السَّراةِ مُحَنَّبِ(٤)
وولّى كشُؤْبوبِ العَشِيِّ بوابلٍ ويَخْرُجْنَ مِن جعْدٍ ثراهُ مُنَصَّبِ(٥)
فللساقِ أُلْهوبٌ وللسَّوْطِ دِرَّةٌ وللزجْرِ منه وقْعُ أهْوجَ مِنْعَبِ(٦)
ترى الفأرَ فى مُستنقعِ القاعِ لاحِباً على جَدَدِ الصحراءِ مِن شدٍّ مُلْهِبِ(٧)
خَفاهُنّ من أنفاقِهِنّ كأنّما خَفاهُنّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مجلَّبِ(٨)

* * *

فعادَى عِداءً بيْن ثورٍ ونعْجةٍ وبيْن شَبُوبٍ كالقضِيمَة قَرْهَبِ(٩)

---

(١) بيدانة : أتان فى البيد ـ التولب : الولد الصغير .

(٢) النعاج : إناث بقر الوحش — الخميلة : رملة فيها شجر — الملاء : الملاحف البيض — المهدب : ذو الهدب .

(٣) شأونك : سبقنك .

(٤) المحبوك : القوى المجدول — السراة : الظهر — المحنب : الذى فى يديه وصلبه انحناء .

(٥) شؤبوب : دفعة المطر الغزيرة ـ الجعد : الشديد النداوة .

(٦) المنعب : الذى يستعين بعنقه فى الجرى وعده .

(٧) لاحبا : مسرعا ـ الجدد : ما استوى من الأرض ـ ملهب : شديد العدو .

(٨) الودق : المطر ـ المجلب : الذى تسمع له جلبة .

(٩) الشبوب : الثور المسن ـ القضيمة : الصحيفة البيضاء ـ القرهب : المسن .

وظلّ لثيرانِ الصّريم غماغِمٌ يُداعِسُها بالسّمهريّ المعلَّبِ (١)
فـكابٍ على حُرِّ الجبين ومُتَّقٍ بِمَدْرِيَةٍ كأنّها ذَلْقُ مِشْعَبِ (٢)
وقُلنا لفتيان كرامٍ ألا انزلوا فعالُوا علينا فضل ثوب مُطنّب (٣)
وأوْتادُه ماذِيّةٌ وعمادُهُ رُدَيْنِيّةٌ فيهـــا أسِنّةُ قَعْضَبِ (٤)
وأطْنابُـهُ أشْطانُ خُوصٍ وصَهْوتُهُ مِنْ أتحميٍّ مُشَرْعَبِ (٥)
فلمّا دَخَلْناه أضَفْنَا ظُهورَنا إلى كل حاريٍّ جديدٍ مُشَطَّبِ (٦)
كأنّ عيونَ الوحْشِ حولَ خِبائنا وأرْحُلِنـا الجزْعُ الذى لم يُثَقَّبِ (٧)
نَمُشُّ بأعرافِ الجيادِ أكفَّنا إذا نحنُ قُمنا عن شِواءٍ مُضَهَّبِ (٨)
ورُحنا كأنّا من جُؤاثَى عَشِيَّةً نُعـالِي النِّعاجَ بينَ عِدْلٍ ومُحْقَبِ (٩)

---

(١) الصريم : القطعة من الرمل تنقطع عن معظمه ـ الغماغم : الأصوات ـ يداعسها : يطاعنها ـ السمهرى : الرمح الشديد ـ المعلب : المشدود بالعلباء ، وهى عصا فى القفا يشدون بها الرماح وهى طرية ، ثم تيبس عليها ، فيؤمن تعطفها عند المطاعنة .

(٢) كاب : ساقط ـ المدرية : القرن ـ ذلق : حد ـ مشعب : مخرز .

(٣) عالوا : ارفعوا ـ مطنب : مشدود بالأطناب ؛ وهى حبال الخباء .

(٤) الماذية : الدرع الصافية ـ الردينية : رماح نسبت إلى « ردينة » ، امرأة كانت تبيع الرماح ـ قعضب : اسم رجل كان يعمل الأسنة من بنى قشير ، ويقال هو زوج ردينة .

(٥) أطناب : حبال الخباء ـ أشطان : جمع شطن ؛ وهو حبل الناقة ـ الخوص : النوق الغائرة العيون ـ صهوته : أعلاه ـ الأتحمى : ضرب من برود اليمن ـ المشرعب : المصنف .

(٦) حارى : رحل منسوب إلى الحيرة ـ المشطب : الذى فيه خطوط وطرائق .

(٧) الجزع : خرز يمانى فيه بياض وسواد .

(٨) نمش : نمسح ـ المضهب : الذى لم يدرك نضجه .

(٩) جؤاثى : قرية بالبحرين يمتاز فيها التمر ـ عدل : جعل فى خرج ـ محقب : وضع فى حقيبة .

وراحَ كَتَيْسِ الرَّبْـلِ ينفضُ رأسَه أَذاةً به من صائكٍ متحلِّبِ (١)

فى هذه المرّة فصَّل القول عن رفاقه فى الرّحلة ، الربىء والغلام ، فقال إنه غدا فى رحلته قبل أن يهبّ الناس من نومهم ، على فرس ضخم ، صليب الجنب ، شبعان ممتلىء الجوف . وأرسل قبله ربيئاً يستطلع المكان ، ويراقب الصيد من مشرف مرتفع ، يحسن التستّر والاختفاء كذئب الغضا ، يمشى الضرّاء ويتقى ، يرفع رأسه وسائر بدنه ملتصق بالأرض كولد ظبية ، حتى لا يراه الصـيد فينفر منه ، وحين لمح بعضاً منه عاد يزحف على بطنه ، يلفه الغبار من كل جانب ، وأنبأه : هنـاك قطيع من البقر ، وعانة من الحمر ، وخيط من النعام ، ترعى متفرّقة ، فقام إلى فرسه فألجمه ، فرس كغصن البان صفاء لون وحسن منظر ، نشط مرح لا يكاد يهدأ ، لم يستطع الغلام أن يركبه إلاّ بعد معالجة ، يسطو بنفسه فلا يتوقّ ما رُكِبَ وما ضرب بحافره ، ضامر كأعواد رحل مبرّية ، وكأن غلام امرىء القيس إذ ركبه فرّ به مسرعا

---

(١) الربل : نبت ينبت فى آخر الصيف ـ التيس : الذكر من الظباء ، الصائك : العرق الثقيل الريح ـ متحلب : تحلب العرق سال .

* بعد البيت الأخير يوجد فى الديوان بيتان هما نهاية القصيدة ، وفى وصف الفرس :

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مخضب

وأنت إذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأصهب

وكلا البيتين وردا فى « المعلقة » بنفس ألفاظهما ومعانيهما ، مع تغيير وحيد فى الكلمة الأخيرة من كل بيت ، ليوافق القافية فى القصيدة التى أقحم عليها ، فهى هناك فى البيت الأول « مرجل » ، وهى هنا « مخضب » ، وفى البيت الثانى هناك « بأعزل » وهنا « بأصهب » ؛ ولا يخالطنى ريب فى أن الأمر اضطرب على الراوى ، وخانته ذاكرته ، وقد صرفت النظر عنهما ، لأن مكانهما الطبيعى فى « المعلقة » .

جاداً فى عدوه ، امتطى ظهر باز يحلّق فى السماء ، رأى أرنباً فهوى إليها ، يدنو منها ، يتأمّلها قبل أن ينقضّ عليها .

فقال له : صوّب الفرس ولا تجهده ، خذ عفوه ولا تحمله على العـدو فيصرعك ، فلما أحس به القطيع تناثر كعقد مفصل على نحر وليد ذى قميص مطوّق . وأدرك الغلام الصيد ، وفرسه ثان من عنانه ، لم يجهد ، ولم يُخرج كلّ ما عنده من الجرى ، ينساب فى سهولة مطرغزير ، وأخذ يطعن ما يدركه من بقر وحمر ، فصاد ثوراً وحماراً وظليما ، دون مشقّة يعرق معها فرسه . ثم أخذ يخضب ناصـية فرسه بدم الصيد ، بينما وقف الفرس فى كبرياء وزهو ، كرئيس فارسى .

فلما تمّ الصيد ، ضربوا لهم خباء ، وبدأ أصحابه يصنعون من نعمتهم شواء يأكلونه ، وقديدا يحملونه معهم ، وآبوا من رحلتهم عشاء يحملون ما صادوا كقوم عائدين من « جؤاثى » يحملون تمراً :

وقد أغتدى قبل العُطاسِ بهيكلٍ شديدٍ مَشكِّ الجنْبِ فَعْمِ المُنَطَّقِ (١)
بعثْنا ربيئاً قبــل ذلك مُخْمِلاً كذئْب الغَضا يمشِى الضرَاءَ ويتَّقى (٢)
فظلَّ كمثل الخشْفِ يرفعُ رأسَهُ وسائرُه مثلُ الترابِ المُدَقّقِ (٣)
وجاءَ خَفِيًّا يَسْفِنُ الأرضَ بطنَهُ ترى التُّرْبَ منه لاصقاً كلَّ مُلْصَقِ (٤)

---

(١) فعم المنطق : ممتلىء الجوف .

(٢) الربئ : الرقيب ــ مخملا : مستتراً ــ الضراء : اختيال وتبختر .

(٣) الخشف : ولد الظبية .

(٤) يسفن : يمسح .

فقال ألاَ هـذا صوارٌ وعانةٌ وخيطُ نعامٍ يَرْتعى متفرِّقِ (١)
فقُمنا بأشلاءِ اللجامِ ولم نقُـــدْ إلى غُصنٍ بانٍ ناضرٍ لم يُحَرَّقِ (٢)
نُزَاولُه حتى حملْنا غلامَنـــا على ظهرِ ساطٍ كالصليفِ المعرَّقِ (٣)
كأن غلامى إذْ علا حالَ مَتْنِهِ على ظهر بازٍ فى السماءِ مُحلِّقِ (٤)
رأى أَرْنباً فانقضَّ يَهوِى أمامَه إليْهَا وجلاَّها بطرْفٍ مُلقْلقِ (٥)
فقلتُ له صوِّبْ ولا تُجْهِدنَّه فَيُذْرِكَ مِن أعلى القطاةِ فتزْلَقِ (٦)
وأدبرْنَ كالجزْع المفصَّل بينَـه بجيدِ الغلامِ ذى القميصِ المُطَوَّقِ (٧)
وأذْركهنّ ثانيا من عِنانِهِ كغيْثِ العشىِّ الأقهبِ المتودِّقِ (٨)
وظلَّ غلامى يُضجِـعُ الرُّمحَ حولَهُ لـكل مهاةٍ أولأحقبَ سَهْوَقِ (٩)*
فصاد لنـــا ثوْرا وعيْرا وخاضباً عِداءً ولم يُنْضحْ بماءٍ فيعرَقِ (١٠)

---

(١) الصوار : القطيع من البقر ـ العانة : القطيع من الحمر ـ الخيط : القطيع من النعام.
(٢) أشلاء : حدائد .
(٣) ساط : لا يتوقى ما ركب وما ضرب بحافره ـ الصليف : هنا عود من أعواد الرحل ـ المعرق . ضامر تبدو عروقه .
(٤) حال متنه : موضع الراكب عن ظهره .
(٥) الملقلق : المبادر بالنظر الذى لا يفتر .
(٦) فيذرك : فيصرعك ـــ القطاة : موضع الردف من الفرس .
(٧) الجزع : الخرز ـــ المطوق : عليه طوق .
(٨) الأقهب : ما كان لونه إلى الكدرة مع البياض ـــ المتودق : الشديد .
(٩) مهاة : بقرة وحشية ـــ الأحقب حمار الوحش ـــ سهوق طويل .
* هذا البيت يأتى بعد تاليه فى الديوان ، وقدمناه عليه لأن تسلسل المعنى يقتضيه
(١٠) الثور : من بقر الوحش ، والعير : الحمار ، والخاضب : الظليم .

وقام طُوالَ الشخصِ إذْ يَخْضِبُونَه قيام العزيز الفارسيِّ المنطقِ (١)
فقلنا ألا قدْ كان صيدٌ لقانصٍ فَخَبُّوا علينا كلَّ ثوْبٍ مروَّقِ (٢)
وظلّ صِحابى يشْتَوونَ بنعمةٍ يَصفُّون غاراً باللـكيكِ الموشّق (٣)
ورُحْنا كأنَّا من جُؤاثى عَشِيَّةً نُعالِى النعاجَ بيْن عَدْل ومُشْنقِ (٤)

وكما وصف امرؤ القيس الفرس يصيد به ، والناقة يحمل عليها رحاله ، والحمر الوحشية يصطادها ، ومَنْ صحبه عبر هذه الرحلات ، قدَّم لنـا صورة دقيقة ، رواها الأصمعى ، وجاءت منفردة ، لأشهر رام فى عصره ، عمرو ابن المسبِّح الطائى ، وهو من بنى ثعل ، وهى قصـيدة أنـكرها الدكتور شوقى ضيف ، بزعم أن عمرا زمنه متأخر عن زمن امرىء القيس ، فقد وفد على الرسول عليه السلام فيمن وفد من العرب . وفيما أَرى ، وفود عمرو على الرسول لا يصلح سبباً لدفع القصيدة ، وإنـكارها على امرىء القيس ، لأن الذين رووْا وفادته قالوا إنه كان فى سنّ متقدمة ، ابن مائة وخمسين سنة ، وقد لا يكون الرقم دقيقاً ، لـكن أباحاتم السجستانى أورده فى كتابه «المعمرين» كواحد منهم ، ولا يحتاج عمرو إلى أن يبلغ هـذه السنّ ، بل لا يحتاج لأن يبلغ المائة ليعاصر امرأ القيس والبعثة المحمدية ، وشاعر كندة نفسه ، لو امتدَّ به العمر فعاش ماعاش أنداده من معمّرى الشعراء ، لأدرك الإسلام ، ولربّما وفد على الرّسول فيمن وفد ، فقـد كان بين وفاته ومولد الرسول فترة

---

(١) المنطق : ذو المنطقة .
(٢) خبوا علينا : اضربوا لنا خباء ـ مروق : له رواق .
(٣) اللـكيك : اللحم الـكثير الثخين ـ الموشق : المقدد .
(٤) المشنق : المعلق الذى لم يجعل فى الأعدال .

لا تتجاوز عشر سنوات بحال . ومن جانب آخر ، ارتضى الدكتور شوقى ضيف نفسه القصيدة السادسة من الديوان ، ومطلعها[1] :

غشيتُ ديارَ الحىِّ بالبكراتِ فعارمةٍ فبُرْقةِ العيَراتِ

وفيها جاء ذكر عمرو هذا ، وأن قطعان الوحوش كانت تترقبه ، تخشاه وتخاف منه :

فأوردها ماءً قليلاً أنيسُهُ يحاذرْن عمراً صاحبَ القُترات

يصف امرؤ القيس عمراً بأنه صيّاد ماهر من بنى ثعل ، يصيد الوحش مخاتلا ، يكمن فى القُتَر ، كى لا يفطن له الصيد فينفرمنه ، أعدّ قوساً مائلة الجوانب ليرمى بها ، لا ينحنى على الوتر عند الرمى ، وحين ترد الوحش عليه يضع الرمْى قبالة وجهه وجبهته ، حتى إذا اطمأنّتْ قريباً من الماء رماها فى فرائصها وأصاب مقاتلها ، بسهم استلّه من كنانته ، يتوهج حدة وبريقاً كجمر مشتعل ، جعل له ريش طائر ، وأرقّه وحدّده ، فسقطت مكانها لا تستطيع حراكا . يا له من صيَّاد ماهر ، إذا عُدّ قومه فلا وُجد فيهم ! صيَّاد مُطعم ، لا يكاد سهمه يخطىء ، ليست له حرفة يكتسب منها غير الرماية على كبر سنه :

رُبَّ رامٍ من بنى ثُعَلْ مُتْلجٍ كفّيْهِ فى قُتَرِهْ[2]
عارضٍ زَوْراءَ مِن نَشَمٍ غيرِ باناةٍ على وَتَرِهْ[3]

---

(١) الدكتور شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، العصر الجاهلى ، ص ٢٤٥ و ٢٤٦

(٢) متلج كفيه : يدخل كفيه – القتر : بيوت الصائد التى يكمن فيها لئلا يفطن له الصيد

(٣) الزوراء : القوس المائلة الجوانب – النشم : شجر تتخذ منه القسى – غير باناة : غير باينة ، وقيل رجل باناة ؛ وهو الذى يحنى صلبه إذا رمى فيذهب سهمه على وجه الأرض .

قد أتتهُ الوحْشُ وَارِدةً فَتَنَحَّى النَّزْع في يَسَرِه(١)

فرماها في فرائصهـــا بإزاءِ الحوْضِ أو عُقُرِه(٢)

بِرَهيشٍ من كِنانتهِ كتلظِّي الجمْرِ في شَرَرِه(٣)

راشَهُ مِن رِيشِ ناهِضَةٍ ثُمَّ أمْهاهُ عَلَى حَجَرِه(٤)

فهو لا تَنْمِي رمِيَّـتُهُ ماله لا عُدَّ مِن نَفَرِه(٥)

مُطْعَمٌ للصيْدِ ليس له غيْرَها كَسْبٌ على كِبَرِه(٦)

صاد امرؤ القيس بنفسه على فرسه ، وأرسل غلمانه يصيدون له ، وهو من ورائهم يوجههم ، وآن له أن يصحبنا فى رحلة أخرى ، إلى نوع آخر من الصيد عرفته العرب ، وهو استخدام الكلاب السلوقية المدربة فى الصيد ، وقدّم لها بوصف الحمار الوحشى مستغرقاً ، بعد أن عرّف به عرضاً ، خلال حديثه عن الصيد أو الخيل أو الرحلة ، واتخذ سبيله إلى ذلك الحديث عن ناقته ، لكنه لم يشر إليها بأكثر من أنه ورحاله فوقها ، كحمار وحشىّ فتىّ ثم انصرف عنها إليه .

---

(١) تنحى النزع : تحرف حيال وجهه ـ النزع : مداليد فى الرمى ـ يسره : قبالة وجهه

(٢) الفرائص جمع فريصة : لحمة بين الجنب والكتف تتصل بالفؤاد ؛ وهى مقتل ـ الإزاء : مهراق الدلو ومصبها من الحوض ـ عقر الحوض : مقام الذين يردون الماء للشرب

(٣) الرهيش : السهم الخفيف ـ الكنانة : جعبة السهام .

(٤) ناهضة : فرخ من فراخ النسور أو العقبان ـ أمهاه : أرقه وحدده .

(٥) لا تنمى رميته : لا تنهض بالسهم وتغيب عنه ـ لا عد من نفره : دعاء عليه على وجه التعجب منه .

(٦) مطعم للصيد : لا يكاد سهمه يخطئ .

إنه حمار قارح ، خميص البطن ، قبالة عين ماء أو على جبل متباعد الأنحاء ، يمرح فى « شَرْبَة » نشطا ، ويتحرك فى « عِرْنان » حذرا متوجساً تعشَّى قليلا وجمع أظلافه يحفر بها مسكناً يبيت فيه ، وكناسا يأوى إليه ، يهيل التراب ويذريه ويثيره ، كرجل اشتدّ عليه حرّ الهاجرة ، فأخذ ينبش الأرض ، ليصل إلى برد الثرى ، يدفع به شدة الحر والعطش . فإذا هيَّأ لنفسه مناماً فتر عزمه ، وهدأ نشاطه ، ونام على جنبه وخدّه ، كالأسـير المقيَّد ، لا يبدى حركة ولا يحدث ضجيجاً .

اتخذ كناسه إلى شجرة تجمع حولها الرمل ، فإذا بلّتها دفعة من مطر أو ندَّتها مزنة من سحاب ، هدأ وسكن كأنه بيت رجل أعرس بأهله ، فإذا تنفَّس الصبح دهمته كلاب مضراة على الصـيد ، كأنها فى ضراوتها ودربتها « كلاب ابن مر أو كلاب ابن سنبس » . جُوِّعت لتضرى على الصـيد ، وتكون أشد فتكاً وأقوى عراما . حمراء العيون ، مشـتعلة الأحداق ، تتوهج كأنها نوّار عضرس ، فلما رآها الحمار شدّ مخلِّفا وراءه سحابا من الغبار يكسو هذه الكلاب ، وكأنه إذ يعلو الأصماد والآكام جذوة من النار . وكلَّما أيقن أنه إن لاقى هذه الكلاب فى وادى الرمث ، فإن نفوساً ستهلك ، ودماء ستهرق ، وقد يكون دمه بينها ، سابق الريح لا يبقى من عدوه على شىء ، وهو يتصور أنها لو أدركته فستأخذ بساقيه ووركيه وتمزّقهما تمزيقاً ، كما يمزّق الولدان ثوب حاج قادم من بيت المقدس ، يلتفون به ، يلتمسون منه البركة . وقد يئست الكلاب من لحاقه ، فانحدرت إلى ظلّ أشجار الغضا ، وتركت الحمار قويا نشيطاً كالفحل الهجان ، شموسا نافرا لا يقوى على مواجهته أحد .

كأنِّي ورحْلِي فوق أحْقَبَ قارِحٍ ... بِشَرْبَةَ أو طاوٍ بِعِرْنان مَوجِسِ (١)

تعشَّى قليلاً ثم أنْحَى ظُلُوفه ... يُثيرُ الترابَ عن مَبِيتٍ ومَكْنِسِ (٢)

يَهِيلُ ويُذرِي تِرْبَهَا ويُثيرُه ... إثارةَ نَبَّاثِ الهَوَاجِرِ مُخْمِسِ (٣)

فباتَ على خدٍّ أحَمَّ ومَنْكِبٍ ... وضَجْعَتُهُ مثْلُ الأسيرِ المُكَرْدَسِ (٤)

وباتَ إلى أرْطَاةِ حِقْفٍ كأنّها ... إذا ألْثَقَتْهَا غَبْيَةٌ بَيْتُ مُعْرِسِ (٥)

فصبَّحه عند الشُّرُوقِ غُدَيَّةً ... كِلابُ ابنِ مُرٍّ أو كِلابُ ابنِ سِنْبِسِ (٦)

مُغَرَّثَةً زُرْقاً كأن عيونها ... مِنَ الذَّمْرِ والإيحاءِ نُوَّارُ عِضْرِسِ (٧)

فأدبرَ يكسوها الرَّغامَ كأنه ... على الصَّمْدِ والآكام جَذْوَةُ مُقْبِسِ (٨)

وأيقنَ إنْ لاقَيْنَه أنّ يومه ... بذي الرِّمْثِ إنْ ماوتْنَه يومُ أنْفُسِ (٥)

---

(١) الأحقب : حمار الوحش — قارح : مسن — طاو : ثور خميص البطن — الموجس : الخائف .

(٢) أنحى : اعتمد — المكناس : الموضع الذى يكتن فيه من الحر والبرد .

(٣) يهيل : يسقط — يذرى : يفرقه ويرمى به — نباث : الرجل يشتد عليه حر الهاجرة فينبث التراب ، ليصل إلى بارده .

(٤) الأحم : الأسود — المكردس : المطروح على جنبه المتقبض .

(٥) أرطاة : شجرة — حقف : ما أعوج من الرمل — ألثقتها : بلتها ونديتها — الغبية : المطرة .

(٦) ابن مر و ابن سنبس : شخصان لهما كلاب مدربة .

(٧) مغرثة : مجوعة — الذمر : الزجر والإغراء — العضرس : شجر أحمر النور .

(٨) الرغام التراب — الصمد : المكان المرتفع — الآكام : جمع أكمة ؛ وهى كالصمد فى المعنى — مقبس : طالب قبس من نار .

(٩) الرمث : اسم موضع فيه كثير من شجر الرمث ، وهو شجر يشبه الغضا — ماوته : جالده وصابره — يوم أنفس : يوم زهاق أنفس .

فأدْركنه يأخذْنَ بالسَّاقِ والنَّسَا   كما شَبْرقَ الوِلْدَانُ ثَوْبَ المقدِّسِ (١)

وغوَّرنَ فى ظِلِّ الغَضاَ وترَكْنَه   كقرمِ الهِجانِ القادِرِ المتشمس (٢)

ذلك هو امرؤ القيس مع الطبيعة المتحركة ، ومن غير معاناة ندرك أن مظهرين منها كانا مناط إعجابه ، وموضع إعزازه . الخيل والصيد . وما جاء عبرهما فضرورة اقتضتها طبيعة التصوير ، أو جاء بها التزام الواقع . إنه موزَّع القلب بين الفرس والأوابد ، ما يكاد يصف الأولى حتى يمضى إلى الثانية ، وإذا طلب الأوابد صائداً ، ووصف نضالها مطلوبة ، عطف من حين لآخر على فرسه ، فبثَّه عواطفه ، وذكر بعض فضله ، وهو يصدر فى ذلك كله عن إعجاب وحب وانفعال ، ويمتزج حديثه عنه بالحنان والود ، يصفه فيختار له أجمل الصفات ، ويقارنه بأكمل المخلوقات ، ولا يعرض له إلا فى أكمل حالاته لقد كانت الفروسية بمظاهرها المتباينة ، صيداً وسباقا وسيادة ، واحدة من هواياته المفضلة .

وصف الفرس فى حالاته المختلفة ، مقبلا على الصيد قويا ، وعائداً منه جليداً ، لم تنهكه المطاردة لكنها تركت ظلَّها عليه . وفصّل القول فى عدوه وخلقه ، فهو سريع كخذروف الوليد ، مندفع كالصخرة الهاوية ، منقض

---

(١) النسا : عرق من الورك إلى الكعب — شبرق : مزق — المقدس الراهب يأتى بيت المقدس ، أو مطلق زائر له .

(٢) غورن : سرن فى الأرض المنحدرة — قرم الهجان : الفحل الكريم — القادر : الممسك عن الضراب — المتشمس : الشموس النفور .

كالعقاب الصيود ، كما وصف جبهته وعينه ومنخره وأذنه ، وعنقه وأعرافه وظهره وكفله ، وذيله وشعره وبطنه وخاصرته ، وساقه وحوافره . وبعض الصفات كالضمور أكثر القول فيـه ، وبعضها عاد إليه أكثر من مرة ، وشيء منها لا يتـكرر أبداً .

وصف الناقة

أما حديثه عن الناقة فيصدر عن تقدير لدورها فى حياة الصحراء ، فلا يكاد يذكرها إلا هارباً من همّ ، وعازما على رحلة ، وأطول وصف خصها به لا يتجاوز خمسة أبيات ، ولا يتعدى الحديث عن سرعتها وما يتصل بها ، يقرّر حقيقة لا تحسّ أن وراءها أية عاطفـة ، لـكن ما يمسّه بريشته كفنان يبلغ فيه قمة الإبداع ، لا يقنع بأن يقول إنها سريعة قوية تضرب الأرض بأخفافها فتُطاير الحصى من خلفها وأمامها ، وإنما يرسم للحصى صورته ، ويعيّن اتجاهه ويضبط وقعه ، فهو طويل عريض محدد ، يطير فى غير نظام كرمى أعسر ، أصم الصوت عند سقوطه كرنين نقد مزيَّف ، ولأنه يقرّر واقعاً ، صوّرها قوية مسرعة ، ومتعبة مجهدة ، وفتية شابة ، وعجوزاً مترهلة ، يلمّ بأحوالها فى إيجاز ، وأحيانا يقف بها عند بيت واحد ، يتخذ منه ذريعة لوصف النعام أو الحمار الوحشى وأهمل وصفها تفصيلا إهمالا تاماً ، فلم يصف منها غير امتدادها ، ووقع أخفافها على الأرض ، وسعة صدرها ، وتباين ما بين عضديها ، وتقارب خطوها ، وطول عنقها ، وتمايل بدنها حين تسرع تـكاد تصرع راكبها ، بينما أسرف معاصروه ولاحقوه فى تتبع أجزاء جسمها حتى أن طرفة خصَّها فى «معلقته» بتسعة وعشرين بيتا كاملة ومتوالية ، وقصائده الأولى فى صدر شبابه خلت من الناقة ، فلا نجد لها ذكراً فى « المعلقة » ، ولا القصيدة الثانية فى الديوان ، وهما من روائع شعره ، وسكت عن فضائلها التى خصّت بها ، مما يتصل بالصحراء والحياة

فيها ، من الصبر على العطش ، وتحمل المكاره ، والعيش على القليل والخشن من الغذاء .

ووصف من أوابد الصحراء وحيوانها ماله بالصيد صلة ، وصف الحمار الوحشى وأتنه ، وبقر الوحش ونعاجه ، وتعاطف معهـا فأفسح لها من قلبه مكانا رحيباً ، على نحو ماصنع مع فرسه من قبل .

صوّر الحمار فى خلقه وطباعه ، يغار على أُتنه ، ويحتد فى زجرها ، يرعى صغارها ويوفر لها الماء ، ولا يدع شيئاً من شكله إلاّ ألمّ به ؛ وهيأ له من الصورة مكانا ، من خدش على حاجبه بقايا ضرب ، وعضّ فى صدره انحصّ عنه الشعر . ووصف من البقر الوحشىّ ما كان متبدّيا نافراً ، أو وديعاً هادئاً ، وصوّر نعاجه تتهادى فى صورة عذراوات فى مقام العبادة ، يمشين خاشعات ، يملأ الجلال جوانبهن وتتغشاهنّ السكينة ، فإذا دهمها صياد تناثرت ، كعقد صبى كريم ، فى فوضى وعلى غير نظام . وعبر هذه الصور قدم لنا لمحات خاطفة لظليم النعام ، وكلب الصيد ، والباز والعقاب والأرانب والفيران .

وتفيض صور امرىء القيس باللفتات الإنسانية الذكية ، والخبرة الواسعة بالحيوان وطباعه ، فالنعامة أسرع ماتكون حين تعود إلى بيضها ، والناقة أصعب قياداً حين تنزع إلى مهبطها ، والكلب أشدّ ضراوة حين يجوّع ، وعين الحيوان ، كعين الإنسان ، تطلّ منها رغائبه إذا احتدّت ، والخيل تعطى ماعندها من عدو دون أن تسأل ، والأبل تعطيه إذا والاها راكبها نهزا وزجراً ، والأول للصيد والزينة ، والثانية للأحمال والرحلة ، وجملة « أنا وقرابى ونمرقى » وقف على الناقة ، ولا تأتى فى معرض الحديث عن الفرس أبداً

وهو يدرك خداع البصر حين يسرع المرء ، فتبدو الأشياء فى نظره متصلة وإن فصل بينها المكان بمسافات شاسعة ، ويعتمد فى صوره ، أحياناً ، على ثقافة السامع وذكائه ، فالحمر ترد الماء وتشرب خائفة ، ثم يصمت عنها بعدذلك لا يفصح لِمَ هى خائفة ؟ ، اعتماداً على علم سامعه ، أو قارئه ، بأن موارد المياه فى الجاهلية كانت دواماً مهبط الصيادين .

عِبَر الطبيعة الصامتة

نعني بالطبيعة الصامتة ما ينتظم مظاهر الكون من سماء وأفلاك ، ونجوم وكواكب ، وسحب وأمطار ، ورعد وبرق ، وليل ونهار ، وكان حظ بلاد العرب منها وافراً ومتلوّناً ، فالسماء صافية آنا ، وتلفّها السحب آونة ، عزيزة المياه حيناً ، جارفة المطر أحياناً ، وفيها الصحارى والرياض ، والجبال والأودية ، والوهاد والنجاد ، والرياح العواتى ، والنسيم رقيقاً . ومن الباحثين المحدثين من يرى أن بكاء الأطلال يأتى من شعر الطبيعة فى الطليعة[1] ، ولا أراه كذلك ، فهو فن قائم بذاته ، له بواعثه ودوافعه ، على نحو ما عالجناه من قبل[2] .

كانت الطبيعة إلف امرئ القيس وتوأم روحه ، متاع بصره ، ومجال فكره ، هام فى محاسنها ، وتفيّأ ظلالها ، صاد وحشها ، وألف شعابها ، وفيها ومعها أمضى أكثر أيامه وأجملها ، حتى أصبحت جزءاً من ذاته ، وخدينا لحياته ، تأمّلها مليًّا فأدرك خفاياها ، وفتحت له قلبها فعرف أسرارها ، وحلّت من قلبه مكاناً وسيعاً ، فتغنى بها ، على نحو ما رأينا فى الفصل السابق ، وما سنعرض له الآن .

---

(١) انظر مثلا :
الدكتور سيد نوفل ، شعر الطبيعة فى الأدب العربى ، ص ٤١ .
عبد العظيم على قناوى ، الوصف فى الشعر العربى ، الجزء الأول ، الوصف فى العصر الجاهلى ، ص ٢٢٤ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م .
(٢) انظر فصل « شاعر الأطلال » ، ص ٢٣١ وما بعدها .

يكون الحديث عن المطر فى « المعلقة » واحدة من أفكارها الهامة والجميلة ، وسار فيه على نحو منطقى بديع ، رأى السحاب فتحدث عن البرق والرعد والمطر ، وجلس يتأمّلها ويتابع تحرّكها إلى أن آتت أكلها روضات من النبات والزهر والألوان . ومن المعالم الجغرافية التى تضمنها الوصف ندرك أن مسقطها كان منازل قومه فى بنى أسد ، بالقرب من تيماء فى شمال الحجاز . فالبرق يلمع وسط سحب متراكمة مستديرة كلمع اليدين تتحركان فى سرعة ، أو كمصباح راهب أمال الزيت على فتيلته ، غذّاها فتوهّج ضوْؤها . ثم قعد وصحبه يتأمل ذلك البرق ، وينظر من أين يجىء بالمطر ، ويا بعد ما رأى ! رأى مطراً غزيراً شمل جهات مترامية ، فكان يمينه على جبل قَطَن ، ويساره على جبلى السِّتار وَيَذْبُل .

لقد غطّى ما حول « كُتَيْفة » واقتلع سيله الأشجار الضخمة العالية فى طريقه ، وقلبها رأساً على عقب ، فجعل عاليها سافلها .

ومرّ على جبل «القنان» برشاشه فأكره الوعول المستقرّة به على النزول.

ولم يترك بتيماء جذع نخلة قائماً ، أسقطها جميعاً ، ولم يبق من أبنيتها إلاّ ما كان قويًّا مشيداً بالجنادل والصخور العظيمة .

وأصبح جبل « ثَبِير » حين غطّاه الماء الكثير ، والغثّاء الأسود ، إلاّ رأسه ، كشيخ متدثّر متزمّل فى كساء مخطّط .

وكشف ما على رأس « المُجَيْمِر » من التراب والنبات ، ودار السيل حوله بما احتمل من بقاياها ، فكان كرأس فلكة المغزل .

واستحال فى أودية أخرى إلى سيل جارف ، فأغرق السباَع ، واحتملها

طَافِيةً على وجه الماء ، مقلوبة على ظهورهاَ ، بادية خراطيم رءوسها وأطرافهاَ ، ترَى من بعيد كأَنّهاَ جذور بصل برّىّ .

ثم ألقى هذا المطر أثقاله بصحراء الغبيط فأنبتت نباتاً حسناً ، مختلف الزهر واللون ، فكان نزوله بها كنزول التاجر اليمانى إذا جاء محمّلا بعياب فيها ثياب ملونة ، ينشرهاَ أمام الناس ، ترغيباً لهم فى شرائهاَ .

لقد أحال المطر هذا الوادى إلى روضة من النبات والزهر ، تغرد فيه الطيور طربة مبتهجة كأنهاَ سكارى ، بدأت صباحهاَ بشرب رحيقٍ سلافٍ مفلفلٍ [1] :

أصاحِ ترى برْقاً أُريكَ وميضَهُ كلمْعِ اليدينِ فى حَبِىٍّ مُكَلَّلِ [2]

يضىء سناهُ ، أو مصابيحُ راهبٍ أهانَ السليطَ بالذُّبالِ المفتَّلِ [3]

قعدتُ لهُ وصحبتِى بين ضارجٍ وبين العُذيبِ بُعْدَ مَا متأمَّلِ [4]

علاَ قطناً بالشَّيْمِ أيمنُ صوْبِهِ وأيْسَرُه على السِّتارِ فَيَذْبُلِ [5]

فأضحَى يسحُّ الماءَ حول كُتَيْفَةٍ يَكُبُّ على الأذْقانِ دوْحَ الكَنَهْبُلِ [6]

(١) أعدنا ترتيب الأبيات على نحو ما اقتضاه تسلسل المعانى .

(٢) الوميض : لمع البرق — الحبى : المرتفع — المكلل : الذى بعضه على بعض .

(٣) أهان : أكثر منه — السليط : الزيت — الذبال : الفتائل .

(٤) ضارج والعذيب : اسما موضعين .

(٥) قطن : جبل فى بلاد بنى أسد — الستار ويذبل : جبلان مما يلى البحرين .

(٦) يسح : يصب — كتيفة : اسم موضع — يكب : يقلب — دوح : جمع دوحة : الكثيرة الورق ، والأغصان — الكنهبل : ما عظم من الشجر .

ومرَّ على القنــانِ من نَفيَانِهِ　　فأنزل منه العُصْمَ من كل منزلِ (١)

وتيماءَ لم يتركْ بها جِذْعَ نخـلةٍ　　ولا أُطُماً إلاّ مَشيداً بجَنْدَلِ (٢)

كأنّ ثَبيراً فى عرانينِ وَبْلهِ　　كبيرُ أُناسٍ فى بِجادٍ مُزمّلِ (٣)

كأنّ ذُرَى رأسِ المُجَيْمِرِ غُدْوةً　　من السيْلِ والغُثّاءِ فلْكةُ مِغْزَلِ (٤)

كأنَّ السِّباعَ فيه غرْقى عَشيَّةً　　بأَرْجائهِ القُصْوَى أنابيشُ عُنصُلِ (٥)

وألقى بصحراء الغَبيطِ بَعاعَهُ　　نُزولَ اليمانِى ذى العِيابِ المُحمَّلِ (٦)

كأن مَكاكِيَّ الجِواءِ غُدَيَّةً　　صُبِحْنَ سُلافاً من رحيقٍ مُفَلْفَلِ (٧)

وكما وصف المطر عنيفاً جارفا ، وسيلاً دافقاً يكتسح فى طريقه كل شىء ، وصفه غزيراً هادئاً ، فاض به الوادى ، فى أبيات جاءتنا مستقلة . فالسحابة مسترخية دانية ، يعمّ ماؤها الأرض ، وتختفى معها أوتاد الأخبية ، ثم تظهر

---

(١) القنان : جبل لبنى أسد ــ النفيان : ما فاض من مجتمع السيل ــ العصم : يريد الوعول ، جمع وعل ، وهو تيس الجبل ، جنس من المعز الجبلية .

(٢) تيماء : مدينة تقع على نحو ٣٢٠ كيلو متراً شمال يثرب ، على مقربة من الطرف الشمالى الغربى من بادية نجد ــ الأطم : الحصون المبنية بالجنادل ، أى الحجارة الكبيرة الضخمة .

(٣) ثبير : جبل بمكة ــ عرانين : أوائل ــ وبل : جمع وابل : وهو المطر الشديد ــ البجاد : الكساء المخطط ــ مزمل : ملتف .

(٤) ذرى : جمع ذروة ؛ وهى أعلا الشئ ــ المجيمر : اسم جبل ــ الغثاء : ما يحمله السيل من رغوة ومن فتات الأشياء التى على وجه الأرض .

(٥) أرجاؤه : نواحيه ــ أنابيش : جمع أنبوش ، وهو الغراس المقلوعة ــ عنصل : بصل برى .

(٦) الغبيط : اسم مكان ــ بعاع : الأثقال ــ العياب : المتاع .

(٧) المكاكى : جمع مكاء ؛ وهو طائر ــ الجواء : ما اتسع من الأرض ، وقد يكون اسم موضع ــ السلاف : أول ما يعصر من الخمر ــ الرحيق : الخمر .

إذا هدأ المطر وسكن وأقلع عن السكْب ، وترى الضبّ وقد أبرزه الماء من جحره سابحاً ماهراً ، خفيفاً نشيطاً ، يثنى براثنه ويبسطها ، كما يثنى السابح ذراعه ويمده ، فلا ينعفر بالتراب لأنه لسرعته لا يمسّ الأرض إلاّ خفيفاً ، أو لأن طول الانسكاب ذهب بالعفار ، وترى الأرض ذات الشجر غمرها المطر ، فلا يبدو منها إلاّ أعالى أشجارها ؛ فظهرت ؛ وقد علاها الزبد ؛ كرءوس انفصلت عن أعناقها ؛ وغطّتها خمرها .

ثم هدأ الجو شيئاً ، وسكنت الأمطار ساعة ، حتى إذا كان العشّى تجمع السحاب من جديد ، فاستدرته ريح الصبا ، ومراه بردها ، فتكاثف وتراكم ، ثم قصدته ريح الجنوب فأضافت إليه دفعة أخرى ، فإذا هو ينصب انصبابا ، حتى ضاقت خيْم وُجفاف وُيسْر عن آذيه المضطرب ، وموجه المصطخب ، وسيله المنحدر ، مع اتساع آفاقها ، وامتداد أكنافها ، وشهد امرؤ القيس هذه المطرة على فرس ضامر الكشحين ، شديد محكم الخلق :

دِيمةٌ هَطْلاءُ فيها وَطَفٌ طبقُ الأرضِ تحرّى وتدُرّ (١)
تُخرجُ الوَدَّ إذا ما أشجذَتْ وتُواريهِ إذا ما تَشتَكِرْ (٢)
وترى الضبّ خفيفاً ماهراً ثانيا بُرْثُنَهُ ما يَنعَفِرْ (٣)

(١) الديمة : المطر يدوم فى سكون دون رعد ولابرق — الهطلاء : الكثيرة الهطل — الوطف : استرخاء السحابة ، ودنوها من الأرض — تحرى : تتحرى المكان وتثبت فيه — تدر : يكثر ماؤها .

(٢) الود : الوتد فى لغة نجد ، أو هو اسم جبل — أشجذت : أقلعت وسكنت — تشتكر : تحتفل ويكثر مطرها .

(٣) الضب : حيوان زاحف — البرثن : المخلب — ما ينعفر : لا يصيبه العفر ؛ وهو التراب .

وترى الشَّجْراءَ في رَيِّقــهِ كرُءوسٍ قُطِّعتْ فيها الُخمُر[1]

ساعةً ، ثم انتحاها وابلٌ ساقطُ الأكنافِ ، واهٍ ، مُنْهمِر[2]

راح تَمْرِيهِ الصَّبا ، ثم انْتَحى فيـه شُؤبُوبُ جنوبٍ منفجِر[3]

ثَجَّ حتى ضاقَ عن آذِيِّهِ عَرْضُ خَيم ، فجُفافٍ ، فَيُسُر[4]

قد غـدا يَحمِلُنى فى أنفِهِ لاحِقُ الإطْلَيْن محبوكٌ مُمَرّ[5]

أعجب النقّاد القدامى بأبيات امرىء القيس هذه ، وكان الأصمعيّ يحدّث عن أبى عمرو بن العلاء ، أنّه سأل ذا الرُّمّة فقال : أىّ الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر ؟ فقال : قول امرىء القيس ، وأنشده هذه الأبيات . وامرؤ القيس فيها يبدو هادىء النفس ، موفور النشاط ، خلىّ البال ، فجاءت أبياته كذلك ، تعبر عن أمطار هادئة حينا ، وغزيرة أحيانا ، لكنها حتى فى غزارتها ليّنة رقيقة ، لاتحطم ولاتدمر ، على مياهها يسبح الضب

(١) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير — ريقه : أوله — خمر : جمع خمار ، وهو ما تضعه المرأة على رأسها .

(٢) انتحاها : قصدها — ساقط الأكناف : ثابت النواحى — واه : ضعيف يتشقق منه الماء أو ينخرق عنه المطر .

(٣) تمريه : تستدره — شؤبوب : دفعة المطر .

(٤) ثج : سال وصب — آذيه : موجه — خيم وجفاف ويسر : أسماء أمكنة قريبة من الدهناء .

(٥) أنفه : أول هذه المطرة — لاحق الأطلين : ضامر الكشحين — ممر : يقال حبل ممر ، أى محكم الفتل ، أى قوى .

خفيفا حين يعترضه الماء ، ويجرى سريعاً حين يصيب الجفاف ، يلتمس الأمان غير مذعور ولا مضطرب . وامتدادا لمشاعره البهجة نحّى البرق والرعد عن الصورة ، فلم يأت لهما خبر ، لما يثيرانه فى النفس من جذع وهلع ، حتى لو كان المرء معجبا بالمطر راغباً فيه . ولم يعش الشاعر على هامش هذا العالم من الجمال ، فانطلق عبره بفرسه ، يمتع قلبه وعينه .

أما فى القطعة الأولى فتتبع رحلة السحاب من بدايتها إلى نهايتها ، برقا له وميض ولمعان ، يسبق كل مطر غزير ، وبعيدا منه جلس يتأمّله ، ثم رافقه كله مراحله ، مزمجراً عنيفاً يقتلع الشجر ويهدم البيوت ، ويجرف فى طريقه كل شىء ، يحاصر الجبال وينزل منها الوعول . لكن السيل ليس شراً خالصاً ، وإنما فيه خير ، وخير كثير ، وسوف ينتهى ذلك الماء إلى واد مجدب ، فيحيله جنانا وارفة ، ذات خضرة وشجر وزهر مختلف الألوان ، تسعد به الطيور وتنتشى ، فتغنى له ، ولنفسها ، وللدنيا جميعا .

وعرض امرؤ القيس للسحاب والبرق والمطر ، فى حوار له مع التوأم اليشكرى حين نازعه زعامة الشعر ، وهى أبيات تمثل قدرة الشاعر على الصناعة ، وتمكنه من الارتجال ، ولا يتوفر لها عنصر الانفعال والاستجابة ، فهى أوصاف دقيقة ، فى قول منظوم ، ومن هذا الجانب وحده تسمّى شعراً ، ولاسبيل لإنكار القصة كلها بزعم أن ألفاظها سهلة ، فما كان يمكن أن تكون على نحو آخر لأنها وليدة حوار فورى وعفوى ، لاتعمّل فيها ولاتجويد ، وراويتها هو شيخ الرواة وأتقاهم أبو عمرو ابن العلاء ، كما أن هذا النحو من القول شائع فى البوادى ، ومعروف

بين من ينحدرون من أصول عربية فى الصعيد الأعلى[(١)].

وقد لمس امرؤ القيس فى حواره الجانب المتشائم، فتحدث عن البرق عريضا ومتوهجا ومزعجا، فلم يستطع النوم مع دويّه، على حين نام رفيقه، وكان صوته يأتى من بعيد حيث لا يراه، فلما دنا، جاء معه المطر فاكتسح كل الظباء. وكان التوأم يردّ على كل فقرة منه، فيعطى معنى امرؤ القيس امتداد وعمقا:

امرؤ القيس : أحارِ ترى بُرَيْقـاً هبَّ وَهْناً
التوأم : كنار مجوسَ تسـتعرُ اسْتعارا[(١)]
امرؤ القيس : أرقتُ له ونام أبـو شُرَيْح
التوأم : اذا ما قلت قد هدأ استطارا[(٢)]
امرؤ القيس : كأن هـزيزه لِوراءِ غيبٍ
التوأم : عِشـارٌ وُلّهٌ لاقتْ عِشـارا[(٣)]
امرؤ القيس : فلمـا أنْ دنا لقفَا أضاخٍ
التوأم : وهتْ أعجـاز ريقه فحـارا

---

(١) هذا اللون من المطارحة كان، حتى ربع قرن مضى، مادة السمر فى مجالس الليل، بين قبائل المطاعنة، فى المنطقة الممتدة بين إسنا وأرمنت من محافظة قنا، ويقال فى أوزان منظومة، ولغة أرقى من العامية كثيراً، ودون الفصحى قليلا، وفى طفولتى سمعت الكثير منه، ولو أن هذا اللون من القول بدأ يتراجع ويتلاشى أمام انتشار الإذاعة والصحافة.

(١) وهنا: بعد هدء الليل.

(٢) استطارا: انتشر.

(٣) عشار: ناقة أتى على حملها تسعة أشهر — وله: فقدت أولادها.

امرؤ القيس : فلم يترك بذات السرّ ظبْيــاً

التوأم : ولم يــترك بَجَهلَتِها حماراً

وجاء وصف المطر فى مطلع قصيدة :

أعنىِّ على برقٍ أراه وميض يضيء حبيًّا فى شماريخ بيضِ

وجاءت القصيدة فى ديوان امرىء القيس ، غير ثابتة النسب ، وارتأى بعضهم أنها لأبى دواد الإيادى ، وإلى هـذا الرأى أميل ، ولا أرى مبرراً لدراستها هنا .

همومُ شاعرٍ !

كان امرؤ القيس صاحب هم فى صباه ، وطريد هموم فى رجولته ، والهم منشؤه القلق ، والقلق وراء كل إبداع عبقرى، وأول ما نلقى من همومه أبيات له فى المعلقة طافحة بالأسى ، قالها فى أيّامه الأولى ، فتيًّا تضيق الدنيا بشبابه ، وقدمها لنا فى صورة جلية جميلة ، ما يكاد المرء ينشدها ويتملّاها حتى تلفّه التجربة بأبعادها من كل جوانبه ، فيرى فيها نفسه خالصة ، وأى الناس بلا هموم ؟ .

فيها ينقلنا فجأة من حديث ممتع وجميل عن صاحبته وجمالها ، تذهب بلب الحليم ، ولا يملك لهواها دفعاً ، إلى رحلة عبر ليل بهيم ، وقف منه موقف الممتحن ، يختبر ما عنده من صبر أو جزع ، فأطبق عليه بضروب من الهمّ ، كثيفة الظلمة ، متراكمة متلاحقة لا تنتهى . كأنها أمواج بحر خضم ، والليل ثقيل رتيب لا يريد أن يمضى ، ومطحون به يرقب الصبح قلقاً ، وماذا يصنع بالصبح إذا جاء ؟ . . . إنه ليس بأفضل من الليل ، لن يحمل إليه عزاء ، ولن يخفف ما به من بلوى ، ومع ذلك يرقبه ويتمناه تعلقاً بخيوط من الأمل يراها واهية ، وترقباً لأحداث الغد المجهول ، لكن الليل جاثم على قلبه ، ونجومه لا تريد أن تغرب ، كأنما شُدَّت بأسباب قويّة الفتل إلى جانب من جبل « يَذْبُل » الرابض ، وكأنّما الثريّا علّقت بأمراس من الكتان فهى لا تتحرك ، سُمّرت فى مكانها لا تسير :

وليلٍ كموجِ البحرِ أرْخَى سُدولَهُ   عليّ بأنواعِ الهمـــومِ ليبتلِي(١)
فقلتُ له لمّا تمطَّى بِصُلْبِـــــه   وأردفَ أعجازاً وناءَ بِـكَلْـكَلِ(٢)
ألاَ أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجْلِي   بصُبحٍ وما الإصباحُ فيكَ بأمْثَلِ
فيا لكَ من ليـلٍ كأنّ نجومه   بكل مُغارِ الفتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ
كأنّ الثريَّا عُلِّقتْ فى مَصامِها   بأمْراسِ كتانٍ إلى صُمٍّ جَنْدَلِ

رسم امرؤ القيس فى هذه الأبيات صورة أدبية تنبض بالحياة والحركة ، للهمّ ينيخ عليه بكل قواه ، فيسحقه تحته سحقاً ، لا يترك له بارقة من أمل تحمل إليه شعاعاً من طمأنينة ، ولا نافذة من رجاء يتخذها مهرباً إلى عالم الهـــدوء الرحيب ، ورسم لوحته بمادة عمادها الحقيقة والمجاز والاستعارة والإرداف . وأعجب النقاد القدامى بما فيها من ألوان البيان ، وكانت عندهم المثل الأعلى للاستعارة .

كان امرؤ القيس نسيج وحده فى الحديث عن همومه بين معاصريه ، ولم يجاره منهم غير النابغة الذبيانى ، وقصر دونه ، وكان عالة عليه ، فى أبياته :

كِليني لِهَمّ يا أُمَيْمَــة ناصبٍ   وليل أُقاسيه بطىء الـكواكبِ
تطاولَ حتى قلتُ ليس بِمُنْقَضٍ   وليس الذى يرعى النجوم بآيب
وصدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همِّهِ   تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانب

لأنّ تصوير امرىء القيس لهمومه أشد تجسيماً من تصوير النابغـــة ،

(١) سدوله : أستاره .
(٢) تمطى : امتد — ناء بكلـكل : نهض بصدره .

وصورته عامة شاملة ، يتوجه بها إلى سامعه وقارئه ، إلى نفسه وغيره ، فى عصره وما بعد عصره ، على حين أن دعوة النابغة المباشرة إلى أميمة فى أول أبياته جعلت منها حديثاً خاصاً ، دعوة تجعل بينك وبين التجاوب معه فى مشاعره وتمثل تجربته حاجباً مانعاً من خاصية التصوير ، فلا يصح لك أن تتطفل عليه ، بينما تستطيع أن تمد قلبك وعقلك إلى أبيات امرىء القيس ، تستعيرها للتعبير عن تجربة لك تحسّ بعجزك عن خلق شكل يحتويها .

وليل امرىء القيس كموج البحر صاحب عنيف متوال ، لفه بأنواع من الهموم ، وداخل أستارها انفرد به وحيداً ، فطحنه بثقله ، واجتث من أعماقه كل ينابيع الأمل ، حتى أصبح يخاف الفجر ، خشية أن يحمل ضوء الصبح ألواناً من الهموم أقسى من هموم الليل ، فيتراجع متقهقراً يلوذ بالليل من جديد ، يرقب نجومه الثابتة ، وامتداده غير المنتهى ؛ أمّا همّ النابغة فواحد ، ضاق به صدره فحسب ، ووجد من يلوذ به ، ويشكو له ، ويحتمى برحابه ، وليله بطىء الكواكب ، مجرد بطء ، فظنّه لن ينقضى ، مجرد ظن .

لكنه الآن لا يشكو همًّا ، وإنما يأسى لأيامه الخوالى ، ومع أن القصيدة قالها فى أيام شبابه ، لأنه مات ولم يتجاوز الأربعين من العمر ، إلاّ أن الإحساس بثقل الحياة ، وصعوبة الرحلة وطولها ، جعله يكثر من الحديث عن الشيخوخة صراحة أو تلميحاً ، فهو يردّ على امرأة عيَّرته بالكبر ، ويقص طرفاً من مغامراته ، ثم يشير إلى رحلة له إلى بيت مريب ، يخلص منها عاتباً على نفسه ، أو على دهره ، أن تكون له هذه نهاية المطاف ، كأنه لم يكن فى خوالى أيامه فارساً يشمخ بجواده ، يباهى به القوم ، أو يلاحق الصيد ، أو يركبه لأنه يجد فى رفقته سعادة وغبطة ، وكأنّه لم يتبطن من الكواعب كل مترفة غنية جميلة ،

ولم يشرب الخمر زقاقاً ، ولم يعطف بفرسه حين جفل غيره ، ولم يشارك فى رد المغيرين على قومه ضحا :

كأنىَ لم أركبْ جواداً للـذَّةٍ ولم أتبطّنْ كاعباً ذاتَ خُلْخالِ
ولم أَسْبأ الزِّقَّ الروىَّ ولم أقلْ لخيلى كُرِّى كَرَّةً بعدَ إجْفَالِ
ولم أشْهدِ الخيلَ الْمُغيرةَ بالضُّحا على هَيْكلٍ نَهْدِ الْجزارَةِ جَوَّالِ

ثم يفصح عن ذات نفسه ، إن وراء متاعبه آمالاً كباراً يسعى لها ، تؤرقه ويشقى بها ، لو كان يطلب مجرد العيش لـكفاه قليل من المال ، ولـكنه طالب مجد ، ودون المجد أهوال ، وما دام لا يدرك أواخر الأمور ، ولا ينال غاية الآمال ، ولا يتأتى له كل ما يريد ، فسوف لا يألوا جهداً ولا يقصر عن طلب ، ما بقيت فيه حياة :

فلو أنَّ ما أسعى لأدْنى معيشةٍ كفانى ، ولم أطلُب قليلٌ من المالِ
ولـكنّما أسعى لمجــدٍ مُؤَثَّلٍ وقد يدركُ المجدَ المؤَثّلَ أمثالى
وما المرءُ ما دامتْ حُشاشةُ نفْسِهِ بِمُدركِ أَطرافِ الخطوبِ ولا آلِ

وكما شقى بهمومه وآماله ، كان ممروراً من أصحابه ، كلما لقى إنساناً ورجا منه حسن الصحبة ، وأمّل فيه خيراً ، وجد منه عند الاختيار ما لا يرضاه ولا تقرّ به عينه ، فاستبدل به آخر ، لـكن التالى ليس بأفضل من السابق ، ذلك حظه مع الناس ، لايتخذ منهم صاحباً إلاّ خانه وتغيّرا :

إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضيتُهُ وقرَّتْ به العينانِ بُدِّلتُ آخراً
كذلك جَدِّى ، ما أصاحب واحداً من الناس إلاّ خاننى وتغـيّرا

وأكسبه تقلّب الحوادث جلداً وصبراً وقوة قلب ، فإذا ركن إلى إنسان فأصفاه الود ، وأخلصه الحب ، واتخذه خليلاً ، ثم جنا ثمار ذلك صاباً وسلعاً ، فارقه غير نادم ولا آسف ، وإذا طمع فيه من بنى قومه طامع آثره على نفسه ، ونزل له عن بعض حقه :

وخليـــلٍ قد أفارِقُهُ ثم لا أبـكى على أَثَرِهْ
وابن عمّ قد تركتُ له صفْوَ ماءِ الحوْضِ عن كدرهْ

وكانت رحلته إلى بيزنطة هما خالصاً ، وقصيدته فيها تصوير دقيق لهذا الهم ، حين تلاحقه الآلام فيسقط مريضاً ، وتقسو عليه الغربة فيواجهها وحيداً ، ويلقاه الناس فى مدن الشام وما بعد الشام ، فلا يرون فيه إلاّ عابر سبيل ، يثير الفضول ، ويلفت النظر ، ثم يمضى فى طريقه ، لا يهمهم أمره ، من أين قدم ، وإلى أين يمضى (١) .

ولدينا واحدة من قصائده كاملة ، كلها تأملاتُ قلق ، وزفرات مهموم ، واستسلام مقهور ، أمام الدهر وصروفه ، والحياة وأسرارها ، وقالها على التأكيد بعد جولة الثأر الطويلة ، فى بطاح الجزيرة بين قبائلها ، يرجو فيُجاب ويَرْضى ، ويطلب فيُصَدّ ويَغْضب ، استقرى من دونه ، ونزل بمن يكرهونه ، وكان حصيلة ذلك كله المزيد من الدماء والفشل والبعد عن طيّب الآمال ، واستهدى تاريخ أسرته ، وفيهم من يبزّه فى مجالات السياسة والحرب ، فإذا بهم قد مضوا صرعى مطامحهم ، فعاد إلى نفسه فى هذه الأبيات يذكّرها ، ويضع أمامها ثمرة نضالهم .

---

(١) القصيدة فى الفصل الخاص بالرحلة إلى قيصر .

إنّ طيب الحياة أسْكرنا ، فغفلنا عن رحلة نسرع فيها إلى المجهول ، وتنتهي بنا إلى غيب لا نعلم من أمره شيئاً ، والإنسان في جانبه الماديّ كالعصافير والذباب والدود ضعفا وتهالكاً ، ويمتاز عنها بالإرادة القوية ، والعزيمة الصادقة ، والعقل المفكر ، ذلك هو ما يجعله أشد جرأة من ذئب عنيد . لقد أقلع عن لهوه ومغامراته وركن إلى مكارم الأخلاق ، وكفاه أمام لائميه تجربته مع الدنيا ، وتاريخ أسلافه . من التراب جاء ، وإليه يعود ، وهذا الموت يسلبه شبابه ونفسه وجرمه ، فيستحيل تراباً ، كأنه لم يهزل مطاياه بطول السفر ، ودءوب السير بكل فلاة منخرقة ، ولم يسر على رأس جيش لهام ، ولم يظفر من الغنائم بالكثير الغالي ، ثم كانت النهاية أن يرى في العودة ، مجرّد العودة ، بلا ظفر ولا غنيمة ولا فائدة ، أملاً يُرتجى . لقد ذهب الحارث جده ، ومن بعده قُتل حجر أبوه ، وعمه شرحبيل ، فما ينتظر بعدهم ليناً من صروف الدهر ، وإنها لقادرة على تفتيت الصخر ، وسينتهي على نحو ما انتهوا :

أرانا مُوضِعينَ لأمْرِ غَيْبٍ ... ونُسحرُ بالطعامِ وبالشرابِ[1]
عصافيرٌ وذِبانٌ ودودٌ ... وأَجْرأُ من مُجلّحةِ الذئابِ[2]
وكلُّ مكارمِ الأخلاقِ صارتْ ... إليه همّتي وبه اكْتسابي
فبعضُ اللَّوْمِ عاذلَتِي فإنّي ... ستكْفِيني التجارِبُ وانْتسابي
إلى عِرْقِ الثّرى وشَجَتْ عُروقي ... وهذا الموتُ يسلُبُني شبابي[3]
ونفسي سوف يَسلُبُها وجِرْمي ... فيُلْحِقُني وشيكا بالتُّرابِ[4]

---

(١) موضعين . مسرعين .
(٢) المجلحة . المصممة على الشيء لا ترجع عما تريد .
(٣) وشجت . اشتبكت واتصلت .
(٤) الجرم . البدن ــ الوشيك . السريع .

ألم أُنْضِ المطىَّ بكلِّ خَرقٍ أمقِّ الطولِ لمّاعِ السّرابِ (١)

وأرْكبُ فى اللُّهامِ المَجْرِ حتّى أنالَ مآكلَ القُحَمِ الرِّغابِ (٢)

وقد طوّفْتُ فى الآفاقِ حتّى رضيتُ من الغَنيمةِ بالإيابِ

أبعد الحارث الملكِ بنِ عمروٍ وبعد الخيرِ حُجْرٍ ذى القِبابِ

أرجِّى من صروفِ الدهرِ ليناً ولم تَغْفُل عن الصُّمِّ الهِضابِ

وأعـــلمُ أنّنى عمّا قليلٍ سأنْشبُ فى شَبا ظُفُرٍ وناب (٣)

كما لاَقى أبى حُجْرٌ وجدّى ولا أنسى قتيلا بالــكُلابِ

هناك خط فاصل بين لونين من الهمّ يعرض لهما امرؤ القيس ، فيما بيَّنا من شعره . القلق الذى يعانيه كفنان ، وما يعرض له من غرابة الأطوار، وتلوّن اللّمحات ، ثمن ما يعيشه من لحظات سامية ، وتمثّلها أبياته فى الليل ، وهمومه فيها غامضة ، لا يفصح عنها ، أو عن أسبابها ، ورغم تشاؤمه فيها يطل مِن ورائها كإنسان يرآها ضرورة ، ويراها جزءاً من تـكوينه . وهمّ مصدره تناقض الحياة أمامه ، واختلافها عليها ، وفشله فى تحقيق مطامحه ، واستعادة ملـكه ، وهو فى ذلك يلتقى ، إلى حد كبير ، مع المتنبى شاعر العربية الأكبر ، فيما بعد عصر الجاهلية . وفى هـــذا الجانب تنضح أشعاره سواداً ويأساً ، يأسى على أيامه الخوالى ، ويسترجع مصارع قومه ، ويعرض للموت وللفناء ، ويقلِّل من قيمة الدنيا ، ويصوّر فى وضوح ، وربّما لأوّل مرة

---

(١) أنض : أهزل — الخرق : الأرض الواسعة — الأمق : الطويل .

(٢) اللهام : الجيش الـكثير — المجر : الـكثير أيضاً — القحم : جمع قحمة ، دفعة من شرف ومنزلة ينالها — الرغاب : الواسعة المـكينة.

(٣) شبا كل شىء : حده .

فى الأدب العربى ، أنّنا من التراب جئنا وإلى التراب نعود ، نفس الفكرة التى جاء بها القرآن ، وزاد عليها ومنه نبعث مرة أخرى : « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » . وامرؤ القيس حين أغفل البعث كان منطقياً مع نفسه وتجاربه وعقيدته ، فهو لم يكن يؤمن به ، أو على الأقل غير واضح فى ذهنه .

وهو يفرّق فى ذكاء بين الصاحب يلقاه عرضاً ، ويختلفان سريعاً ، تجمع بينهما المنفعة وتفرّق بينهما المصالح ، ومثل هذا الطراز من الناس يضعه موضع التجربة قبل أن يجعله مناط الثقة ، وكأمير وملك ، قبل أن يكون شاعراً ، فإن الذين التفّوا ، أو يحاولون أن يلتفوا به ، هم — كالعادة — من أراذل الناس . وما من حاكم أو طاغية إلا ابتلى بهذه البطانة ، تفسد عليه من أمره ، وتزين له رذائله ، وتقيم بينه وبين الصالح حجاباً ، وأوّل فتنة فى الإسلام على أيام عثمان ، ويحفظ التاريخ أصولها كاملة ، كان مبعثها بطائن السوء . لكن امرأ القيس كان فناناً وذكياً . فتخلّى عنهم واحداً وراء آخر ، وتبين أخلاقهم صاحباً إثْر صاحب ، وهو يسميهم أصحاباً فحسب ، ويعتبر تنكرهم له خيانة ، ويرى فى أشخاصهم لوناً قاتما من نفاق المجتمع وزيفه ، فتأتى أبياته طافحة بالألم والمرارة . أمّا الذين أخلصوا له مودّتهم ، وأصبحوا أخلاّءه ، ثم تجافوا فسلك كلٌّ طريقه ، فيعرض لهم مترفقاً ، يعتذر عنهم ، ولا يبكى ذهابهم تماسكا ، لأنّ كل ما فى الحياة إلى فراق .

في رأي النقد القديم

خضع امرؤ القيس فى القديم لألوان ثلاثة من النقد ، آراء خاطفة من مُعجَب مُتذوِّق ، وأحكام عامة من ناقد متخصص ، تناولته شاعراً وأوضحت رأيها مجملا . ودراسة مفصلة ، تلاحق القصيدة أو البيت أو الكلمة ، تبين ما فيها من وجوه الإعجاز والسمو ، وتتلمس ما تراه أخطاء فى النظْم أو البلاغة أو النحو .

يأتى فى الجانب الأول لبيد بن ربيعة ، سابع شعراء المعلقات وآخرهم ، كان مخضرما شهد الإسلام وآمن به ، ولم يقل بعده إلاّ بيتاً واحداً من الشعر فيما زعموا ، فقد مرّ فى الكوفة بمسجد بنى نَهْد ، يتوكأ على محجن له ، فلما جاز القوم أرسلوا إليه فتى منهم فقالوا : الحق أبا عَقِيل فاسأله : من أشعر العرب ؟ فقال : الملك الضِّلّيل ، يعنى امرأ القيس . فرجع إليهم وأخبرهم فقالوا له : ارجع إليه فاسأله : ثمّ مَن ؟ فرجع إليه فقال : ثمّ من ؟ فقال : ثم صاحب المِحْجن أبو عقيل ، يعنى نفسه .

وروى ابن الكلبى أن قوماً أقبلوا من اليمن ، يريدون النبى صلى الله عليه وسلم ، فضلّوا ووقعوا على غير ماء ، ومكثوا ثلاثاً لا يقدرون عليه ، فجعل الرجل منهم يستذرى بفىء السمر والطلْح ، فبينما هم كذلك أقبل راكب على بعير ، فأنشد بعض القوم بيتين من شعر امرىء القيس :

لمّـا رأتْ أن الشريعةَ همُّهـا وأنّ البياضَ من فرائصها دامى[1]

تَيمَّمَتِ العينَ التى عند ضارج يفىءُ عليها الظلُّ عَرْمَضُها طامى[2]

فقال الراكب : من يقول هذا الشعر ؟ قال : امرؤ القيس ، قال : والله ما كذب ، هذا ضارج عندكم ، وأشار لهم إليه ، فأتوه فإذا ماء غدَق ، وإذا عليه العرمض والظلّ يفىء عليه ، فشربوا منه وارتووْا ، حتى إذا بلغوا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، وقالوا أحيانا بيتان من شعر امرىء القيس ، فقال النبى : « ذاك رجل مذكور فى الدنيا شريف فيهـا ، منسى فى الآخرة خامل فيها ، يجىء يوم القيامة ومعه لواء الشعراء يقودهم إلى النـار » . وهى رواية مشهورة عند الإخباريين والأدباء ، فقد أوردها ابن قتيبة فى كتابيه « الشعر والشعراء » و « عيون الأخبار » ، ورواها أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » ، ونقلها ياقوت فى « معجم البـلدان » ، ولـكن أهل الحديث ، وهم الحجة فيما ينسب إلى الرسول ، يضعّفونها أو ينـكرونها[3] .

وذكره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :

---

(١) الشريعة : مشرعة الماء ، وهى مورد الشاربة التى يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون — همها : طلبها — طامى : مرتفع . والضمير فى رأت للحمر .

(٢) ضارج : جبل — العرمض : الطحلب .

والمعنى : أن الحمر لما أرادت شريعة الماء خافت على أنفسها من الرماة ، وأن تدمى فرائصها من سهامهم ، عدلت إلى ضارج لعدم الرماة على العين التى فيه . والبيتان غير واردين فى ديوان امرىء القيس .

(٣) أنظر تعليق الأستاذ أحمد محمد شاكر ، وهو من رجال الحديث ، على الرواية فى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، ص ١٢٧ ، الجزء الأول ، الطبعـة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٣٨٦ — ١٩٦٦ م .

« سابق الشعراء ، خسف لهم عين الشعر ، فافتقر عن معان عور أصح بصراً » يريد أنه ذلّل لهم الطريق إليه ، وبصرهم بمعانيه ، وفنن أنواعه وقصده فاحتذى الشعراء على مثاله ، وكان عمر يتذوّق الشعر ويصدر فى حكمه عليه عن رأى مصيب .

فإذا تجاوزنا هؤلاء المتذوِّقة إلى أصحاب الأحكام المجملة ، وجدنا فى مقدمتهم ابن سلاّم الجمحى (ت ٢٣٢ هـ = ٨٤٦ م) ، فقد جعل امرأ القيس رأس الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية ، ثم أبان عن رأيه فيه دون أن يتجاوز الكلّيات إلى التفاصيل ، يقول : « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب واتبعه فيها الشعراء ، منها : استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ، ورقّة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبَيْض ، وشبّه الخيل بالعُقبان والعصى ، وقيّد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً » .

ومع أن ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) لم يأخذ بفكرة الطبقات فى التأريخ للشعراء وترتيبهم فى كتابه « الشعر والشعراء » ، إلا أنه بدأ تراجمه بامرىء القيس ، وخلالها أبدى رأيه فيه : « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنها العرب ، واتبعته عليها الشعراء ، من استيقافه صحبه فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ » . وأردف رأيه بأبيات استجادها من شعره ، أبيات سوف تُتخذ المثل الأعلى عند دارسى البلاغة فى عصره وماتلاه .

ثم جاء الآمدى ، الحسن بن بشر بن يحيى (ت ٣٧١ هـ = ٩٨٢ م) فى

كتابه « الموازنة بين الطائيين » فاحتوى آراء سابقيه ، وزاد عليها : « . . . وبهذه الخلة دون ما سواها فضل امرؤ القيس ؛ لأن الذى فى شعره من دقيق المعانى ، وبديع الوصف ، ولطيف التشبيه ، وبديع الحكمة ، فوق ما استعار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام ، حتى إنه لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من أن تشتمل من ذلك على نوع وأنواع ، ولولا لطيف المعانى واجتهاد امرىء القيس فيها ، وإقباله عليها ، لما تقدم على غيره ، ولكان كسائر شعراء أهل زمانه ، إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ، ولا لألفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لألفاظهم ، ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا فى تقديمه بأن قالوا : هو أول من شبه الخيل بالعصى ، وذكر الوحش والطير ، وأول من قال : قيد الأوابد ، وأول من قال كذا وقال كذا ، فهل هذا التقويم له إلا لأجل معانيه » .

وأورد القاضى أبو بكر الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م) رأيه على نحو أكثر تفصيلا ، فى كتابه « إعجاز القرآن » ، فقال : « أنت لا تشك فى جودة شعر امرىء القيس ، ولا ترتاب فى براعته ، ولا تتوقف فى فصاحته ، وتعلم أنه قد أبدع فى طرق الشعر أمورا اتُّبع فيها ، من ذكر الديار والوقوف عليها ، إلى ما يتصل بذلك : من البديع الذى أبدعه ، والتشبيه الذى أحدثه ، والمليح الذى تجد فى شعره ، والتصرف الكثير الذى تصادفه فى قوله ، والوجوه التى ينقسم إليها كلامه : من صناعة وطبع ، وسلاسة وعفو ، ومتانة ورقّة ، وأسباب تُحمد ، وأمور تُؤثر وتُمدح . وقد ترى الأدباء أوّلا يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً ، ويضمون أشعارهم إلى شعره ، حتى ربما وازنوا

بين شعر من لقيناه وبين شعره فى أشياء لطيفة ، وأمور بديعة ، وربما فضّلوهم عليه ، أو سوَّوْا بينهم وبينه ، أو قرَّبوا موضع تقدمه عليهم ، وبرّزوه بين أيديهم .

ولما اختاروا قصيدته فى السّبعيات[1] ، أضافوا إليها أمثالها ، وقرنوا بها نظائرها ، ثم تراهم يقولون : لفلان لامية مثلها ، ثم ترى أنفس الشعراء تتشوق إلى معارضته ، وتساويه فى طريقته ، وربما غبّرت فى وجهه أشياء كثيرة ، وتقدمت عليها فى أسباب عجيبة .

وإذا جاءوا إلى تعداد محاسن شعره ، كان أمرا محصوراً ، وشيئاً معروفاً . أنت تجد من ذلك البديع أو أحسن منه فى شعر غيره ، وتشاهد مثل ذلك البارع فى كلام سواه ، وتنظر إلى المحدثين كيف توغلوا إلى حيازة المحاسن ، منهم من جمع رصانة الكلام إلى سلاسته ، ومتانته إلى عذوبته ، والإصابة فى معناه إلى تحسين بهجته ، حتى أن منهم من قصَّر عنه فى بعض ، تقدّم عليه فى بعض ، وإنْ وقف دونه فى حال ، سبقه فى أحوال ، وأن تشبَّه به فى أمر ساواه فى أمور ، لأن الجنس الذى يرمون إليه ، والغرض الذى يتواردون عليه ، هو مما للآدمى فيه مجال ، وللبشرىّ فيه مثال ، فكلّ يضرب فيه بسهم ، ويفوز فيه بقدح ، ثم قد تتفاوت السهام تفاوتاً ، وتتباين تبايناً ، وقد تتقارب تقاربا ، على حسب مشاركتهم فى الصنائع ، ومساهمتهم فى الحرف » . ولم يقف الباقلانى عند هذا الحد من النقد ، وإنما تناول المعلقة ، أروع شعر امرئ القيس فى نظر النقاد القدامى ، على نحو عنيف فى نقد متحامل ، يستحق وحده

(١) يريد المعلقات السبع .

وقفة مستأنية ، وسوف نعرض له بعد قليل[1]

أما النقد المفصّل القائم على الشعر نفسه ، وتطبيق القواعد البلاغية والنحوية ، فيمكن إجماله فى اتجاهين : أولهما يتعاطف مع الشاعر فيستقصى ما فى شعره من الاستعارات الجميلة ، ومن التشبيهات الجيّدة ، ومن المحسّنات البديعية ، ومن المعانى المبتكرة ، وما أخذ الشعراء منه ، وكانوا فيه عالة عليه .

فقد أعجب أبو عمرو بن العلاء ، والأصمعى ، وأبو عبيدة ، وحماد الراوية بقوله « قيد الأوابد » فى بيته :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وعنى أنه إذا أرسل هذا الفرس على الصيد صار قيدا لها ، وكانت بحالة المقَّيد لسرعة عدوه ، وذكروا أنها من الاستعارة البليغة ، وأن امرأ القيس مبدعها ، واقتدى به الناس ، واتبعه الشعراء ، فقيل : « قيد النواظر » و « قيد الألحاظ » و « قيد الكلام » و « قيد الرهان »[2] ، وعنه رددها شعراء عصره وما بعد عصره .

يقول الأسود بن يعفر[3] :

بمقلّصٍ عَتَدٍ جهيزٍ شَدُّه قيد الأوابدِ والرهانِ جوادِ

ويقول أبو تمام :

---

(١) انظر فصل « الباقلانى والمعلقة » ص٣٧٧ .
(٢) وأخيراً بلغه الإدارة « قيد الحفظ » .
(٣) انظر ص ٢٩٦ من هذا الكتاب .

لها منظرٌ قيد الأوابد لم يزل   يروح ويغدو فى خضارته الحبُّ

ويعده علماء البلاغة أول من ابتدع التشبيه الملفوف ، وهو تشبيه شيئين فى بيت واحد ، واستشهدوا له بقوله :

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً   لدى وكرها العنّاب والحشف البالى

وأعجب قدامة بن جعفر من تشبيه امرئ القيس أربعة بأربعة فى بيت واحد ، وعده أفضل التشبيه ، وتبعه الناس فى هذا الوصف ، وعنه أخذوه ، ولم يجتمع لهم ما اجتمع له :

له أيطلا ظبى ، وساقا نعامةٍ   وإرخاء سرحانٍ ، وتقريب تَتْفُلِ

وأول من ابتدع التشبيه الوهمى ، حين شبه نصال النبل بأنياب الأغوال ، وهى مخلوق أسطورى ، زعموا أنها كالإنسان ، ولكن رجليها رجلا حمار ، وأنها صغيرة الرأس ، مشقوقة اللسان ، مشوهة الساق :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى   ومسنونةٌ زرق كأنياب أغوال

وأول من ابتدع الاستعارة التمثيلية ، حين مثّل عينى صاحبته بسهمى الميسر ، المعلى وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة ، فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثّل بهما عينيها ، ومثل قلبه بأعشار الجزور ، فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل :

وما ذرفتْ عيناك إلا لتضربى   بسهمَيْك فى أعشار قلب مقتَّل

ويطول بنا القول لو تتبعنا ما يزعم علماء البلاغة والنقد أن امرأ القيس أبدعه من فنون المعانى وصور البيان وأنماط البديع ، ويطول أكثر لو حاولنا

أن نتتبع ما كان من معانيه أول غير مسبوق فيه ،ثم احتذاه لاحقوه على امتداد حياة الأدب العربي .

الاتجاه الآخر من النقد المفصل كان يستهدف تتبع سقطات الشاعر وأخطائه . وقد أمسك النحاة بخناقه ، وقالوا إنه أخطأ فى البيت :

أردتُ بها فتكاً فلم أرتمض له ونهنهت نفسى بعد ما كدت أفعلَه

لأن « أفعلَه» نصب على تقدير « أنْ » ، وهو شاذ . هكذا قالوا ، والحق أنه ليس بشاذ ، وإنما تأتى « أنْ » فى خبر كاد قليلا ، والقلة لا تعنى الشذوذ ، وأنشد سيبويه بيتاً شبيهاً ببيت امرىء القيس فى الشطر الثانى ، وقال أراد بعد ما كدت أن أفعله ، فحذف «أنْ » وأبقى عملها. ويعلق الأشمونى على بن محمد ، على قول سيبويه : « فيه إشعار باطراد اقتران خبر كاد بأن ، لأن العامل لا يحذف ويبقى عمله إلاَّ إذا اطرد ثبوته » .

وزعم النحويون أنه جزم « أشرب » على غير قاعدة فى البيت :

فاليوم أشربْ غير مستحقبٍ إثما من الله ولا واغلِ

وأوردوه شاهداً يحتجون به فى جواز تسكين المتحرك لاجتماع الحركات

وثمة رواية أخرى تأتى فيها كلمة « أُسْقى » بدل «أشرب » فى البيت ، وليس فيها خروج على قواعد النحو لامتناع ظهور الحركات على الألف المقصورة ، ويخيل إلى أن الرواية الأولى أصح ، رغم مجافاتها لقواعد النحو ، وإن الرواية الثانية مجرد تصحيح قام به الراوى لما تصوّر أنه خروج على قواعد اللغة .

وثمة أخطاء نحوية أخرى ، أو بتعبير أدق كلمات لم تأت طبقاً للقواعد التى انتهى إليها النحاة ، فليس يصح فى الفهم أن يقال أن امرأ القيس أخطأ فى النحو ، وهو مستمد من شعره وشعر غيره ، فقالوا إنه نصب فعل الأمر « بَلِّغْ » . فى قوله :

أيا راكباً بَلِّغَ إخواننـا من كان من كندة أو وائل

وأنه أسقط النون من كلمة « خظاتان » لغير إضافة ظاهرة فى البيت :

لها مَتْنَتان خَظاتاَ كما أكبّ على ساعديه النمـر

وأن كلمة « هطلاء » جاءت على غير قياس فى بيته التالى ، لأنه لا يقال فى مذكرها سحاب أهطل ، أو مطر أهطل ، حتى يكون مؤنثها هطلاء :

ديمـة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر

وأن كلمة « مُزمَّل » جاءت مجرورة ، وحقها أن ترفع لأنها وصف « لـكبير » فى البيت .

كأنّ ثَبيرا فى عَرانينِ وبله كبيرُ أناسٍ فى بجاد مُزَمَّلِ

ورَفْع كلمة «مزمّل» يجعل فى البيت إقواء ، لأن الـكسر هو حركة روىّ القصيدة ، فأبقاه النحاة على الـكسر وتأوّلوه ، فقالوا إن « مزمّل » مخفوضة على الجوار مثل قولهم : هذا حجر ضبٍّ خربٍ . وهو تأويل لا يبرىء امرأ القيس من الوقوع فى هذا العيب ، فقد أقوى مرتين فى قصيدة واحدة ، فى بيتين متجاورين ، لا يفصل بينهما غير بيت واحد :

جالت لتصرعنى فقلتُ لها اقصرى إنّى امرؤ صرعى عليكِ حرامُ

فجزيتِ خيرَ جزاء ناقةِ واحدٍ ورجعت سالمةَ القرا بسلامِ

وكأنمـا بذْرٌ وصيل كُتَيْفَةٍ وكأنما مِن عاقل أرمامُ

وأخذوا عليه فى العروض أنه جاء بالتفعلة الأخيرة لـكل شطر، فى بيت مصرّع من بحر الطويل على «مفاعلين» ولم يفعل ذلك غيره من الشعراء، لأن تفعلة بحر الطويل الأخيرة فى كل شطر إذا صُرّع تصبح مفاعلن، وذلك فى قوله:

ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالى وهل ينعمن من كان فى العصر الخالى

ومن النقّـاد من أعرض عما جاء فى شعر امرىء القيس على غير مألوف القواعد فى النحو والصرف والعروض والبلاغة، وتتبع سقطاته فى معانيه حين تتناقض أو تضطرب، أو حين يراها الناقد كذلك، ومعظم هؤلاء يصدرون فى أحكامهم عن أفـكار فلسفية، أو مقاييس جدلية، آخر مايصلح لتقويم العمل الفنى، فابن رشيق القيروانى يرى فى قول امرىء القيس:

فيالك من ليلٍ كأنّ نجومه بكل مغار الفتل شُدتْ بيذبل

كأن الثريا عُلقّت فى مصامها بأمراس كتانٍ إلى صم جندل

أن البيت الأول يغنى عن الثانى، والثـانى يغنى عن الأول، ومعناها واحد لأن النجوم تشتمل على الثريا، كما أن يذبل يشتمل على صم الجندل، وقوله شُدّتْ بكل مغار الفتل مثل قوله علقت بأمراس كتان». وعابوا عليه أنه قال فى موضع:

فلو أنَّ ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجـــد مؤثل وقد يدرك المجـــد المؤثل أمثالى

ثم قال فى موضع آخـــر :

فتملأُ بيتنا إقطاً وسمناً وحسبك من غنى شبع ورىّ

بزعم « أن المعنى الأول أفخر ما قيل ، والثانى أنذل ما قيل ، والشاعر قـــد ناقض نفسه حيث وصفها فى موضع بسمو الهمة ، وقلّة الرضى بدنىء المعيشة ، وأطرى فى الموضع الآخر القنـاعة والاكتفاء من الغنى بالشبع والرى » .

وأمسك ابن السيد البطليوسى ، العـالم اللغـــوى الأندلسى (ت ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م) بمعنى واحد يأتيه من كل جانب ، حين شبه امرؤ القيس حمرة دم الصيد على صدر فرسه ، بحمرة الحناء على الشيب فى قوله :

كأنّ دماء الهاديات بنحره عصـــارة حنـاء بشيب مرجّل

فانتقد هذا عليه بعض أصحاب المعانى وقالوا : إنما كان يصح تشبيه حمرة الدم على صدره بحمرة الحناء على الشيب ، لو كان الفرس أشهب . وقد ذكر أنه كان كُمْيتاً فى قوله :

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلّت الصـــفواء بالمتنزل

فإذا صح أنه كان كميتاً بطل التشبيه ، فقال آخرون : إنما قال هذا لأن الفرس عرق ويبس العراق على صدره فابيض . فصار لذلك كالأشهب ، كما قال بشر بن أبى حازم :

* تراها من يَبيسَ الماء شهباً *

فرد عليهم آخرون فقالوا : قد وصف امرؤ القيس فرسه بأنه لم يعرق في قوله :

فعادى عداءً بين ثورٍ ونعجةٍ دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل

فبطل ما اعتذرتم به . فردَّ عليهم خصماؤهم بأن قالوا : لم ينف امرؤ القيس العرق في جميع الأوقات ، لأن ذلك عيب في الفرس . وإنما وصف أنه صاد قبل أن يعرق ، وهذا لا يبطل أن يكون قد عرق بعد ذلك ، والدليل على أنه عرق بعد الصيد قوله :

ورحنا وراح الطرف ينفض رأسه

أذاةً به من صائك متحلَب

وهذا إفصاح بأنه إنما نفى عنه العرق في وقت الصيد وقبله ، ولم ينفه بعده.

واختلف أصحاب المعاني في اختضاب صدره بالدم ، على أيّ جهة كان ، فقال بعضهم : أراد أنّ راكبه لما طعن الثورة والنعجة ، ثار الدم من الطعنة إلى صدره فاختضب به .

وقال آخرون : بل كانوا يخضبون قوائم الفرس وصدره بدم صيده . ليعلم من يراه أنه قد صاد ، واحتجوا بقول امرىء القيس :

وقام طوال الشخص إذ يخضبونه قيامَ العزيز الفارسيّ المنطق

ذلك هو النقد القديم في ألوانه وطعومه ، لم نأت به كله ، وما كان لنا ذلك ، فاكتفينا بنماذج مختلفة منه ، سنردّ على بعضها في فصل تال ، ولم نضمّن هذه النماذج نقد البقلاني للمعلقة . لأنه يستحق ، وحده ، فصلا خاصاً ووقفة مستأنية .

الباقلاني والمعلقة

لم يؤلف الباقلانى ، أبو بكر محمد بن الطيب المتوفى سنة ٤٠٣ هـ كتابه فى تاريخ الأدب أو النقد ، وإنما ألفه فى «إعجاز القرآن» وأعطاه نفس الاسم، لكنه سلك لتحقيق هدفه طريقاً سلبياً ، فلم يدلل على إعجاز القرآن فى ذاته ، وإنما اختط لنفسه أن يدلل على تسخيف غيره ، فتظهر بذلك بلاغته ، وجعل سبيله « أن يعمد إلى قصيدة مُتّفق على كبر محلها ، وصحة نظمها، وجودة بلاغتها، ورشاقة معانيها ، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها ، مع كونه من الموصوفين بالتقدم فى الصناعة ، والمعروفين بالحذق فى البراعة ، فنقفك على مواضع خللها ، وعلى تفاوت نظمها ، وعلى اختلاف فصولها ، وعلى كثرة فضولها ، وعلى شدة تعسفها ، وبعض تكلفها ، وما تجمع من كلام رفيع ، يُقْرن بينه وبين كلام وضيع ، وبين لفظ سوقى ، يقرن بلفظ ملوكى، وغير ذلك من الوجوه التى يجىء تفصيلها ، ونبين ترتيبها وتنزيلها » .

وقد اختار هدفاً له امرأ القيس ، لأنه — فيما يرى — « كبيرهم الذى يقرون بتقدمه ، وشيخهم الذى يعترفون بفضله ، وقائدهم الذى يهتمون به ، وإمامهم الذى يرجعون إليه » ، واختار له خير شعره ممثلا فى « معلّقته » ، وابتدأ بها من مطلعها ، يمسك بتلابيب كل بيت ، ويتمحّك عند كل لفظ وحرف ، يقول : « إذا شئت أن تعرف عِظَمَ شأنه ، فتأمّل ما نقوله فى هذا الفصل ، فى أجود أشعاره ، وما نبيّن لك من عواره ، على التفصيل .

وذلك قوله :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل بسِقْط اللوى بين الدَّخول فحومل
فتُوضح فالمِقْراة لم يعف رَسْمها لما نسجتْها من جنوب وشَمْأَلِ

الذين يتعصّبون له ويدّعون محاسن الشعر ، يقولون : هذا من البديع ، لأنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر العَهْد والمنزل والحبيب ، وتوجَّع واسترجع ، كله فى بيت ، ونحو ذلك .

وإنما بيّنا هذا لئلّا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن ، وإن كانت ، ولا غفلتُنا عن مواضع الصناعة ، إنْ وُجِدَتْ .

تأملْ — أرشدك الله ، وانظر — هداكَ الله : أنت تعلم أنه ليس فى البيتين شىء قد سبق به فى ميدانه شاعراً ، ولا تقدّم به صانعاً . وفى لفظه ومعناه خلل :

فأول ذلك : أنه استوقف من يبكى لذكر الحبيب ، وذكراه لا تقتضى بكاء الخلىّ ، وإنما يصح طلب الإسعاد فى مثل هذا ، على أن يبكى لبكائه ، ويرقّ لصديقه فى شدة بُرحائه ، فأما أن يبكى على حبيب صديقه وعشيق رفيقه ، فأمر محال .

فإن كان المطلوب وقوفُه وبكاؤُه أيضاً عاشقاً ، صح الكلام من وجه ، وفسد المعنى من وجه آخر ! لأنّه من السَّخف أن لا يغار على حبيبه ، وأن يدعو غيره إلى التغازل عليه ، والتواجد معه فيه !

ثم فى البيتين ما لا يفيد ، من ذكر هذه المواضع ، وتسمية هذه الأماكن : من « الدخول » و « حومل » و« توضح » و « المقراة » و «سقط اللوى» ،

وقد كان يكفيه أن يذكر فى التعريف بعض هذا ، وهذا التطويل إذا لم يفد كان ضرباً من العىّ !

ثم إن قوله : « لم يعف رسمها » ، ذكر الأصمعىّ من محاسنه ، أنه باق فنحن نحزن على مشاهدته ، فلو عفا لاسترحنا .

وهذا بأن يكون من مساويه أولى : لأنه إن كان صادق الود ، فلا يزيده عفاء الرسوم إلاّ جدّة عهد ، وشدّة وجد ، وإنما فزع الأصمعى إلى إفادته هذه الفائدة ، خشية أن يعاب عليه ، فيقال أىّ فائدة لأنْ يعرّفنا أنه لم يعف رسم منازل حبيبه ؟ وأى معنى لهذا الحشو ؟ فذكر ما يمكن أن يذكر ؛ ولكنه لم يخلّصه — بانتصاره له — من الخلل .

ثم فى هذه الكلمة خلل آخر ، لأنه عقَّب البيت بأن قال :

* فهل عند رسم دارس من مُعَوَّل ! *

فذكر أبو عبيدة : أنه رجع فأكذب نفسه ، كما قال زهير :

قفْ بالديار التى لم يعفُها القدمُ نعم ، وغيّرها الأرواح والديمُ

وقال غيره : أراد بالبيت الأول أنه لم ينطمس أثره كلّه ، وبالثانى أنه ذهب بعضه ، حتى لا يتناقض الكلامان .

وليس فى هذا انتصار ، لأن معنى « عفا » و « درس » واحد ، فإذا قال : « لم يعف رسمها » ثم قال : « قد عفا » ، فهو تناقض لا محالة !

واعتذار أبى عبيدة أقربُ لو صحّ ، ولكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك كما قاله زهير ، فهو إلى الخلل أقرب .

وقوله : « لِمَا نسجتها » كان ينبغى أن يقول : « لما نسجها » ، ولكنه

تعسف فجعل « ما » فى تأويل تأنيث ، ولأنها فى معنى الريح ، والأولى التذكير دون التأنيث ، وضرورة الشعر قد قادته إلى هذا التعسف .

وقوله : « لمْ يعف رسمها » ، كان الأولى أن يقول : « لم يعف رسمه » ؛ لأنه ذكّر المنزل؛ فإن كان ردَّ إلى هذه البقاع والأماكن التى المنزل واقع بينها ، فذلك خال، لأنه إنما يريد صفة المنزل الذى نزله حبيبه ، بعفائه ، أو بأنه لم يعف دون ما جاوره .

وإنْ أراد بالمنزل الدار حتى أنّث ، فذلك أيضاً خلل .

ولو سلم من هذا كله ومما نَـكْرِه ذِكْره كَراهية التطويل، لم نشك فى أنّ شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين ، بل يزيد عليهما ويفضلهما .

ثم قال :

وقوفاً بهـا صحبى علىّ مطيّهم   يقولون : لا تهلك أسى وتجمّل

وإن شفائى عَـبْرة مهراقة   فهل عند رسم دارسٍ من مُعوّلِ

وليس فى البيتين أيضاً معنى بديع ، ولا لفظ حسن كالأوّلين .

والبيت الأول منهما متعلق بقوله : « قفا نبك » ، فكأنه قال : قفـا وقوف صحبى بها علىّ مطيهم ، أو : قفا حال وقوف صحبى . وقوله « بها » : متأخر فى المعنى وإنْ تقدم فى اللفظ . ففى ذلك تـكلف وخروج عن اعتدال الـكلام .

والبيت الثانى مُختلّ من جهة أنه قد جعل الدمع فى اعتقاده شافياً كافياً ، فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة أخرى ، وتَحَمُّل ومُعوَّل عند الرسوم ؟

ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يدلّ على أن الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن ، ثم يسائل : هل عند الربع من حيلة أخرى ؟

وقوله :

كدأبكَ من أم الحويرث قبلها وجارتها أمّ الرباب بمأسل

إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريّا القَرَنْفُل

أنت لا تشك فى أن البيت الأول قليل الفائدة ، ليس له مع ذلك بهجة ، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ ، وإنْ كان منزوع المعنى !

وأما البيت الثانى فوجه التكلف فيه قوله :

* إذا قامتا تضوع المسك منهما *

ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيباً على كل حال ، فأما فى حال القيام فقط ، فذلك تقصير !

ثم فيه خلل آخر : لأنه بعد أن شبّه عَرْفها بالمسك ، شبه ذلك بنسيم القرنفل ، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص. وقوله : « نسيم الصبا » فى تقدير المنقطع عن المصراع الأوَّل ، لم يصله به وَصْلَ مثله .

وقوله :

ففاضت دموع العين منى صبابة على النحر حتى بلّ دمعي محملى

ألاَ ربَّ يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

قوله : « ففاضت دموع العين » ، ثم استعانته بقوله : « متى » استعانة ضعيفة عند المتأخرين فى الصنعة ، وهو حشو غير مليح ولا بديع .

وقوله : « على النحر » حشو آخر ، لأن قوله : « بلّ دمعى محملى » يغنى عنه ويدل عليه ، وليس بحشو حسن ، وإعادة ذكره الدمع حشو آخر ، وكان يكفيه أن يقول : حتى بلّت محملى ، فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله .

ثم تقديره أنه قد أفرط فى إفاضة الدمع حتى بلّ محمله ، تفريط منه وتقصير ، ولو كان أبدع لكان يقول : حتى بلّ دمعى مغانيهم وعِراصَهم . ويشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن والقافية ، لأن الدمع يبعد أن يَبُلّ المحمل ، وإنما يقطر من الواقف والقاعد على الأرض أو على الذيل ، وإن بلّه فلقلته وأنه لا يقطر . والبيت الثانى خال من المحاسن والبديع ، خال من المعنى ، وليس له لفظ يروق ، ولا معنى يروع ، من طباع السوقة ! فلا يرعك تهويله باسم موضع غريب .

ذلك هو نقد الباقلانى للمقدمة الطللية عند امرىء القيس ، وهو كما رأينا نقد تافه ، لا يصدر عن إحساس أو تذوق أو منطق أو قاعدة ، وهو أقرب إلى العبث منه إلى النقد ، لأن كلمة « نبك » تعنى البكاء الحقيقى ، وقد تعنى استشعار الأسى لذهاب مسرات الأمس ، والتلهف على عودتها ، ويمكن أن يبكى المرء وحده وأن يبكى والذين معه ، يبكى كل واحد أمسه وحظه ، والأمر من قبل و بعد تصوير شعرى ، لحالة نفسية ، ولم يدرك الباقلانى أيضاً العاطفة التى

تشد الإنسان إلى الأرض التى عاش فوقها ، ومرح فى عرصاتها ، فاستخف بذكر الأسماء ، وغفل عن أهميتها فى تحديد معالم الصورة .

والحق مع الأصمعى فى أن قيام أثر للرسوم الدوارس ، على نحو ما صوّره امرؤ القيس، أشد تأثيراً مما لو ذهبت كلاً ، فيصعب على العقل والقلب تبيّنها ، والربط بين حاضرها وأمسها . ولا تناقض بين قوله « لم يعف رسمها » وقوله «رسم دارس »، لأن الرسم العافى هو الذى ذهب جملة، والدارس ما بقيت له آثار تدل عليه، وما زعمه من مخالفته للنحو ، أو حتى تجاوزه لغير الأولى ، لا يستقيم بداهة ، لأن القواعد نفسها صُنِعت على شعره وشعر غيره من طبقته ، فهو المثال وليس المحتذِى ، فضلا عن أن محاورة الباقلانى فى هـذا الجانب تمحك وهذر ، لأن الشاعر يتحدث عن منزل كان فى ديار متعددة ذكرها ، والضمير يعود عليهـا مؤنثاً ، وكلها كانت منازل حبيبته ، لـكن الباقلانى لا يفرق بين منزل فى البادية عريض وطويل وممتد ، وبين منزل يسكنه فى بغداد ، مساحته أمتار ، وتحـده أربعة جدران .

على هذا النحو يمضى الباقلانى فى تحطيم صور المعلقة ، يقول :

ويوم عقرتُ للعذارى مطيتى فياعجبا من رحلها المتحمّل

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتّل

تقديره : اذكر يوم عقرت مطيتى ، أو ردّه على قوله « يوم بدارة جلجل » ، وليس فى المصراع الأول من هذا البيت إلا سفاهته . وقال بعض الأدباء : قوله « ياعجبا » يعجبهم من سفهه فى شبابه ، ومن نحره لهن ، وإنما

أراد أن لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعاً عن الأول ، وأراد أن يكون الكلام ملائماً له .

وهذا الذى ذكره بعيد . وهو منقطع عن الأول ، وظاهره أنه يتعجب من تحمل العذارى رحله ، وليس فى هذا تعجب كبير ، ولا فى نحر الناقة لهن تعجب . وإن كان يعنى به أنهن حملن رحله ، وأن بعضهن حملنه ، فعبر عن نفسه برحله ، فهذا قليلا يشبه أن يكون عجباً ، لكن الكلام لا يدل عليه ، ويتجافى عنه . ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شىء غريب ، ولا معنى بديع أكثر من سفاهته ، مع قلّة معناه ، وتقارب أمره ، ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا (زمان الباقلانى) .

وإلى هذا الموضع لم يمرّ له بيت رائع ،لا وكلام رائق .

وأما البيت الثانى فيعدونه حسناً ، ويعدون التشبيه مليحاً واقعاً ، وفيه شىء : وذلك أنه عرّف اللحم ونكّر الشحم فلا يعلم أنه وصف شحمها ، وذكر تشبيه أحدهما بشىء واقع للعامّة ، ويجرى على ألسنتهم ، وعجز عن تشبيه القسمة الأولى فمرّتْ مرسلة ، وهذا نقص فى الصنعة ، وعجز عن إعطاء الكلام حقه .

وفيه شىء آخر من جهة المعنى ، وهو أنه وصف طعامه الذى أطعم من أضاف بالجودة ، وهذا قد يعاب ، وقد يقال : إن العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيباً ، وإنما الفُرس هم الذين يرون هذا عيباً شنيعاً .

وأما تشبيه الشحم بالدمقس فشىء يقع للعامة ويجرى على ألسنتهم ، فليس بشىء قد سبق إليه ، وإنما زاد «المفتل» للقافية ، وهذا مفيد ، ومع ذلك فلست

أعلم العامة تذكر هذه الزيادة ، ولم يعدّ أهل الصنعة ذلك من البديع ، ورأوه قريباً .

وفيه شيء آخر من جهـــة المعنى ، وهو أن تبجحه بما أطعم للأحباب مذموم ، وإن سوّغ التبجح بمـا أطعم للأضياف ، إلاَّ أنْ يورد الـكلام مورِد المجون ، وعلى طريق أبى نُواس فى المزاح والمداعبة .

وإذا كان نقد الباقلانى مثيراً فى أوله ، فهو مضحك فى هذه المرة ، لأنه تخبط وناقض نفسه أكثر من مرّة : نقده بأنه وصف طعامه بالجودة ، ثم قال إن العرب تفخر بذلك ، وأن الفرس هم الذين يرونه عيباً ، ثم عقب عليه بأن ذلك مباح على أىّ حال إذا كان فى مقام المزاح ، وامرؤ القيس كان مع صويحباته فى رحلة ، تنسى فيها المراسم ، ويكثر فيها المزاح ، ويعيش الناس على سجيتهم . ووصف تشبيهه الشحم بالدمقس ، بأنه مما يجرى على ألسنة العامة . أى عامة يعنى ؟ العامة فى عصر امرىء القيس أو فى عصره ، إن كانوا فى عصر امرىء القيس فمن هم ؟ وكيف عرف أن هذا التشبيه كان جارياً بينهم ؟ وإن كانوا فى عصره ، فهل يُعاب امرؤ القيس بتشبيه أرسله ، فأصبح شعبياً تتداوله العامة بعد موت الشاعر بأربعة قرون .

ويمضى الباقلانى مع بقية أبيات المعلقة ، يقول :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت : لك الويلات إنك مرجلى
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

قوله : « دخلت الخدر خـدر عنيزة » ، ذكره تـكريراً لإقامة الوزن ،

لا فائدة فيه غيره ، ولا ملاحة له ولا رونق . وفى المصراع الأخير من البيت كلام مؤنث من كلام النساء ، نقله من جهته إلى شعره ، وليس فيه غير هذا . وتكريره بعد ذلك « تقول وقد مال الغبيط » ، يعنى قتب الهودج ، بعد « فقالت لك الويلات إنك مرجلى » لا فائدة فيه غير تقدير الوزن ، وإلاّ فحكاية قولها الأول كاف ، وهو فى النظم قبيح ؛ لأنه ذكر مرة « فقالت » ، ومرة « تقول » ، فى معنى واحد وفصل خفيف . وفى مصراع الثانى تأنيث من كلامهن . وذكر أبو عبيدة أنه قال « عقرت بعيرى » ولم يقل ناقتى ، لأنهم يحملون النساء على ذكور الإبل لأنها أقوى . وفى ذلك نظر ، لأن الأظهر أن البعير اسم للذكر والأنثى ، واحتاج إلى ذكر البعير لإقامة الوزن .

حين لا يجد الباقلانى شيئاً يمسك به يتكىء على حجة واهية لا تصدر عن ناقد واع بأصول النقد ، أو متذوق رهيف الحس ، وهى القول بأن هذه الكلمة أو تلك جاء بها الشاعر ليقيم الوزن ، كأنما الشعر كلمات مرصوصة تقاس مساحة أو توزن حجما ، فكلمة « خدر » الثانية وكلمة « بعير » من هذا القبيل ، ونسى الجمال الذى تثيره الأولى فى النفس ، حين يشدّ الشاعر انتباه سامعه بأنه دخل الخدر ، حتى إذا كان معه وأعاره مشاعره ، طمأنه فى كلمة واحدة : خدر عنيزة . واستخدام الثانية برّره الباقلانى نفسه بعد اعتراضه ، حين قرر أنها تطلق على المذكر والمؤنث . ثم مدح امرأ القيس من حيث أراد ذمه ، حين قرّر ان فى البيتين كلاماً فيه طراوة النساء ، ذلك أن امرأ القيس يحكى كلام صويحباته ، وحين يستطيع أن يضع على لسانهن ماهو من شأنهن

فعلا يكون قد بلغ قمة الإبداع فى التصوير . وزعمه بأن البيت الثـانى لم يأت بجديد عما فى البيت الأول ، يدل على أنه لم يفهم البيت ، أو لأنه مدفوعا بفكرة نقضه لم يحاول أن يفهمه ، لأن ثمة فارقاً واضحاً بين معنى كل منهما ، فى الأول تحذّره إنك توشك أن تجعلنى أمشى راجلة ، وفى الثانى تقول له : إذا لم تبق هادئاً فانزل .

ويزيد الباقلانى ، وقوله :

فقلت لهـا سيرى وأرخى زمامه ولا تبعدينى من جنـاك المعلل

فمثلك حبـلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول

البيت الأول قريب النسج ، ليس له معنى بديع ، ولا لفظ شريف ، كأنه من عبارات المنحطين فى الصنعة . والبيت الثـانى عابه أهل العربية ، وتقديره أنه زير نساء ، وأنه يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن ، لأن الحبلى والمرضعة أبعد من الغزل وطلب الرجال ، وهو فى الاعتذار والاستهتار والتهيام ، وغير منتظم مع المعنى الذى قدمه فى البيت الأول ، لأن تقديره لاتبعدينى عن نفسك ، فإنى أغلبُ النساء ، وأخدعهن عن رأيهن ، وأفسدهن بالتغازل . وكونه مفسدة لهن لا يوجب له وصلهن ، وترك إبعادهن إياه ، بل يوجب هجره والاستخفاف به ، لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش ، وركوبه كل مركب فاسد . وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره .

وقوله :

إذا ما بكى . . . . لم يحوّل
ويوماً على ظهر الكثيب تعذّرتْ على ّ وآلتْ حلفة لم تحلّل

فالبيت الأول غاية فى الفحش ، ونهاية فى السخف ، وأي فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح ، ويذهب هذه المذاهب ، ويرد هذه الموارد ، إن هذا ليبغضه إلى كل من سمع كلامه ، ويوجب له المقت ، وهو لو صدق لكان قبيحاً ، فكيف ويجوز أن يكون كاذباً . ثم ليس فى البيت لفظ بديع ، ولا معنى حسن . وهذا البيت متصل بالبيت الذى قبله ، من ذكر المرضع التى لها ولد مُحْوِل .

فأما البيت الثانى فيتعجب منها بأنها تشدّدتْ وتعسرت عليه ، وحلفت ، فهو كلام ردىء النسج لافائدة لذكره لنا أن حبيبته تمنعت عليه يوماً بموضع يسميه ويصفه . وأنت تجد فى شعر المحدثين من هذا الجنس فى التغزل مايذوب معه اللب ، وتطرب عليه النفس ؛ وهذا مما تستنكره النفس ويشمئز منه القلب ، وليس فيه شيء من الإحسان والحسن .

لم يجد الباقلانى فى الأبيات الأربعة الماضية ، خللاً فى النحو أو اللغة أو النظم ، فجاءها من ناحية المضمون ، إن معانيها لاترتضيها الأخلاق ، لا يقول هذا صراحة ، وإنما يلفّ حوله ويدور ، كأنه خائف أن يأخذ أحد بتلابيبه فيقول له : وما دخل الأخلاق هنا ؟ ولو قالها صريحة ، واتخذها مذهباً ، لوجد من يقف إلى جواره يعاضده ، ولكنه سبّ الشاعر والأبيات دون أن يفصح

عن رأيه ، ودون أن يعرض علينا مذهباً محدداً نتخذه قاعدة نحتكم إليـه ، وقد أعجبه شعر الغزل فى العصر العباسى حيث عاش ، لـكنه لم يقدم لنا هـذا النموذج الذى ارتضاه لنقارنه بمذهب امرئ القيس ومنحاه فى التعبير ، وقد وَسم أبياته بأنها عارية من الحسن والإحسان .

ويمضى الباقلانى ، وقوله :

أفاطم مهلاً بعضَ هـذا التدلّل وإن كنتِ قدأزمعتِ صرمى فأجملى
أغركِ منى أن حبـكِ قاتلى وأنكِ مهما تأمرى القلب يفعـل

فالبيت الأول فيه ركاكة جدا ، وتأنيث ورقة ، ولـكن فيه تخنيث .
ولعل قائلا أن يقول : إن كلام النساء بمـا يلائمهن من الطبع أوقع وأغزل ،
وليس كذلك ، لأنه تجد الشعراء فى الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم .
والمصراع الثانى منقطع عن الأول لايلائمه ولا يوافقه ، وهذا يبين لك إذا عرضت معه البيت الذى تقـدمه . وكيف ينـكر عليها تدلُّلها ، والمتغزّل يطرب على دلال الحبيب وتدلله .

والبيت الثانى قد عيب عليه ، لأنه قد أخبر أن من سبيلها أن لاتغتر بمـا يريها من أن حبَّها يقتله ، وأنها تملك قلبه فما أمرته فعله ، والمحب إذا أخبر عن مثل هذا صدق . وإن كان المعنى غير هذا الذى عيب عليه ، وإنما ذهب مذهباً آخر ، وهو أنه أراد أن يظهر التجلد ، فهذا خلاف ما أظهر من نفسه فيما تقدم من الأبيات ، من الحب والبكاء على الأحبة ، فقد دخل فى وجه آخر من المناقضة والإحاطة فى الـكلام . ثم قوله « تأمرى القلب » معناه تأمرينى ، والقلب لا يؤمر ، والاستعارة فى ذلك غير واقعة ولا حسنة .

وقوله :

فإن كنتِ قد ساءتك منى خليقةٌ ، فسلِّى ثيابى من ثيابك تنسُل
وماذرفت عيناكِ إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتَّل

البيت الأول قد قيل فى تأويله إنه ذكر الثوب وأراد البدن ، مثل قول الله تعالى « وثيابك فطهِّر » . وقال أبو عبيدة هذا مثل للهجر ، وتنسل تبين . وهو بيت قليل المعنى ، ركيكه وضيعه ، وكل ما أضاف إلى نفسه ووصف به نفسه سقوط وسفه وسخف ، يوجب قطعه ، فلِمَ لمْ يحكم على نفسه بذلك ، ولكن يورده مورد أن ليست له خليقة توجب هجرانه والتفصّى من وصله ، وأنه مهذب الأخلاق ، شريف الشمائل ، فذلك يوجب أن لا ينفكّ من وصاله . والاستعارة فى المصراع الثانى فيها تواضع وتقارب ، وإن كانت غريبة .

وأما البيت الثانى فمعدود من محاسن القصيدة وبدائعها ، ومعناه : ما بكيتِ إلا لتجرحى قلباً معشّراً — أى مكسّراً — من قولهم « بُرْمةٌ أعشارٌ » إذا كانت قطعاً . هذا تأويل ذكره الأصمعى ، وهو أشبه عند أكثرهم ، وقال غيره : وهذا مثل للأعشار التى تقسم الجزور عليها ، ويعنى بسهميك : المعلىّ وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة أنصباء ، فأراد أنك ذهبت بقلبى أجمع . ويعنى بقوله « مقتّل » : مذلل . وأنت تعلم أنه على ما يعنى به فهو غير موافق للأبيات المتقدمة ، لما فيها من التناقض الذى بيّنّا .

ويشبه أن يكون مَن قال بالتأويل الثانى ، فزع إليه لأنه رأى اللفظ مستنكرها على المعنى الأول ، لأن القائل إذا قال : « ضرب فلان بسهمه فى الهدف » بمعنى أصابه ، كان كلامه ساقطا مرذولا ، وهو يرى أن معنى الكلمة

أن عينيها كالسهمين النافذين فى إصابة القلب المجروح ، فلما بكتا وذرفتا بالدموع كانتا ضاربتين فى قلبه .

ولكن من حمل على التأويل الثانى سلم من الخلل الواقع فى اللفظ ، ولكنه يفسد المعنى ويختل ، لأنه كان محباً — على ماوصف به نفسه من الصبابة — فقلبه كله لها ، فكيف يكون بكاؤها هو الذى يخلص قلبه لها ؟ . وأعلم بعد هذا أنّ البيت غير ملائم للبيت الأول ، ولا متصل به فى المعنى ، وهو منقطع عنه ، لأنه لم يسبق كلام يقتضى بكاءها ، ولا سبب يوجب ذلك فتركيبه هذا الكلام على ماقبله فيه اختلال .

ثم لو سلم له بيت من عشرين بيتاً ، وكان بديعاً ولا عيب فيه ، فليس بعجيب ، لأنه لا يدعى على مثله أن كلامه كله متناقض ، ونظمه كأنه متباين وإنما يكفى أن ماسبق من كلامه إلى هذا البيت ، مما لا يمكن أن يقال إنه يتقدم فيه أحداً من المتأخرين فضلا عن المتقدمين . وإنما قدم فى شعره لأبيات قد برع فيها وبان حِذْقه بها ، وإنما أنكرنا أن يكون شعره متناسباً فى الجودة ، ومتشابهاً فى صحة المعنى واللفظ ، وقلنا إنه يتصرف بين وحشى غريب مستنكر ، وعربية كالمهمل مستكرهة ، وبين كلام سليم متوسط ، وبين عامى سوقى فى اللفظ والمعنى ، وبين حكمة حسنة ، وبين سخف مُستشنع .

تلك هى وجهة نظر الباقلانى فى أجمل أبيات القصيدة وأرقها ، وهو أحياناً يزيف المعنى فيقول . « كيف ينكر عليها دلالها » ، وامرؤ القيس لم ينكر هذا الدلال ، بل رغب فى شىء منه ، وإنما أنكر أن تسرف فيه فينتهى بهما الأمر إلى القطيعة . كذلك لم يفهم الاستفهام فى « أغرك منى أن حبّك قاتلى » ،

تصوره استفهام إنـكارى ، وهو تقريرى ، يقرر به « لقد غرّك أن حبك قاتلى » ، والاستعارة فى «تأمرى القلب» بالغة الغاية والروعة ، وإذا لم يُؤمر القلب فى مجال العاطفة والحب فمتى يؤمر ؟ وإذا لم يؤمر من الحبيبة فأمام من يتذلّل ؟ إنّ امرأ القيس أصاب كل الإصابة حين اتجه إلى القلب مصـــدر الأحاسيس والحياة ، لـكأنما كل ما غيره ذهبت به الصبابة ، أو دونه .

ويقول الباقلانى ، فأما قوله :

وبيضة خـدرٍ لا يُرام خِباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً علىَّ حِراصاً لو يسرون مقتلى

فقد قالوا : عنى بذلك أنها كبيضة خدر فى صفائها ورقتها ، وهذه كلمة حسنة ، ولـكن لم يسبق إليها ، بل هى دائرة فى أفواه العرب ، وتشبيه سائر . ويعنى بقوله « غير معجل » أنه ليس ذلك مما يتفق قليلاً وأحياناً ، بل يتكرر له الاستمتاع بها ، وقد يحمله غيره على أنه رابط الجأش ، فلا يستعجل إذا دخلها خوْف حصانتها ومنعتها . وليس فى البيت كبير فائدة ، لأن الذى حكى فى سائر أبياته قد تضمن مطاولته فى المغازلة واشتغاله بها ، فتـكريره فى هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى ، إلاّ الزيادة التى ذكر مِن منعتها ، وهو مع ذلك بيت سليم اللفظ فى المصراع الأول دون الثانى .

والبيت الثانى ضعيف . وقوله « لو يسرون مقتلى » أراد أن يقول : لو أسرّوا ، فإذا نقله إلى هذا ضعُف ووقع فى مضمار الضرورة ، والاختلاط على نظمه بيِّن ، حتى أن المتأخر ليحترز من مثله .

لم يدرك الباقلانى ، كما أدرك امرؤ القيس ، مصدر السعادة فى الحب ، وهو التجاوب والتكامل والتوافق فى الطباع ، ولم يستطع أن يتجاوز مفهوم الألفاظ مفردة إلى ما تعطيه الصورة كاملة ، فليست هناك فى الحق ثياب تفسل، وإنما أراد « إذا وجدتِ من طباعى ما يكون عائقاً فى سبيل انصهارنا روحاً واحداً فى بوتقة الحب » ، فالفرقة خير ، والتباعد أسلم .

واعترف بما فى « وما ذرفت عيناك » من حسن وجمال، ربما لأن الخليفة عبد الملك بن مروان أعجب به ، وشاركه إعجابه من كان فى مجلسه ، وكأنه ندم على شهادته فعاد من جديد يكرر دعوى التناقض ، وعدم ملاءمة البيت لما قبله . تصوّر مسطَّح للعاطفة ، أوقعه فى الفهاهة ، لأن المرء إذا كان رهيف الحس لا يلزم من الشىء الجميل ، أى شىء ، موقفاً موحّداً مستمراً ، إنما يصعّد فيه ويهبط ، ويرتفع معه وينزل ، ويرضى عنه ويغضب ، وذلك هو الوقود الذى يحفظ للعاطفة حماستها وتأججها . وقد صنع نفس الشىء فى « وبيضة خدر » رأى النقاد يعجبون بالبيت فقال إنه جميل ، ثم عقب عليه : لكنه لم يأت بجديد . ولم يدرك معنى الاستمرار الذى يوحى به استخدام الفعل المضارع فى « لو يسرون » بدل استخدام الماضى، فعدها من أخطاء الشاعر ، واستخدام المضارع فى موضع الماضى ، لجعل صورة الشىء ماثلة فى الذهن أبداً ، بعض أوليات علم البلاغة العربية .

ويتابع الباقلانى نقده ، وقوله :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشاح المفصَّل

أنكره قوم عليه ، وقالوا الثريا لا تتعرض ، حتى قال بعضهم : سمَّى الثريا وإنما أراد الجوزاء ، لأنها تعرض ، والعرب تفعل ذلك ، كما قال زهير : « كأَحمر عاد » ، وإنما هو أحمر ثمود . وقال بعضهم في تصحيح قوله إنما تعرِض أول ما تطلع وحين تغرب ، كما أن الوشاح إذا طرح يلقاك بعُرْضه . والأشبه عندنا أن البيت غير معيب من حيث عابوه ، وأنه من محاسن هذه القصيدة ، ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشأو ، ويستولى على الأمد ...

وفى جملة ما نقلناه ما يزيد على تشبيهه فى الحسن، أو يساويه ، أو يقاربه ، فقد علمت أنّ ما حلّق فيه ، وقدَّر المتعصب له أنه بلغ النهاية فيه ، أمر مشترك ، وشريعة موروده ، وباب واسع ، وطريق مسلوك ، وإذا كان هذا بيت القصيدة ، ودرّة القلادة ، وواسطة العقد ، هذا محله ، فكيف بما تعداه ؟

ثم فيه ضرب من التكلف ، لأنه قال « إذا ما الثريا فى السماء تعرّضت » ، فتعرضت من الكلام الذى يستغنى عنه ، لأنه يشبه أثْناء الوشاح بالثريا ، سواء كان فى وسط السماء أو عند الطلوع والمغيب ، فالتهويل بالتعرض ، والتطويل بهذه الألفاظ ، لا معنى له .

وفيه أن الثريا كقطعة من الوشاح المفصَّل ، فلا معنى لقوله «تعرُّض» ، وإنما أراد أن يقول : تعرُّض قطعة من أثناء الوشاح ، فلم يستقم له اللفظ ، حتى شبه ماهو كالشيء الواحد بالجمع .

أصاب الباقلانى الفهم لأول مرة ، فلم يقع فى الجدل الطويل الممل الذى وقع فيه الآخرون . هل أخطأ امرؤ القيس أم لم يخطىء ؟ وهل تتعرَّض الثريا أم

لا تتعرض ؟ . وكانت القضية أهون من ذلك بكثير لأن الشاعر أراد أن يحدد معالم كبرى نجوم السماء تتعرضها . وتلمع فى وسطها بين نجوم دونها ضوءاً ، كوشاح فصّل بالجواهر ، جواهر ليست ذات شكل واحـــد ، وإنما تلمع كبرياته — كل واحدة بمعزل عن الأخرى — وسط عدد من الجواهر الصغيرة ، أقل حجماً وأخفت بريقاً . ولو وقف الباقلانى عنـد التفسير وحده لأفاد وأنصف ، ولـكنه قال إن امرأ القيس أخطأ حين « شبه ما هو كالشىء الواحد بالجمع » ، كأنه لم يدرس المجاز ولم يقرأ القرآن .

وينتقل الباقلانى إلى بيتين آخرين . وقوله :

فجئت وقد نضتْ لنومٍ ثيابها   لدى السترِ إلا لِبْسة المتفضِّـــلِ

فقالت : يمين الله ما لك حيـلة   وما إن أرى عنك الغواية تنجلى

انظر إلى البيت الأول والأبيات التى قبله ، كيف خلَّط فى النظْم ، وفرط فى التأليف ، فذكر التمتع بها ، وذكر الوقت والحال والحرّاس ، ثم ذكر كيف كانت صفتها لما دخل عليها ووصل إليها ، من نزعها ثيابها إلا ثوباً واحداً ، والمتفضل هو الذى فى ثوب واحد ، وهو الفضل ، فما كان من سبيله أن يقدمه إنما ذكره مؤخراً . وقوله « لدى الستر » حشو ، وليس بحسن ولا بديع ، وليس فى البيت حسْن ، ولا شىء يفضَّل لأجله .

وأما البيت الثانى ففيه تعليق واختلال ، ذكر الأصمعى أن معنى قوله « ما لك حيلة » أى ليست لك جهة تجىء فيها والناس أحوالى . والـكلام فى المصراع الثانى منقطع عن الأول ، ونظمه اليه فيه ضرب من التفاوت .

وقوله :

فقمتُ بها أمشى تجرُّ وراءنا على إثْرِنا أذيال مرط مرجّل

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن حقف ذى حقاف عقنقل

البيت الأول يذكر محاسنه من مساعدتها إياه ، حتى قامت معه ليخلوا ، وأنها كانت تجر على الإثر أذيال مرْط مرجَّل ، والمرجل ضرب من البرود ، يقال لوشيه الترجيل ، وفيه تكلف ، لأنه قال « وراءنا على إثرنا » ، ولو قال على « إثرنا » كان كافياً ، والذيل إنما يجرى وراء الماشى ، فلا فائدة لذكر وراءنا ، وتقدير القول : فقمت أمشى بها ، وهذا أيضاً ضرب من التكلف ، وقوله « أذيال مرط » ، كان من سبيله أن يقول : ذيل مرط .

وأما فى البيت الثانى فقوله « أجزنا » بمعنى « قطعنا ، و « الخبت » ! بطن من الأرض ، والحقف : رمل منعرج ، والعقنقل : المنعقد من الرمل الداخل بعضه فى بعض ، وهذا بيت متفاوت مع الأبيات المتقدمة ، لأن فيها ما هو سلس قريب ، يشبه كلام المولدين وكلام البذلة ، وهذا قد أغرب فيه ، وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقدة ، وليس فى ذكرها والتفضيل بإلحاقها بكلامه فائدة .

وهكذا كلما أعوزت الباقلانى الحجة فى تشويه بيت ، أمسك بأية كلمة فيه ، وأخذ يصيح : هنا حشو ! ، أو هذه الكلمة جاءت متأخرة وحقها أن تتقدم ، أو متقدمة وحقها أن تتأخر ، فكلمة « لدى الستر » عنده حشو ، لأنها جاءت بعد « نضت لنوم » ، وغفل عن أن الإنسان ليس من الضرورى أن ينام فى بيته ، ومن البيت فى حجرة النوم ، وإنما يجوز أن ينام فيها وفى

غيرها ، ولكن مكاناً واحداً هو الذى يخلع فيه ثياب الحياة ، ويرتدى ثوب النوم ، هو حجرة الستر ، وذلك ماغاب عن فطنته. ولم يجد فى البيت « فقالت يمين الله » حشوا يمسك به ، فقال إن المصراع الثانى منقطع عن الأول ، والحال أنهما أشد ما يكونان تماسكا وتكاملاً . تقول له : ليست لى حيلة فى دفعك ، ولست مقلعاً عن غيك .

وعاد يمسك بكلمات من الأبيات الأخرى ، قال « أذيال » وحقه أن يقول « ذيل » ، والثوب الواحد ، قد تكون له أذيال عديدة فعلا ، وقد يكون له ذيل واحد يساويها جميعاً فى مقام الاعتبار والتقدير . واستوحش كلمة « عقنقل » ، وهى لها نفس الصفة فعلاً ، ولكنها فى الحق جاءت لتعبر عن معنى يساويها وحاشة وصعوبة وتعقيداً .

ويمضى الباقلانى فى حديثه ، وأما قوله :

هصرتُ بغصنى دوحةٍ فتمايلت عليّ هضيمَ الكشْح ريا المخلخل

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

فمعنى قوله « هصرت » جذبت وثنيت ، وقوله بغصنى دوحةً تعسّف ، ولم يكن من سبيله أن يجعلهما اثنين . والمصراع الثانى أصح ، وليس فيه شىء إلا ما يتكرر على ألسنة الناس من هاتين الصفتين. وأنت تجد ذلك فى وصف كل شاعر ، ولكنه مع تكرره على الألسنة صالح . وأما معنى قوله « مهفهفة »: أنها مخففة ليست مثقلة . والمفاضة التى اضطرب طولها . والبيت مع مخالفته فى الطبع الأبيات المتقدمة ، ونزوعه فيه إلى الألفاظ المستكرهة ، وما فيه من

الخلل ؛ من تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعهـا بالبيـاض ، فليس بطائل ، ولـكنه قريب متوسط .

وقوله :

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هى نصّته ولا بمعطل

معنى قوله « عن أسيل » أى بأسيل ، وإنما يريد خدّا ليس بكز ، وقوله « تتقى » ، يقال اتقاه بحقه ، أى جعله بينه وبينه . وقوله « تصد وتبدى » متفاوت ، لأن الـكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد .

وقوله « تتقى بناظرة » لفظة مليحة ، ولـكنه أضافها إلى ما نظم به كلامه وهو مختل ، وهو قوله « من وحش وجرة » وكان يجب أن تـكون العبـارة بخلاف هذا ، كان من سبيله إلى أن يضيف إلى عيون الظباء أو المها دون إطلاق الوحش ، ففيهن ما تستنـكر عيونها .

وقوله « مطفل » فسّروه على أنها ليست بصبية ، وأنها قد استحـكمت وهذا اعتذار متعسف ، وقوله « مطفل » زيادة لا فائدة فيها على هذا التفسير الذى ذكره الأصمعى . ولـكن قد يحتمل عندى — عند الباقلانى — أن يفيد غير هذه الفائدة ، فيقال إنها إذا كانت مطفلا لحظت أطفالها بعين رقـة ، ففى نظر هذه رقة نظر المودة ، ويقع الـكلام متعلقاً تعليقاً متوسطاً .

وأما البيت الثانى فمعنى قوله « ليس بفاحش » أى ليس بفاحش الطول .

ومعنى قوله « نصّته » رفعته ، ومعنى قوله « ليس بفاحش » ، فى مدح الأعناق ، كلام فاحش موضوع منه .

وبعد أن تعب من الهدم ، وملّ الاختــلاق ، رأى فى النصفة عدلاً ، فالتفت إلى أبيات جميلة من المعلقة أوردها فى جو من لا يكاد يصدق ، يقول : فأما الذى زعموا أنه من بديع هذا الشعر ، فهو قوله :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

والمصراع الأخير عندهم بديع ، ومعنى ذلك أنها مترفة متنعمة ، لها من يكفيها . ومعنى قوله « لم تنتطق عن تفضل » ، يقول لم تنتطق وهى فُضُل ، و « عن » بمعنى « بعد » ، قال أبو عبيدة : لم تنتطق فتعمل ، ولـكنها تتفضل

ثم عرض لأبيات امرىء القيس فى الليل ، وعدّها من محاسنه ، وقارنهـا بأبيات النابغة وعرضنا لها قبلا[1] .

وقد خرّجوا له فى البديع من القصيدة قوله :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجردٍ قيــد الأوابد هيــكل

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معا كجلمود صخر حطّه السيل من عل

له أيطلا ظـبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

فأما قوله « قيد الأوابد » فهو مليح ، ومثـاله فى كلام الشعراء وأهل الفصاحة كثير ، والتعمّل بمثــله ممكن . وأهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا

---

(١) انظر ص ٣٥٥

تصنيفاً ، ويؤلفون المحاسن تأليفاً ، يوشحون به كلامهم . والذين كانوا من قبل — لغزارتهم — وتمكنهم لم يكونوا يتصنعون لذلك ، وإنما كان يتفق لهم اتفاقاً ، ويطرد فى كلامهم اطّرادا .

وأما قوله فى وصفه : « مكر مفر » فقد جمع فيه طباقا وتشبيهاً . وفى سرعة جرى الفرس للشعراء ماهو أحسن من هذا وألطف .

وكذلك فى جمعه بين أربعة وجوه من التشبيه فى بيت واحد صنعه ، ولكن قد عورض فيه وزوحم عليه ، والتوصل إليه يسير ، وتطلبه سهل قريب .

وهذا القدر يكفى فى كتابنا — إعجاز القرآن — ولم نحب أن ننسخ لك ما سطّره الأدباء فى خطأ امرىء القيس فى العروض والنحو والمعانى ،وماعابوه عليه فى أشعاره ، وتكلموا به عليه فى ديوانه ، لأن ذلك أيضاً خارج عن غرض كتابنا . ومجانب لمقصوده .

تلك هى آراء الباقلانى فى « المعلقة » ، أسرف فيها على نفسه وعلى الذوق الأدبى ، حين جعل من الجدل والمنطق عماده فى الفهم والتفسير ، وهما آخر ما يستخدم فى تذوق الشعر ، وأخطأ حين واجه القضية بفكرة مسبقة ، وما كان له إلا أن يكون كذلك ، لأنه يتحدث عن إعجاز القرآن ، إعجاز نحسّه تذوّقا ونؤمن به عقيدة ، فلا مجال المقارنة بينه وبين غيره من ضروب القول ، وبخاصة أن القرآن نسيج وحده فى لونه الفنى . وأخطأ حين أغفل صور امرئ القيس ككل إغفالا تاماً ؛ فهو يمسك بخناق البيت داخل القصيدة ، وبخناق الكلمة فى نطاق البيت ، وبخناق الحرف معزولا عن

الـكلمة ، ولعمرى لو فعل ذلك بالقرآن الـكريم نفسه ، لما أبقى له من البلاغة على شيء .

وهو اتجاه كان يخالف منحى النقد الأدبي السائد فى عصره ، وما بعد عصره ، فلنترك القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى (ت ٣٦٦ هـ أو ٣٩٢ هـ) صاحب كتاب « الوساطة » ، وكان معاصراً للباقلانى ، يرد عليه : « . . . لـكن الذى أطالبك به ، وألزمك إياه ، ألا تستعجل بالسيئة قبل الحسنة ، ولا تقدم السخط على الرحمة ، وإن فعلت فلا تهمل الإنصاف جملة ، وتخرج عن العدل صفرا ، فإن الأديب الفاضل لا يستحق أن يعقد بالعثرة على الذنب اليسير ، من لا يحمد منه الإحسان الـكثير ؛ وليس من شرائط النصفة أن تنعى على إبى الطيب بيتا شذ ، وكلمة ندرت ، وقصيدة لم يسعده فيها طبعه ، ولفظة قصرت عنها عنايته ، وتنسى محاسنه وقد ملأت الأسماع ، وروائعه وقد بهرت العقول ، ولا من العدل أن تؤخره الهفوة المنفردة ، ولا تقدمه الفضائل المجتمعة ، وأن تحطه الزلة العابرة ، ولا تنفعه المناقب الباهرة ». وهذه الالتفاتة التى وقف بها الجرجانى تحسب له فى أكرم الالتفاتات ، وإحدى المعالم البارزة فى تاريخ النقد الأوربى منذ القرن السابع عشر إلى الآن ، فبوالو Boileau , Despreaux الشاعر والناقد الفرنسى (١٦٣٦ — ١٧١١ م) ، وشيخ المدرسة الـكلاسيكية فى فرنسا ، يرى أن النقد ينهض على دعامتين : رعاية القواعد اللازمة فى اللغة وفى الفن ، والحكم على إنتاج الأديب جملة مع مراعاة القواعد السابقة .

وبهدى من قواعد النقد القديم ، وإضافات النقد الحديث ، سوف نعرض فى الفصل التالى رأينا فى شعر امرئ القيس جملة .

فى ضوء النقد الحديث

يلتقى النقد الحديث مع النقد القديم فى بعض القضايا ، ويخالفه فى بعضها الآخر . يتفق معه فى أن امرأ القيس أبدع صورا أدبية نابضة بالحياة والقوة والجمال قلما صنع مثلها أحد من معاصريه أو سابقيه أو من جاءوا بعده من الشعراء الجاهليين ، وعالج فنونا من التشبيه قصر دونها أنداده ، وكل ما زعم له القدامى من أوليات فهى حق ، مادام شعره أول شعر يصلنا يحمل هذه المعانى والصور .

ويخالفه فى النقد القائم على تصيّد الأخطاء المفردة أو افتعالها ، والوقوف عند الكلمات والجدل حولها ، والحكم على أعمال الشاعر من خلال قيم لم تكن سائدة فى عصره ، أو كان سائدا ما يناقضها .

ومن ثم فنحن نرى أن القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى ، ومثله الباقلانى ، جانبه الصواب فى نقده للبيت :

تصدّ وتبدى عن أسيل وتتقى   بناظرة من وحش وجرة مطفل

وقوله : « سألتُ من لا أحصى من الأعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلا على وحش ضَرِيّة وغزلان بُسيْطة ، وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع ، أما العيون فقل أن تختلف لذلك » . فالحق أن عيون الحيوان — كالإنسان — فى منطقة ما أجمل منها فى غيرها ، أو أشد بريقاً وأصفى لونا .

لقد نجح امرؤ القيس فى أن ينقل لنا بصدق ، تجربته كاملة ، تنمّ

عن عميق شعوره وإحساسه ، واقتناعه الذاتى بما عالج فى شعره ، وإخلاصه الفنى فى التعبير عنها ، ونقلها إلينا فى دقة كاملة ، تتمثل فيها ألوان الحياة التى عاشها ، والصراع الذى عرض له ، إزاء الأحداث التى أحاطت به ، وفتح أنفسنا على حقائق ومعانى تقصرعن أدائها الـكلمات الجامدة فى المعاجم ، أوالروايات الهامدة مسجاة فى كتب التاريخ .

وهو يفضى بذات نفسه فى إخلاص ، لايتحرج ولا يقتصد ، هادئ طورا كالنسيم ، ومكتسح عاصف أحياناً كالسيل ، يزهو ويتضاءل ، ويشمخ ويأسى، ويحزن ويتجلد،وينتقل من الحبيب الصاد إلى الحبيب الواصل،استمتع به ومعه ، وكلا الأمرين يثيره ويبكيه ، ويتطرق من ذلك إلى جزئيات تخدش الحياء المعاصر عند بعض الناس ، فنجتزئها فى دراسات التذوق ، وتبقى لها أهميتها فى دراسة التاريخ ، يرجـــع إليها الدارس الناقد ، والعالم الباحث ، إذا أراد رسم صورة كاملة ودقيقة لاتجاهات العصر الجمالية ، أو ليدرك من خلالها حدود القول فى تلك الفترة من الزمن ، فى هذا الجانب من الأرض .

وهو شاعر الصورة الناطقة دون منازع ، وصوره الأدبية دقيقة محدّدة ، لا يكتفى بأن يقول إنّ صاحبته رقيقة ناعمة ، وإنما هى ناعمة بقدر لو جرت معه أنملة فوق ثوبها لأثرت فى بشرتها . وعيون بقر الوحش ملقى حول خيامهم ، انقلبت فظهر منها بياضها وسوادها ، لا تشبه الخرز صنع عقدا ، وإنمــا تشــبهه جزعا لمّا يثقب . ومع الدقة والتحديد يترك جانباً خفياً لذكاء القارىء وخياله يزيد المعنى جمالا وإثراء . وإذا وصف حمارا وحشـــياً بأنه ثمين ، يعيش على أرض معشوشبة ، أشدّ ما تـكون خضرة حيث ينحنى الوادى ، هناك يطول نبتها حتى يساوى أشجار السدر ، لأنه ممر جيوش ذاهبة إلى القتـــال أو عائدة

منه ، وقف عند هذا الحدّ من الصورة ، وترك لقارئه أن يتخيل الصلة بين مرور الجيوش واخضرار المنحنى وارتفاع أشجاره[1] . وأكثر ما تكون صور امرئ القيس من تشبيه، وتزدحم قصائده بكل جميل منها ، ويأتى عنده عن طبع لا عن تعمّل ، وبعض ألوان التشبيه توجد عند سابقيه ، لكن معظمها من خلقه ، وعنده نجد أول صورة بلاغية لما يسميه علماء البلاغة بالتشبيه المقلوب، حين شبه البقر بالنساء[2] ، والتشبيه المقيد وأشرنا إليه من قريب[3] ، والتشبيه الملفوف ، وهى فنون من التصوير تبعه فيها الشعراء من بعده ، وغالى فيها المتأخرون منهم، وتأتى الاستعارة عنده بأقسامها ، تصريحية ومكنية وتمثيلية ، على نحو أقل ، وأكثر ما يستخدم من ألوان البديع الجناس والطباق .

وخياله واقعى ، ينبع من الحقيقة ويتناول المألوف ، فلا إحالة ولا غرابة ، ولا غموض ولا غلو، وهو يؤمن بالطاقة الخلاقة المبدعة عند الإنسان الفنان ، وبقدرته على أن يتفوق على صنع الطبيعة،فالمرأة جميلة عنده كتمثال صنعه فنان فى هكر ، وجبهة الفرس متسعة كظهر ترس حذّقه صانع مقتدر .

والمادة التى يصوغ منها صوره تتصل بالبادية ومظاهرها اتصالا وثيقاً ، كأسماء الأمكنة ، وبعر الأرام ، والنخلة ، والرئم ، والأساريع ، والذئاب ، والثعالب ، والحنظل ، وأوتاد الخباء ، والناقة ، وأشياء أخرى كثيرة ، لكنه لم يكن بدوياً مغرقاً فى البداوة ، وإنما كان نصف حضرى ، أو إن شئت الدقة كان متحضّراً فى البادية ، ومن هنا نجد أن بين مادته الأدبية ما ينم عن رقى وترف وثراء ، فلم يكن المسك أو الفلفل ، وكلاهما بعض مادته ، مما يعتاده

---

(١) انظر البيت رقم ٤ ص ٣١٥

(٢) » » ١ ص ٣٢٤

(٣) » » ص ٥٠٥

فقراء الناس ، ولم تكن البادية — عادة — مقصد تجار اليمن يحملون إليها الفاخر من الثياب ، وهو شديد الزهو بنعومة صاحبته وترفها ، فهى لا تصحو مبكراً لعمل المنزل ، وفى غير حاجة لأن تشقى من أجل لقمة العيش ، وقلّة مثله هى التى كانت تغدو إلى الصيد تتخذ منه رياضة ومتاعاً .

ويلحظ الناقد أن امرأ القيس محايد للغاية فى تصوير ماعرض له من مظاهر الطبيعة المختلفة ، صوّرها مادياً ، فوصف شكلها ولونها وحركاتها ، وأبان لنا اتجاهات المطر القاسية الجافية حيناً ، الهادئة الخيّرة أحياناً ، وأنه جلس وصحبه يتأمّلونها ، دون بادرة أخرى يصور فيها شعوره الشخصى وموقفه النفسى ؛ وانفعاله الوجدانى بما رأى وأحسّ وصوّر ، كأنه لا يهدف من شعره غير التصوير .

وإذا كانت بعض صوره الأدبية مما لا يسيغها الذوق المعاصر ، فيعجز مثلا أن يجد علاقة وثيقة بين حركة البرق ولمع اليدين ، فإن بقية الصور ، وتمثّل الجانب الأكبر من إبداعه ، احتفظت بحيوتها على امتداد قرون طويلة ، حين يصور تأثير صوت النامى فى القلوب والأسماع بأنه أعلى صوتاً وأشد فاعلية من ضجيج جيش لهام ، أو نحر المرأة رقيقاً مصقولا يتلألأ صفاء كأنه المرآة ، أو تصوير الجبل جلله المطر وعرّقه ولفّه ، فلا تبدو غير قمته بأنه أشبه بشيخ اشتد عليه البرد ، فازداد فى عباءته التفافاً ، وبها التصاقا .

كذلك يلحظ النقد الحديث أن قصائد امرىء القيس لا تجرى على سنن المنطق ، فالقصيدة الواحدة تتناول أكثر من قضية ، وتضم أكثر من موضوع ، ويعرض الشاعر فيها لكل مايقع فى خاطره كيفما اتفق وهى بهذا تفتقد الوحدة العضوية ، أى وحدة الموضوع ووحدة المشاعر التى يثيرها الموضوع ، ومايستلزمه

ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيباً تتقدم به القصيدة شيئا فشيئا ، حتى تنتهى إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور ، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفته فيها ، ويؤدى بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل فى الأفكار والمشاعر .

وذلك ناتج — فيما أرى — من احتمال أن القصيدة الواحدة ليست إلا مجموعة مختلفة من القصائد ، ذات بحر واحد وقافية واحدة وروى واحد ، ضاع من كلٍّ شىء ، وحفظ الرواة من كلٍّ بعضاً ، أو أن الفجوات القائمة بين عناصر القصيدة المختلفة كانت تربطها أفكار ضاعت عبر الزمن الذى كانت تروى فيه شفاها ، أو أنها مجموعة من الخواطر المتناثرة ، صاغها الشاعر نفسه ، على فترات متباعدة ، فكان لكل واحدة منها جوها النفسى الخاص وتسلسلها المستقل .

ولدينا إشارة موجزة وهامة ، أوردها ابن رشيق فى كتابه « العمدة » ، ولم يلتفت إليها أحد من الدارسين المحدثين ، وتلقى ضوءاً كاشفاً على القضية ، مؤداها أن أبيات وصف المطر فى معلقة امرىء القيس(١) ، المبدوءة بـكأن كانت تتوارد فيما بينها معطوفة بالواو ، وأن الرواة هم الذين أسقطوها ، فهل كانت شهرة امرىء القيس سبباً فى إقبال الناس على رواية شعره وإفسادها ؟ يخيل إلى ذلك ، لأن أطول قصائد عمرو بن قميئة ، وصلت لنا ذات وحدة متماسكة ؛ وتدور حول موضوع واحد(٢) . وغريب أن يكون هذا عند عمرو ابن قميئة . ولا يثير انتباه امرىء القيس ، فيسير على نهجه ويحتذيه .

---

(١) انظر ص ٣٤٧

(٢) انظر ص ٢١١ وما بعدها .

وبعض القصائد مبتسرة ، تسير في البدء على النهج الذى يحتذيه امرؤ القيس ، من مقدمة طللية ، ثم وصف الناقة ، وبيت واحد عن السيف يتوقف عنده فجاءة[١] . والقصائد غير المصرعة ربما كانت أجزاء من قصيدة ، أو أن أولها ضاع ، أو بُتِر ، أو نقل إلى مكان آخر يتفق معها وزناً وقافية ، وأغلب القصائد القصيرة غير مصرعة ، رغم أنه قالها ناضجاً مجرباً فى أواخر حياته .

والأبيات التى تتكرر كاملة ، ولا تختلف إلا فى الكلمة الأخيرة التى تتوقف عليها حركة الروى ونوعه ، وتتفق فى البحر ، والمعنى فيها كلها واحد يبدو أنها كانت تند من الراوى ، فإذا حار معها وضعها فى أى قصيدة من بحرها وأكملها بالكلمة التى تتفق مع حركة الروىّ ونوعه ، وأستبعد أن يكون امرؤ القيس ، وكان شاعراً مجّودا يصنع شعره ، ويتأمله ويراجعه ، يكرر نفسه ، فذلك أشق شيء على الفنان[٢] .

والموسيقى الداخلية فى الأبيات تتناسب على نحو رائع مع الأحداث عنفاً أو ليناً ، فحين صور المطر عنيفاً كاسحاً جارفاً يقلب الأشجار الضخمة العالية رأسا على عقب استخدم الأفعال : يسح ويكب ، والكلمات : على الأذقان ، والدوح ، والكنهبل ، وعندما هدأ المطر وخفت حدته ، وتسربت بقاياه إلى مكان آخر ، فلم تصنع غير اقلاق الوحش فى مرابضه استخدم الأفعال : مرّ وأنزل ، والكلمات من نفيانه ، وهى ألفاظ موحية مشعة فى الحالين[٣] .

---

(١) انظر ص ٨٢ من ديوان امرىء القيس .
(٢) انظر هذه الأبيات وتعليق عليها ، ص ٣٣١ .
(٣) انظر ص ٣٤٧ .

ولغة امرىء القيس ، على غير ما يتوهم الكثيرون ، إذا بعدت عن الأسماء، ولا حيلة له فيها رقّت، وإذا تناولت ماهو مألوف ومتصور من حيوان أو جماد سهلت، وإنما تأتى الغرابة حين يلتقط صوره من بيئة غير مألوفة لنا . وكثير من كلماته متداول فى عامية الريف عندنا ، مثل : قارح ، وغيطان ، وحائل ، ونبات الربّة ، والتيْس، ورذِيّة ، والسّرْحة . وتعبير « على بالى » بمعنى موضع اهتمام منى ، ويستخدم لونًا من التشبيه مألوفًا وشائعًا عند بعض القبائل فى الصعيد الأعلى ، ولم أره عند شاعر غيره ، حين يجعل أداة التشبيه الفعل « تقول » ، فحصانه إذا انطلق ، وانبل جانبه من العرق ، سمعت له حفيفًا تقول هزيز الريح مرّتْ بشجر الأثأب .

ومعلومات امرىء القيس واسعة ، وكل ما يذكره من حيوان أو نبات ، أو شراب أو ثياب ، ينسبه إلى أحسن مكان شُهِر به ، ولدينا منه : وحش وَجْرة ، ونخل شوكان أو سُمَيْحة أو ابن يامن ، ونعاج تَبالة ، ودمى هَكِر ، وحمير عَمَايَة ، وخمر خُصّ أو عانة ، وكروم شِبام ، وغراس ابن معنق، وحقّة حِمْيرية ، وحوْك العراق ، ورحال الحيرة، وثياب أنطاكية .

وأوّل من فطن إلى جمال القصص الغرامية وأدرك جميل وقعها فى النفوس، فرواها فى ظرف ولباقة ، وقصها فى جرأة وصراحة ، وأدار فيها الحوار بينه وبين صاحبته ، وجعل من نفسه وشخصه مناط الحديث ومحوره أحيانًا ، وهو اتجاه تبعه فيه عمر بن أبى ربيعة ، وبلغ به القمة ، فعرف به وتوقّف عنده .

وصور امرىء القيس بصرية فى معظمها ، ولا يستخدم حاستى السمع والشم إلا فى القليل النادر ، ولا تنتشر الرائحة الجميلة فى شعره إلا من قيام ،

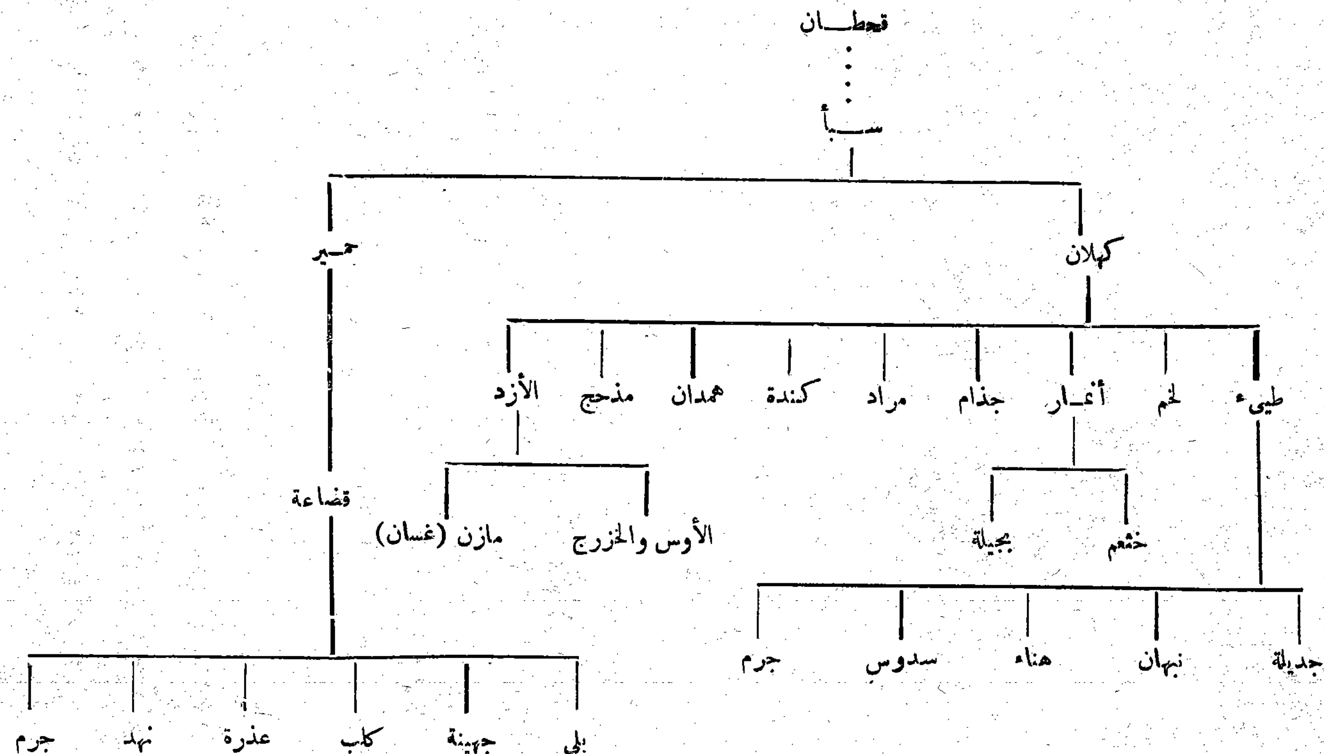
ولا تكون إلا كنسيم يحمل رائحة عود وبخور طورا ، ورائحة قرنفل طورا آخر .

كان امرؤ القيس شاعر نفسه ، انطوى داخلها وفاض عنها ، فلم يشارك فى مدح أو هجاء أو رثاء ، نعم إنه شكر من ساعده ، وذمّ من تخلّوْا عنه ، والفرق بين الشكر والمدح بيِّن ، الشاكر يفعل وبوسعه ألاّ يشكر ، والمدح يأتى سلفاً ويبقى صاحبه فى الانتظار طامعاً .

لقد ترك امرؤ القيس من الأثر فى الأدب العربى مالم يتركه شاعر عربى آخر ، وظل الشعراء يعيشون على أفكاره وصوره أمداً طويلا ، وحتى أيامنا هذه،فلعل فى هذه الدراسة بعض الوفاء له ، وإنّهالدونه وإنّه لأكبر منها.

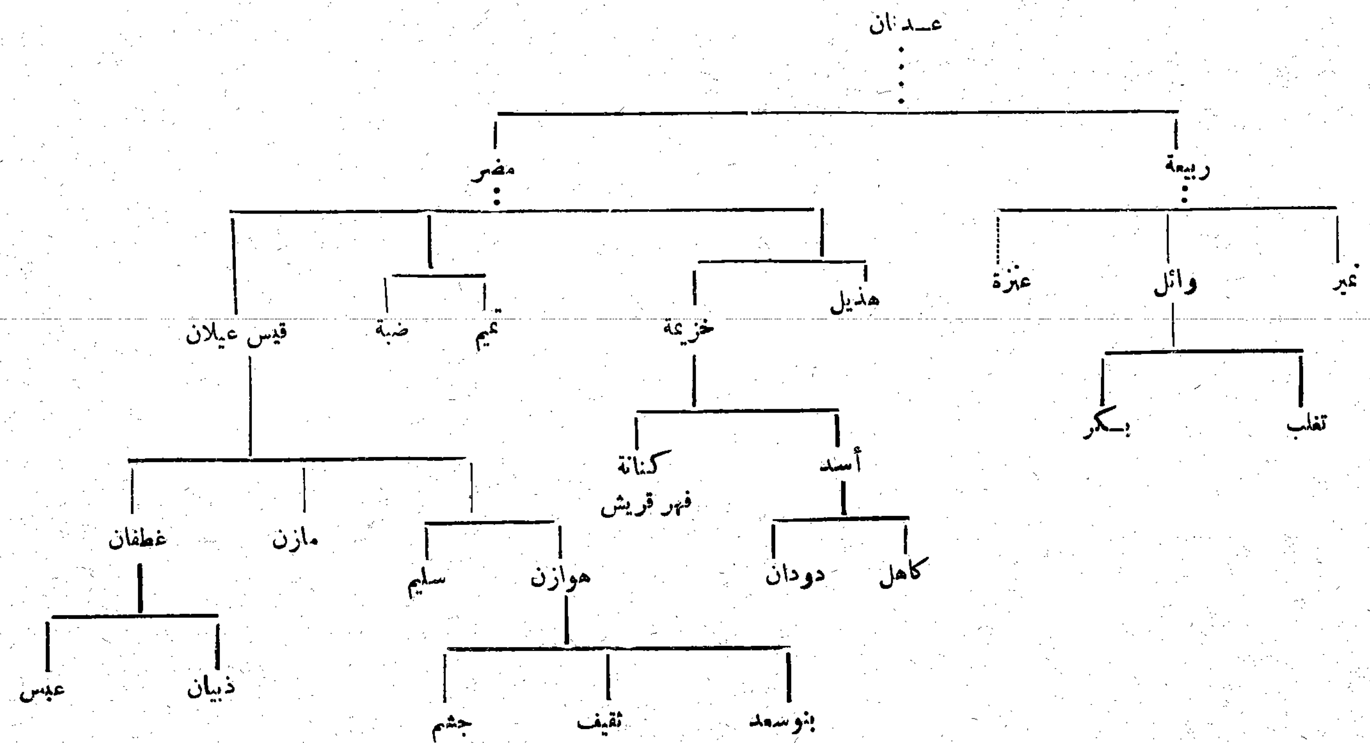
الأنساب القحطانية

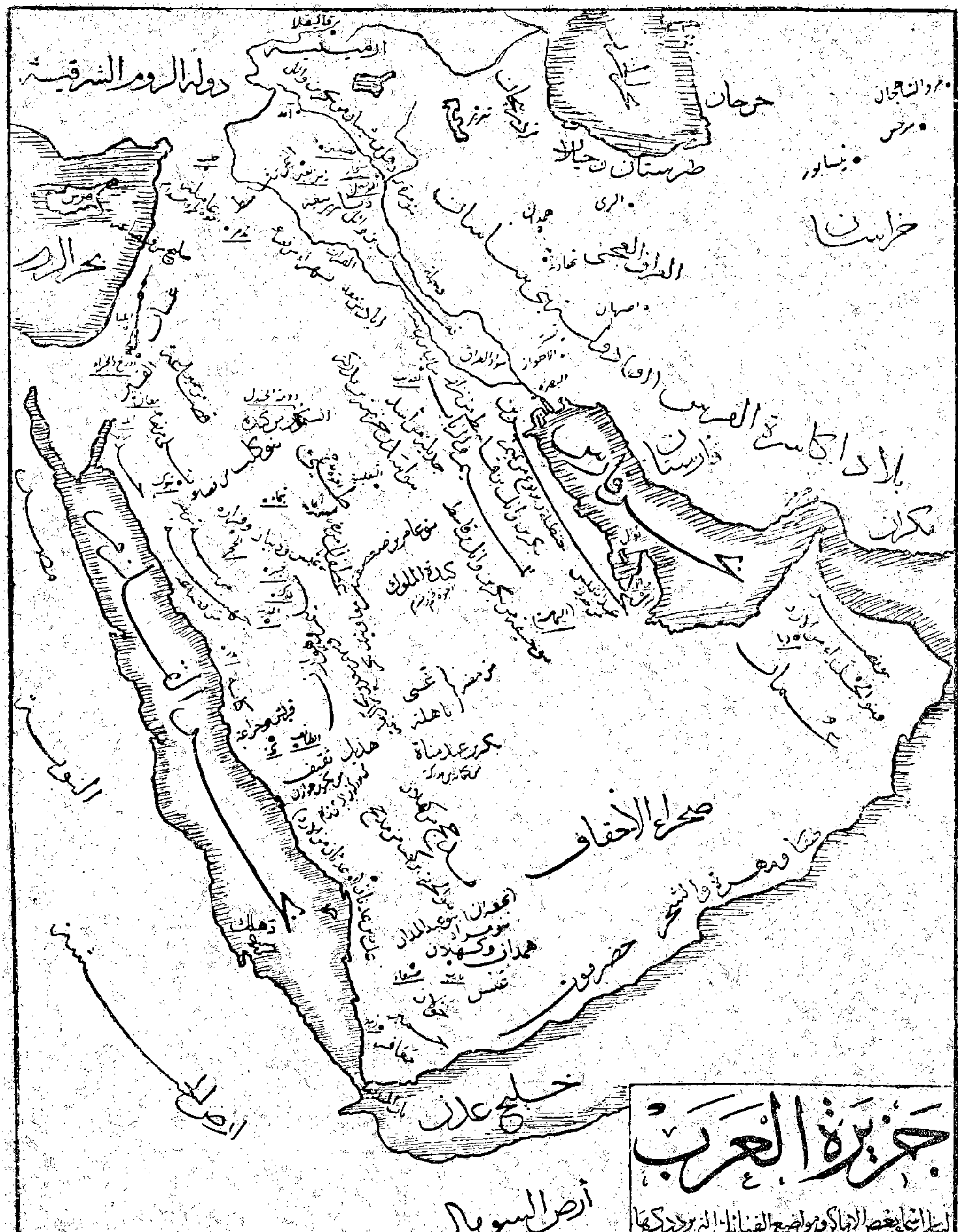
(كبريات القبائل) :



الأنساب العدنانية

(كبريات القبائل) :




جزيرة العرب
لبيان اسماء بعض الاماكن ومواضع القبائل التي ورد ذكرها
في تاريخ الفتح الاسلامي
دولة الروم الشرقية
جرجان
طبرستان وجيلان
خراسان
نيسابور
الري
همذان
اصبهان
العراق العجمي
بلاد اكاسرة الفرس
فارس
فارسستان
مكران
الاحواز
البصرة
عمان
كندة الملوك
غنى
باهلة
هذيل
ثقيف
نجران
همدان
عنس
صحراء الاحقاف
حضرموت
خليج عدن
أرض السودان

١ — **المصادر** :

الآمدى ، أبو القاسم ، الحسن بن بشر : الموازنة بين الطائيين .

الأصفهانى ، أبو الفرج ، على بن الحسين بن محمد الأموى :

الأغانى ، طبعة دار الكتب المصرية ، و بولاق ، والساسى .

الأصمعى ، أبو سعيد ، عبد الملك بن قريب :

الأصمعيات ، بتحقيق الأستاذين عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر .

تاريخ العرب قبل الإسلام تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، بغداد ١٩٥٩ م

الأعشى ، ميمون بن قيس : ديوانه ـ شرح محمد حسين .

البطليوسى ، أبو محمد ، عبد بن محمد بن السيد :

الانتصار ممن عدل عن الاستبصار ، تحقيق الدكتور حامد عبد المجيد .

البغدادى ، عبد القادر بن عمر :

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، المطبعة السلفية ١٣٤٧ هـ .

البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، مصر ، ١٩٠١

التبريزى ، أبو زكرياء ، يحيى بن على :

١ — شرح القصائد العشر ، المطبعة المنيرية ، ١٣٥٢ هـ .

٢ — شرح الحماسة ، تحقيق محمد محيى الدين ، المطبعة التجارية .

الجاحظ ، أبو عثمان ، عمرو بن بحر بن محبوب :

١ — البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، ١٩٢٧ .

٣ — المحاسن والأضداد ، طبعة الخانجى ، ١٣٢٤ هـ .

حاتم الطائى : ديوانه ، لندن ، ١٨٧٢ ، ضمن مجموعة .

حاجى خليفة ، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبى :

كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ،مصر ١٢٧٤ هـ .
ابن حزم ، أبو محمد ، على بن سعيد .
جمهرة أنساب العرب، تحقيق ليڤى بروڤنسال ،دار المعارف بمصر،١٩٤٨
أبو حنيفة الدينورى ، أحمد بن داود : الأخبار الطوال .
ابن رشيق ـــ أبو على ، الحسن بن رشيق القيروانى :
العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .
الزبيرى ـــ أبوبكر ، محمد بن الحسن :
طبقات النحويين واللغويين،تحقيق أبو الفضل ابراهيم،القاهرة١٩٥٤
الزبيرى ـــ أبو عبد الله ، المصعب بن عبد الله بن المصعب :
كتاب نسب قريش ، تحقيق ليڤى بروڤنسال ـــ دار المعارف .
زهير بن أبى سلمى : ديوانه ، دار الكتب ، القاهره ١٩٤٤ .
الزوزنى ـ أبو عبد الله ، الحسين بن أحمد :
شرح المعلقات السبع ، طبعة التجارية ، القاهرة ١٩٣٨ .
أبو زيد القرشى ـ محمد بن أبى الخطاب : جمهرة أشعار العرب، بولاق، القاهرة .
السجستانى ـ أبو حاتم، سهل بن محمد: كتاب المعمرين، الخانجى، القاهرة ١٩٠٥ .
ابن سلام ـ محمد بن سلام الجمحى :
طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة.
ابن الشجرى ـ أبو السعادات ، هبة الله بن على بن محمد بن حمزة :
١ ـ مختارات شعراء العرب ، القاهرة ٢ ـ الحماسة، الهند، ١٣٤٥ هـ.
طرفة بن العبد : ديوانه ، طبع شالون ١٩٠٠ م .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٠ .
القالى ـ أبو على ، إسماعيل بن القاسم : الأمالى ، دار الكتب المصرية .
ابن قتيبة ـ أبو محمد ، عبد الله بن مسلم : الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد

محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة، الطبعة الثانية،١٩٦٧ .

المبرّد ـ أبو العباس ، محمد بن يزيد : الكامل ، طبع ليبزج .

المرزبانى ـ أبو عبيد الله ، محمد بن عمران : الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٣ هـ . ومعجم الشعراء ، تصحيح كرنكو ، القاهرة ١٣٥٤ هـ .

المفضل بن محمد الضبى : المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون.

عبيد بن الأبرص : ديوانه ، دار المعارف ، القاهرة .

٢ — المراجع :

أ — فى اللغة العربية :

أحمد أمين : فجر الإسلام .

أحمد محمد الحوفى: ١ — المرأة فى الشعر الجاهلى ٢ ـ الغزل فى العصر الجاهلى

جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام .

سيد نوفل : شعر الطبيعة فى الأدب العربى .

شيخو ـ الأب لويس : شعراء النصرانية ، بيروت ، ١٩٢٦ م .

شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، الأدب الجاهلى .

عبد العظيم قناوى : الوصف فى الشعر العربى ، الجزء الأول ، العصر الجاهلى

عمر الدسوقى : ١ ـ النابغة الذبيانى ٢ ـ الفتوة عند العرب .

محمد خلف الله أحمد : من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده .

محمد صالح سمك : أمير الشعر فى العصر القديم .

محمد مبروك نافع : تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام .

محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث .

مصطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العرب .

ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية .

ب ـ في اللغات الأجنبية

Basset (R.) :

La Poésie arabe antéislamique; Paris, 1880; 1 Vol.

Blachère (R.) :

Histoire de la Littérature Arabe, des Origines á la fin du XVe siécle de j. — c., Paris 1952—1964, 2 Vol.

Bousoño (C.)

Teoria de la expresion poética, Madrid, 1962.

Dhorme (E.) :

Langues et Écritures sémitiques, Paris, 1930.

Huart (CL.) :

Histoire de la littérature Arabe, Paris, 1903.

Kayser (W.) :

Interpretacion y analisis de la obra literaria, Madrid 1958.

Kiernan (R. H.) :

L' Exploration de l' Arabie, Paris, 1938.

Marañno (G.) :

Vida e Historia, 7a edicion, Madrid, 1958,

Ortega y Gasset (J.) :

Estudios Sobre el amor, 11a edicion Madrid, 1958.